الشيخ
أكرم كسَّاب

المنهج الدعوي عند القرضاوي

مواهبه وأدواته، وسائله وأساليبه، سماته وآثاره

تقديم

الدكتور عبد العظيم الديب　　　الشيخ عبد السلام البسيوني

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب:
المنهج الدعوى عند القرضاوى
الطبعة: الثانية
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م
اسم المؤلف: الشيخ أكرم كساب
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة.
٥١٦ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٢٢٢٤٣
الترقيم الدولى : I.S.B.N.
977-17-4032-6

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

* إلى والدي : أبي وأمي .
* إلى زوجتي وابنتي «سندس» و « أريج » .
* إلى كل داع إلى الله .
* إلى كل داع يريد الإسلام بشموله، ويبحث عن الشرع ووضوحه ، والشريعة ويسرها، والدين ومقاصده .
* إلى من يريد الاهتمام بالأصول قبل الفروع ، والكليات قبل الجزئيات، والمتفق عليه قبل المختلف فيه .
* إلى من يريد خطبة جامعة ، وكلمة رصينة ، وأسلوباً أدبياً ، ومنطقاً سلساً، وأسلوباً عذباً ، وشعراً رقيقاً ، وفتوى مؤصلة ، وصدراً رحباً ، ولساناً عفاً، وسيرة نقية، ومنهجاً واضحاً ، وخلقاً كريماً ، وهمة عالية .
* إلى من يريد أن يتعرف على ماضي أمته، وواقع ملته، ومستقبل شريعته.
* إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الدكتور / عبد العظيم الديب

بسم الله وحده ولا شيء معه أبداً .

نحمده سبحانه وتعالى ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد ، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد ، وعليك توكلنا، وإليك أنبنا وإليك المصير.

اللهم صل وسلم على صفوتك من خلقك وخاتم رسلك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(وبعد)

فإن الله سبحانه حافظ قرآنه ، وناصر دينه ، وعد بإتمامه وإظهاره على الدين كله، وحمّل أمتنا شرف هذه الرسالة ، التي أحسنت أداءها ، وفادت بها الدنيا ، نحو ألف عام، نعمت فيها البشرية بالأمن والأمان ، والسلامة والإسلام .

ثم قضت سنة الله في مداولة الأيام، أن تتنحى عن الطريق ، وأن تضطرب أمامها الرؤية، ولكنها أبداً لم تمت، ولن تموت ، فهي دائماً تتجدد. وإن الناظر في حالها الآن، والمتأمل في أمر شبابها، يعجب كيف خرج شباب هذه الصحوة من بين فرث ودم، إن هذا الشباب الذي استعصى على كل ذرائع المسخ والتشويه، ولم يخلب لبه ما زخرفوه من أباطيل (التنوير) ، وخرافات (الثقافة العالمية) ، وأكاذيب (الفكر الإنساني). يا عجبا !! كيف استطاع هذا الشباب أن يفلت من هذا الكيد المحكم ، والتدبير الخبيث ، ويمد أصوله إلى القرآن والسنة، ويضرب جذوره إلى صميم ثقافتنا الإسلامية، هذا الشباب معجزة بكل

المقاييس ، فلم يصنعه أحد ـ كما يدّعون ـ ولكن الله هو الذي ألهمه رشده، وأبصره طريقه، هذا الشباب هو أمل أمتنا، وهو عزاؤنا وعوضنا.

أحببت هذا الشباب ، وسعدت به ، وكنت دائماً أدفع عنه نقد الناقدين ، وألسنة المفترين ، اقتربت من هذا الشباب ، وعرفتهم حق المعرفة ، ورأيت فيهم خيراً كثيراً ، رأيتهم مستقبل هذه الأمة ، ونهضة هذا الدين ، وتوثقت صلتي ببعضهم ، وسعدت ببنوتهم، فقد كانوا فعلاً أبناء بررة .

وكان من هؤلاء الابن العزيز الشيخ: **أكرم عبد الستار كساب**، فقد رأيت فيه الأدب الجم ، يزينه حياء أصيل نبيل ، يحسن الاستماع ، ويحرص عليه، ولذا تجده قليل الكلام، لا يميل إلى اللغو والفضول ، دائماً يحرص على العلم والتعلم ، ولذا بارك الله له في وقته؛ فأحسن الإفادة منه ، فظهر له بعض الأعمال الجيدة منها كتاب (**الصهيونية وخطرها على البشرية**) وكتاب (**مع المصطفى ﷺ في حجه**) وكتاب (**مع المصطفى ﷺ في ضحكه**) فدلت هذه الأعمال على عقلية مرتبة ، وقدرة مبتكرة ، وجاءت ـ فعلاً ـ صورة من صاحبها .

وهذا العمل الذي نقدمه اليوم،وهو أكبرها (**المنهج الدعوي عند القرضاوي**) وهو كتاب كبير في حجمه، كبير بموضوعه؛ فهو عن علامة عصرنا القرضاوي، أبحر أكرم في عالم القرضاوي، بذكاء ومهارة ، وقدرة وفن ، وقبل ذلك بإخلاص وحب، قرأ القرضاوي بوعي وفهم، واستخرج ضوابط وقواعد، وملامح وسمات؛ منهج الدعوة عند القرضاوي، وصاغ ذلك في فصول سبعة[1]، يسبقها مقدمة وتمهيد، وقعت في نحو سبعمائة صفحة أو يزيد.

وإن القارئ لهذا العمل سيجد جهداً علمياً خلاّقاً ، استطاع أكرم أن يستخرج من بين ثنايا السطور، وحنايا الفصول دررًا ولآلئ ؛ نظمها في عقد

---

(١) أصل الكتاب في سبعة فصول كما ذكر شيخنا، ولكن اكتفيت هنا بفصول خمسة، وبقي فصلان الأول بعنوان (مرتكزات القرضاوى الدعوية)، والثانى (جهات القرضاوى الدعوية)، وسيتم نشرهما على انفراد إن شاء الله.

فريد ، يشهد بقدرة بحثية ممتازة، وإن المنهج الذي اتبعه أكرم في تفصيل الكتاب ، ثم في ترتيب كل فصل ، ثم في نظم الأفكار وبنائها بعضها على بعض ، وحسن الاستدلال عليها –كل ذلك – يجعل هذا العمل جديراً بأن يكون أطروحة علمية ينال بها الدرجة التي ننتظرها له ، ولذا أوصيه بألا يعجل إلى نشره ، وأعتقد أنه سيجد ـ إن شاء الله ـ الجهة التي يشرفها أن تقبل هذا الموضوع ، ويقيني أنهم ـ أكادمياً ـ لن يكون لديهم كبير تعديل على هذا المنهج الذي ارتآه أكرم ، ولن يجدوا أفضل من الخطة التي اختطها أكرم . أرجو الله أن يأخذ بهذه المشورة إن شاء الله .

وبعد فهذا كتاب (**كريم من ابن كريم عن أخ كريم**)، لم أستطع أن أوفيه حقه في هذه الكلمة، فأضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يجزيه عني خير الجزاء، وأن يوفقنا وإياه فيما نستقبل من أمور ديننا ودنيانا ، إنه نعم المولى ونعم النصير.

كما أسأله سبحانه أن يعين أمتنا على أمرها ، وأن يسدد خطاها ، وأن يعيدها إلى رشدها ، فتستمسك بكتاب ربها وسنة نبيها ، كي تعود إلى مكانها ومكانتها، في قيادة البشرية، وهداية الإنسانية ، إنه سبحانه أكرم مسئول، وأعظم مأمول، وهو سبحانه بالإجابة جدير، وعلى إسعاف راجيه قدير. وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الدوحة في ٤ جمادي الآخرة ١٤٢٥ هـ
الموافق ٢١ يوليو ٢٠٠٤ م

أبو محمود عبد العظيم الديب

تقـــديـم

فـضـيلة الشـيـخ / عـبـد الـسـلام البـسـيـوني
الإمام الأكبر : يوسف القرضاوي – متع الله به

رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي

يقـول العقـلاء : إن المعـاصـرة حجـاب ، يحـول بين النـاس وبين تقـدير الرجل العظيم ، وإدراك جوانب تميزه وعظمته .

وهذا حق ، لكنه ليس الحق كله فيـمـا أحـسـب ؛ فـدون القـرضـاوي الفخيم حجُبٌ عديدة تحول بين بعض معاصريه ، وبين إدراك قيمته الحقيقية، ومنزلته التي هو جدير بها .

بينهم وبين الشيخ القرضاوي **حجاب المعاصرة** ، والرسّام يحب دائمًا أن تُرى الصورة عن بُعد ؛ لا أن يلتصق المتفرج بها ليرى ضربات الفرشاة ، وخطوط اللون على النسيج .

وبينهم وبين القرضاوي **حجاب العصبية** الذي يجعلهم لا ينظرون إليه بعين الرضا ، مهما رأوا من الخير منه ، ومهما فعل ما يعجز غيره عنه ، ومهما وقف، ومهما أبدى، ومهما تصدى ! فإقدامه عند بعضهم تظاهر ، وعلمه تساهل، ومواقفه استعراض، واجتهاده ثورة على الثوابت وانتقاض !

وبينهم وبينه **حجاب الغباء** الذي يحول دون قراءته ، والتعرف إليه ، واكتشاف مكامن التفرد ، والإبداع ، والموسوعية فيه . فلا ميزان يرجعون إليه ، ولا معرفة لهم بالشيخ ولا بالذي أفاء الله عليه ، ولا منهج ينطلقون منه ، إنما هو ضيق العطن ، وسوء الظن ، واستباحة لحوم العلماء !

وبينهم وبينه **حجاب القصور** الذي يجعلهم يرون الصورة ناقصة ، فلا يلمحون منها إلا نتفًا وشذرات لا تحكي واقعًا ، ولا تغني من حاجة . فهو الذي تكلم في الغناء والحجاب – وبس – وكأنما الشيخ لم يبذل من عمره سبعين عامًا مباركًا ، في العلم والتعليم ، والدعوة والجهاد ، والحركة وأعمال البر ، وكأنه لم يُخرج من العلم دررًا ، ومن المؤلفات فرائد ، ومن الأشعار خرائد في سهولتها وجدّتها وحسن سبكها !

وبينهم وبينه **حجاب الكبر** الذي يجعلهم يبخسون الناس أشياءهم ، ويغمطون الناس أقدارهم ، ويتسورون منازلهم وحرماتهم . فأحدهم يضعفه – وغيره – ويتتبعه ، ويصحح له ، ويرى نفسه رجلاً ويرى القرضاوي – في أحسن تقدير – رجلاً مثله ، ولا يبالي أن يجهر بالكلمة الفاضحة : **هم رجال ونحن رجال !**

وبينهم وبينه **حجاب التربص والإرصاد** ، الذي يجعلهم يقلبون خيره شرًا ، ويجعلون حسنته سيئة ، وسبقه تأخرًا ، واجتهاده هباءً منثورًا !

وبينهم وبينه **حجاب الأحكام المسبقة** ، والآراء المستنسخة ، وغياب المحاكمة العقلية ، والضعف عن قراءة الواقع ، والإدراك الكلي للأشياء !

وما أعظم الله الذي قال : (**ويل للمطففين**) ، والذي أمر : (**ولا تبخسوا الناس أشياءهم**) ، وما أعظم المصطفى الذي قال : [**ليس منا من لم ..... ويعرف لعالمنا حقه**] !

فمن للأمة برجل كالعلاّمة القرضاوي جمع أجزاء الصورة سنًّا ودربة ، وعلمًا وخبرة ، وممارسة وموهبة !؟

إيتوني بمثله من الدعاة في القرن العشرين ؛ بخلطته العجيبة النادرة !

إيتوني برجل جمع في إهابه الفقيه والمحدث ، والداعية والمرشد ، والمثقف والأكاديمي ، والعالم والإعلامي ، والشاعر والناثر ، والناقد والرائد ، والمحاور والمناظر ، والمعلم والحركي ، والتاريخي والواقعي والمستقبلي !

إيتوني بشيخ – تبارك الوهاب المنان – بمثل ذاكرته ، ومثل حفظه ، ومثل يقظته ، ومثل موسوعيته ، ومثل خبرته ، ومثل تطوافه ومواهبه ، ومثل سرعة بديهته وقوة عارضته .

إيتوني بشيخ من الشيوخ جاب الأرض من أقصاها لأقصاها ، وخبر الدنيا وحلب أشطرها ، وعصرته المحن وصهرته الخطوب ، وعرف الحياة حنظلةً مريرة وسكّرةً حلوة !

إيتوني برجل له مثل أولياته ومشروعاته ، ورياداته ومؤلفاته ، وغزارته وتدفقه ، وانصرافه عن السفاسف للمعالي ، وعن الوهاد للقنن !

سيقول السفهاء : ما لك تغلو ، وتبالغ ، ولا تنظر إلا بعين الرضا ؟! ما لك سميته الإمام ، وجعلته فوق الأنام ؟!

سيقول السفهاء : ما لك جعلته كأنه الأوحد الفذ ، الذي لا نظير له ؟!

وسأقول حالفًا حلفة واثق : ما أزكي على الله أحداً ، لكنني أحسبه والله حسيبه ، وما أغلو ولا أبالغ ، وما لي مصلحة ولا أرب ؛ فأنا وإن كنت – أزعم – من أقرب الناس منه ، من أبعد الناس عنه ، وفضيلته يعلم أن **(راسي حجر)** وأنني صاحب استقلالية تامة في رأيي ودعوتي ؛ لم أنْتَم يومًا لشيء ، ولم أغل في شيخ ولا لافتة ؛ فإن دأبي الولاءُ للإسلام ذاته ، ومنهجي حب المسلمين كلهم ، وحب العلماء كلهم ، وتقدير العظماء كلهم .. هكذا علمني العظيم **محمد المختار الشنقيطي الكبير** عليه رحمات الله ورضوانه ، وهكذا نُشِّئت في الأزهر ، وهكذا تلقيت من علماء الحرم ..

يعلم الله أنني ما أغلو وما أبالغ .. لكن للأعلام الذين أثروا فيّ شأنًا آخر ، فهم أصحاب فضل ، وأصحاب يد ، وأصحاب تمكّنٍ في القلب والضمير .

وللقرضاوي – الذي أثّر فيّ ما لم يؤثر غيره – شأنٌ آخر ؛ لذا **لا أفتؤ أذكر يوسف** ، ولا أملّ أعلن حبه – وأسأل الله تعالى أن ينفعني ذلك – فهو أهل للحب ، وأهل للإكبار والثناء !

وحبي له ليس ذلك الحب التعصبي الذي يُعمي ويصم ؛ بل هو نابع من مواقف ، ومن مشاهدات ، ومن ملاحظات ، ومن أشياء رأيتها أنا – وحدي أو مع غيري – فأنا شاهدٌ معاين ولست متعصبًا ، ولست راجيًا ولا راغبًا . بل كنت أولَ عهدي بالاستقامة – قبل نحو ثلث قرن – متحفظًا تجاهه شأن كثير من الشبان آنذاك ، حتى بدأت أقرؤه ، وأتأمل سعة واديه ومواهبه ، فانتبهت إلى الحجب الصفيقة التي تحول دون كثير من الشباب والانتفاع منه . ولكم كتبت في ذلك ونبهت إليه !

وقد كنت أظن نفسي بدعًا في حب القرضاوي حتى وقعت على أخي الكريم **الشيخ أكرم عبد الستار** ، فاتضح لي أن له سبحًا طويلاً في هذا المضمار، وأنه يحب الشيخ – مثلي وأكثر – ذلك الحب المستبصر ، الذي لا يدّعي عصمة، ولا يعرف غلوًا ولا إفراطًا؛ بل هو ذلك الحب البصير الرشيد ، الذي يزن الرجال، ويعرف الجوهر من الزيوف ، والماس من الزجاج ..

ولعل من المناسب هنا أن أشير إلى غلونا في المحبة وفي البغض بشكل قميء رديء ، لا نحب هَوْنًا ما ، ولا نبغض هونًا ما ، بل حبنا كلَفٌ، وبغضُنا تلف!! وهذا من أعظم أمراض الإسلاميين في هذا الزمان !

فكما يبغض القرضاوي أناس ، يغلو فيه آخرون ، وكما يحب غيرَه من العلماء أناس غلاة ، نجد بالمقابل من يكرههم ، ويتقرب إلى الله تعالى بالإساءة لهم ، فنحن – إذن – بين هلكى بالإفراط والتفريط ، بين غالٍ وقالٍ ، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم !

حب **أكرم عبد الستار** للشيخ هو ذلك الحب المستبصر، الذي لا يدعي عصمة، ولا يعرف غلوًا ولا إفراطًا؛ بل حب الذي رأى وشهد، فأحب وارتبط !

ولقد ترجم الشيخ أكرم هذا الحب عمليًا ، ولم يكتف مثلي بمصمصة الشفاه إعجابًا ، بل قرأ القرضاوي واستوعبه ، ورصد أعماله وأخلاقه وأولياته ، وهضم كتبه وإبداعاته وتجاربه ، وأحب أن يتمثل ذلك منهجًا له وأسلوب حياة

- وهو لذلك أهل - فأخرج لنا هذه الدراسة المستوعبة الدقيقة ، التي - على طولها - لا تُمل قارئها ، ولا تزعج متناولها ، ولا تفتؤ تضيف الجديد تلو الجديد لمن يقرأ هذه الدراسة الجميلة الرائقة للقرضاوي داعياً .

ولا أكتمك سراً قارئي الكريم أن الشيخ أكرم صحّح لي بعض معلوماتي القاصرة، وكشف لي بعض الجوانب التي كانت مجهولة لدي ، وأطلعني على بعض عيون الشعر الملتهب بالشاعرية والحماسة والغيرة والجرأة كنت أجهلها ، لأدرك كم جنى العلم على شاعرية الشيخ ، وحرمنا من شاعر يستطيع أن يتسنم الذروة لو شاء . وجعلني أدرك كم من المهم أن يتصدى أديب ناقد ليقرأ القرضاوي شاعراً ، على نحو تحليلي إبداعي ؛ ليجلي للناس جانباً جديراً بالتجلية والإبراز من شخصية الشيخ العظيم .

دراسة الشيخ أكرم دراسة محب جمّاعة ، ومحلل مستوعب، ومنصف متوازن، لاحَظ التميز الدعوي، والتفرد الذي أهّل القرضاوي ليكون - في رأيي - الإمام الأكبر، والداعية الأول في القرن العشرين والذي بعده دون منازعة؛ لما حباه الله به من عطايا ، تتجلى في كتبه ومؤلفاته ، ومحاضراته ومناظراته ، وبرامجه ومؤتمراته ، وأشعاره وأسفاره، ومراكزه العلمية ومناصبه الدعوية ، وثناء الناس عليه، وآراء العلماء فيه ، و ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ !

ولا أكتمك سراً ثانياً - لكن لا تبح به من فضلك قارئي الكريم - أنني أرى في الشيخ أكرم إرهاصاً بباحث كبير ، وداعية موهوب ، وعالم متوازن ، ومسلم جميل يحيا عصره بعيون مفتوحة ، وقلب يقظ ، وحب لله ورسوله - أحسبه والله حسيبه ، ولا أزكيه على الله تعالى - وأن المأمول من مثله كثير كثير، لذا فأوصيه بعد تقوى الله تعالى أن يفيد من القرضاوي الدأب ، وطول النفس، والاستغراق في العلم والعمل والكتابة ، والمحافظة على الدقائق بل الثواني، واقتحام كل الميادين النافعة ؛ لعل القرضاوي يدوم لنا به وبأمثاله .

وأهم من هذا كله أن يفتح قلبه - **كمان وكمان** - للمسلمين كلهم، وللعلماء كلهم ، وللطيبين كلهم ، وأن يتأكد أن الأمة مهيضة الجناح تحتاج أمثاله ليبصِّروها ويأخذوا بأيدي أجيالها ، عسى الله تعالى أن يُنهضها من عثار، ويفكها من إسار .

ولا نزال أيها الباحث الموفق في انتظار البديع من المؤلفات ، والجديد من الأفكار، والغني من الطروحات .

نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يحفظ العلامة القرضاوي ويمتع به، وأن يحفظ علماء الأمة ومناراتها ، وأن يبارك في الأخ المبارك الشيخ أكرم عبد الستار وقلمه ، وأن يغفر لنا ويتوب علينا ، وأن يقدر لهذه الأمة أمر رشد ، وينفخ فيها من روحه ، فتعود كما يؤمل منها ؛ إنه على ما يشاء قدير . .

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

عبد السلام البسيوني

الدوحة في: ١٩ جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ

الموافق ٧ يوليو ٢٠٠٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، علم القرآن ، خلق الإنسان، علمه البيان؛ أحمده سبحانه كما يحب ويرضى ، وأصلي وأسلم على إمام الدعاة، ومعلم البشرية الخير، محمد صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين المباركين.

وبعـــــد :

فإن تاريخ هذه الأمة مليء بالأعلام الأفذاذ ، وذاخر بالدعاة الأفراد، وإن رحم هذه الأمة رحم ودود ولود، لا يبخل أن يجود في كل زمن بعلماء ربانيين ، ودعاة عاملين؛ يواجهون بعلمهم جهل الجاهلين، ويردون بحججهم كيد الكائدين، ويرمون ببرهانهم شبهات المتطاولين، ويسكتون بحقهم أفواه المتطاولين.

وأحسب الشيخ القرضاوي ـ حفظه الله ـ واحداً من هؤلاء ـ أحسبه كذلك ولا أزكيه على الله تعالى .

ولكـــن :

الحق الذي لا مراء فيه أن واحداً من الناس أياً ما كان لن يجمع عليه البشر قاطبة ، والشيخ القرضاوي واحد من هؤلاء الذين اختلف الناس فيهم بأحكامهم ـ ولا يزالون مختلفين ـ فلئن كان من الناس من جعل الشيخ القرضاوي إمام عصره، ووحيد دهره، فإنني على يقين من أن آخرين يود أحدهم لو أصيب بالجرب ، أو يبتلى بالعمى؛ ولا يسمع للقرضاوي ذكراً ، ولا يرى لكتبه انتشاراً، وأقسم غير حانث أن أحد الشباب جاءني بشريط لأحد الدعاة ـ ممن يشار إليه بالبنان ـ وكان مما قال : والذي أدين الله به: أن القرضاوي داعية إلحاد ، وأنه إن

لم يكن ماسونياً فهو خادم للماسونية ؛ هكذا والله .. وهؤلاء وإن كانوا قلة لكنهم موجودون .

● **إذن فلماذا أكتب عن القرضاوي ؟**

ومع هذا فإن الكتابة عن القرضاوي وأمثاله من الدعاة الربانيين حق على هذا الجيل وغيره من الأجيال المتلاحقة؛ لأسباب سيعرفها قارئ هذا الكتاب إن شاء الله ، ولم يكن في حسباني أن أكتب عن الشيخ يوماً ما ؛ ويرجع السبب في ذلك إلى قناعتي بأن للشيخ أبناء كثر، وفيهم من هو أجدر مني بالكتابة عن الشيخ، إما لكبر سنه، أو لكثرة علمه، أو لقربه من الشيخ ، أو لهذه الأسباب كلها .

وقد رأيت أن الكتابة عن الشيخ في هذا الوقت واجب لأسباب منها :

١ ـ أن الشيخ علم من أعلام الدعوة المبرزين، وهؤلاء من حقهم على أبناء الصحوة أن يوفوهم حقهم .

٢ ـ أن القرضاوي والحق يقال : يستحق الكتابة عنه، لأنك حين تذكره لن يخطر ببالك شخصية واحدة ، ولا رجل واحد ، وإنما سيخطر ببالك رجال كثر ، وشخصيات متعددة، لكل واحد منهم قدره ، ولكل شخصية قيمتها ، نعم إنك ستذكر القرضاوي الفقيه العالم ، والأصولي الماهر، والداعية الرباني ، والشاعر الحاذق ، والكاتب المتمكن ، والأديب الحق ، والمحاور المتمكن ، والمناظر الفذ ، والخطيب المفوّه ، والرجل الخلوق ، والحركي الخبير بأحوال أمته واقعها وماضيها ومستقبلها . نعم إنه يخطر بالبال هذا كله، لأنه رجل موسوعي كبير.

٣ ـ أن الشيخ في الفترة الأخيرة تعرّض لحملة شرسة ، وحرب ضارية، شنّها على الشيخ أعداء كُثر بعضهم لجهلهم ، وآخرون لحقدهم، وربما جمع آخرون الجهل والحقد معاً ، فضلاً عن العداوة لكل ما يرتبط بالإسلام . حتى رأينا من دبّجوا مقالات حمراء ، عبر الصحف الزرقاء ، من أصحاب النوايا الصفراء ، والقلوب السوداء .

٤ ـ أنني وجدت أن أصحاب الباطل وأهل الأهواء ، يرفعون من سادتهم ، ويكتبون عن أئمتهم، فإذا جاز لأهل الباطل من الماركسيين والقوميين والشيوعيين وغيرهم أن يكتبوا عن أعلامهم ؛ أفلا يحق لنا أن نكتب عن أعلام الهدى ، ومصابيح الدجى ؟!

٥ ـ قلة ما كتب عن الشيخ؛ فحسب علمي لم يُكتب عن الشيخ في الجانب الدعوي شيء ذو بال .

٦ ـ أن الشيخ يمثل قطاعاً عريضاً من شباب الصحوة الإسلامية « التيار الوسطي » وهذا الجيل « جيل النصر المنشود » من حقه أن يتعرف على « منهج القرضاوي الدعوي » فإن لم ييسر له أن يقرأ كل ما كتب الشيخ فقد يكون في هذا غنية . والله أعلم .

لهذه الأسباب وغيرها أقدمت على الكتابة عن الشيخ .

وكنت أقدم قدماً وأؤخر أخرى ، وأصبحت متردداً ؛ أكتب أم لا ؟

ووجدتني بين الإقدام تارة وبين الإحجام تارة أخرى، لكنني على الله توكلت وبعد الإحجام تقدمت فكان العون من الله تعالى .

غير أن أمر الكتابة عن الشيخ القرضاوي أمر طريف وشائق ، ومع هذا فهو مخيف وشائك ؛ أما كونه طريفاً وشائقاً ؛ فلأن الكتابة عن الشيخ ـ وإن كان في اتجاه واحد « المنهج الدعوي » ـ سياحة في عشرات الكتب ، تربو عن المائة، وهي مع هذا كله سياحة في جميع نواحي العلم ؛ إنها إبحار في القرآن وعلومه ، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، واللغة وآدابها، والتاريخ وعبره، والتيارات وفرقها.

وأما كونه مخوفاً وشائكاً ، فلأن أي كاتب عن الشيخ سيقع لا محالة تحت وطئة التصنيف ، وهو أمر بغيض من جهتين :

الأولى : رجال الأمن الذين يتربصون بالإسلام وأهله من العلماء والشباب..

الثانية : شباب الصحوة المباركة ، فإنه وللأسف الشديد يوالي من والى جماعته، ويعادي من عادى جماعته .

ولكن هذا كله لا يمنع من قول الحق ، وإعطاء الشيخ حقه ، وهنا أردد قول الشاعر الكبير بهاء الدين الأميري :

الهول في دربي وفي هدفي — وأظل أمضي غير مضطرب
ما كنت في نفسي على خور — أو كنت من ربي على ريب
ما في المنايا ما أحاذره — الله ملئ القصد والإرب

● **الشيخ أتعبني :**

والحق أنني بدأت في هذا العمل منذ أكثر من عامين[١]، وكلما أحاول أن أنهي هذا الكتاب ؛ إذ بالشيخ يفاجئني لا أقول بكتاب واحد؛ وإنما بكتب متعددة ، ويكفي أن الشيخ له في كل « رمضان » ثلاثة كتب تنشر كلها أو بعضها ؛ على حلقات في الجرائد القطرية الثلاث « الراية، الشرق، الوطن » هذا فضلاً عن خطب الشيخ ومحاضراته ، وبرامجه التلفزيونية وندواته، بل سفره وإقامته، وغدوه ورواحه.

هذا وقد اكتفيت في هذا الكتاب على الجانب الدعوي للشيخ وأسميته «**المنهج الدعوي عند القرضاوي**» وقد شمل هذا الكتاب إهداء ومقدمة وتمهيداً وخمسة فصول[٢] وخاتمة وفهارس.

---

(١) في أثناء الكتابة كنت أنشغل بأعمال أخرى، وقد أكرمني الله بعدة أعمال أهمها :
١ - «التنصير : مفهومه - جذوره - أهدافه - أنواعه - وسائله - صولاته » ، وقد تقدمت به كبحث مكمل لنيل درجة الماجستير ، وجاري الإعداد لطبعه إن شاء الله .
٢ - «مع المصطفي ﷺ في حجه» نشر مكتبة وهبة.
٣ - «مع المصطفى ﷺ في ضحكه» وقد نشر جزء منه في جريدة الشرق القطرية في شهر رمضان لعام ١٤٢٤هـ.

(٢) أصل الكتاب سبعة فصول ولكنني اكتفيت بخمسة فصول فقط مخافة الإطالة على القارئ، وإن قدر الله سيتم نشرها قريباً إن شاء الله.

وأخيراً ؛ فلا أزعم ولا يستطيع غيري أن يزعم أن الشيخ القرضاوي قد بلغ الكمال في منهجه وهو كذلك ليس مبرأ من العيوب ، كما أنه ليس بالنبي المعصوم ، ولا بالملك المطهر ، ولا بالإنسان الكامل ، لكنه ـ كما أرى ويرى هو وكل الدعاة أنه ـ بشر يصيب ويخطئ ؛ وحسبه أن صوابه أكثر من خطئه، وأن حسناته تغلب على سيئاته، وأن ما له أكثر مما عليه؛ بل أحسب أن الشيخ بحر لن يعكره ما اختلط بمائه ، أحسبه كذلك والله حسيبه.

كما أنني لا أزعم أني وفيّت الشيخ حقه، ولا جئت بالكتاب على وجهه الأكمل ؛ ولكن حسبي أنني حاولت ، وبذلت قصارى جهدي بغية الكمال والتمام .

وختاماً فما كان من توفيق فهو محض فضل الله ، وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان ، ورحم الله رجلاً أهدى إليّ عيوبي ؛ وهذا هو حق الأخوة، وحق النصيحة، ولكن ليترفق بي كل ناصح في نصحه ، وليعي قول الشافعي رحمه الله :

تخولني بنصحك في انفراد وجنبني النصيحة في الجماعة

والله من وراء القصد ، وهو حسبي، وهو نعم المولى ونعم النصير.

الدوحة في: ٢٢ جمادي الأولى ١٤٢٥ هـ

الموافق ١١ يوليو ٢٠٠٤م

أكرم عبد الستار كساب

Akram_Kassab@Hotmail.com

تمهيد

● **تعريف بمفردات عنوان البحث :**

١ ـ تعريف المنهج : التعريف اللغوي : منهج الطريق : وضحه .

والمنهاج : الطريق الواضح .

والمنهج كالمنهاج .

وأنهج الطريق : وضح واستبان وصار منهجاً واضحاً بيناً [١].

ويمكن تعريف المنهج في الاصطلاح بأنه : النظام والخطة المرسومة للشيء[٢].

٢ ـ الدعوة : التعريف اللغوي :

لكلمة دعا معان متعددة منها :

ناداه ، طلبه ، ودعاه للشيء حثه عليه ، ودعا إلى الله أي إلى عبادته [٣].

أما في الاصطلاح فقد اختلف في تعريفها ويكاد يكون لها عند كل من كتب حولها تعريف واصطلاح ؛ فهي عند **ابن تيمية** الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا به [٤].

---

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور ج٢ ص ٣٨٣ . وانظر : المعجم الوسيط ج٢ ص ٩٥٧ .

(٢) انظر : المدخل إلى علم الدعوة د.. محمد أبو الفتح البيانوني ص ٤٥ ط وزارة الأوقاف القطرية ط الرابعة ١٩٩٧م .

(٣) انظر : لسان العرب ج١٤ ص ٢٥٨ ، تهذيب اللغة الأزهري ج٣ ص ١٢١ .

(٤) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج١٥ ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ط الرئاسة العامة لشئون الحرم .

وعـنـد **محمد الخضر حسين** : حث الناس على الخير والهدى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل[١].

وعند **أحمد غلوش** : العلم الذي به تعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى عقيدة وشريعة وأخلاقاً[٢].

وعند **محمد الغزالي** : برنامج كامل يضم في أطوائه جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم ، وليستكشفوا معالم الطريق التي تجمعهم راشدين[٣].

وعند **القرضاوي** : هي الدعوة إلى دينه ، واتباع هداه ، وتحكيم منهجه في الأرض، وإفراده - تعالى - بالعبادة والاستعانة والطاعة ، والبراءة من كل الطواغيت التي تطاع من دون الله ، وإحقاق ما أحق الله ، وإبطال ما أبطل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله . و بعبارة موجزة : الدعوة إلى الإسلام خاصاً متكاملاً ، غير مشوب ولا مجزأ[٤].

وعند **توفيق الواعي** : الدعوة إلى توحيد الله والإفراد بالشهادتين وتنفيذ منهج الله في الأرض قولاً وعملاً كما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ليكون الدين كله لله[٥].

ولعل أشمل التعريفات ما ذكره **محمد أبو الفتح البيانوني** جاعلاً الدعوة علماً له قواعده وأصوله فقال بأنه : مجموعة القواعد والأصول التي يتوصل بها إلى تبليغ الإسلام للناس وتعليمه وتطبيقه[٦].

٣ - المنهج الدعوي : ومن خلال تعريف المنهج والدعوة نستطيع القول بأن المنهج الدعوي عند شخص ما هو : النظام الدعوي المتبع والخطط العملية المرسومة للقواعد والأصول التي يتوصل بها إلى تبليغ الإسلام للناس أو تعليمه وتطبيقه .

---

(١) انظر : الدعوة إلى الإصلاح محمد الخضر حسين ص ١٧ .
(٢) انظر : الدعوة الإسلامية أحمد غلوش ص ١٠ .
(٣) انظر : مع الله محمد الغزالي ص ١٧ ط دار الثقافة ط ١٩٨٥م .
(٤) انظر : ثقافة الداعية يوسف القرضاوي ص ٣ .
(٥) انظر : الدعوة إلى الله - الرسالة ، الوسيلة ، الهدف توفيق الواعي ص ١٩ .
(٦) انظر : المدخل إلى علم الدعوة ص ١٩ .

الفصل الأول
القرضاوي : السيرة الشخصية والحياة الدعوية

١ - التعريف بالقرضاوي :

هو الداعية العلاّمة ، الفقيه المعلم ، الأصولي المفسر ، الحركي المربي ، الشاعر الأديب ، الداعية المرشد ، المثقف الأكاديمي ، الكاتب الناثر، العالم الإسلامي ، المحاور المناظر ، الناقد الناصح : يوسف بن عبد الله بن يوسف بن علي القرضاوي ، ترجع أصوله إلى بلدة تسمى « القرضة » التابعة لمحافظة كفر الشيخ .

٢ - مولده :

ولد الشيخ القرضاوي حفظه الله في غرة ربيع الأول سنة خمس وأربعين وثلاثمئة وألف من هجرة المصطفى ﷺ ، الموافق التاسع من ديسمبر سنة ست وعشرين وتسعمئة وألف (٩ / ٩ / ١٩٢٦ م) في « صفط تراب » إحدى قرى مركز المحلة الكبرى التابعة لمحافظة الغربية بمصر المحروسة .

وتعد « صفط تراب » هي « سفط القدور » التي دفن بها الصحابي الجليل عبد الله بن الحارث [1] آخر الصحابة موتاً بمصر سنة ٨٦هـ ، وقد ربط الشيخ بين القرية والصحابي الجليل بأبيات قال فيها :

بعبد الله أشرقت الروابي ... وبوركت السهول مع الهضاب

صحابيَّ الرسول جزيت خيراً ... عن الإسلام يا نعم الصحابي

---

(١) هو الصحابي الجليل عبد الله بن الحارث بن جزء بن عبد الله بن معدى كرب الزبيدى ، سكن مصر وتوفى بها بعد أن عمّر طويلا ، وكانت وفاته عام ٨٦ هـ ، انظر : الاستيعاب ابن عبد البر ج ٣ ص٨٨٣ ط دار الجيل ط ١٤١٢ هـ .

إلى أن قال :

وأسلم أهل صفط على يديكم ... ودانوكم بصهر واقتراب
وعشت بها ومت بها هنيئاً ... لها بك من جوار مستطاب
وحُقَّ لصفتنا بك أن تسمى ... بصفط التبرِ لا صفط التراب [1]

٣ - يُتْم مبكرا :

ولم يلبث والد الطفل يوسف أن وافته المنية ، وهو في الثانية من عمره ، فكفله عمه أحمد ، فكان له أباً حنوناً ، ووالداً عطوفاً ، وكان عمه أحمد رجلاً ملتزماً التزاماً فطريا كأهل القرى آنذاك ، يصلي الصلوات الخمس في المسجد ، وعلى الرغم من كون عمه أحمد فلاحاً ، إلا أنه كان يحكي له بعض القصص المسلية ، والألغاز المحيرة ، والنكات الضاحكة ؛ وهذا مما ينمي في الطفل الذكاء ويقويه .

وعاشت أم الطفل يوسف مع ابنها في بيت أبيه ، وكانت رحمها الله تعتني به كما تعتني الأم العطوف بولدها ، وظل الأمر كذلك حتى وافتها المنية وهو في الخامسة عشرة من عمره ، فأصبحت خالاته كلهن أمهات له بعد أمه ، وهو ولد لهن جميعاً .

٤ - القرضاوي في الكُتّاب :

يعد الكتّاب مزية من المزايا التي توارثها الريف المصري على مرور الزمن ، وهو أشبه بقاعة متوسطة لا بالكبيرة ولا بالصغيرة ، تعج بمئات الأطفال تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة إلى السادسة عشرة تقريبا، تتفاوت قدراتهم في الحفظ والتحصيل والفهم والذكاء ، فهم لذلك في عشرات المستويات، كل واحد منهم قد عكف على «لوحه»[2] أو انكفأ على مصحفه، مردداً أو مكرراً أو مراجعاً أو مرتلاً، ويستطيع المار على مسافة طويلة أن يسمع هدير التلاوة، لكنه

---

(١) انظر : «ابن القرية والكتاب» ج١ص ١٧، ١٨ .

(٢) عبارة عن قطعة من الخشب أو الألمونيوم أو غيرها يكتب عليها الطفل الجديد من الحفظ .

لا يستطيع أن يميز تلاوة من أخرى ، وخير ما يوصف به أنه دوي كدوي النحل ، تتخلله آهات مضروب ، أو استغاثة غير مجيد .

ولقد التحق الطفل يوسف بالكتاب ، وتعد هذه هي المرحلة الأولى من مراحل تعليمه ، حيث التحق بكتاب الشيخ « حامد أبو زويل » ، بعد هروبه من كتاب الشيخ « يماني مراد »، إثر ضرب الشيخ « يماني مراد » لجميع طلاب الكتاب لتنشيطهم ، وكان الطفل يوسف في أول المضروبين ، فقرر أن يكون من الهاربين .

بيد أن أمه رحمها الله ذهبت إلى كُتاب الشيخ « زويل » وأوصته به خيراً ، فحظى الطفل يوسف لدى شيخه بمعامله طيبة ، واستقبال حسن ، و أحسن الطفل يوسف بعد ذلك استخدام هذه المعاملة ، وهذا الاستقبال ، فاعفي بعدها من نفقات الكتاب « نصف قرش مصري » أسبوعياً ، لأمرين : أولهما : يتمه ، وثانيهما : نجابته .

وبدأ الطفل يوسف حفظ القرآن فبدأ الحفظ من سورة « الناس » « منكساً » ؛ وهي طريقة الكتاتيب عموماً ، ويستحسن الناس هذه الطريقة لقصر السور ، وسهولة حفظها ؛ تماشياً مع قدرة الأطفال والغلمان ، فلما أتمّ الطفل يوسف سورة « النجم » انتقل به شيخه إلى سورة « الأنعام » ، ومنها انطلق إلى سورة البقرة فلما ختمها أقيمت له حفلة صغيرة ، إذ أن ختم سورة « البقرة » يُسمى عند أهل الكتاتيب بالختمة الصغيرة .

ثم عاد الطفل يوسف ليبدأ من « الأعراف » حتى وصل إلى « الكهف » ، وأوقفه شيخه ليثبت حفظه ، ويطلق أهل الكتاب على هذا « مراجعة الماضي » ، وسافر الطفل يوسف مع عمه إلى القاهرة وانقطع عدة أيام ، توالت مع الخوف لتصل إلى عشرة شهور ، ، وأصر عمه أحمد بالعودة إلى الكتاب فعاد إلى أن أكمل القرآن كله[١] .

---

(١) انظر : المرجع السابق ج١ ص ١٢٢ وما بعدها .

٥ ـ القرضاوي في معهد طنطا الأزهري :

لما بلغ الطفل يوسف السابعة من عمره التحق بالمدرسة الحكومية ، وكان يواظب على الكتاب في الصباح ، والمدرسة في المساء ، واستطاع بهذا أن يجمع بين خيري الكتاب والمدرسة ، ولما أتم الطفل يوسف المرحلة الإلزامية ، انقطعت به السُبُل ، وظل حائراً يبحث عن مستقبل له .

وكان للطفل يوسف أمنية غالية ، وهي : دخوله الأزهر ، ولكن صورة «الأزاهرة» وقتها كانت له بالمرصاد ، فكان أحدهم يتخرج من الأزهر بعد دراسة استمرت خمسة عشر عاماً ، ليظل عاطلاً جليس « المصاطب » إلا من رحم ربك وقليل ما هم ، وظل الطفل مدة بين سفرات خاله التجارية حيناً ، وبين عمه وأولاد عمه في أعمالهم الزراعية حيناً آخر ، وفي يوم أرسل الله شيخاً معمماً طالباً منهم شربة ماء ، فلما شرب طلب منه العم أحمد أن يمتحن الطفل يوسف في القرآن ، فأعجب الشيخ المعمم من الطفل حفظه وتلاوته ، ثم أقنع عمه بالذهاب بيوسف إلى الأزهر وقد كان[١].

٦ ـ الظروف السياسية التي عايشها :

كانت ولادة الطفل يوسف في منتصف العقد الثالث من القرن المنصرم «العشرين»؛ وفي هذه الحقبة من الزمن مرت مصر وغيرها من بلاد الإسلام بأحداث جسام ، وأهوال عظام ، وكانت أولى هذه المصائب في أخريات القرن التاسع عشر ، حيث وقع العالم الإسلامي فريسة للاحتلال الغاشم، فوقعت الهند في عام ١٨٥٩م ، ومنطقة الخليج وجنوب شبة الجزيرة العربية في عام ١٨٤٩م ، ومصر في ١٨٨٢م ، والسودان في ١٨٩٨م تحت الاحتلال الإنجليزي.

وقامت فرنسا هي الأخرى باحتلال الجزائر في عام ١٨٣٠م ، وتونس في ١٨٨١م، ثم المغرب في ١٩١٢م .

وسيطرت روسيا على المجتمعات الإسلامية في وسط آسيا وهي أذربيجان

---

(١) انظر : المرجع السابق ج١ ص ١٤٧ وما بعدها .

وكازاخستان ، وأوزباكستان وتوركيستان ، وكزيخستان ، سيطرة تامة في القرن التاسع ، ولم يسلم من الاحتلال الروسي سوى اليمن والحجاز وإيران ووسط تركيا[1].

ثم كانت الفجيعة الكبرى عام ١٩٢٤م حيث سقطت الخلافة الإسلامية ، أو قل: أسقطت الخلافة الإسلامية ، وانفرط عقد الخلافة إلى دول بل إلى دويلات، ورثى شوقي وقتها إسقاط الخلافة فقال :

عادت أغاني العرس رجع نواح	ونُعيتِ بين معالم الأفراح
كُفّنت في يوم الزفاف بثوبه	ودفنت عند تبلج الإصباح
ضجت عليك منابر ومآذن	وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينة	تبكي عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس	أمحا من الأرض الخلافة ماحِ

في الآونة هذه؛ كانت مصر ترزح تحت احتلال غاشم كافر ، وقصر متسلط ظالم ، وملك ماجن خائن ، وفي أحسن أحواله منحل لاهٍ ، وصراعات سياسية بين أحزاب مادية متصارعة نحو السلطة، توجهها في الغالب منافع شخصية، أو طموحات مادية ، بعيدة كل البعد عن الوجهة الوطنية ، أو النزعة الإسلامية، إلا في القليل النادر .

وأصبح الشعب المصري لا يملك من أمره شيئاً ، ملك يخلع وغيره ينصب، وألقاب تذهب وأخرى تتجدد ، فتارة يولّى عليها ملك، وأخرى سلطان، وثالثة خديوي ، وهي لا تعرف ذلك إلا من الجرائد إن وجدت ، وفي الأغلب من العملات المالية التي لا تقع في يد الشعب إلا بعد الكد والتعب .

وقد استطاع الغازي أن يجبر الناس على تقليده ، بعد أن غزاهم بمظاهره الفاسدة، وجراثيمه القاتلة ، من تهتك فاضح ، وعري ظاهر .

---

(١) انظر : في الغزو الفكري د : أحمد عبد الرحمن السايح وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية قطر ١٩٩٣م ص ٥٣ .

وزاد الطين بلة أن ظهر للمنصرين صوت عال ، وكلمة مسموعة ، وآثار تظهر أحياناً وتختفي في بعض الأحايين .

ومن الأحداث التي عاصرها أيضاً الحرب العالمية الثانية ، وحرب فلسطين ، وثورة يوليو ١٩٥٢م ، وقيام إسرائيل، ونكبة ١٩٦٧م ، والطفل يوسف يشب مع هذه الأحداث يراها ويسمعها لكنه ليس بمعزل عنها ولسان حاله يقول :

قلبي يحس وهذه عيني ترى ما حيلتي فيما أحس وما أرى ؟

بل لقد انخرط الشيخ حفظه الله في هذه الأحداث منذ أن كان طالباً بقلبه ولسانه وعقله وحياته وعبّر عن كثير من هذه الأحداث في كتاباته وأشعاره .

وقد كانت للشيخ قصيدة هاجم فيها المحتل الغاشم ، لم يبق منها سوى أبيات يقول في مطلعها :

غنى فأشجى السامعين وهاموا	ليت المغني نائحٌ لطَام
يا أيها الأضياف لا أهلاً ولا	سهلاً ولا ترحيب لا إكرام
الضيف إن مرت عليه صبائح	يثقل وقد مرت لكم أعوام
غصت مساكننا بجند كمو كما	غصت قطارات وغص «ترام»
وغذت بطونكم غلال بلادنا	وبنو البلاد من الطوى قد صاموا
وعدت مصانعنا تحوك للبسكم	والعري فينا قاعد قوّام
إن القِرى إن لم يكن بسماحة	فالسمن سُمٌّ والحَمَام حِمَام[1]

٧ ـ انخراطه في الحركة الإسلامية[2] :

بعد سقوط الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م ، وانفراط عقدها الذي كان يجمع بلاد الإسلام ؛ ظهرت دعوات خبيثة ما نبتت في أرض الإسلام ، ولكنها

---

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٢٥٨، ٢٥٩ .

(٢) الحركة الإسلامية : هي ذلك العمل الشعبي الجماعي المنظم للعودة بالإسلام إلى قيادة المجتمع ، وتوجيه الحياة . انظر : أولويات الحركة الإسلامية د. يوسف القرضاوي ص ٩ وما بعدها .

نبتت بعيداً عن تربته، وتغذت بماء خبيث ، تنادي بفصل الدين عن الدولة ، وكان في المقابل هناك أصوات تتعالى بالعودة إلى الإسلام ، وربط الأبناء بالأجداد، وكان من آثار ذلك ثورة الشباب المسلم وإصراره على القيام بشيء لإنقاذ الإسلام من موجة التيارات المعادية التي اجتاحته أن قام في مصر عدد من الجمعيات الدينية ، فأنشأت جمعية الشبان المسلمين في مصر عام ١٩٢٧م ، وقامت جماعة « الإخوان المسلمون »[١] في ١٩٢٨م[٢].

وامتازت جماعة « الإخوان المسلمون » عن الجمعيات التي وجدت وقتها بكونها تمثل الإسلام بشموله ، كما كانت تتوفر لديها مقومات الدعوة المكتملة وهي :

١ - أن تكون الحاجة داعية إليها .

٢ - أن تكون متميزة .

٣ - أن ترزق بقيادة واعية حكيمة .

٤ - أن يهيأ لها جنود مؤمنون برسالتهم .

٥ - أن تكون أهدافها واضحة .

٦ - أن تكون وسائلها لتحقيق غاياتها واضحة .

٧ - أن تكون مواقفها من القضايا الكبيرة واضحة بينة[٣].

ولما كان الطالب يوسف في المعهد الأزهري بطنطا ؛ فقد بدأت أسماعه

---

(١) الإخوان المسلمون : كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة ، هدفها تحكيم الكتاب والسنة ، وتطبيق شرع الله في شتى مناحي الحياة ، والوقوف بحزم أمام سياسة فصل الدين عن الدولة ، والعمل لإعلاء كلمة الله في الأرض من خلال حركة عالمية تبعد عن مواطن الخلاف ، وتُكَوِّن الشباب عبر هذه الدعوة الربانية لإصلاح أنفسهم وبيئاتهم ، أسست الحركة على يد حسن البنا في عام ١٩٢٨ م ، وللجماعة انتشار واسع في معظم دول العالم ، كما أنها لها أثر واضح في شتّى مناحي الحياة ، وأهم خصائص الجماعة الربانية والعالمية والإسلامية . انظر : الموسوعة الميسرة ج١ ص ٢٢ وما بعدها ، والإخوان المسلمون سبعون عاماً د. القرضاوي ، والإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة . وغيرها ....

(٢) انظر : الإخوان المسلمون « الجماعة الإسلامية في الحياة السياسية المصرية » د: زكريا سليمان بيومي مكتبة وهبة ط الأولى ١٩٧٩م ص ٦٧ .

(٣) انظر : الإخوان المسلمون د: يوسف القرضاوي ص ١٠ .

تتفتح على «الإخوان المسلمون»، وقائدهم الإمام الشهيد حسن البنا -رحمه الله - وقد استمع الطالب يوسف إلى الإمام الشهيد في حديث عن الهجرة في جمعية «الإخوان المسلمون» في طنطا وهو في المرحلة الأولى من المرحلة الابتدائية، ولكن الانضمام الفعلي للجماعة كان في السنة الرابعة، وكان الشاب يوسف وقتها قد عرف بشاعريته ، فدعاه شباب الإخوان لإلقاء قصيدة في افتتاح الموسم الثقافي ، فألقى الشاب يوسف قصيدة قافية القافية منها قوله :

قلبي يحس برحمة تتدفق   ويرى الملائك حولنا قد أحدقوا

وسُئل الشاب يوسف لماذا لا ينضم إلى الإخوان ؟

فقال : وكيف ؟

قالوا : تملأ استمارة فملأها .

وإن كان الشيخ يعتبر نفسه واحداً منهم منذ أن سمع الإمام الشهيد في السنة الأولى[1].

ومرت الأيام والطالب يوسف تزداد قدمه رسوخاً لدى الجماعة ، ونظراً للجانب الخطابي[2] الذي عرف به الطالب يوسف مبكراً فكان عليه أن يعمل في قسمين من أقسام الجماعة في آن واحد :

القسم الأول : قسم الطلاب حتى غدا زعيماً للطلاب في السنة الثالثة والرابعة والخامسة بالمعهد الأزهري .

القسم الثاني : قسم الدعوة ، ومن خلال هذا القسم فُتح المجال للداعية الصغير أن يجوب قرى مصر في محيط محافظة الغربية، وما جاورها من المحافظات كالمنوفية والدقهلية والشرقية وغيرها .

---

(١) ابن القرية والكتاب ج١ ص ١٧٧ ، وانظر : لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر ج ٢ ص ١٠٢ .

(٢) سنتحدث قريباً عن الجانب الخطابي لدى الشيخ .

وقد استطاع الداعية الموفق أن يثبت أقدامه حتى غدا سفيراً للجماعة في خارج مصر ؛ وكانت أولى هذه الرحلات إلى بلاد الشام في أغسطس عام ١٩٥٢م ، فزار خلالها بيروت، ومنها انطلق إلى دمشق، ثم حمص، ومنها إلى حماة، ثم إلى عمان بالأردن ، ثم إلى مدينة الخليل بفلسطين ، ومنها انطلق إلى القدس ومخيمي الكرامة وعقبة الجبر(١).

والحق أن انخراط الشاب يوسف في الحركة الإسلامية متمثلة في جماعة «الإخوان المسلمون» عاد بإيجابيات متعددة لشخصيته ؛ فهم وإن جندوه لخدمة الدعوة وخدمة الإسلام ، فقد كان لهم الفضل عليه.

والشيخ لا ينكر ذلك بل يقول مؤكداً هذا الفضل : وأود أن أقول بكل صراحة وجلاء : إنني حققت مكاسب دينية كبيرة ، واجتنيت فوائد جمّة بانضمامي إلى دعوة الإخوان منها :

١ – أنها وسعت أفقي بفهم الإسلام فهماً شاملاً ، كما شرعه الله تعالى .

٢ – أسقطت عني فريضة العمل الجماعي لنصرة الإسلام .

٣ – انتقلت من مجرد واعظ ديني في القرية أو القرى المجاورة إلى داعية إسلامي؛ فلم يعد همي محصوراً في الحفاظ على التدين الفردي في نفس المسلم.

٤ – انتقلت من الهموم الصغيرة إلى الهموم الكبيرة ، ومن المطامح التي تتعلق بشخصي إلى الآمال المتعلقة بأمتي .

٥ – الخروج من العزلة التي فرضت على أبناء الأزهر ، نتيجة التعليم المزدوج، فكان أبناء مصر طائفتين : « دينية » لمن يتخرج من الأزهر ، و« مدنية » لمن يتخرج من التعليم العام، وبين الفريقين حواجز ثقافية ونفسية تفصل بينهما،

---

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٤٦٢ وما بعدها، ولقاءات ومحاورات مرجع سابق ج٢ ص ١٠٣ .

ولا يكاد يلقى أحدهما الآخر ، فكان من فضل دعوة الإخوان أن أزالت الحواجز، وأذابت الفوارق المتوارثة بين الفئتين[1].

٨ - دوره في الأزهر طالباً :

يعد الأزهر جامعاً وجامعة منارة عريقة من المنارات التي أضاءت جنبات المشرق والمغرب ، ومعقلاً من معاقل الدين والعلم ، فيه يتعلم الجاهلون ، ويهتدي الحائرون ، ولله در شوقي حين قال :

قم في الدنيــا وحي الأزهرا	وانشر على سمع الزمان الجوهرا
كــانوا أجل من الملوك جــلالة	وأعـز سلطاناً وأفـخم مظهـراً
والله ما ندوي لعل كـفيـفـهم	يومـاً يكون أبا العـلاء المبـصـرا
هزوا القرى من كهفها ورقيمها	أنتم لهـمـر الله أعـصاب القـرى
الغــافل الأمي ينطق عنكمــو	كــالبـــبغــاء مــردداً ومكرراً
لو قلتم اختـر للنيـابة جـاهلاً	أو للخطابة باقــلاً لتــخــيــرا

وقد كان دخول الأزهر أمنية تلوح في الأفق بين عيني الطفل الصغير يوسف، وشاء الله أن يحقق له أمنيته بمعهد طنطا الابتدائي، ثم الثانوي ، ثم بكلية أصول الدين بالقاهرة ثم بإجازة التدريس ، ثم حصوله بعد ذلك على رسالة الدكتوراه .

بيد أن الطالب يوسف والشيخ الصغير استطاع أن يثبت أقدامه بين طلاب الأزهر كشاعر وزعيم وخطيب ؛ قبل أن يبزغ نجمه بعد ذلك بين علماء الأزهر كعالم وفقيه ومفكر وداعية .

عمل الطالب يوسف في المرحلة الابتدائية ممثلاً لطلاب مرحلته لكنه ظهر فعلياً في المرحلة الثانوية ، ذلك أن طلاب هذه المرحلة كانوا يعدون صوت الأمة الحي ، ولسانها المعبر ، وساعدها القوي ، وكان للمعهد الأزهري في المرحلة الثانوية زعامة ، كلما ارتحل زعيم خلفه غيره ، ولما كان الشيخ في السنة الثالثة

---

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٣١٤ وما بعدها .

آلت إليه زعامة المعهد، وكذلك في السنة الرابعة ثم في السنة الخامسة حتى كان حلّ جماعة «الإخوان المسلمون». وقد جمع الطالب يوسف بزعامته للمعهد حب المدرسين لتفوقه في دراسته ، وحب الطلاب بما كان يملك من مواهب تؤهله لذلك ؛ كالخطابة والشعر وغيرهما ، بل كانت زعامته ترشيحاً من الطلاب أنفسهم .

وقد شارك الطالب يوسف بزعامته للمعهد الثانوي في مؤتمرات منها ما كان في طنطا ، ومنها ما كان في شبين الكوم ، وقد كان له ولزملائه في مؤتمر طنطا مطالب منها :

١ – إدخال اللغة الإنجليزية إلى معاهد الأزهر .

٢ – فتح باب الكليات العسكرية والمدنية أمام حملة الثانوية الأزهرية .

٣ – فتح معاهد للبنات فهن نصف المجتمع .

٤ – فتح باب الدراسات العليا ، وتعيين معيدين بكليات الأزهر .

٥ – التوسع في إنشاء المعاهد الأزهرية .

٦ – تطوير مناهج العلوم الدينية والعربية بما يتلاءم مع روح العصر .

وبعد انتقال الطالب يوسف إلى الجامعة ازداد نشاطه وتعددت أعماله المنادية بإصلاح الأزهر ، ولما كان في السنة الثانية من كلية أصول الدين أنشأ الطلاب اتحاداً للكلية ترأسه وقتها الطالب «مناع القطان»[1] ولما تخرّج «مناع القطان» ، أُسندت رئاسة اتحاد الطلاب إلى الطالب يوسف . ومما يذكر له في الجامعة ثلاثة أمور :

---

(١) مناع القطان : هو الداعية الإسلامي البارز مناع بن خليل القطان من مواليد قرية شنشور إحدى قرى محافظة المنوفية بمصر عام ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٥م ، التحق بالأزهر وحصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين ثم نال إجازة التخصص عام ١٩٥١م . عمل بالتدريس في مصر ، وبعد نشوب العداوة بين رجال الثورة وجماعة الإخوان سافر إلى السعودية وعمل أستاذاً بجامعة الإمام محمد بن سعود وغيرها ، له ولع بالتفسير وعلومه ، ومن أشهر كتبه : مباحث في علوم القرآن ، توفي عام ١٤٢٠ هـ . انظر : علماء فقدناهم إدارة الدعوة قسم الدعوة والإرشاد بقطر ص ٣٣ وما بعدها .

الأول : مؤتمر سنة ١٩٥٣م ، وكان الطالب يوسف وقتها في تخصص التدريس وحضر المؤتمر أبناء الكليات الثلاث (أصول الدين والشريعة واللغة العربية) ومعهد القاهرة ومعهد البحوث ، وكان هو المتحدث والمفتتح للمؤتمر ، ابتدأه بقصيدة رائية القافية وفيها يقول :

صبرنا إلى أن ملّ من صبرنا الصبر وقلنا : غداً أو عده ينجلي الأمر !

فكان غد عاماً ولو مُدّ حبله فقد ينطوي في جوف هذا الغد الدهر !

وقلنا : عسى أن يدرك الحق أهله فصاحت «عسى» من «لا» و«لا» طعمها مر !

وقد تحدث الطالب يوسف فيها عن مطالب « الأزاهرة » وتطلعاتهم الدينية والعلمية والأدبية والاجتماعية (١).

الثاني : كتيبة الأزهر : وهي كتيبة أعدت من طلاب الأزهر للذهاب إلى فلسطين واختير وقتها قائداً لهذه الكتيبة الطالب « عبد العزيز خالد » ، وقام المعسكرون بالتدريب عسكرياً وإيمانياً ، وأقام طلاب الجامعة حفلة توديع للكتيبة في قاعة الإمام « محمد عبده » تحدث فيها عدد من الشيوخ والدعاة ، وكانت كلمة المعسكر وشباب الأزهر للطالب يوسف، فقام مرتجلاً كلمته وختمها بقصيدة من قصائده وكان مطلعها :

دع المداد وسطر بالدم القاني وأسكت الفم واخطب بالفم الثاني(٢)

الثالث : لجنة البعث الأزهري ، وهي مجموعة من شباب الأزهر آلوا على أنفسهم أن يرفعوا صرح الأزهر عالياً أو يموتوا تحت أنقاضه ، وكان من أهم أهداف هذه اللجنة :

١ ـ المساهمة في إيقاظ الوعي الإسلامي ، وتكوين جيل جديد يفقه الإسلام ، ويعمل به ، ويجاهد في سبيله .

٢ ـ جمع أبناء الأزهر من خريجيه وطلابه نحو هذا الهدف .

---

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٤٥٠ وما بعدها .
(٢) انظر : المرجع السابق ج٢ ص ١٨ وما بعدها .

٣ – إصلاح أوضاع الأزهر.

٤ – تأمين مستقبل الثقافة الإسلامية المهددة، وإيجاد الينابيع الدائمة التي تصب في الأزهر.

وقد كان الطالب يوسف عضواً في هذه اللجنة، وكلفه أعضاء اللجنة بإعداد الرسالة الأولى التي تعرف الناس بهذه اللجنة، وقد كتبها الطالب يوسف تحت عنوان «رسالتكم يا أبناء الأزهر» وقد عرضها وقتها على الشيخ «محمد الغزالي» والأستاذ «عبد العزيز كامل» فسرا بها وأثنيا عليها خيراً، وذهبت الرسالة إلى المطبعة، لكنه لم يكتب لها الظهور إلى النور بسبب اعتقالات ١٩٥٤م التي حلّت بالإخوان، لكن ضمنها الشيخ في كتابه الذي أصدره عن الأزهر بعنوان «رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد»[١].

٩ – دوره في الأزهر مصلحاً:

منذ أن وطأت قدم الطالب يوسف أعتاب الأزهر وأمانيه وطموحاته لا تنفك عن خاطره، وقد صرح بإحدى أمانيه وهو في الصف الأول الثانوي، حيث دخل عليهم مدرس حصة إضافية فسأل كل طالب عن أمانيه وأحلامه، فكانت ما بين ضابط أو مدرس أو عالم، ولما جاء الدور على الطالب يوسف قال: أريد أن أكون شيخاً للأزهر[٢].

وقد كان المراد من هذه الأمنية إن تحققت إنما هو الإصلاح، لأن الأزهر كان هو محرك الثورات، وهو المرشد الديني، والرائد الاجتماعي، والمربي الروحي، والموجه الشعبي، كما أنه القائد السياسي سواء بسواء.

وكان غياب الأزهر معناه ضياع الأمة وقد قال الشاعر:

بالملح يصلح ما يُخْشَى تغيره   فكيف بالملح إن حلّت به الغير ؟

ولما جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن ، زالت الأمنية والحلم من ذاكرة

---

(١) انظر : الكتاب المذكور ص ٧ وما بعدها .

(٢) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٢١٠.

الشيخ ، وحين سئل الشيخ عن هذه المنية قال : أولاً قد فات الأوان من ناحية ، فأنا في الخامسة والسبعين ، ومن ناحية ثانية ، لم يعد شيخ الأزهر وحده قادراً على تحقيق ما يريده من إصلاح وتجديد ، حتى تسانده الدولة ، أو على الأقل تطلق يده : ومن لمثلي بهذا ؟.

ولكن الشيخ لم يقصر في تأدية واجبه نحو الأزهر ، ولم يبخل بالنصيحة حين تطلب ، بل وبغير طلب أيضا ، وكان خوف الشيخ على الأزهر من أن يكون الأزهر مبنى لا معنى له ، أو تمثالاً لا روح فيه ، ولكنه في نصائحه أراد أن يكون الأزهر كسابق عهده إماماً يقتدى به ، وعلماً ينظر إليه ، وقائداً يحتذى به ، هادياً للحائر ، ومعلماً للجاهل ، ومبصراً للأعمى .

وقد تحدث الشيخ عن الأزهر ناقداً كما تحدث عنه مصلحاً ، والشيخ حين ينقد الأزهر لا يجعله نقدا من أجل النقد ؛ إنما يريده نقداً بنّاءً ، ولهذا قدم الاقتراحات المطلوبة ، والأطروحات المرجوة ، وقد سجل الشيخ ذلك في مذكراته عند حديثه عن المرحلة الابتدائية والثانوية ، ويمكن إجمال وجهة نظر الشيخ في إصلاح الأزهر في النقاط التالية :

● **المناهج الدراسية :**

يرى الشيخ أن الدراسة التي تفرض على الطلاب في غالبها لا تتعلق بالحياة الواقعية ، ففي العقيدة مثلاً ، يدرس علم التوحيد أو ما يسمى علم الكلام على طريقة المذهب الأشعري المتأثر بفلسفة اليونان ، وهذا لا يتماشى مع الطريقة القرآنية التي تقوم على مقدمات فطرية ، تتفتح بها العقول وتطمئن لها القلوب .

وفي علم الفقه يرى الشيخ ألا يدرس الفقه بطريقة ميتة بل ينبغي ربط العبادات بروح الحياة ، وتنزيل المعاملات على معاملات العصر بالصور التي يتعامل بها الناس .

وفي علم التفسير كان التفسير ولمدة قريبة مأخوذ من تفسير الإمام النسفي، والشيخ يرى أنه ينبغي أن يكون بجوار التفاسير القديمة، كتابات

جديدة، تقدم للطالب هداية القرآن ومقاصده ؛ مكتوبة بلغة عصرية سلسة ، ترد على المشكلات التي يثيرها الخصوم حول القرآن في عصرنا[1] .

وباختصار فإن الشيخ إنما يريد أن يجمع الأزهر بين الأصالة والمعاصرة ، فيحافظ على الماضي ولا ينعزل عن الحاضر .

● **المعلم الأزهري :**

كان مما يعيبه الشيخ على المعلم الأزهري وغيره كذلك ، هو غياب روح الدعوة ، يريد من المعلم الأزهري أن يكون مثلاً يقتدي به طلابه ، يعلم عيون تلاميذه الدموع ، وقلوبها الخشوع ، يقول الشيخ : فإذا كان الأزهري كغيره لا يمتاز بطرف دامع ، ولا بقلب خاشع ، ولا بعمل صالح ، فماذا بقي له من أزهريته غير العمامة و « الكاكولة » إن بقيتا ؟!

ويقول : إن الهفوة التي تصدر عن صاحب دعوة ينظر إليها الناس بالمجهر « الميكرسكوب » وزلة العالم يضرب لها الطبل ، وزلة الجاهل يخفيها الجهل ، والعظيم إذا بدت منه صغيرة كبرت ، والحقير إذا سقط في كبيرة صغرت ، ونقطة المداد في الرقعة البيضاء غيرها في الرقعة السوداء ؛ هي في الأول أظهر ما تكون وفي الثانية أخفى ما تكون[2].

كما أكد الشيخ على ضرورة اتصاف العالم الأزهري بالأخلاق وذكر منها على سبيل المثال أربعة : الشجاعة ، والزهد ، والإخلاص ، والعزة .

وقد كان الشيخ حريصاً على انتقاء المدرسين ؛ حتى يستطيع الطالب أن يأخذ منهم العلوم العقلية والخشية القلبية ، والتقوى لسلوكه ، والزهد لمعيشته، والورع لتعامله[3].

ويريد الشيخ أن يكون الانتقاء في مدرس العلوم الدينية واللغوية ، وكذلك العلوم المدنية التي يطلق عليها الحديثة، حتى لا يهدم مدرس الطبيعة أو الأحياء ما يقوم ببنائه مدرس التفسير أو الحديث .

---

(١) المرجع السابق ج١ص٢٢٠ وما بعدها.
(٢) رسالة الأزهر ص ٨٤ ، ٨٥ .
(٣) المرجع السابق .

● **الطالب الأزهري :**

أتى على الأزهر عهد كان لا يذهب إليه سوى المتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا القليل النادر ، ومن ثم فإن الشيخ يؤكد انتقاء الطلاب كما هو الحال في انتقاء المدرسين ، يقول الشيخ : ولهذا كان الانتقاء ضرورة لا مفر منها ، فإذا كان الأزهر مصنعاً للدعاة ؛ فليست كل خامة بشرية صالحة لأن يصنع منها داعية، وإذا كان الأزهر بمثابة جيش الخلاص ؛ فليس كل إنسان أهلاً للتجنيد في هذا الجيش ، لا بد من شروط ، ولا بد من فرز وفحص ، ولا بد من فترة اختبار ، يستمر فيها الصالح للجندية ، ويعفى من ليس لها أهلاً .

إلى أن يقول : والحق أننا نريد مسلماً متكاملاً له عقل المسلم المتفقه ، وله قلب المسلم النقي ، وله خلق المسلم الملتزم ، وله حكمة المسلم الداعية ، وعنده إيجابيات المسلم المجاهد، ولديه ثقافة المسلم المعاصر[1].

● **الأزهر نفسه :**

والشيخ في خضم هذه المطالب التي طالب بها الأزهر ، وهذه الواجبات التي ألقاها على عاتقه ، لا ينسى أن يعد ما للأزهر من حقوق ، وعد الشيخ منها :

١ ـ أن توفر للأزهر الحرية الكاملة في أداء أمانته ، وتطلق يده في الدعوة والتوجيه حتى يقول ما يريد .

٢ ـ أن يبعد عن الأزهر سيف الإرهاب وسوط التخويف ، فالإرهاب لا ينتج إلا عبيداً.

٣ ـ أن يوفر للأزهر المال اللازم حتى يقوم بالدعوة على مستوى مصر، والعالم العربي ، والعالم الإسلامي .

٤ ـ أن يكون الأزهر عالمياً وهذا يوجب أن يكون للمسلمين رأي في توجيه الأزهر، وفي اختيار شيخ الأزهر .

---

(١) المرجع السابق ص ٩٧ .

٥ - ألا يورط الأزهر نفسه في السياسة المحلية، فيغدو تبعاً بعد أن كان متبوعاً[١].

تجربة الشيخ في المعهد الديني بقطر:

كان الشيخ القرضاوي كغيره من أبناء جيله، يبحثون عن الابتعاث للبلاد العربية، وكان هذا الابتعاث مشروطاً بمضي ثلاث سنوات في العمل، وكانت هذه البعثات تجمع للشيخ فائدتين:

الأولى: تحسين الوضع المادي.

الثانية: الفرار من ملاحقات المباحث وعيون المخبرين.

تقدم الشيخ القرضاوي للامتحان، فكان أول المتسابقين، واختار قطر لا لشهرتها وقتئذ، ولا لارتفاع رواتبها، ولكن لأن الشيخ عبد الله بن تركي المسئول على العلوم الشرعية فيها كان قد طلب الشيخ من قبل، كان لا يزال حريصاً على استقدامه إلى قطر.

وكان من المقرر أن يسافر الشيخ إلى قطر في العام الدراسي ٦٠ / ١٩٦١م، ولكن حيل بينه وبين السفر، وكان سفره في ١٢ / ٩ / ١٩٦١م[٢].

المعهد الديني قبل القرضاوي:

أنشئ المعهد الديني في قطر عام ١٩٦٠م، وأنشئ من صفين: الصف الأول، والصف الثاني، وكان هؤلاء الطلاب هم أصلاً من تلاميذ معهد ديني ابتدائي أنشأ قديماً ثم أغلق، وكان الطلاب في هذا المعهد يدرسون ما يدرسه طلاب الأزهر قبل التطوير، وقد واجه الشيخ مشكلتين في أول يوم من عمله:

الأولى: سحب بعض الطلاب أوراقهم لاعتراضهم على المنهج وصعوبته، وقد أقنعهم الشيخ بالعودة.

الثانية: عدم تقدم أي طالب جديد للمعهد، فما كان من الشيخ إلا أن

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٣-١٢٥ بتصرف.

(٢) ابن القرية والكتاب ج٢ ص ٣٠٨وما بعدها بتصرف.

كتب نشرة وزعت على نطاق واسع تبين أهمية العلم والتفقه في الدين، وقام هو في الجامع الكبير بعد خطبة الجمعة بإلقاء كلمة مماثلة، أتت ثمارها (ثمانية طلاب).

بداية التغيير في المعهد : كان المعهد الديني يدرس بعض الكتب فرأى الشيخ صعوبتها، مثل :

١ – شرح ابن عقيل في النحو والصرف .

٢ – شرح السلم في المنطق .

٣ – الروض المربع شرح زاد المستنقع في الفقه .

٤ – تفسير النسفي في التفسير.

٥ – صفوة صحيح البخاري .

إلى جانب إهمال العلوم والرياضيات و المواد الاجتماعية واللغة الإنجليزية[١]. هنا قام الشيخ بالتعديل والتطوير وكان كالتالي :

١ – كتاب « النحو الواضح » في النحو .

٢ – إلغاء دراسة المنطق والبلاغة وابن عقيل أو تأجيلهما إلى الثانوية .

٣ – كتاب « منار السبيل » بدلاً من « الروض المربع »[٢].

وبهذا التغيير بدأ الارتياح تجاه المعهد، وبدأ المعهد يبرز .

١٠ – أساتذته ومشايخه :

الناظر إلى الكوكبة الرائعة والمصابيح الهادية التي تلقى منها الطالب يوسف تعليمه ونهل منها علمه، يجزم قائلاً : إنه كان واجباً على القرضاوي أن يكون قرضاوياً، ولم يكن من المقبول منه أن يكون غير ذلك؛ فقد حباه الله بذاكرة قوية ، وعقل نابه ، وفؤاد نقي ، وقلب ذكي ، ثم مَنَّ الله عليه بكوكبة من العلماء لم يكن بعضهم في وقته بأقل منه شهرة في وقتنا الحاضر، وحين تقرأ

---

(١) انظر : المرجع السابق ج٢ص ٣٣٣، ٣٣٤ .

(٢) انظر : المرجع السابق ج٢ص٣٤٣ وما بعدها .

أسماء مشايخه تجد أسماءً رنانة ، وأعلاماً بارزة ، من أمثال الشعراوي ، والبهي الخولي ، وعبد الحليم محمود ، والغزالي ، وشلتوت، وعبد الله دراز ، وغيرهم كثير ، ولنبدأ بذكر مشايخه من بداية مشواره التعليمي :

أولاً : أهم أساتذته ومشايخه في مشواره التعليمي :

١ - حامد أبو زويل :

يُعد الشيخ « حامد » ـ رحمه الله ـ أول مشايخ الشيخ، وهو واضع أول لبنة في تعليم الطفل يوسف ، يقول عنه الشيخ يوسف : كان الشيخ « حامد » من حفاظ القرآن الكريم المحترمين ، عزيز النفس ، محتفظاً بكرامته ، وكان رجلاً نظيفاً أنيقاً.

ومما تعلمه منه الطفل « يوسف » ضبطه القرآن حفظاً وتلاوة فيقول : وكان الشيخ يعطينا بعض الضوابط في الآيات المشتبهة مثل « ضراً ولا نفعاً » و « نفعاً ولا ضراً» فحفظنا :

والنفع قبل الضر يا ذا النبأ في سورة الأعراف والرعد سبأ

ومثل عبارة اللهو واللعب فيقول :

تذكر أيها القارئ قبل أن تموت اللهو قبل اللعب في الأعراف والعنكبوت

ومثل « يزيدَهم » و « يزيدُهم » بالفتح و الضم فحفظنا :

و «يزيدَهم» يا شاطر في النور وفاطر (١)

٢ -الشيخ عبد المطلب البتة :

يقول الشيخ القرضاوي عن الشيخ عبد المطلب البتة: تخرج الشيخ عبد المطلب البتة في كلية الشريعة بالأزهر ، وكان أول دفعته ، وكان عالماً نشيطاً ذا روح قوية ، وهمة عالية ، وشجاعة في قول الحق ، مع خفة ظل، وقبول عند الناس .

---

(١) ابن القرية والكتاب ج١ص ١٢٤ وما بعدها.

بدأ الشيخ عبد المطلب بخطب الجمعة ، فقلبها رأساً على عقب ، أصبح يرتجل الخطبة ارتجالاً ، وقد عالج الشيخ عبد المطلب في خطبه أمراض المجتمع من الغش والكذب والخيانة وعقوق الوالدين .

وكان للشيخ عبد المطلب تجديدات في دروسه لا يجدها الناس في غيره ، يريد أن ينشط بها الناس ، ويجذب انتباههم ، مثل دعوته الحاضرين إلى أن ينشدوا معه كل درس هذه الأبيات :

يا رجال الله هبوا   ليس غير الله رب

إن في القرآن آية   وهي للعشاق طب

لن تنالوا البر حتى   تنفقوا مما تحبوا[1]

٣ - البهي الخولي :

البهي الخولي صاحب كتاب «تذكرة الدعاة»، هو علم بارز من أعلام الدعوة في القرن العشرين ، تعرف عليه الطالب يوسف في السنة الثانية من المعهد الابتدائي ، حيث كان يدرسه مادة المحفوظات ، ثم ازدادت صلة الطالب يوسف بشيخه البهي في المرحلة الثانوية.

يقول الشيخ يوسف عن شيخه البهي : من أهم من تعرفت عليهم في المرحلة الثانوية واتصلت بهم عن قرب ، واستفدت من حلقاته ومجالسه، والتقطت من آلائه وجواهره شيخنا الداعية الكبير البهي[2].

وازدادت صلة الطالب يوسف بشيخه البهي حيث اصطفى الشيخ البهي مجموعة من الطلاب وكون منهم مجموعة يطلق عليها الإخوان «كتيبة»، وسماها كتيبة «الذبيح» ، وكان الشيخ البهي وقتها مسؤول الإخوان في مديرية الغربية ، وقد استطاع الشيخ البهي أن يعمق الجانب الروحي في فكر ونفس الطالب يوسف ويؤكد ذلك الشيخ فيقول : وزاد هذا الجانب «الجانب الروحي»

---

(١) انظر : المرجع السابق ج١ص ٤١٥ .   (٢) انظر : المرجع السابق ج١ ص ٢٦ .

تعميقاً في فكري ونفسي باتصالي بأستاذنا البهي الخولي - يرحمه الله - : وهو رجل ذوّاقة للمعاني الربانية، عميق الحاسة الروحية، وقد كان يرأس الإخوان في الغربية وكان له محاضراته ودروسه التي يظهر فيها الجانب الرباني، والتي تجسمت بوضوح في كتابه « تذكرة الدعاة » الذي قدّم له الشهيد حسن البنا[1].

وقد كان للشيخ « البهي الخولي » نظرة في الشيخ القرضاوي ونبوءة فيه ، حيث تنبأ للشيخ القرضاوي بمستقبل علمي ؛ قال في رسالة وجهها إلى الشيخ عبد المنعم النمر يوصيه فيها بالشاب يوسف القرضاوي « وهو شاب متواضع ، فارع العلم باهر ، إن لم يبذ شيوخ العلم وفحوله في الأزهر؛ فلن يقصر عن شأن أعلاهم شأناً »[2].

وقد صدّقت الأيام نبوءة الشيخ « البهي » ، وقد أفصح الشيخ « البهي » عن هذه النبوءة بعد أن أهدى إليه الشيخ القرضاوي نسخة من كتاب « الحلال والحرام » فقال له : هذا الكتاب صدق نبوءتي : لقد اختلفت أنا والشيخ « الغزالي » بعد نشر قصيدتك « السعادة » ، وكان رأي الشيخ « الغزالي » أن لديك قابلية أن تكون شاعراً عظيماً ، إذا تفرغت في الشعر، وكان من رأيي أن يتفرغ القرضاوي للعلم أولى من تفرغه للشعر ، فالذي آمله إذا تفرغ للفقه أن يكون إن شاء الله فقيه العصر ، وأحسب أن هذا الوليد الجديد « الحلال والحرام » يحمل البشارة بصدق نبوءتي[3].

٤ - الشعراوي :

يعد الشيخ الشعراوي - يرحمه الله - من أكثر الدعاة شهرة في القرن الماضي، وهو صاحب أول تفسير مرئي ومسموع ، وهو الرجل الذي استطاع أن يبسط للناس لغويات النسفي، وقصصيات القرطبي، وأحكام ابن العربي، وأدبيات سيد قطب .

---

(١) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ٩ .

(٢) انظر : بنو إسرائيل في ميزان القرآن البهي الخولي ص٥-٨ ط الأولى دارالقلم دمشق ٢٠٠٣ م .

(٣) انظر : ابن القرية والكتاب ج٢ص ٢٩٨ .

وقد درّس الشعراوي للطالب يوسف في المرحلة الثانوية ، ولم يكن وقتها قد بزغ نجم الشيخ الشعراوي في الدعوة وإن كان قد بزغ وقتها في الشعر، وقد درّس الشيخ الشعراوي للطالب يوسف البلاغة ، وكان الشيخ الشعراوي وقتها محسوباً على حزب الوفد ، وقد شُحِن الشيخ الشعراوي من طلاب الوفد تجاه طلاب الإخوان ، ودار بين الشيخ الشعراوي و الطالب يوسف حوار يوضح خبيئة هذا الأمر ، يقول الشيخ القرضاوي في مذكراته : ومن دلائل ذلك أن سألت الشيخ أثناء درسه سؤالاً علمياً بريئاً ، فاعتبر الشيخ الشعراوي السؤال تحدياً له ، واستشاط غضباً وقال : اسمع يا يوسف : إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً ، وكان هو السؤال الأول والأخير [١].

٥ -الدكتور: عبد الحليم محمود :

وقد درّس الدكتور عبد الحليم محمود للطالب يوسف في أصول الدين في السنة الثالثة والرابعة ، يقول عنه الشيخ في مذكراته : كان الدكتور عبد الحليم في تلك الآونة يلبس الحلة « الإفرنجية » كما كان حليق اللحية ، ولكنه كان رجلاً متصوفاً ، فكراً وعاطفة وعملاً ، وكان لا يهتم بالمظاهر لا في نفسه ولا في بيته ، وكان كثير الصمت لا يتكلم إلا قليلاً [٢].

وقد تأثر الطالب يوسف من شيخه عبد الحليم في الجانب الروحي ، وقد ذكر الشيخ ذلك في كتابه الحياة الربانية والعلم ، فيصفه بأنه أثّر فيه بصمته وتعمقه حيث كان داعية إلى الزهد والإقبال على الله [٣].

ثانياً : أهم أساتذته ومشايخه من الإخوان :

كان لانضمام الطالب يوسف لجماعة الإخوان المسلمين أثر عظيم في مسيرته الدعوية، ولما كانت الجماعة زاخرة بالشيوخ والعلماء فإن الطالب يوسف لم يتوان أن يثني ركبه بين أيديهم ، ناهلاً من علمهم ، ومن هؤلاء :

(١) انظر : المرجع السابق ج١ ص٢٠٥ . (٢) انظر : المرجع السابق ج١ ص ٤١٢ .
(٣) انظر : الحياة الربانية والعلم ص١٠ .

١ - البهي الخولي :

وقد تحدثنا عنه سابقاً ضمن شيوخه في المرحلة الثانوية .

٢ - سيد سابق : وهو الداعية الفقيه والشيخ العلامة سيد سابق صاحب كتاب « فقه السنة » الكتاب الذي شرق وغرب ، وقد استفاد الشيخ يوسف من الشيخ سيد سابق ومن كتابه هذا؛ حيث يقول في مقدمته لكتابه « تيسير الفقه للمسلم المعاصر » : وقد كان شيخنا السيد سابق - يرحمه الله - أصدر من أكثر من ربع قرن كتابه الشهير « فقه السنة » ومَنّ الله به على كثيرين وأنا منهم [١].

ويقول في كتاب آخر: وكان لكتاب أخينا الشيخ سيد سابق « فقه السنة » تأثير طيب في تفكيري وتوجيهي إلى الأدلة من القرآن والسنة ، أستقي منها بدل الرجوع إلى كتب الفقه المذهبي وحدها [٢].

ويقول مادحا الكتاب وصاحبه: سدّ كتاب الشيخ سيد سابق فراغًا في المكتبة الإسلامية في مجال فقه السنة، الذي لا يرتبط بمذهب من المذاهب، ولهذا أقبل عليه عامة المثقفين الذين لم ينشأوا على الالتزام بمذهب معين أو التعصب له، وكان مصدراً سهلا لهم يرجعون إليه كلما احتاجوا إلى مراجعة مسألة من المسائل.

وقد انتشر الكتاب انتشارا واسعا، وطبعه بعض الناس بدون إذن مؤلفه مرات ومرات، كما يفعلون مع غيره من الكتب التي يطلبها الناس[٣].

ويقول مدافعا عن الشيخ ومنهجه في كتابه« فقه السنة »: ربما انتقد (فقه السنة) بعض المذهبيين المتشددين في اتباع المذاهب، والذين اعتبروا الكتاب داعية إلى ما سموه (اللامذهبية) وهي – كما قالوا – قنطرة إلى (اللادينية) !

وأنا أعتقد أن مؤلف الكتاب وإن لم يلتزم مذهبا بعينه لا يعد من دعاة (اللامذهبية) لأنه لم يذم المذاهب، ولم ينكر عليها.

---

(١) انظر : الكتاب المذكور ص ٧ .

(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٦ .

(٣) انظر : في وداع الأعلام ص ٨٨ .

كما أعتقد أن مثل هذا النوع من التأليف ضرورة للمسلم الجديد، الذي يدخل في الإسلام الواسع دون التزام بمدرسة أو مذهب، وكذلك المسلم العصري الذي لا يريد أن يربط نفسه بمذهب معين في كل المسائل، بل يأخذ بما صح دليله، ووضح سبيله[1].

ولما قال البعض: إن الشيخ سيد سابق لم يعط فقه المقارنة والموازنة حقها، في مناقشة الأدلة النقلية والعقلية، والموازنة العلمية بينها، واختيار الأرجح بعد ذلك على بينة وبصيرة.

رد عليهم الشيخ القرضاوي بقوله: إن الشيخ لم يكتب كتابه للعلماء، بل لجمهور المتعلمين، الذين يحتاجون إلى التسهيل والتيسير، سواء في الشكل أم المضمون، وتوخى طريقة التسهيل والتبسيط، وكل ميسر لما خلق له[2].

ولما أبدى الشيخ محمد ناصر الدين الألباني بعض ملاحظاته على كتاب «فقه السنة» كان رد الشيخ القرضاوي كالتالي: ونقده (أي الشيخ الألباني) يتمثل في أمرين أساسيين:

الأول: فيما يتعلق بالحديث الذي يستدل به (فقه السنة) وهو ضعيف في نظر الشيخ، وربما يكون هناك خلل في عزوه إلى من عزاه إليه، أو نحو ذلك، وعذر الشيخ سيد أنه ينقل هذه الأحاديث عن كتب السابقين، ولم يبذل جهدا في تحقيقها وتمحيصها، عملا بالقاعدة التي تقول: كل علم يؤخذ مسلّما من أهله.

والثـــاني: خلاف في المشرب الفقهي بين الشيخ ناصر والشيخ سيد، فالشيخ ناصر أميل إلى اتباع ظاهر النص، والشيخ سيد أقرب إلى اتباع مقصد النص.

والشيخ ناصر لا يبالي بمخالفة جمهور الأئمة المتقدمين، كما في تحريمه الذهب المحلق على النساء، والشيخ سيد يحترم غالبا رأي الجمهور[3].

وقد تلقى القرضاوي الفقيه من الشيخ سيد سابق حين ضمهما معتقل

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٨٨.
(٢) انظر: المرجع السابق ص ٨٨.
(٣) انظر: المرجع السابق ص ٨٨، ٨٩.

الطور في محنة الإخوان عام ١٩٤٩م ، وكان الشيخ سيد سابق يعقد حلقات في الفقه بعد صلاة الفجر ، كما توطدت العلاقة أكثر بين القرضاوي والشيخ سيد سابق حين عملا سوياً في إدارة الثقافة التابعة لوزارة الأوقاف ، وكان الشيخ سيد مديراً لهذه الإدارة(١).

٣ -محمد الغزالي:

تتلمذ القرضاوي على الشيخ «محمد الغزالي» مرتين: مرة من خلال كتبه ومقالاته ، والثانية: من خلال مدرسة الإخوان ، عرف الشيخ يوسف شيخه «الغزالي» أول ما عرفه من خلال بابه الثابت في مجلة «الإخوان المسلمين» الأسبوعية ، وكانت كلمات الشيخ «الغزالي» الساحرة ، وأسلوبه الساخر ، ونقده اللاذع ، وفكره الثاقب ؛ مما يشد القرضاوي الشاب في هذه المقالات.

ويرى القرضاوي أن الغزالي جمع خير ما في الرافعي والمنفلوطي والعقاد ، ويعبر الشيخ عن ذلك بقوله : وكان يشدني إليه فكره الثائر ، وبيانه الساحر ، وأسلوبه الساخر ، فقد كنت أرى فيه إلى جوار كونه داعية ـ أديباً من الطراز الأول، وكان «الغزالي» يحمل روح الرافعي وتألقه ، وسهولة المنفلوطي وتدفقه، وتأمل العقاد وتعمقه (٢).

وكان اللقاء الأول للطالب يوسف بالشيخ «الغزالي» وسط الأمواج على متن الباخرة «عايدة» والتي أقلَّت المعتقلين من الإخوان لترحيلهم من معتقل «الهايكستب» إلى معتقل «الطور» ، وكان هرجاً ومرجاً قد بدا في الباخرة ؛ وفجأة كما يقول الشيخ يوسف : ظهر شاب قصير القامة ، أبيض الوجه ، مشرق القسمات ، حاسر الرأس ، يلبس ثوباً أبيض ، فتكلم بكلمات موجزة بليغة وقوية؛ طالباً من الإخوان أن يلزموا الهدوء ، ويحترموا النظام حتى يصلوا إلى تلك الأرض التي انطلقت منها شرارة الوحي المقدس ، لتحرير أمة مستعبدة .

وسأل الطالب المعتقل يوسف عن هذا الثائر فقالوا : إنه الشيخ محمد الغزالي(٣).

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٩٠ .　(٢) انظر : الشيخ الغزالي كما عرفته ص ١٣ .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٥ ، ابن القرية والكتاب ج١ص ٣٥٧ .

وقد عدّ الشيخ يوسف اعتقاله مع الشيح محمد الغزالي منحة من الله تعالى فيقول : وكانت فرحتي لا تقدر حين علمت أن الشيخ محمد الغزالي معنا، هذا الشيخ «الغزالي» الذي قرأت له ، وأحببته من بعيد ، فها أنا ذا اليوم معه وجهاً لوجه ، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، فهذه أولى ثمرات هذه المحنة ، التي نرجو أن تكون منحة بفضل الله[1].

ويرى الشيخ يوسف في شيخه «الغزالي» : الرجل الرباني الذي يتصف بالربانية لا الرهبانية ، يراه قريب الدمعة ، سريع البكاء ، يقول الشيخ القرضاوي عن شيخه : إن «الغزالي» لا يعد من المتصوفين ، ولكن أشهد أن الرجل أقرب إلى الله من كثير ممن زعموا لأنفسهم أنهم أصحاب الأحوال والمقامات ، إنها تقوى الله، وليست دعوى الألسنة ، ولا بريق المظاهر ، ولا حمل الألقاب ، إنه يتحدث عن الله حديث المحب الواله ، لا حديث الناسك المحترف ، ويتكلم عن الله الواحد ، كأنه يراه بين يديه بجلاله وجماله وكماله ، ومن قريب رأيته وقد غلبته الدموع يتحدث عن كلمة التوحيد : عن «لا إله إلا الله» ويقول : إني أحب هذه الكلمة وأود لو أقبلها ، إنها حبي وشوقي وولهي[2].

كما يرى القرضاوي في شيخه «الغزالي» الرجل القرآني الحق ، الذي يعيش بالقرآن ، ومع القرآن ، وللقرآن ، مما جعل معاني القرآن بين يديه ، ومعارفه أمام عينيه ، كأن القرآن جنة يقطف من ثمارها ، أو بستان يتخير من أزهاره ، يقول الشيخ القرضاوي : وهو لا يتعامل مع القرآن بعقله وحده ، بل بعقله وقلبه معاً ، وحين كنا نستمع إليه في صلاة التراويح ونحن في معتقل الطور ، كنا نحس أن للرجل حالاً مع القرآن ، يستبشر بوعده ، ويرتعش من وعيده ، ويتجاوب مع قصصه ، ويحيا في عبره وأيام الله فيه ، فتلاوته ليست تلاوة محترف ولا غافل ، بل تلاوة عقل يقظ ، وقلب مشرق ، ووجدان حي[3].

---

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ص ٣٥٨ .
(٢) انظر : الغزالي كما عرفته ص ١٠١ .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٠٧ .

كما يرى الشيخ القرضاوي أيضاً في شيخه « الغزالي » صفة الإصلاح والتجديد ، وهو وإن كان داعية فإن مجال الدعوة لم يحجبه عن الإصلاح والتجديد ، يقول الشيخ القرضاوي حفظه الله : الشيخ « الغزالي » وإن كان رجل دعوة في المقام الأول ، هو كذلك رجل من رجال التجديد والإصلاح الذين شغلوا بهموم المجتمع من حولهم ، وما تعانيه أمتهم من اختلال في الأوضاع والأنظمة ، ومن فساد في الأفكار والأخلاق .

ولم يكن الشيخ « الغزالي » مصلحاً مصريا ؛ وإن كانت مصر تأخذ الحظ الأول في تفكيره واهتمامه ، ولا مصلحاً عربيا وإن كانت العروبة وعاء الإسلام ، والعربية لسانه ، والعرب حملة دعوته ؛ ولكنه مصلح على مستوى الأمة كلها من المحيط إلى المحيط[١].

وقد حاول الشيخ القرضاوي أن يرد الجميل لشيخه ، وأن يعطيه ولو بعض حقه ، فكتب كتابه « الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن » .

و الشيخ القرضاوي وإن كان يحب شيخه فإنه لا يدعي له العصمة، ولكنه يرفض أن يهضم حقه، أو ينتقص من شانه ، ولذا فهو يقول في مقدمة كتابه عن الشيخ الغزالي : إني لا أزعم أن « الغزالي » مبرأ من العيوب ، فما هو بالملك المطهر، ولا بالنبي المعصوم ، إنما هو بشر يخطئ كما يخطئ البشر، ويصيب كما يصيب البشر، ولكنْ أخطاؤه وزلاته مغمورة في محيط حسناته وميزاته، « وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث »[٢]، فكيف إذا كان بحراً لا تكدره الدلاء ![٣].

وحين أراد أن يصف شيخه وصفاً معبراً قال : إنه الداعية الكبير ، والكاتب القدير، والخطيب الأصيل، أديب الدعوة الإسلامية، ولسانها الناطق بالحق ، الجاهر بالصدق ، المعبر عن خلجات الجماهير ، الذي قاوم الظلم الاجتماعي،

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٢) رواه أحمد (٤٦٠٥) وقال محققوه: صحيح وهذا إسناد حسن، ورواه أبو داود (٦٣) والترمذي (٦٧)، والنسائي (٥٢) وذكره الألباني في صحيح أبي داود (٥٦).

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٧ .

والاستبداد السياسي ، والاستعمار الصليبي ، كما قاوم التدين المغشوش ، والفهم المعلول للإسلام ، ببيانه الزاخر، وأدبه الساخر ، وكتبه التي شرَّقت وغرَّبت : «الشيخ محمد الغزالي»[1].

ولما علم القرضاوي بوفاة شيخه الغزالي رثاه بكلمة تبكي من قرأها، وتدمع عين من طالعها ، وكان مما قاله : وأخيرا هوى النجم الساطع، واندك الجبل الأشم، وطُوي العلم المنشور، وغابت الشمس المشرقة، وترجل الفارس المعلم.. ومات الشيخ الغزالي .

أخيرا فقدت الأمة الإسلامية علم الأعلام، وشيخ الإسلام، وإمام البيان ورجل القرآن[2].

بين الغزالي والقرضاوي في أرائهما :

والمتابع لآراء كل من الشيخين: الغزالي والقرضاوي التجديدية؛ يرى أن الغزالي كان منشأ وأن القرضاوي كان مؤصلا. وأضرب هنا أمثلة بعدد من المسائل التي كان للشيخين فيها رأيا تجديديا :

١ – مسألة الغناء والموسيقى .

٢ – مسألة النقاب والقول بسنيته لا فرضيته .

٣ – مسألة تولي المرأة للمجالس النيابية .

٤ – مسألة سفر المرأة بدون محرم .

٥ – مسألة مساواة المرأة مع الرجل في الدية .

أقول : إن كل هذه المسائل وغيرها إنما تبنى القرضاوي فيها رأي شيخه الغزالي، واستفاد بما كتبه، وأصّل لها، ووسع في أدلتها .

ثالثاً : أهم أساتذته وشيوخه الذين لم يدرسوه :

هناك شيوخ أخذ الشيخ منهم ولكنهم لم يدرسوه ، ومع هذا فقد تركوا في الشيخ أثراً بالغاً ، ومن هؤلاء :

---

(١) انظر : أمتنا بين قرنين ص ١٠٦ .

(٢) انظر : في وداع الأعلام ص ١٢٣ .

الدكتور محمد البهي :

يقول عنه القرضاوي: أستاذ الفلسفة والعقيدة في كلية أصول الدين ، وصاحب المؤلفات المعروفة في الفكر الإسلامي ، مثل « الجانب الإلهي في التفكير الإسلامي » و « الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي »، ولكن من حظي أنه ترك كلية أصول الدين، وانتقل إلى كلية اللغة العربية ليدرس فيها الفلسفة ، ويرأس قسميها عام ١٩٥٠م ، وعملت معه بعد ذلك حين كان مديراً عاما للثقافةالإسلامية(١).

والعجيب أن الشيخ محمد البهي حاول عرقلة سفر الشيخ القرضاوي إلى « قطر » آملاً أن يقبل الشيخ بالسفر إلى « ليبيا » ليكون شيخاً لمعهد « القويري » وقد كان رفض الشيخ القرضاوي لقلة الراتب في « ليبيا »، وقد دعا الشيخ القرضاوي الشيخ « محمد البهي » ليكون أستاذاً زائراً في كلية الشريعة بجامعة قطر كنوع من رد الجميل، وكان من ثناء الشيخ « محمد البهي » على الشيخ القرضاوي بعد أن رأى نشاطه: كان ظني بك في محله ، وأنت العالم المرجو لغد هذه الأمة، وكان يقول لمن يزوره من الأزهريين : إن القرضاوي لم يأخذ حقه، وإن مكانه الصحيح هو مشيخة الأزهر(٢).

الدكتور محمد يوسف موسى :

لم تسعد الأيام الشيخ القرضاوي ليتلمذ على يد الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى ، وإن كان قد تتلمذ على كتبه، وحين يتحدث القرضاوي عن الدكتور « محمد يوسف موسى » فيقول : كان الدكتور راهباً من رهبان العلم والفكر ، لم يتزوج غير العلم والمكتبة ، وكان ضليعاً متمكناً من علوم الفقه والشريعة وعلوم الفلسفة والعقيدة (٣).

ولهذا لما اختار الشيخ القرضاوي بين قسمي كلية أصول الدين أيهما

(١ - ٣) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ص ٤١١ - ٤١٣ .

يختار، علوم القرآن والسنة أم علوم العقيدة والفلسفة ؟ لم يحسم للشيخ القرضاوي هذا الأمر سوى الدكتور «محمد يوسف موسى »، فوجه القرضاوي إلى قسم القرآن والسنة ، وكان مما قاله له : إذا تضلعت في علوم القرآن والسنة أمكنك أن تحترم رسالة الإسلام حقاً ، وأحسب أن لك دوراً إن شاء الله في الاجتهاد والتجديد لهذا الدين أرجو ألا يخيب ظني فيه[١].

ولما ألّف الشيخ القرضاوي كتابه الأول «الحلال والحرام» كان الدكتور «محمد يوسف موسى » من أول من أهدى إليهم الشيخ القرضاوي كتابه، وقال له الدكتور «محمد يوسف موسى »: هذا الموضوع كلف به زميلنا فلان ـ عضو جماعة كبار العلماء ـ وقد كان محتاراً : ماذا يكتب في هذا الموضوع المبعثر والمشتت وقد اقترحت عليه بعض الأشياء، ولكن ما أحسبه يهتدي إلى ما هداك الله إليه ، بورك فيك يا يوسف[٢].

الشيخ محمد الأودن :

قال عنه الشيخ القرضاوي : الرجل الرباني ، الذي كان يتدفق إيماناً وروحانية ، ولم يدرسني في الكلية ، ولكني زرته في بيته في الزيتون ، والتقيت به ، واستمعت إليه ، وهو يعطي جليسه شحنة روحية قوية ، لأن كلامه يخرج من قلبه فيلامس القلوب ، بخلاف من يخرج كلامهم من أطراف اللسان ، فهو لا يتجاوز الآذان [٣].

الشيخ محمود شلتوت :

قال عنه القرضاوي: الفقيه المجدد الذائع الصيت ، الذي كنت أزوره في بيته في حي الظاهر قبل أن ينتقل إلى مصر الجديدة ، وأستفيد من فكره ونظراته التجديدية [٤].

---

(١) انظر : المرجع السابق ج١ص ٤١٣ .
(٢) انظر : المرجع السابق ج٢ ص ٢٩٦ .
(٣) انظر : المرجع السابق ج١ ص ٤١٣ .
(٤) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٤١٤ .

كانت بداية معرفة القرضاوي بالشيخ شلتوت أثناء دراسته في جامعة الأزهر ، وكان القرضاوي يتتبع محاضراته ولقاءاته، وخصوصاً محاضراته في التفسير والتي كان يلقيها في « دار الحكمة » بالقاهرة[1].

ثم توطدت العلاقة أكبر بعد تخرج القرضاوي من الأزهر، وانتقاله من وزارة الأوقاف إلى الأزهر، بعد أن طلب القرضاوي وأخوه العسال من الشيخ شلتوت هذا ، ونقلا فعلاً إلى الإدارة العامة للثقافة الإسلامية ، ولما كان رئيس هذه الإدارة هو الدكتور محمد البهي فقد عهد إلى القرضاوي والعسال بجمع تراث الشيخ شلتوت من الصحف والمجلات [2].

وكانت ثقة الشيخ شلتوت كبيرة جداً بالقرضاوي ؛ ومن ذلك أن الشيخ شلتوت أوكل القرضاوي بسد الفجوات وإكمال النقص إن وجد في بعض المقالات أو الفتاوى ، بل كان يحيل إلى القرضاوي بعض الأشياء المفصلة ليلخصها له ، مثل: رأي ابن القيم في فناء المنار ، ومثل: فتوى إفطار الجنود في الصوم عند قتال العدو ، وقد كتبت باسم الشيخ شلتوت[3].

محمد عبد الله دراز :

يُعد العلامة « محمد عبد الله دراز » من أبرز مشايخ الشيخ القرضاوي وأساتذته ، وقد درس الدكتور « دراز » للشيخ القرضاوي في مرحلة تخصص التدريس بالأزهر ، ولم أجد الشيخ القرضاوي تحدث عن أحد من مشايخه كما تحدث عن العلامة « دراز » حيث يقول عنه : رأيت أنه - « دراز » - ينطبق عليه ما كان يكتبه الأولون عن علمائهم ومؤلفيهم ، مثل : العالم العلامة ، الحبر البحر العلامة ، فهذا ما يمكن أن نقوله عن الشيخ [4].

ويقول : كان يتدفق في معارفه كأنما يغرف من بحر ، ويبهر سامعه كأن

---

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٤١٥ ، ٤١٦ .
(٢) انظر : المرجع السابق ج١ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .
(٣) انظر : المرجع السابق ج١ ص٢٨٣ .
(٤) انظر : المرجع السابق ج٢ ص ٢٨٣ . وانظر : تقديم الشيخ القرضاوى لتراث الشيخ البهي ص ٨ .

كلامه السحر، ويشرح الدقائق فيجليها ، والغوامض فيكشف عن خوافيها ، ويبين معانيها[1].

ويقول عنه أيضاً : لقد أحاط بعلوم الدين من التفسير والحديث والتوحيد والأصول والفقه ، وبعلوم اللغة من النحو والصرف والبلاغة ، وبالأدب وتاريخه، وبالعلوم الإنسانية العصرية .

ويقول : كان الشيخ دراز علماً من أعلام الفكر ، وإماماً من أئمة الدين ، وبحراً من بحور العلم ، وجمع حقاً بين الأصالة والمعاصرة ، فإن شئت نسبته إلى جامع الأزهر فهو ابنه البار ، وإن شئت أن تنسبه إلى جامعة « السربون » فهو من خريجيها الذين تعتز بهم ، وتفخر بانتمائهم إليها[2] .

رابعاً : شخصيات أعجب بها :

هناك شخصيات في حياة الشيخ يوسف أبدى إعجابة بها لما لها من أثر ملحوظ، وتراث واضح ، وفكر نير ، لكنه مع هذا الإعجاب يدرك جيداً أن أحداً من هؤلاء لم يرزق العصمة ، ومع احترامه لهم لا يسلم بكل ما قالوا ؛ لكنه مع تخطئته لهم لا يرى أنه أفضل منهم ، فالفضل أمر بيد الله عز وجل ، ومن هذه الشخصيات :

١ - الإمام ابن حزم :

عرف الإمام « ابن حزم » بمذهبه الظاهري ، وبدت ظاهريته واضحة في كثير من آرائه الفقهية ، وقد كان الشيخ يوسف وما يزال معجباً بهذه العقلية ، وفي ذلك يقول الشيخ : وبالغ الظاهرية في الأخذ بظواهر النصوص ، والاستمساك بحرفيتها إلى حد انتهى بهم إلى أفهام عجيبة ، وآراء غريبة ، ينكرها الشرع والعقل جميعاً ، رغم عبقرية ابن حزم التي تشهد بها آثاره العلمية التي كان فيها نسيجاً وحده[3].

(١) انظر : المرجع السابق ج٢ ٢٨٣ .
(٢) انظر : المرجع السابق ج٢ ٢٨٤ .
(٣) انظر : المرجعية العليا في الإسلام ص ٢٤٤ .

٢- ابن رشد الحفيد :

أعجب الشيخ بشخصية ابن رشد الحفيد ؛ وإعجاب القرضاوي بابن رشد كان لاتساع ثقافته، وانفتاحه على ثقافات الأمم وإطلاعه عليها ، واقتباسه من حقها وصوابها ، وإعراضه عن باطلها وخطئها ، كما يرى فيه الشيخ أنه رجل موسوعي، بل إن الشيخ يعده أحد «الموسوعيين» الكبار في تاريخنا .

وتظهر موسوعية «ابن رشد» في كونه خاض غمار التأليف في نواحي شتّى، فهو كاتب جيد في الفقه المقارن ، ولعل كتابه القيم «بداية المجتهد» أكبر دليل على ذلك ، يقول عنه الشيخ حفظه الله : بل ألف كتاباً في الفقه المقارن كتبه بعقلية الفيلسوف الأصيل، وملكة الفقيه المتضلع ، ودل به على سعة إطلاعه على المذاهب وعلى أسباب اختلافها ، معتمداً أساساً على «الاستذكار» لابن عبد البر ، كما دل على قدرته على رد الأقوال إلى جذورها ، وبيان سبب الخلاف فيها أهو أصولي أم فقهي أم حديثي ؟ إلى آخره .... مع حياد وموضوعية [١].

وكما كتب ابن رشد في الفقه فقد كتب في الفلسفة والطب ، وكانت براعته في الطب و الفلسفة لا تقل عن براعته في الفقه بل تزيد ، وهذا ما جعل الشيخ القرضاوي يعتب عليه ويلومه بقوله: ألا ليت فيلسوفنا وعالمنا الكبير ابن رشد أعطى بعض جهده ووقته للشرعيات مثلما أعطى للعقليات والفلسفيات ، إذن لكان عطاؤه أجزل ، ونفع الأمة به أكمل ؟[٢].

٣ - الشوكاني :

وممن أعجب بهم أيضاً شيخنا في مجال الفقه الإمام العلامة الشوكاني ، يقول الشيخ في كتاب المرجعية العليا للقرآن: وأنا من المعجبين بالشوكاني والقنوجي[٣].

---

(١) انظر : ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق ص ٦١ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٩٨ .

(٣) انظر : المرجعية العليا للقرآن ص ٢٤٩ .

ويذكر الشيخ القرضاوي الإمام «الشوكاني» في عدد المجتهدين فيمدحه بقوله : وفي القرن الثالث عشر يظهر في اليمن الإمام المجتهد المطلق «محمد بن علي الشوكاني» (ت ١٢٥٠ هـ) والذي تجلى اجتهاده في الفروع والأصول في كتبه «نيل الأوطار» و «السيل الجرار» و «الدراري المضيئة» وشرحه «الدرر البهية» و «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول»(١).

لكن إعجاب الشيخ القرضاوي بالعلامة «الشوكاني» لا يجعله عاصماً له، ومن ثم فهو يقول : ولكن لا عصمة لغير رسول الله ﷺ ، و«الشوكاني» على إمامته تبدو فيه أحياناً نزعة ظاهرية (٢).

بل هو أيضا مع إعجابه به فلم يمنعه ذلك من مخالفته له ، وهذا ما أعلنه الشيخ القرضاوي من موقف الإمام «الشوكاني» في تحريم التقليد ، ومن الرأي ، فيقول : ولكني لست معه في تحريم التقليد على عوام الناس ، وتحريم التمذهب عليهم ، بل لا أرى مانعاً من اتباع هؤلاء لإمام من أئمة المسلمين ، والتزام مذهبه، مثل: أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد (٣).

ويقول أيضاً: ولست مع الإمام «الشوكاني» في حملته على «الرأي» الفقهي ، واعتباره كأنه ضد الشرع ، وأنه العمدة في الرواية لا الرأي ، فالحقيقة أن لا فقه بغير رأي ، والرأي المذموم هو ما كان ضد النصوص المحكمة ، أما الرأي فيما لا نص فيه ، وفي حسن فهم النصوص وفقاً للأصول المرعية ، وفي ضوء مقاصد الشريعة وأهداف الدين فلا غنى عنه بحال(٤).

٤- القنوجي :

وممن أعجب بهم أيضاً شيخنا في مجال الفقه العلامة «صديق حسن

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٤٢ .
(٢) انظر : المرجعية العليا للقرآن ص ٢٤٩ .
(٣) انظر : كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف ص ٦٩ .
(٤) انظر : المرجع السابق ص ٧٠ .

خان القنوجي »، تلميذ الإمام «الشوكاني» يقول الشيخ في كتاب المرجعية العليا للقرآن : وأنا من المعجبين بالشوكاني والقنوجي(١).

٥ - محمد رشيد رضا :

ومن الشخصيات التي نالت إعجاب الشيخ القرضاوي ، الإمام «محمد رشيد رضا» صاحب مدرسة المنار، وقد تعرف عليه من خلال مجلته «المنار» يقول الشيخ القرضاوي : وأنا لا أنكر أني من أشد المعجبين بالشيخ رشيد رضا وأعتبره أحد مجددي الإسلام ، وواحداً من أعلامه الراسخين في العلم ، المستقلين في الفكر ، المجتهدين في الدين(٢).

بل يعد الشيخ القرضاوي الإمام «رشيد رضا» شيخاً له فيقول : الشيخ رشيد رضا، هو شيخي وأستاذي الذي أحببته وقدّرته من القدم، والتلميذ لا يبلغ مبلغ شيخه(٣).

ويُظهر القرضاوي أثر مجلة المنار التي كان يصدرها الشيخ «رشيد رضا» وكتبه في العالم الإسلامي فيقول : وقد كان لمجلة «المنار» وتفسيره وكتبه وفتاويه ، أثر لا يجحد في تنبيه الأمة الإسلامية من غفلتها ، وتحريرها من أغلال القيود التي وضعتها في أعناقها، والعمل على إعادتها إلى الينابيع الصافية من كتاب ربها وسنة نبيها وهدي سلفها الصالح في خير القرون .

ويصفه الشيخ بقوله : فهو في طليعة دعاة السلفية، وأنصار السنة المحمدية الذين أحيوا علوم السلف ونوهوا بها، وناصروا المدرسة السلفية بالعقل والنقل(٤).

وعند الحديث عن الشيخ «رشيد رضا» وشيخه الإمام «محمد عبده» يظهر الشيخ القرضاوي ميزات كل واحد منهما فيقول : والسيد «محمد رشيد رضا»

---

(١) انظر : المرجعية العليا للقرآن ص ٢٤٩ .
(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج ٢ ص ٨٣ .
(٣) انظر : تفسير سورة الرعد ص ١٣ .
(٤) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٨٣ .

كان أقرب إلى الانضباط بمحكمات الشرع من شيخه الأستاذ الإمام ، بما له من سعة اطلاعه على كتب السنة والآثار ، وإنتاج المدرسة السلفية التي يمثلها « ابن تيمية » وتلميذه « ابن القيم » ، وهو الذي شنّ حملاته القوية من مجلته العتيدة « المنار » على الجمود والتقليد ، وكتب المقالات الإصلاحية ، والفتاوى العلمية التجديدية ، خلال ثلث قرن من الزمان أو يزيد ، وذاعت اجتهادات الشيخ رشيد رضا، وفتاواه التجديدية في العالم الإسلامي كله ، ولقيت من القبول أكثر مما لقيته اجتهادات شيخه على قلتها.

ويقول أيضاً : ونجد تلميذ الأستاذ الإمام « رشيد رضا » أكثر التزاماً وانضباطاً من شيخه وشيخ شيخه من باب أولى[1] « الأفغاني » .

ثم يقول: والإمام « محمد عبده » أقرب إلى عقلية المتكلمين من أمثال « الباقلاني » و« إمام الحرمين » و« الغزالي » وغيرهم ، والسيد « رشيد رضا » أقرب إلى عقلية « فقهاء المحدثين » الجامعين بين المعقول والمنقول أمثال الإمام « الشافعي » و« ابن دقيق العيد » و « ابن تيمية » و« ابن القيم » و« ابن الوزير »[2].

وإعجاب القرضاوي وحبه لرشيد رضا لا يجعله يدعي له العصمة، ومن ثم فهو يقول: ولا يعني هذا أن الشيخ « رشيد رضا » مبرأ من كل عيب أو معصوم من كل خطأ، فهذا ما لم يقله عن نفسه، وما لا نقوله نحن عنه[3].

ويشيد القرضاوي بسلفية « رشيد رضا » ويمدحه في فكره ومنهجه الجامع بين العقل والنقل، والأصالة والتجديد ، والتجميع لا التفريق، فيقول: وقد كان الإمام « رشيد رضا » مجدد الإسلام في عصره، ومن قرأ تفسيره، أو قرأ فتاواه، أو قرأ كتبه، علم أن فكر هذا الرجل كان يمثل مناراً هادياً في مسيرة الإسلام في العصر الحديث، وكانت حياته العملية مصداقاً لفكرته السلفية، وهو صاحب

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٤٣ .
(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٨٥ .
(٣) المرجع السابق ص٨٣ .

القاعدة الذهبية الشهيرة التي تبناها من بعده الإمام الشهيد «حسن البنا» وهي التي تقول: «نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه»[١].

وكان من إعجاب الشيخ القرضاوي بالإمام «رشيد رضا» أن قام بتأصيل قاعدته المنارية الذهبية الشهيرة، وضمها الجزء الثاني من فتاواه، في عدد من الصفحات عشر صفحات.

كما أنه حين شرع في درس التفسير بدأه بسورة الرعد، وقال: ولهذا حين اقترح بعض الإخوة في الدوحة أن أبدأ من «سورة الرعد» انشرح لذلك صدري لتكون استكمالاً لما بدأته في الجزائر من ناحية، وتحقيقاً لرغبة قديمة من عدد من المحبين كانوا قد طلبوا إليّ أن أكمل تفسير المنار للعلامة المجدد السيد محمد رشيد رضا [٢].

٦ -أبو الحسن الندوي:

علامة الهند، ورباني الأمة، وبقية السلف، العالم العامل، الحبر الكامل، الزاهد المجاهد، صاحب الكتب الفائقة، والرسائل الرائقة، والمحاضرات النافعة، الذي أجمع عليه السلفيون والمتصوفون، والمذهبيون واللامذهبيون، والتقليديون والمعاصرون، الداعية الكبير الشيخ «أبو الحسن الندوي»[٣].

بهذا الوصف تحدث القرضاوي عن الندوي رحمه الله، كما كتب القرضاوي عن العلامة «الندوي» كتاباً أسماه «الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته» وهو يستبعد عدم الكتابة عن مثل هذا الرجل قائلاً: وكيف لا أتحدث عن الإمام الرباني الإسلامي القرآني المحمدي وهو أخي وشيخي وحبيبي [٤].

---

(١) انظر: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة ص ١٠٠.

(٢) انظر: تفسير سورة الرعد ص ١٢. حدثت فضيلة الشيخ وقلت له: لماذا لا تكمل إذاً ما بدأه الإمام رشيد رضا، وما بدأتم به فضيلتكم في الجزائر وهنا في الدوحة، خصوصا وأن تراثكم التفسيري محدود إذا قارناه بغيره؟ فأجاب قائلا: شيخنا رشيد قضى في تفسيره هذا أكثر من ربع قرن، وتريدون مني أن أبدأ الآن؟ هناك أولويات.

(٣) انظر: أمتنا بين قرنين ص ١١٠.

(٤) انظر: الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته ص ١٠.

وقد أوضح القرضاوي سبب حبه للإمام الندوي قائلاً: أحببته لتجرده وإخلاصه وربانيته ، وأحببته ليقينه وتوكله وقوته ، وأحببته لتحرقه وتوقده وغيرته، وأحببته لاعتداله ووسطيته ، وأحببته لنقاء فكره من الخرافة ، وصفاء قلبه من الحسد ، وسلامة عقيدته من الشركيات ، وسلامة عبادته من المبتدعات، ونظافة لسانه من الطعن والتجريح، بالتصريح أو التلميح ، أحببته لانشغاله بالقضايا الكبيرة عن المسائل الصغيرة ، وبالحقائق عن الصور ، وبالمعنى عن المبنى، وبالعمق عن السطح [١].

تعرف القرضاوي على الندوي من خلال كتابه الأول « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » التقى به في مصر وهو طالب ثم تعددت اللقاءات بينهما ، والقرضاوي يؤكد إعجابه بالندوي وتتلمذه عليه فيقول : بل إنني تتلمذت عليه مباشرة باللقيا والسماع منذ لقيته في سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥١ م في مصر وكلما لقيته بعد ذلك ، فهو حفظه الله قدوة في حركته ، وقدوة في سلوكه ، وقدوة في كلامه ، وقدوه في صمته[٢] .

٧ - عبد العزيز كامل :

يعد الدكتور عبد العزيز كامل من الشخصيات التي أعجب بها الشيخ القرضاوي ، كما أنه من الشخصيات التي أثرت فيه فكراً وثقافة ودعوة . يقول الشيخ القرضاوي : كنت من المعجبين بمقالات الدكتور « عبد العزيز كامل » والمداومين لقراءتها[٣].

ويقول عنه : لقد كان للسانه حلاوة ولكلمه طلاوة ولكتاباته تأثير في العقل والقلب معاً [٤].

وقد كانت بداية معرفة الشيخ القرضاوي بالدكتور « عبد العزيز كامل » عن

---

(١) المرجع السابق ص ١٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٤ .
(٣ ، ٤) انظر : ابن القرية والكتاب ج٢ ص ٢٥٢ .

طريق هذه الكتابات التي كان يركز فيها الدكتور «عبد العزيز كامل» في مجلة «الإخوان المسلمون» على التربية الخاصة ، وذلك بغرس الجانب الرباني في تكوين الشخصية المسلمة .

وكانت أول مقابلة للشيخ القرضاوي بالدكتور «عبد العزيز كامل» حين زار «طنطا» قبل حلّ جماعة « الإخوان المسلمون» وكان هذا اللقاء مما زاد إعجاب الشيخ القرضاوي بالدكتور «عبد العزيز كامل» وحبه له [1].

وكان اللقاء الثاني في معتقل «الطور» وتوثقت الصلة أكثر بعد أن كلف الدكتور «عبد العزيز كامل» بقسم «الأسر» في جماعة « الإخوان المسلمون» ، ثم توثقت أكثر بعد لقياهم في «السجن الحربي» .

وازداد اتصال القرضاوي بالأستاذ عبد العزيز كامل فيما بعد، وكان يرافقه في هذا الاتصال صديقه أحمد العسال ، وكان هدف هذا الاتصال كما يقول القرضاوي : للاقتباس منه ، والاقتطاف من ثمار معرفته وخبرته .

وكان هذا الاتصال سبباً في اعتقال كل من القرضاوي والعسال في صيف ١٩٦١م بعد عودتهما من قطر في أول أجازة بأيام [2].

وإعجاب القرضاوي بالدكتور «عبد العزيز كامل» جعله يأسف لعدم جمع مقالات الدكتور لأنها تراث ينبغي الانتفاع به .

٨ - سيد قطب :

لقد أعجب الشيخ القرضاوي بالشهيد «سيد قطب» أيما إعجاب، أعجب بفكره وعطائه، وأعجب بتضحيته وثباته ، كما أعجب بأدبه وبيانه، وقد عده الشيخ من الرجال الذين لهم أثرهم البارز في الصحوة، ولا ينساهم التاريخ فقال: ويذكر منهم الرجل الصلب الذي أوذي في الله فما وهن وما ضعف،

---

(١) انظر المرجع السابق ج٢ ص ٢٥٣.

(٢) انظر المرجع السابق ج٢ ص ٢٥٤..

وما استكان ، وقد قدم عنقه فداء لفكرته .. صاحب القلم البليغ ، والأدب الرفيع، والروح المحلق، والبيان المشرق ، والمنهج الواضح ، والفكر الثائر ، صاحب «التصوير الفني » و «العدالة» و «الظلال» و «المعالم » وغيرها من الكتب التي انتشرت في لغات العالم الإسلامي شرقاً وغرباً الأديب الكبير ، الداعية الشهيد : «سيد قطب»[1].

ومما أعجب به الشيخ في الشهيد اهتمامه بفقه الأولويات ، حيث اهتم الشهيد بالعقيدة قبل النظام، ولذا يقول الشيخ القرضاوي: الشهيد: «سيد قطب» كانت الأولوية عنده للعقيدة قبل النظام ، ولتحقيق حاكميه الله في الأرض، وهذا ما كرره وأكده غاية التأكيد في كتبه الأخيرة وبخاصة «الظلال».

كما عني الشهيد رحمه الله بتصحيح التصور الاعتقادي للإسلام إذ لا يمكن أن يصلح عمل ناشئ عن تصور فاسد أو سقيم، فمتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟[2].

والشيخ القرضاوي يعتبر الشهيد «سيد قطب» ـ رحمه الله ـ إماماً من أئمة الدعوة فيقول في معرض كلامه عن «الحاكمية» : فكرة «الحاكمية» التي نادى به في عصرنا إمامان من أئمة الدعوة والفكر وهما «أبو الأعلى المودودي» و«سيد قطب» ـ رحمهما الله ـ[3].

ولم يكن شعر الشيخ القرضاوي ناسياً لتراث الشهيد سيد قطب ، فكُتُب الشهيد سيد وأخيه «محمد» من أكبر الدلائل التي تدين من وجدت لديه ، وفي الأرجوزة التي كتبها الشيخ بعنوان «الأصوليون» متحدثاً على لسان رجال الأمن يذكر سيد رحمه الله وكتبه فيقول :

بيوتهم تحفل بالدلائل ... على انتمائهم بدون حائل
ستجد السواك والمصاحفا ... والكتب فيها تالداً وطارفا

---

(١) انظر : أمتنا بين قرنين ص ١٦ .
(٢) انظر : في فقه الأولويات ص ١٦ .
(٣) انظر : بينات الحل الإسلامي ص ١٦٠ .

إلى أن يقول :

وكتب القطبين كالظلال   والقرضاوي بعد والغزالي[١]

وقد أثار هذا الإعجاب حفيظة جماعة أطلق عليها « الأحباش »[٢] وقد أرسلوا إلى قناة الجزيرة القطرية رسالة يعددون فيها مآخذهم على الشيخ ؛ ومن بين هذه المآخذ مدح القرضاوي للأستاذ « سيد قطب » وغيره من علماء الإسلام ، وقد جاء في رد الشيخ على هؤلاء : وأنا لم أقل في « المودودي » و« سيد قطب » إلا ما أعتقد أنه الحق، فقد كان الرجلان من حملة الدعوة إلى الله ، ودعاة الإصلاح والتجديد في الإسلام في القرن الرابع عشر الهجري[٣].

ويقول : ودفع « سيد قطب » عنقه فداء لدعوته ، وثمناً لإصراره على عقيدته ، وصدقت مقولته ، ستظل كلماتنا عرائس من الشمع لا إحساس فيها ولا حياة حتى إذا متنا في سبيلها دبت فيها الروح وسرت فيها الحياة ![٤].

وقال : وقف « سيد قطب » ضد الجاهلية بكل صورها ، العقدية والفكرية ، والسلوكية ، ووقف ضد العلمانية الغازية ، ووقف ضد الصهيونية الغاصبة ، والصليبية المعادية ، والدكتاتورية المتسلطة ، وكان قلمه البليغ هو سيفه المصلت في المعركة الحامية الوطيس ، التي سقط فيها شهيد دعوته التي آمن بها وضحى في سبيلها بأغلى ما يضحي به الإنسان[٥].

وقد يعترض البعض على إطلاق لفظ شهيد على الأستاذ

---

(١) انظر : المسلمون قادمون ص ١١٨ .

(٢) الأحباش : طائفة ضالة تنتشر في لبنان بصورة تثير الريبة ، ولها وجود في أوربا وأمريكا وكندا واستراليا ، تنتسب إلى رجل يدعى عبد الله الحبشي ، ظهرت حديثاً في لبنان مستغلة ما خلفته الحروب الأهلية من فقر وجهل في الدعوة إلى مبادئها الهدامة ، وإحياء الكثير من الأفكار والمعتقدات الباطلة التي عفى عليها الدهر ، وقد تصدى لهم عدد من علماء أهل السنة وأفتوا بضلالهم وانحرافهم . انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة د: مانع بن حماد الجهني ج١ ص ٤٣٠ وما بعدها ط الثانية دار الندوة العالمية للطباعة ١٤١٨ هـ .

(٣، ٤، ٥) فتاوى معاصرة ج٣ ص ٦٩٩ وما بعدها .

« سيد قطب » رحمه الله ، فيدلل الشيخ القرضاوي على استحقاق الشهيد لهذا الوصف بقوله : إذا قلت عنه شهيد فلأنه قتل مظلوماً دفاعاً عن عقيدته ودعوته ، وفي الحديث « سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله »(١)، (٢).

ولم يقف الشيخ القرضاوي من الشهيد سيد قطب وآرائه موقف التقديس بل أخذ منها وترك، واتفق معه واختلف، ولكنه يؤكد على عدم انتقاصه من قدره فيقول : ولكن هذا لا يسقط اعتبار سيد قطب، أو ينزل من قيمته، أو يقصر من قامته ، أو يخفض من هامته ، فالرجل - بإجماع من أحبه ومن كرهه - عملاق من عمالقة الدعوة الإسلامية في عصرنا رضي بذلك من رضي ، وسخط من سخط (٣).

ويقول أيضاً : فأنا وإن كنت معجباً بـ « سيد قطب » ومحباً له ، ومقدراً لعبقريته وإخلاصه ، لا أقدسه كما لا أقدس « المودودي » ولا « حسن البنا » ، ولا غيرهم من المجددين(٤).

ولذلك وقف الشيخ القرضاوي معترضاً على ما قاله الشهيد في كتابه « معالم في الطريق » و « الإسلام ومشكلات الحضارة » حول الاجتهاد المعاصر ، والذي تدور فيه فكرة الشهيد بأن هذا المجتمع يرفض الحاكمية لله تعالى ، ومن ثم فإن أي بذل للجهد بحثاً عن الحلول للمشكلات القائمة يعد في نظر الشهيد عبثاً ولهواً .

وهنا انبرى الشيخ القرضاوي ليرد على الأستاذ الشهيد؛ لكنه في رده لم يتجاوز الموضوعية المطلوبة ، بل قدم بين يدي نقضه قوله : لكن الذي أقوله بصراحة : إن رأي صاحب « العدالة » أقرب إلى السداد - في نظري - من رأي صاحب « المعالم »(٥).

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه وقال : صحيح الإسناد ، وتعقبه الذهبي بأن في إسناده الصفار ، لا يدرى : من هو؟ (٣١٩٥)، ورواه الطبراني في الأوسط (٤٠٧٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٧٤) من طريق رواها الخطيب في تاريخه . وحسنه الألباني أيضا في صحيح الجامع (٣٦٧٥،٣٦٧٦).

(٢، ٣، ٤) المرجع السابق ج٢ ص ٧٠٠.

(٥) انظر : الاجتهاد المعاصر ص ١٣١ .

ثم يقول : وهو على كل حال في رأيه هذا مجتهد في طلب الحق وبيانه ، وهو اجتهاد بشر غير معصوم ، فيؤخذ منه ، ويرد عليه ، ولكنه غير محروم من الأجر ، أصاب أم أخطأ ، رحمه الله وجزاه بنيته واجتهاده خير ما يجزي العاملين المخلصين .

ويقول : إن صاحب هذا الرأي رجل عزيز على أنفسنا ، حبيب إلى قلوبنا، لأنه قدّم الكثير للفكر الإسلامي ، ثم قدَّم حياته ودمه فداء لدعوة الإسلام، وكلمة الإيمان ، ذلكم هو الشهيد «سيد قطب» عليه رحمه الله ورضوانه[1].

٩ - أبو الأعلى المودودي :

يعد أبو الأعلى المودودي علماً من أعلام الدعوة البارزين، والمفكرين المبدعين، والأدباء الموهوبين في العصر الحديث، وكان للأستاذ المودودي حضور بارز على الساحة الإسلامية، واستطاع أن يترك أثراً بالغاً في المكتبة والثقافة الإسلامية؛ بكتبه ورسائله التي شرقت وغربت، حتى انتفع بها الخاصة والعامة، والأفراد والجماعات .

والشيخ القرضاوي من الشخصيات التي أعجبت بشخصية الأستاذ المودودي، وكثيراً ما يتحدث الشيخ عن هذه الشخصية في كتبه وخطبه ومحاضراته، كما أنه ينقل عنه، ويستشهد بكلامه، ويستأنس بمواقفه، ويثني على جهده وجهاده .

وحين يتحدث الشيخ القرضاوي عن الأستاذ المودودي فعادة ما يصفه بالأستاذ أو الشيخ أو الإمام، وللشيخ القرضاوي كتاب أفرده للحديث عن المودودي وفكره[2].

وحين تحدث الشيخ القرضاوي في كتابه «أمتنا بين قرنين» عن الدعاة المصلحين، والأئمة الربانيين، الذين عملوا في ميدان الإصلاح والتربي، وكانت

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ١٠١ .

(٢) الكتاب تحت الطبع وهو بعنوان (نظرات في فكر الإمام المودودي) .

أعمالهم موقظة للقلوب، محركة للمشاعر، مصححة للمفاهيم، مقاومة للاستعمار، جعل الشيخ القرضاوي ضمن هؤلاء الإمام المودودي، فقال : ويذكر منهم المفكر المجدد، صاحب النظر العميق، والتحليل الدقيق، ناقد الحضارة الغربية على بصيرة، والداعي إلى نظام الإسلام عن بينة. صاحب الكتب والرسائل التي ترجمت إلى عشرات اللغات، الذي وقف في وجه دعاة (التغريب) و(أعداء السنّة) والمنادين بنبوة جديدة (القاديانيين)، و(المرتزقة) من الخرافيين والقبوريين، و(مشوّشي الفكر) من المقلدين الجامدين[١].

وقد جعل الشيخ القرضاوي الإمام المودودي رجل فكر من الطراز النادر، والنوع المميز، فقال : فقد عالمنا الإسلامي في غرة ذي القعدة سنة ١٣٩٩هـ الموافق ٢٣ / ٩ / ١٩٧٩م مفكرا إسلاميا عالميا فذا، قلما يتكرر مثله في الأمم. ذلكم هو الأستاذ أبو الأعلى المودودي[٢].

وإذا كان من المفكرين من يكتفي بالجانب النظري، مكتفياً أن يكون هذا الفكر وليد كُتُب تُقْرأ، أو محاضرات تُسمع، أو كلمات تحفظ، فإن المودودي لم يكتف بهذا الجانب بل سلك الجانب الآخر وهو جانب العمل والحركة، وهذا مما أعجب به القرضاوي في شخصية المودودي، يقول الشيخ القرضاوي: وميزة أخرى للمودودي بين المفكرين: أنه لم يكن مجرد مفكر أكاديمي، أو مصلح نظري، يعيش في برج عاجي، أو في صومعة منعزلة، يفرغ فكره الإصلاحي على الورق، ثم لا يتحمل تبعة بعد ذلك، لقد كانت للمودودي بجوار رسالته الفكرية العظيمة: رسالة عملية أخرى لا تقل عظمة عن الأولى، وهي: أن يحوّل فكره إلى حركة: وحركة إيجابية بناءة، تعمل على (تأليف الرجال) بعد تأليف (الكتب والرسائل).

كان الأستاذ المودودي أحد الرجال القلائل الذين جمعوا بين الفكر والحركة، أو بين العمل العلمي والعمل التنظيمي والدعوي[٣].

---

(١) انظر : أمتنا بين قرنين ص ١٠٥، ١٠٦ .
(٢) انظر : نظرات في فكر المودودي ص ١، ٢ .
(٣) انظر : نظرات في فكر المودودي ص١٨ ، ص ٢٧، ٢٨ .

ومما أعجب به القرضاوي أيضاً في الإمام المودودي هو إدراكه لفقه الأولويات؛ هذا الفقه الذي يغفل عنه كثير من الدعاة، يقول الشيخ: والإمام أبو الأعلى المودودي كانت الأولوية عنده لمحاربة «الجاهلية» الحديثة، ورد الناس إلى الدين والعبادة بمعناها ألشامل، والخضوع لـ «حاكمية الله» وحده، ورفض حاكمية المخلوقين، أيا كانت منزلتهم أو وظيفتهم، مفكرين أو قادة سياسيين، وإنشاء إسلامية متميزة، ترفض فكرة الغرب في المدنية والاقتصاد والسياسة وحياة الفرد والأسرة والمجتمع، وتتخذ منهجا خاصا في الانقلاب أو التغيير، وظهر له في ذلك كتب ورسائل جمّة، عبّرت عن فلسفته في الدعوة إلى الإسلام وتجديده، وقامت جماعته على تبنيها ونشرها[١] .

وبالرغم من هذا الحب الفياض الذي ملأ جوانب القرضاوي تجاه الإمام المودودي ، إلا أن الشيخ القرضاوي لم يستطع أن يمنع قلمه من إبداء بعض الملاحظات علىَ هذا العلم الجهبذ، وهذه هي طبيعة البشر، فالكمال عزيز .

ومما أخذه الشيخ القرضاوي على الإمام المودودي – وغيره من الدعاة – قسوته وشدته في الحكم على التاريخ الإسلامي ومبالغته في نقده، وتضخيم بعض هنّاته، وإخفائه حسناته، يقول القرضاوي: نذكر من هؤلاء الدعاة الكبار: ثلاثة لهم باعهم الطويل، وجهادهم النبيل، في سبيل الدعوة إلى الإسلام، وإحياء أمته، وإيقاظ شعوبه، ومقاومة أعدائه، وتحرير أوطانه، وتوحيد كلمة الأمة على الإسلام، وتصحيح مفاهيمها المغلوطة عنه، وتجنيد أبنائها للدفاع عنه، والتضحية في سبيل إعلاء كلمته بالنفس والنفيس، جاعلين صلاتهم ونسكهم ومحياهم ومماتهم لله رب العالمين.

هؤلاء الثلاثة هم الأساتذة: أبو الأعلى المودودي، سيد قطب، محمد الغزالي[٢].

---

(١) انظر: في فقه الأولويات ص ٢٣٠ .

(٢) انظر: تاريخنا المفترى عليه ص ٤٦ .

وبعد أن يعد الشيخ القرضاوي هؤلاء الأعلام الثلاثة، يتجه إلى الإمام المودودي وكلامه في كتاب الخلافة والملك فيقول: أول هؤلاء الدعاة هو العلامة الكبير الشيخ أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية مؤسسها في الهند الكبرى.

والحق أنني عندما قرأت كلام الأستاذ المودودي عن التاريخ الإسلامي، وعن الحضارة الإسلامية: قفّ شعري، وارتعدت فرائصي! وإني لأعجب كل العجب أن يغلو في حكمه هذا الغلو، على فضله وسمو منزلته، وعلو كعبه في سعة العلم، وعمق الفكر، وامتلاك الحاسة النقدية[1].

ولكن الشيخ القرضاوي مع هذا النقد الواضح للإمام المودودي، يعود ثانية وينصح بقراءة فكره على تؤدة، وجمع المتفرق من كلامه، وضم بعضه إلى بعض، حيث يظهر إنصاف للتاريخ الإسلامي، والحضارة الإسلامية، والخلافة الإسلامية، يقول القرضاوي: والإمام أبو الأعلى المودودي - برغم شدته المفرطة على التاريخ الإسلامي ، وقسوته البالغة في نقد الحضارة الإسلامية - لم يملك رحمه الله إلا أن يعترف بإسلامية الشعوب، وبتأثير الإسلام في كثير من الملوك والحكام، كما أقر بكثرة الأتقياء والصالحين منهم، كما لم يعرف في تاريخ آخر.

ولهذا أنصح من يقرأ للعلامة المودودي: أن يضم كلامه بعضه إلى بعض، حتى يخرج من مجموعه بصورة تكشف عن حقيقة رأيه، ولا يقتصر على ما سطره في كتاب أو كتابين من كتبه الغزيرة، أو في موضع واحد من كتاب، دون أن يقرأ ما كتبه في موضع آخر[2].

وكما دافع الشيخ القرضاوي عن الشهيد سيد قطب فيما عرف بالحاكمية، دافع كذلك عن الإمام المودودي، وذكر الشيخ القرضاوي أن هذه الحاكمية ليست من اختراع المودودي ولا قطب، وإن كان المودودي أول من نادى بها، وقطب اقتبسها منه، إلا أن الفكرة كما يقول القرضاوي: صحيح أن قضية (الحاكمية) قد ألح عليها الأستاذ المودودي إلحاحا بينا، حتى تكاد تعتبر هي المحور المركزي الذي يدور حوله كثير من أفكاره ونظراته.

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٤٧ .

(٢) انظر: المرجع السابق ص٦٨، ٦٩ ، وانظر: نظرات في فكر المودودي ص٥٧ .

والفكرة في ذاتها إسلامية أصولية صحيحة، وقد سبق أن قررها علماء أصول الفقه من قرون[1].

وبعد أن يطيل الشيخ القرضاوي النقل من كلام الإمام المودودي عن الحاكمية ، يعود ليقرر أن نظرة المودودي للحاكمية هي نظرة القرضاوي إليها، فيقول: أعتقد أننا وجدنا المودودي - في هذه النقول التي أوردناها - ينظر إلى موضوع الحاكمية نظرتنا إليها، ويتيح للعقل المسلم أن يكون له دور في التشريع أو التقنين للأمة عن طريق الاجتهاد، الذي لا زال بابه مفتوحا لأهله في محله[2].

خامساً : شخصيات لها أثر في حياته الدعوية :

تأثر الشيخ القرضاوي في حياته الدعوية بأشخاص عدَّة ، ظهر ذلك واضحاً في منهجه الدعوي، وأسلوبه الخطابي، وحياته الفكرية والروحية والتربوية، وقد اختلفت هذه الشخصيات في توجهاتها المدرسية، فمنها: شخصيات غلب عليها الجانب الروحي، وأخرى غلب عليها الجانب الفكري، وثالثة تمثل الجانب الحركي ، بعضها صوفي الوجهة ، وبعضها سلفي الاتجاه ، لكن الحق يقال : إن القرضاوي لم يقلد واحداً منهم ، ولم يتقمص شخصية أحدهم ، بل صهرت هذه الشخصيات في بوتقة واحدة أفرزت شخصية مزجت هذه الشخصيات كلها، فأسفرت عن شخصية جديدة هي: الشخصية «القرضاوية».

ومن أهم هذه الشخصيات :

١ -الإمام الغزالي :

تعرف القرضاوي على حجة الإسلام أبي حامد الغزالي مبكراً في صباه ، إذ يقول عن أول معرفته به : شاء القدر أن يهيئ لي كتابين كلاهما للغزالي:

أحدهما: وجدته بين كتب زوج خالتي وكان رجلاً صالحاً، حافظاً لكتاب الله ، هذا الكتاب هو « منهاج العابدين ».

---

(١) انظر: نظرات في فكر المودودي ص٦٦ .
(٢) انظر: المرجع السابق ص٧٢ .

والثـــاني: «إحياء علوم الدين» فقد كان يقتنيه جار لنا من نبهاء أهل القرية؛ وهو الشيخ «بيومي العزوني»، ولما رآني الشيخ بيومي حريصاً على الكتاب تركه لي هدية [1].

وقد تملك إعجاب القرضاوي بالغزالي جميع جوانبه، حتى عدّه عالماً موسوعياً فيقول: وهو بلا ريب أحد أعلام الفكر الإسلامي بوجه عام، كما أنه أحد العباقرة الذين تعددت جوانب نبوغهم وعطائهم، الجامعين للمعرفة الموسوعية التي شملت العلوم الشرعية في عصره، إذا استثنيت علم الحديث الذي اعترف «الغزالي» أن بضاعته فيه مزجاة [2].

وعلى الرغم من تأثر القرضاوي بكتابات «الغزالي» لدرجة الرقة والبكاء بالرغم من هذا كله؛ فإن هذا التأثر لم يمنع القرضاوي من إظهار ملاحظاته على ما في هذه الكتب وغيرها فيقول عن كتاب «منهاج العابدين»: وقد وجدت متعة كبيرة في قراءة هذا الكتاب، واستعنت به في دروسي ووعظي في تلك المرحلة، وإن كان لي عليه مآخذ وملاحظات وخصوصاً في باب التوكل والزهد، وما فيه من توجيهات حكايات تتسم بالمبالغة والإفراط.

ويقول عن الإحياء: كتاب الإحياء الذي أمسى غذاءنا وفاكهتنا عصر كل يوم في إجازات الصيف وخصوصاً ربع «المهلكات» وربع «المنجيات» منه، مع تحفظي شخصياً على بعض ما فيه من غلو لم يكن ملائماً لطبيعتي [3].

ويقول أيضا مؤكداً إصابة «الغزالي» ببعض آثار الفلاسفة: ومع هذا لم يسلم «الغزالي»، بعد خوض هذه اللجج العميقة، ومصارعة هذه التيارات والأمواج المتلاطمة، من أن يصيبه بعض الآثار، أو بعض الجراحات، وإن لم يعترف هو بشيء من ذلك، ولكن شأن الإنسان أن يتأثر ويؤثر، شعر أم لم يشعر [4].

---

(1) انظر: الحياة الربانية والعلم ص ٨، ٩ بتصرف.
(2) انظر: الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ص ١٩.
(3) انظر: الحياة الربانية والعلم ص ٨.
(4) انظر: ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق ص ٨٨، ٨٩.

٢ ، ٣ - ابن تيمية وابن القيم: [1]

استطاع القرضاوي أن يجمع إلى روحانية «الغزالي» سلفية كل من ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وربانيتهما، ويرى أن «أبرز من دعا إلى السلفية ودافع عنها في العصور الماضية هو: شيخ الإسلام «ابن تيمية» وتلميذه «ابن القيم»[2].

ويرى القرضاوي أن انتماءه لمدرسة « ابن تيمية» و«ابن القيم» تكميلٌ لمدرسة «الغزالي» لا هدم لها فيقول حفظه الله : وبعد أن أتيح لي الاطلاع على مدرسة شيخ الإسلام «ابن تيمية» وتلميذه « ابن القيم» وغيره ، وجدت فيها ألواناً من التجديد لم تكن في مدرسة الإمام «الغزالي»، واعتبرت أن هذه المدرسة تكمل السابقة ، وبينهما تكامل لا تضارب، وتناسق لا تنافر، وهذا لعله نهج لي في مساري الفكري ، فأنا لا أتعصب لمدرسة بعينها ، ولا لشيخ بعينه ، بل أنظر إلى الجميع نظرة من يأخذ من كل واحد خير ما عنده ، على نهج ما قال بعض السلف الصالح : خذ ما صفا ودع ما كدر[3].

وكانت النظرة الشمولية التجديدية المتوازنة من أهم ما لفت نظر القرضاوي في مدرسة «ابن تيمية» وتلميذه « ابن القيم» ويؤكد ذلك قائلاً : اتصلت اتصالاً أعمق بالمدرسة السلفية وإماميها المجددين: « ابن تيمية» وتلميذه «ابن القيم»، وقد أعجبت بالنظرة الشمولية التجديدية المتوازنة في هذه المدرسة ، ومقاومتها لما دخل على الإسلام من تحريفات وانحرافات في الفكر أو في السلوك[4].

وقد أعلن القرضاوي حبه الفائض لشيخ الإسلام فقال: والإمام

---

(١) أدمجت الحديث عن ابن القيم وشيخه لأن الشيخ القرضاوي كثيراً ما يتحدث عنهما معاً ، ونادراً ما يفرد القول عن أحدهما .

(٢) انظر : أوليات الحركة الإسلامية ص ٩٧ .

(٣) انظر : لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر ج١ ص ١١٥ .

(٤) انظر : الحياة الربانية والعلم ص١٠ .

« ابن تيمية » من أحب علماء الأمة - بل لعله أحبهم - إلى قلبي وأقربهم إلى عقلي[1].

وينكر الشيخ على من يحاول إظهار الجانب العلمي والفكري فقط في حياة كل من الإمامين المباركين ، لذا فتراه يعبر عن هذا الظلم بقوله : كما أن من الظلم للشيخين أن يذكر الجانب العلمي والفكري في حياتهما، وتنسى الجوانب الأخرى المضيئة في سيرتهما الحافلة، ينسى الجانب الرباني الذي جعل رجلاً مثل « ابن تيمية » يقول : إنه لتمر علي أوقات أقول فيها : لو كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه لكانوا في عيش طيب! ويقول في محنته وسجنه : ماذا يستطيع خصومي أن يصنعوا بي؟ سجني خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة !

فهو رجل رباني ذوّاق ، وكذلك تلميذه « ابن القيم » كما يلمس ذلك كل من قرأ كتبه، وكان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

وينسى جانب الدعوة والجهاد في حياتهما ، وقد شهد « ابن تيمية » بعض المعارك العسكرية بنفسه مشاركاً ومحرضاً ، وعاش الإمامان مجاهدين لتجديد الإسلام ، وأدخلا السجن في ذلك عدة مرات حتى مات شيخ الإسلام في سجنه عام ٧٢٨ هـ [2].

ويقول في كتاب آخر : وكان « ابن تيمية » وتلميذه من كبار الأئمة الربانيين أرباب القلوب الحية ، والنفوس الذكية ، والأرواح الموصلة بالملأ الأعلى[3].

ويتأثر الشيخ بأقوال الإمامين وأفعالهما فتراه يعلق بتعليقات تظهر مدى إعجابه وتقديره، فيقول معلقا على موقف الإمام « ابن تيمية » عندما مر على جنود التتار ورآهم سكارى وقد أنكر البعض عليهم ، فقال « ابن تيمية » : دعهم في سكرهم فإنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء

---

(١) انظر : كيف نتعامل مع السنة ص ١٧

(٢) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٩٩ .

(٣) انظر : التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا ص ٨٤ .

تصدهم الخمر عن قتل الأنفس ونهب الأموال، قال القرضاوي معقباً : وهذا هو الفرق بين « الفقيه الحرفي » أو ما سميته « فقيه الأوراق » وبين فقيه الحياة أو فقيه الميدان والمعركة ، الأول أنكر المنكر الذي رآه دون اعتبار للمقصد والواقع ، والثاني نظر إلى الواقع في ضوء المقاصد فقال ما قال [1].

ويذكر الشيخ القرضاوي كلام الإمام « ابن القيم » في « إعلامه » في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد ثم يعقب على كلام « ابن القيم » قائلاً : وهذا كلام ينبغي أن نعض عليه بالنواجذ ، وأن نواجه به الجامدين الذين يتمسحون بـ« ابن القيم » وشيخه « ابن تيمية » ، ولكنهم لم يحملوا عنهما هذه الروح ، وهذه البصيرة، التي تنظر إلى الشريعة هذه النظرة [2].

ويعلق أيضاً على كلام شيخ الإسلام في موضوع آخر قائلاً : وهذا هو اللائق بإمام مثل ابن تيمية الذي جمع بين العقل والنقل ، ووسع علمه تراث السلف ومعارف الخلف ، وتهيأ له من أدوات المعرفة ما لم يتهيأ لغيره إلا مَنْ مَنَّ الله عليه بفضله ، وقليل ما هم [3].

ولكن حب القرضاوي لشيخ الإسلام وتلميذه لم يمنعه من مخالفتهما ، مع بقاء الحب واستمرار التقدير ، فيقول حفظه الله : وهذا موقفي من الإمامين « ابن تيمية » و « ابن القيم »، فأنا أحترم منهجهما الكلي ، وأتفهمه تماماً ، ولكن هذا لا يجعلني آخذ بكل ما ذهبا إليه من أقوال [4].

ويقول أيضاً معلقاً على إنكار شيخ الإسلام المجاز في القرآن والسنة :ولكني أخالفه هنا كما خالف هو الأئمة من قبله ، وكما علمنا هو أن نفكر « لا نقلد »، وأن نتبع الدليل لا الأشخاص، ونعرف الرجال بالحق ، لا الحق بالرجال ، فأنا أحب « ابن تيمية » ولكني لست تيمياً [5].

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ١١٠ .
(٢) انظر : المرجعية العليا للقرآن ص ٢٣٥ .
(٣) انظر : كيف نتعامل مع القرآن ص ٢٩٣ .
(٤) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٩٨ .
(٥) انظر : كيف نتعامل مع السنة ص ١٧٠ .

إن الذي يمنع القرضاوي من موافقة الإمامين في كل ما ذهبا إليه هو إنكاره للتقليد، وهذا هو روح ما دعا إليه الإمامان الجليلان ، ومن ثم فتراه يقول: ولو فعلت ذلك — الأخذ بكل ما ذهبا إليه من أقوال - لكنت تابعاً مقلداً لهما في كل شيء ولخالفت منهجهما الذي دعوا إليه ، وأوذيا في سبيله ، وهو منهج النظر واتباع الدليل ، والنظر إلى القول لا إلى قائله ، وأي معنى للإنكار على من قلد «أبا حنيفة» أو «مالكاً» إذا قلدت أنت «ابن تيمية» أو « ابن القيم » ؟!(١)

ومن الأمور التي خالف فيها القرضاوي كلاً من الإمامين الجليلين ؛ قضية الغناء ، ولهذا قال القرضاوي بعد أن ذكر موقف الإمام « ابن القيم » : وأحب أن أقرر هنا : أني من تلاميذ مدرسة الإمامين المجددين : شيخ الإسلام أبي العباس ابن تيمية، وتلميذه الإمام أبي عبد الله بن القيم . ولكن تلمذتي لهما تعني: اتباع منهجهما، لا الأخذ بأقوالهما في كل مسألة، فهذا هو التقليد الأعمى الذي رفضاه وأنكراه .

ولقد قرأت أكثر كتب ابن القيم ونهلت من معينها ، واستفدت منها كثيراً، ومنها كتاب «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان » وهو الكتاب الذي عرض فيه بتوسع مسألة الغناء ، وذهب إلى تحريمه ، وحمل على من أجازوه حملة شعواء ، كما اطلعت أخيراً على كتابه الآخر ، الذي صنفه مستقلاً في الموضوع ، وسماه « كشف الغطاء في مسألة الغناء» .

وإني - مع إعجابي بابن القيم ، وأصالة فقهه ، وخصوبة فكره ، وسعة علمه، وقوة منطقه ، وروعة أسلوبه ، وحرارة دفاعه وهجومه - لم أقتنع بما ساقه من أدلة لتحريم الغناء ، وكان في هذا الموقف واعظاً أكثر منه فقيهاً . وقد حاول أن يقوي الضعيف ، ويضعف القوي ، ويصل المقطوع ، ويرفع الموقوف ، ويستدل بالمحتملات ، ومع أنه رضي الله عنه أجلب بخيله ورجله ، لم يستطع أن يهدم جميع حجج المجيزين للغناء .

---

(١) انظر : أوليات الحركة الإسلامية ص ٩٩ .

إني - وإن خالفت في هذه القضية الإمام ابن القيم - لم أخالف منهجه ، وهو اتباع الدليل لا اتباع الرجال . ولا عصمة لأحد دون رسول الله ﷺ [1].

٤ – حسن البنا : « أعظم الشخصيات التي أثرت في فكري ومشاعري وسلوكي هي شخصية الإمام حسن البنا »[2] . هكذا قال الشيخ القرضاوي عن شيخه الإمام « حسن البنا » .

لم يكن الكلام هو كلام الشيخ القرضاوي وحده ، بل هو كلام الدعاة المربين والعلماء الربانيين ، لقد وصفه « الغزالي » رحمه الله بانه مجدد القرن الرابع عشر الهجري ، وقال عنه الشيخ « أبو الحسن الندوي » « الداعية العبقري » ، وقال عنه الأستاذ « عمر التلمساني »، « القائد الملهم الموهوب »، وما أجمل قول الشهيد سيد قطب حين وصفه بقوله: في بعض الأحيان تتبدد المصادفة العابرة كأنها قدر مقدور وحكمة مدبرة في كتاب مسطور « حسن البنا » إنها مجرد مصادفة أن يكون هذا لقبه ... ولكن من يقول إنها مصادفة ، والحقيقة الكبرى لهذا الرجل هو البناء و إحسان البناء بل عبقرية البناء ؟

وما أجمل ما قاله هو عن نفسه حين سأله أحد الصحفيين ما أنت ؟ فقال : أنا سائح يبحث عن الحقيقة ، وإنسان يفتش عن معنى الإنسانية في الناس بمصباح « ديوجين » فنادى في الناس : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وكغيره أعجب القرضاوي بإمامه « البنا »؛ بل إنه يجعل لقاءه بالبنا إحدى حادثتين مهمتين كانتا في عام واحد ، الحادثة الأولى: لقاؤه بالإمام « حسن البنا » والحادثة الثانية: وفاة أمه [3].

وكان أول لقاء رأى فيه القرضاوي شيخه « البنا » وهو في السنة الأولى من

---

(١) انظر : فقه الغناء والموسيقى في ضوء القرآن والسنة ص ٦٤ ، ٦٥ .
(٢) انظر : لقاءات ومحاورات ج ١ ص ١١٥ .
(٣) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ص ١٥٩ وما بعدها .

المرحلة الابتدائية حين زار الإمام «طنطا»، وقد أولع القرضاوي بما سمع من حديث عن الهجرة، لم تسمع أذناه مثله من قبل.

وعندما يتحدث القرضاوي عن إمامه فيصفه بأنه «القائد المنتظر» وأنه «رجل المرحلة»، إنه يرى أن «حسن البنا» كان قدراً مصنوعاً وحكمة مدبرة لبعث هذه الأمة؛ لذا فهو يقول: كان القدر الأعلى يصنع على عينه رجلاً يعده لمهمة، ويسد به ثغرة، كان الرجل هو «حسن البنا»، وكانت المهمة هي إيقاظ الأمة من رقود، وبعثها من همود، وتحريكها من جمود، وبعبارة أخرى إحياء عقل الأمة وضميرها، وتفجير طاقاتها المكنونة بتجديد الإسلام فيها، وجمعها على رسالته، والإيمان به هدفاً ومنهاجاً للحياة، والجهاد في سبيل تمكينه في الأرض.

كانت الأمة في حاجة إلى عقل جديد، وقلب جديد، وعزم جديد، ودم جديد، وكانت في حاجة إلى أن تتجسد هذه المعاني في رجل يضع يده في يد الله، لينير له الطريق، ويهديه السبيل [1].

ويقول أيضاً: وقد كان وضع العالم الإسلامي عامة ووضع مصر خاصة يحتاج إلى رجل ذي فكر ثاقب، وحس مرهف، وإيمان دافق، وإرادة صلبة، يشعر بما تعانيه الأمة من أمراض وآلام، ويقدر على تشخيص الداء، ووصف الدواء، ويصبر على متابعة مريضه، حتى ينتقل به من مرحلة السقام إلى العافية؛ ومنها إلى مرحلة القوة، كان هذا الرجل المنشود أو القائد المنتظر هو «حسن البنا»[2].

ولقد كان القرضاوي حريصاً كل الحرص على سماع الإمام البنا، وقد سافر أكثر من مرة ليستمع إليه في مدن الوجه البحري بمصر، وحين يسمع القرضاوي شيخه وهو يقول: «الناس في حاجة إلى رجل ذي قلب يفيض من قلبه على

---

(١) انظر: الإخوان المسلمون ص ٤٨.
(٢) انظر: المرجع السابق ص ٤١.

قلوب من حوله ، ومن هذا الفيض الرباني يفيضون على من حولهم ، وبهذا يتحولون من حال إلى حال ، ويخرجون من الظلمات إلى النور » ، فيعقب قائلاً : وكان حسن البنا يتحدث عن نفسه ، فهو الرجل المنشود « ذو القلب » ، كما أنه أيضاً « ذو العقل »، والإسلام أبداً يقوم على القلب النقي ، و العقل الذكي ، وهما يثمران العزم النقي ، والسلوك السوي (١).

ويرى القرضاوي في الإمام الشهيد قائداً بالفطرة والخبرة والثقافة ، فيقول وهو يعدد عوامل نجاح حركة الإخوان المسلمين : ومن ضمن هذه العوامل: قائد مرب بفطرته وبثقافته وبخبرته ، وهبه الله شحنة إيمانية نفسية غير معتادة، أثّرت في قلوب من اتصل به ، وأفاض من قلبه على قلوب من حوله ، وكان أشبه بـ « المُولِّد » أو « الدينامو » الذي ملأ منه الآخرون بطاريات قلوبهم (٢).

ويرى القرضاوي أن وظيفة إمامه كانت هي البناء ، و أن الإمام كان له من اسمه نصيب فيقول : كان حسن البنا مؤسس الحركة له من اسمه نصيب أي نصيب، فكان حقاً رجل بناء لا رجل هدم ، ورجل عمل لا رجل كلام ، ورجل واقع لا رجل خيال (٣).

وقد أعجب القرضاوي كذلك بإيجابية الإمام البنا فيقول : هكذا أراد البنا لدعوته وحركته أن تكون دعوة عمل وبناء وإنتاج ، لم يرد لها أن تكون مجرد حركة أكاديمية أو فلسفية ، تعيش في أبراج عاجية تتخيل جمهورية مثالية ، كجمهورية أفلاطون ، أو مدينة فاضلة كمدينة الفارابي ، وإن كان للفكر والعلم فيها مكان أي مكان (٤).

كل هذه الميزات جعلت القرضاوي معلق القلب بشيخه ، ويصارع الأيام التي تعوقه من الذهاب من طنطا إلى القاهرة ، ليزداد قرباً من شيخه وإمامه ،

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٤٩ .
(٢) انظر : التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا ص ٥ .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ٦٨ .
(٤) انظر : المرجع السابق ص ٧٧ .

يقول القرضاوي: وكم كنت معلق القلب بذلك اليوم الذي أفرغ فيه من دراستي الثانوية بطنطا والتحق بجامعة الأزهر، حيث تتاح لي فرصة اللقاء والملازمة والتتلمذ المباشر للإمام البنا، ولكن القدر كان يخبئ شيئاً آخر للرجل الكبير؛ وهو الشهادة في سبيل الله[1].

ولكن تعلق القرضاوي بالبنا إنما كان لعطائه وإخلاصه وتعدد مواهبه وملكاته، لذا فإن القرضاوي يؤكد أن شخصية البنا هي الشخصية الوحيدة الحية التي تأثر بها، وأعجب بها، ولم ترتق شخصية أخرى من الأحياء إلى هذا المستوى، يقول حفظه الله: والحق إني لم أعجب بشخصية حية لقيتها وتأثرت بها كما أعجبت بشخصية الشهيد «حسن البنا»، الذي أتاه الله من المواهب والملكات ما تفرق في عدد من الشخصيات[2].

ويعدد الشيخ مواهب إمامه فيذكر أنه: جمع بين العلم والتربية، ومزج بين الفكر والحركة، وربط بين الدين والسياسة، ووصل ما بين الروحانية والجهاد، وكان النموذج الحي للرجل القرآني، والمعلم الرباني، والمجاهد الإسلامي، والداعية العصري، والمنظم الحركي، والمناضل السياسي، والمصلح الاجتماعي[3].

ويرى القرضاوي أن «حسن البنا» رحمه الله استطاع أن يجمع في الصفوف بين السلفية والصوفية، وأن يطعم كل واحد من الآخر، فهو يقول معقباً على كلام الأستاذ محمد المبارك رحمه الله نسلف الصوفية، ونصوف السلفية: وأحسب أن هذا ما حاول الإمام «حسن البنا» الذي كان يجمع - في رأيي - عقلية السلفي الملتزم، وروحانية المتصوف المحلّق[4].

هذه الأمور وغيرها جعلت القرضاوي يبحث عن تراث البنا، وكلما وجد كلمة أو رسالة أو محاضرة قرأ ما فيها واستوعب ما كتب، وهو شديد اللوم على ورثة الإمام الشهيد وعلى جماعة الإخوان لأن تراث الإمام لم يجمع إلى وقتنا هذا[5].

---

(١) انظر: شمول الإسلام ص ٦.
(٢، ٣) انظر: المرجع السابق ص ٧.
(٤) انظر: الحياة الربانية ص ٢٢.
(٥) انظر: المرجع السابق. وانظر: الإخوان المسلمون ص ٥٠.

وقد ترجم القرضاوي إعجابه بإمامه وتراثه إلى تراث مكتوب ، ولعل ذلك يبدو ظاهراً ، فيما كتبه الشيخ عن الجماعة والإمام في كتابيه: «الإخوان المسلمون » و «التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا » .

ويؤكد الشيخ أن أروع ما قرأه للإمام هو رسالة التعاليم فيقول : وكان مما شدني وبهرني من تراث الإمام «البنا» : رسالته الفريدة المركزة التي أرسى بها دعائم العمل الحركي الجماعي وهي رسالة التعاليم[1].

وقد قام الشيخ بشرح هذه الأصول العشرين التي حوتها رسالة التعاليم في سلسلة تحت عنوان نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام صدر منها :

١ – شمول الإسلام .

٢ – المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة .

٣ – موقف الإسلام من الإلهام والكشف .

٤ – السياسة الشرعية .

٥ – موقفنا من التراث .

٦ – فصول في العقيدة.

ولما كان القرضاوي شاعراً أديباً لم ينس أن يثني على شيخه فنظم قصيدة ألقاها في شعبة الإخوان بطنطا بحضور المرشد كان عنوانها : يا مرشداً قاد بالإسلام إخواناً ، ومما جاء فيها :

يا مرشداً قاد بالإسلام إخوانًا — وهز بالدعوة الغراء أوطانا
يا مرشداً قد سرت في الشرق صيحته — فقام لعد منام طال يقظانا
فكان للعرب والإسلام فجر هدى — وكان للغرب زلزالاً وبركانا
ربيت جيلاً من الفولاذ معدنه — يزيده الضغط إسلامًا وإيمانا [2]

---

(١) انظر : شمول الإسلام ص ٨ .
(٢) انظر : نفحات ولفحات ص ٣٦ .

كما نظم قصيدة أخرى صدر بها ديوانه الثاني وجعله الإهداء إلى إمامه، قال فيها:

لك يا إمامي يا أعز معلم	يا حامل المصباح في الزمن العمي!
يا مرشد الدنيا لنهج «محمد»	يا نفحة من جيل الأرقم!
أهديك نفسي في قصائد صغتها	تهدى وترحم فهي أخت الأنجم
حسبوك مت وأنت حي خالد	ما مات غير المستبد المجرم[١]

وبالرغم من كل هذا الحب ، فلم يكن القرضاوي مقدساً لشيخه أو مدعياً له العصمة، وهو القائل في أصوله العشرين : كل يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ ، لذا فتراه يقول : و« حسن البنا » نفسه لم يكن جامداً بل كان دائم التجديد والتطوير والأساليب في أبنية الحركة ومؤسساتها وأنظمتها ، ولن يضيق الشهيد « حسن البنا » في قبره إذا خالفه بعض أبنائه وأتباعه في قضية من القضايا التي كان له فيها رأي من قبل[٢].

أعماله ونشاطه الدعوي في مصر :

نشاط الشيخ القرضاوي بدأ مبكراً ، ولكن الحديث هنا عن نشاطه الرسمي، فقد قام الشيخ بالخطابة والتدريس في مساجد الأوقاف بمصر سنة ١٩٥٦م ، ثم أصبح مشرفاً على معهد الأئمة التابع لوزارة الأوقاف المصرية .

تم اختيار الشيخ من قبل الإدارة المالية للثقافة الإسلامية بالأزهر عام ١٩٥٩م للإشراف على مطبوعاتها ، والعمل بالمكتب الفني وتولي الرد على الشبهات التي تثيرها الصحافة حول الإسلام .

أعماله ونشاطه الدعوي خارج مصر :

بعد تضييق الخناق على شباب الحركة الإسلامية في مصر ، كانت سياسة البلد وقتها فتح الأبواب لهؤلاء الشباب للخروج من مصر، فاعير الشيخ إلى دولة

---

(١) انظر : المسلمون قادمون ص ٥ ، ٦ .
(٢) انظر : أوليات الحركة الإسلامية ص ١٠٣ .

قطر في عام ١٩٦١م عميداً لمعهدها الديني الثانوي ، استمر عمل الشيخ بالمعهد حتى عام ١٩٧٣م وقد جمع الشيخ في المعهد بين الأصالة والمعاصرة والقديم والجديد .

وفي سنة ١٩٧٣م تم إنشاء كلية التربية ، فاختير الشيخ ليؤسس قسم الدراسات الإسلامية ويرأسه .

وفي عام ١٩٧٧م أسست كلية الشريعة والدراسات الإسلامية وهي بمثابة كليتين في كلية واحدة فهي تجمع بين كلية أصول الدين والشريعة ، فاختير الشيخ عميداً لها وظل كذلك حتى عام ١٩٩٠م .

ثم أصبح الشيخ مديراً لمركز بحوث السنة والسيرة النبوية بجامعة قطر منذ أن تأسس إلى وقتنا هذا .

وفي عام ١٩٩٠م أعير الشيخ إلى الجزائر بطلب من الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – فترأس مجالسها العلمية لجامعتها ومعاهدها الإسلامية .

إلى جانب هذا فإن الشيخ يُعد عضواً أو نائب رئيس أو رئيساً لعدد غير قليل من المجالس والمراكز والهيئات والمؤسسات التربوية والدعوية والاقتصادية ومن ذلك :

- عضو بالمجلس الأعلى للتربية في قطر ، لعدة سنوات .
- عضو مجلس إدارة مركز بحوث إسهامات المسلمين في الحضارة في قطر.
- عضو مجمع الفقه الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .
- خبير المجمع الفقهي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة .
- عضو مجلس الأمناء للجامعة الإسلامية بإسلام آباد .
- عضو مجلس الأمناء لمركزالدراسات الإسلامية في أوكسفورد .
- عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية « مؤسسة آل البيت » بالأردن .

- عضو رابطة الأدب الإسلامي .
- عضو مؤسس لجمعية الاقتصاد الإسلامي بالقاهرة .
- عضو مؤسس للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت وعضو مجلس إدارتها .
- عضو مجلس الأمناء لمنظمة الدعوة الإسلامية في أفريقيا ومركزها الخرطوم .
- عضو المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة لعدة سنوات .
- نائب رئيس الهيئة الشرعية العالمية للزكاة بالكويت لعدة سنوات .
- رئيس مجلس إدارة صندوق قطر الإسلامي للزكاة والصدقة لعدة سنوات .
- رئيس مجلس أمناء الوقف الإسلامي لمجلة المسلم المعاصر وعضو هيئتها الاستشارية .
- رئيس هيئة المستشارين لمجلة « المنار الجديد » .
- عضو المجلس العلمي للكلية الأوربية للدراسات الإسلامية في فرنسا .
- رئيس مجلس الأمناء للجامعة الإسلامية الأمريكية .
- عضو هيئة الرقابة الشرعية لشركة الراجحي للاستثمار بالمملكة العربية السعودية .
- رئيس هيئة الرقابة الشرعية لمصرف قطر الإسلامي .
- رئيس هيئة الرقابة الشرعية لبنك قطر الإسلامي الدولي .
- رئيس هيئة الرقابة الشرعية للبنك الإسلامي الأول بالبحرين .
- رئيس هيئة الرقابة الشرعية لبنك التقوى بالبهاما .
- رئيس الهيئة الشرعية الموحدة لمجموعة البركة .
- رئيس هيئة الرقابة الشرعية لمصرف أبو ظبي الإسلامي .

● رئيس مجلس إدارة جمعية البلاغ الثقافية لخدمة الإسلام على الإنترنت.

● رئيس مجلس أمناء الهيئة العامة لجمعية البلاغ الثقافية لخدمة الإسلام على الإنترنت.

● رئيس المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث.

● رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

● ومشاركات أخرى كثيرة لا يتيسر حصرها [1].

جوائزه:

نظراً للثقة التي يتمتع بها القرضاوي بين العاملين في الحقل الإسلامي فقد رشح الشيخ لكثير من الجوائز، ونال عدداً غير قليل منها من عدة جهات عربية وإسلامية قدرت جهوده في خدمة العلم والدين والأمة، منها:

١ - جائزة البنك الإسلامي للتنمية في الاقتصاد لعام ١٤١١ هـ.

٢ - جائزة الملك فيصل العالمية بالاشتراك في الدراسات الإسلامية لعام ١٤١٣ هـ.

٣ - جائزة العطاء العلمي المتميز من رئيس الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا عام ١٩٩٦ م.

٤ - جائزة السلطان حسن البلقيه «سلطان بروناي» في الفقه الإسلامي لعام ١٩٩٧ م.

٥ - جائزة سلطان العويس بدولة الإمارات العربية المتحدة عن الإنجاز الثقافي والعلمي عام ١٩٩٩ م.

٦ - جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم باختياره «الشخصية الإسلامية» لعام ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م [2].

أقوال الدعاة والمفكرين:

حسن البنا: إنه - أي القرضاوي - لشاعر فحل.

---

(١) انظر: شخصية العام الإسلامي مكتبة وهبة ط. الأولى ٢٠٠١ م ص ٣٦، ٣٧، ٣٨.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ٣٨، ٣٩.

محمد الغزالي: القرضاوي من أئمة العصر ، الذين جمعوا بين فقه النظر، وفقه الأثر ، وقال أيضاً : لقد سبق القرضاوي سبقاً بعيداً ، وحينما سئل عنه قال: أنا مدرسه، وهو أستاذي . الشيخ يوسف كان تلميذي ، أما الآن فأنا تلميذه .

أبو الحسن الندوي: القرضاوي عالم محقق، وهو من كبار العلماء والمربين.

عبد العزيز بن باز: كتبه لها ثقلها وتأثيرها في العالم الإسلامي .

مصطفى الزرقا : القرضاوي حجة العصر ، وهو من نعم الله على المسلمين.

عبد الفتاح أبو غدة : القرضاوي فقيهنا ومرشدنا العلامة .

القاضي حسين أحمد : القرضاوي مدرسة علمية فقهية ودعوية، يجب أن تستفيد الأمة من نبعها الإسلامي العذب .

طه جابر العلواني : القرضاوي فقيه الدعاة ... وداعية الفقهاء .

عبد السلام الهراس : القرضاوي القيادة الحكيمة في مسيرة التأصيل والتجديد والتوحيد .. ويعد من أعظم ثمار دعوة الإمام الشهيد حسن البنا .

عبد الله العقيل : القرضاوي رجل المرحلة وفقيه العصر .

عبد المجيد الزنداني : القرضاوي عالم مجاهد .

عبد القادر العماري : القرضاوي فقيه التيسير .

محمد عمر زبير : القرضاوي حامل لواء التيسير في الفتوى ، والتبشير في الدعوة.

محمد فتحي عثمان : القرضاوي الفقيه الداعية.. البصير بالواقع المعيش.

عادل حسين : القرضاوي فقيه الوسطية في عصرنا .

عبد الله بن بيه : القرضاوي إمام من أئمة المسلمين، وضمير الأمة .

راشد الغنوشي : القرضاوي في كلمة واحدة: إمام مجدد ، وهو لسان الصدق الذي أماط اللثام عن منافقي تونس.

عـدنـان زرزور : القرضاوي الموفق .. فقيه العصر ومجتهده الأول ، لقد جمع بين دقة الفقيه ، وحماسة الداعية ، وجرأة المجدد ، وإقدام الإمام ، لقد أقام القرضاوي دولة الإسلام في الفقه والاجتهاد .

عبد الله عمر نصيف : القرضاوي قمة في العطاء .

أحمد الريسوني : القرضاوي فقيه المقاصد [١].

أسرته وأولاده :

تزوج الشيخ القرضاوي في ديسمبر عام ١٩٥٨م بزوجة صالحة أعانته على دينه وعلمه ، وقد أنتج هذا الزواج المبارك سبعة أولاد ، أربع إناث وثلاثة ذكور .

صفاته وأخلاقه :

يجدر بنا أن نعرج على أخلاق الشيخ القرضاوي وصفاته التي عرف بها ، ليس من باب المدح والثناء ، وإنما ليتأسى بهذه الأخلاق تلامذته ومحبوه ، وطلاب العلم ومحبو الخير أينما كانوا .

ومن كلام سلفنا الصالح ما يؤكد الانتفاع بأخلاق العلماء والصالحين ، هذا يونس بن عبيد يقول : كان الرجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به ، وإن لم ير عمله ويسمع كلامه .

وهذا ابن وهب يقول : ما تعلمت من أدب مالك أفضل من علمه .

وهذا الشافعي يقول : من وعظ أخاه بفعله كان هادياً .

وقال آخر : من لم تهذبك رؤيته فاعلم أنه غير مهذب ، ومن لم ينعشك عبيره على بعد فاعلم أنه لا طيب فيه ، ولا تتكلف لشمه .

ورحم الله ابن جماعة حين أكد على ضرورة تحلّي العالم بالأخلاق الفاضلة لاقتداء غيره به فقال : إن العلماء هم القدوة، وإليهم المرجع في الأحكام ، وهم

---

(١) انظر : القرضاوي فقيهاً عصام تليمة دار التوزيع والنشر الإسلامية ط الأولى ٢٠٠٠م ص ٢٨ ، ٢٩ .

حجة الله تعالى على العوام، وقد يراقبهم للأخذ عنهم من لا ينظرون ، ويقتدي بهم من لا يعلمون، وإذا لم ينتفع العالم بعلمه فغيره أبعد عن الانتفاع به[1].

لهذا كان من الضروري إبراز جانب من أخلاق الشيخ وصفاته ليقتدى بها.

١- حياؤه :

الحياء خلق إسلامي رائع ، كما أنه خلق فطري أصيل، وهو لا يأتي إلا بخير، وقد كان من وصف النبي ﷺ أنه كان «أشد حياءً من العذراء في خدرها»[2]، وقد نهل الشيخ القرضاوي من هذا الخلق ، وكل من جالسه وخالطه يشهد له بهذا الخلق، وحين يتحدث الشيخ عن الحياء فيقول : هو خلق فطري عندي ، ولكن الإسلام هذبه وأصله لدى الشيخ .

وقد شهد رفاق الشيخ له بهذا الخلق ؛ ومنهم العلامة عبد العظيم الديب فيقول في مقدمة كتابه «نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي» أما أخي الفاضل الكريم الدكتور يوسف القرضاوي ، فقال لي في هدوء بأسلوبه الهين اللين الحيي، والحياء من أخص شيمه [3].

٢- عفوه وسماحته :

ليس أهنأ للعبد ، ولا أروح لقلبه من أن يعيش بين الناس سليم الصدر، نقي القلب، غافراً للناس طيشهم ، متناسياً إساءتهم، هذا ما عرف به الشيخ طيلة حياته، وهذا ما أقر به من عايشه ، حدثني الشيخ عبد السلام البسيوني قال : أقمنا منذ فترة، حلقة مدارسة عرفت باسم مجالس العلماء، تطرح فيها

---

(١) انظر : أخلاق الدعاة إلى الله تعالى د : طلعت عفيفي ط الأولى دار عالم الكتب ٢٠٠٠م ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) رواه البخاري في المناقب (٣٥٦٢) ومسلم في الفضائل (٢٣٢٠) عن أبي سعيد .

(٣) انظر : نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي د : عبد العظيم الديب ص ١١ مكتبة وهبة الطبعة الثانية ١٩٩٧م .

قضية ما، ويعرض الجلوس من العلماء آراءهم ، وقد كان من بين الحضور الدائمين دكتور عبد العظيم الديب، ودكتور حسن عيسى عبد الظاهر،كما كان الشيخ القرضاوي دائم الحضور إلا من عذر ، وقد كان شرطي للشيخ أن يوسع صدره كعادته لطلاب العلم وشباب الصحوة من الحضور ، وفي يوم أبدى أحد الشباب اعتراضه على الشيخ وأغلظ – إلى حد ما – في كلامه ، فبدا الغضب على الشيخ واحتدّ في كلامه ، فهمست له بعد أن انتهى من كلامه وهدأ قائلاً : ما على هذا اتفقنا يا فضيلة الشيخ، وما زدت على ذلك .. فما كان من الشيخ إلا أن فاجأني وفاجأ الحضور قبل نهاية المجلس قائلاً : أين الأخ فلان ؟ ثم عانقه الشيخ معتذراً ، وما كان من هذا الأخ إلا أن قدم اعتذاره في الحلقة التالية .

وقد حاول البعض أن يستغل عفو الشيخ وسماحته ، ظانين أن هذا ضعف من الشيخ أو عجز ، وما حسبوه عفواً وصفحاً ، وما علموا أن الشيخ يبتغي بهذا الأجر من الله، يقول الشيخ حفظه الله معلقاً على تطاول البعض عليه : فلما برزت هذه العداوات التي ليس لي نصيب في تحريكها ، حمدت الله تعالى عسى أن يكتب لي بعض الأجر بما يصيبني على ألسنة هؤلاء وأقلامهم ، فإن المؤمن يثاب رغم أنفه على ما يصيبه من هم وغم وأذى ، حتى الشوكة يشاكها، يكفر الله بها من خطاياه ، وما أكثر خطاياي التي تحتاج إلى تكفير، ولا سيما أني متصدق بعرضي لكل مسلم يؤذيني ، إذا لم يكن خائناً لله ورسوله ، عميلاً لأعداء الأمة وأعداء الإسلام ، وأنا هنا أتمثل بما قاله الإمام الشافعي :

عداتي لهم فضل عليّ ومنة — فلا باعد الرحمن عني الأعاديا

فهم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها — وهم نافسوني فارتقيت المعاليا[1]

وقد أوضح الشيخ ذلك على رؤوس الأشهاد في كلمته التي ألقاها في حفل تكريمه بجائزة الشخصية الإسلامية بدبي فقال : أما الفئة القليلة التي

(١) انظر : فتاوى معاصرة ص ١٣ .

حاولت في المدة الأخيرة أن تقذفني بالحجارة من يمين وشمال، وأن تشوش على مسيرتي، فلا يسعني إلا أن أدعو الله لهم أن يهدينا وإياهم ، ويصلح بالنا وبالهم ، وقديماً قالوا: رضا الناس غاية لا تدرك، وقال الشاعر:

ومن من الناس يرضى كل نفس   وبين هوى النفوس مدى بعيد

وفي الحديث القدسي: «كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك...».

وقد نشأت في رحاب دعوة كان مؤسسها (حسن البنا) عليه رحمة الله، يدعو إلى الحب ويقول: سنقاتل الناس بالحب.

وأريد أن أؤكد هنا أنه ليس في حياتي ولا في قلبي متسع للضغائن والأحقاد على المسلمين ، ولا أشغل نفسي بمعاداة مسلم ، وإن خالفني في الاتجاه أو في الرأي ، فأنا مشغول القلب والفكر والجهد والوقت ، بأعداء الدين ، وأعداء الأمة ، وما أكثرهم[1].

والشيخ في هذا إنما يقتدي بالأئمة الأعلام والعلماء العظام ، وقد سبقه سلطان العلماء وبائع الأمراء العز بن عبد السلام حين طلب منه السلطان أن يجعله في حل وقد كانت وقعت بينهما جفوة ، وقال: يا عز الدين اجعلني في حل وادع الله لي وأوصني وانصحني . فقال العز : أما محاللتك فإني في كل ليلة أحالل الخلق ، أبيت وأنا ليس لي عند أحد مظلمة ، وأرى أن يكون أجري على الله ، ولا يكون لي على الناس عملاً بقوله تعالى : ﴿ **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [الشورى: ٤٠] ، وأن يكون أجري على الله، ولا يكون على خلقه أحب إلي[2].

وفي مقدمة الجزء الثاني من مذكراته قال الشيخ : ولم أقصد في هذه المذكرات أن أسيء إلى أحد كائناً من كان، حتى من ظلمني وأساء إلي، أنا

---

(١) انظر : القرضاوي شخصية العام الإسلامية ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٢) انظر : طبقات الشافعية الكبرى عبد الوهاب بن علي السبكي تحقيق د : عبد الفتاح الحلو، د: محمود الطناحي ج ٨ ص ٢٤٠ ط الثانية دار هجر .

متصدق عليه بما نال مني، ولا أعادي إلا من عادى الإسلام وحاربه ، وكل الناس بعد ذلك إخواني[1].

٣ - الشيخ صاحب فكاهة :

على الرغم من الواجبات التي يرتبط بها الشيخ ، والتي تزاحم أوقاته ، وعلى الرغم من جده وحزمه ، واهتمامه بأمور أمته من المحيط إلى المحيط ، إلا أنه وإيماناً بمنهجه الوسطي ، فإنه لا ينفك أن يدعم خطبه وأحاديثه ، وشعره ونثره؛ فكاهات لا تخرج عن المعقول ، ومن ذلك : لما قتل النقراشي رئيس وزراء مصر في عام ١٩٤٨م فرح الشباب بمقتله ، وكان القرضاوي الشاب وقتها قد قرض قصيدة من الشعر جاء فيها :

عبد المجيد تحية وسلام　　أبشر فإنك للشباب إمام
سممت كلباً جاء كلب بعده　　ولكل كلب عندنا «سمام»

ومن ذلك أيضاً تعليق الشيخ على أنه لا كهنوت في الإسلام ، وليس هناك رجال دين ، بل علماء دين ، فيقول: كما أنه لا «بابا» عندنا ولا «ماما»[2].

وقد سئل الشيخ عن مكان صلاة العيد مرة فقال في نادي السد ، فقيل له: غيرّت المكان وتركت نادي قطر ؛ فقال : «اللي سبأ أكل النبأ» وهو مثل مصري.

وقد ظهرت فكاهة الشيخ في شعره حتى في أوقات المحن ، وقد سجل الشيخ ذلك في قصيدته النونية حين تحدث عن طعام السجن فيقول :

---

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج٢ ص٧ .
(٢) هذه الكلمة كثيراً ما يذكرها الشيخ في محاضراته ودروسه .

ففطورنا عدس يزين بالحصى | إن الحصى فرض على التعيين[1]
قد عفته حتى اسمه وحروفه | من عينه أو داله والسين
وغذاؤنا فاصولية ضاقت بها | نفسي فرؤية صحنها تؤذيني
وعشاؤنا شئ يحيرك اسمه | فكأنما صنعوه من غسلين[2]

وفي الأرجوزة التي نظمها الشيخ على لسان العلمانيين وأجهزة الاستخبارات تظهر الفكاهة واضحة ، ومن هذه الأرجوزة نذكر هذه الأبيات :

أبلغ رجال الأمن حتى يزحفوا | فهاهنا جماعة تطرفوا
من الأصوليين أعداء الوطن | أخطر من جميع عباد الوثن
قد تأمن الهندوس واليهودا | وقد نقيم معهم العهودا
إلا أولاء فأذاهم يحذرُ | فهم علينا من يهود أخطرُ

ويقول :

حياتهم أساسها التزمتُ | وفكرهم قوامه التعنتُ
تشددوا في الدين وهو يسر | وكل فرد في السلوك حر[3]

ويقول في قصيدة كتبها منذ ٣٨ سنة، متغزلاً في هذه الأنثى « القلة القناوية » التي يصنعها من الفخار أهل قنا بصعيد مصر :

أنثى تروق أخا الهيام | حسناء فارعة القوام
جسم رشيق زانه | عنق حكى عنق النعام
جذابة تغريك طلعتها | فتدنو في اهتمام

---

(١) التعيين في السجن : هو ما عين لكل شخص من الطعام .
(٢) انظر : نفحات ولفحات ص ٦٣ .
(٣) انظر : المسلمون قادمون ص ١١٥ و ١١٦ .

وتحس أن لقاءها يشفي الصدور من الأوام
وإذا حرمت القرب منها فالجوانح في ضرام
عرفت بطهر القلب لم يعلق به خبث اللئام
ينبك ظاهرها بما في قلبها وبلا كلام
بنت الصعيد كريمة من طينة القوم الكرام

إلى أن يقول:

أعرفت من أعني؟ لعلك قد فهمت من المقام
قل لي: «أبنت قنا» ترى أم يا ترى بنت الحرام؟

وأذكر أنني شاركت مع عدد من الشباب في نقل مكتبة الشيخ من بيته القديم إلى بيته الجديد، ولما حضر وقت الطعام دخل علينا الشيخ بابتسامة تملئ فمه وتعلو وجهه وهو يقول: هيا إلى الطعام، «إذا حضر الهرس بطل الدرس!!»

وأذكر كذلك أن المجلس الأعلى لشؤون الأسرة في قطر، دعا إلى المشاركة في (مائدة مستديرة) عقدت في تاريخ ٢٢/١٢/٢٠٠٤م لمناقشة موضوع (دية المرأة في الشريعة الإسلامية)، وقال مدير الدائرة: نبدأ بفضيلة الشيخ العلامة الدكتور يوسف القرضاوي، فقال الشيخ: لا نبدأ بالترتيب الأبجدي، فأنا أحترم هذا الترتيب وأنا أبدأ بحرف الياء، فأنا آخر واحد إن شاء الله.

ناهيك عن ظرف مجالسه الخاصة، وابتساماته الدائمة، و«قفشاته» الرائعة.

٤ -الشيخ والوقت:

تعلم القرضاوي الاستفادة من وقته من شيخه «البنا»، وكان مما حفظ منه

الواجبات: أكثر من الأوقات ، فعاون غيرك على الانتفاع بوقته . كما حفظ منه أيضاً أن الوقت هو الحياة ، كما حفظ عن شيخه « الغزالي »: أن كل مفقود عسى أن تسترجعه إلا الوقت، وحفظ من حكم السابقين أن الزمن لا يقف محايداً؛ فهو إما صديق ودود، أو عدو لدود، فخرج القرضاوي على الناس برسالته القيمة «الوقت في حياة المسلم» ولم يكن الشيخ ليعظ غيره مهملاً نفسه، بل كان من أشد الناس حرصاً على وقته، فهو إما محاضر أو متحدث أو مناظر أو مسافر، أو كاتب أو قارئ ، لا ينفك بأي حال من الأحوال عن هذه الأمور ، ومع كثرة ترحاله ، لا يلبث أن يفاجأ الجميع بالجديد في أمور الدعوة ، كتاب في حلة جميلة، أو بحث في ثوب قشيب ، أو محاضرة من مكان بعيد ، أو إطلالة من خلال قناة فضائية . . . وهكذا .

حدثني أحد الأخوة قائلاً أنه رأى أمراً عجيباً ، كان في ١٠ رمضان ١٤٢٢ هـ في مطار الدوحة مستقبلا أخاً له فرأى بين القادمين الدكتور القرضاوي، يقول فسلمت عليه وسألته عما عنّ لي من أسئلة ، ثم استقبلت أخي القادم ، وأخبرته أنني رأيت الشيخ القرضاوي وسلمت عليه ، ثم سلمت أخي سيارته ، وانطلق بها ، فلم يلبث أن فتح المذياع في سيارته فكانت المفاجأة أن يسمع الشيخ القرضاوي في المسجد الكبير بالدوحة يلقي على الناس درسه كعادته بين التراويح .

إن الرجل عائد من سفره ، لكنه لا يأوي إلى بيته للراحة وهو ابن الخامسة والسبعين ، لكنه يأوي إلى بيت الله ليعلم خلق الله .

وإن الناظر إلى كتبه يجد ما يذهله : كتب تكتب في الطائرة ، ومقالات في ساحة الانتظار ، وقصائد على فراش المرض ، إلى غير ذلك حفظه الله . وهذه بعض الكتب التي كتب لها مقدماتها وهو في جو السماء (الطائرة) :

١ – من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا .

٢ - الفتوى بين الانضباط والتسيب .

٣ - بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمغتربين .

وأذكر أنني تركته في ليلة من الليالي وكان ذلك في حدود الساعة الثانية عشرة ليلا، على أنه سيخلد إلى نومه، وما أن جئته في صباح اليوم التالي في الساعة التاسعة وإذ به يعطيني عددا من الأوراق فقلت لفضيلته: ما هذا ؟ قال: هذه مقدمة لكتاب «فصول في العقيدة» اقرأها، وقل لي رأيك فيها.

فقلت لفضيلته: ألم أترك فضيلتكم في ساعة متأخرة من الليل .

قال: نعم . وقد حاولت النوم فلم أستطع، فعدت إلى المكتب وقمت ببعض الأشياء ومنها هذه المقدمة.

٥ - روحانية الشيخ :

القرضاوي رجل داعية ، وداعية رباني ، شديد التاثر بآيات الله ، يشهد له بذلك من عرفه وعاصره ، فهو ذو نفس شفافة ، وروحانية عالية ، أشهد أني حضرت له يوماً درساً من دروس التراويح وكان يتحدث عن أنواع الأخوة ، وذكر ما حدث من إخوة يوسف ، وما وقع من كيدهم له ، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿ **قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف: ٩٠] . ففاضت عيناه من الدمع .

إن أحداً لا يستطيع أن ينكر حرارة الدعاء ، ولوعة الاستجداء ، في قنوت الشيخ في صلاة التراويح في رمضان ، لقد سمعت - كما سمع غيري - كثيراً من القراء الذين أعطوا حلاوة في الصوت ، وعذوبة في التلاوة ، وجمالاً في القراءة ، يفوق أقلهم الشيخ عذوبة وحلاوة وجمالاً في الصوت والتلاوة والقراءة ، لكن الذي يسمع الشيخ عند تلاوته يسمع شيخاً يتجاوب مع القرآن ، ويعيش مع

التلاوة ، كأنها تتنزل عليه ، وحين يرفع يديه بالدعاء؛ ترى دعاءً حاراً يخرج من قلبه ، فيرتج السامع له رجاً .

ولقد حرّك هذه الروحانية وتلك الربانية في نفس الشيخ القرضاوي ثلة من شيوخه الأقدمين والمحدثين ، بعضهم بكتبه ، وبعضهم بعمله ، ولعل كتب الإمام «الغزالي» ، وإشراقات الإمامين ابن تيمية وابن القيم ، من أكثر ما أثر في روحانيته من خلال ما كتبوا، وأشهر من أثر فيه بعمله هو الإمام البنا رحمه الله الذي يقول عنه : وقد كان الإمام البنا رحمه الله رجلاً ربانياً ، وكذلك شيخه البهي الذي قال عنه : هو رجل ذواقة للمعاني الربانية ، عميق الحاسة الروحية .

وكذلك تأثر الشيخ بشيخيه الأودن وعبد الحليم محمود رحمة الله على الجميع [1].

وقد ظهر ذلك جلياً في كتابات الشيخ كما في كتابه الرائع «الإيمان والحياة»، وشهد له بذلك شيخه البهي قائلاً : إنك تحمل قلب صوفي خدعنا عنه عقل الفقيه . وقال له أحد متصوفي الجزائر بعد حديث له عن منهج القرآن والسنة في إقامة الحياة الروحية ، لقد منحك الله شيئاً ، به يتميز كلامك عن غيره . فقال الشيخ : وما هو ؟ قال : اللوعة . قال الشيخ : وما تعني ؟ قال : في كلامك حرقة غير مصطنعة تؤثر في سامعيك وهي هبة ربانية ، يخص الله بها من يشاء من عباده .

وقال الدكتور سعيد البوطي بعد هذه المحاضرة : لقد ظهر لنا أن الشيخ القرضاوي صوفي مقنع، يريد أن يخفي صوفيته بقناع العقلانية والسلفية[2].

---

(١) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ٩ ، ١٠ .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٣ .

كما شهد له بذلك الداعية الرباني أبو الحسن الندوي رحمه الله حين زار الشيخ القرضاوي ندوة العلماء ودار العلوم في مدينة «لكنهو» بالهند ، وبعد كلمة القرضاوي قال له العلامة الندوي: إن الناس تأثروا بكلامك وإن لم يفهموه، لأن للكلام روحاً .

وقال له مرة : إن في كلامك روحاً وحرارة خاصة ، وهذه قلما تترجم ؛ لأن المترجم يترجم المعاني والأفكار ، ولا يترجم الحرارة والروح إلا مترجم يملك ما تملك[1].

وشعر الشيخ يفيض أيضا بهذه الروح الدافئة ، والحرارة المشتعلة ، فتراه يقول في قصيدته التي بعنوان ابتهال :

يا من له تعنو الوجوه وتخشع ... ولأمره كل الخلائق تخضع
أعنو إليك بجبهة لم أحنها ... إلا لوجهك ساجداً أتضرع
وإليك أبسط كف ذل لم تكن ... يوماً لغير سؤال فضلك ترفع
أنا من علمت المذنب العاصي ... الذي عظمت خطاياه فجاءك يهرع

إلى أن يقول :

إن لم يكن مني الذنوب ومنك أن ... تعفو فأين اسم العفو المطمع؟
أين الغفور؟ وأين رحمته التي ... وسعت جميع الخلق؟ أين الموسع؟!
هذا أوان العفو، فاعف تفضلاً ... يا من له تعنو الوجوه وتخشع؟[2]

٦ - جرأته في الحق :

الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى رجال تتفتؤ الشجاعة من جوانبهم ،

---

(١) انظر : الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته ص ٢٤ .
(٢) انظر : نفحات ولفحات ص ٨٨ .

يصدعون بكلمة الحق أينما كانوا ، وقد ضرب الدعاة على مر التاريخ أمثلة رائعة في قول كلمة الحق ، ولن ينسى التاريخ سعيد بن جبير ، وأحمد بن حنبل ، وابن تيمية ، وسيد قطب ، وستظل مواقف هؤلاء مصابيح هادية للدعاة على مر العصور .

ولله در «الغزالي» رحمه الله حين قال : الدعاة الموظفون لحراسة الإسلام هم جيش للدفاع عن الإيمان ، يشبه الجيش الموكل بحراسة الأمن ، فإذا لم يكن الداعية المسلم شجاعاً ، مطيقاً لأعباء رسالته ، سريعاً إلى تلبية ندائها ، جريئاً على المبطلين ، مغواراً في ساحاتهم ، فخير له أن ينسحب من هذا المجال ، وألا يفضح الإسلام بتكلف ما لا يحسن من شؤونه[1].

إن الرجال الذين جعلوا من أنفسهم خدماً لكل عرف شائع ، وقانون قائم ، ورضوا بأن يحرقوا البخور بين يدي الحكام لا ينبغي أن يكونوا في عداد الدعاة ، وهيهات هيهات أن يكونوا في صفوف العلماء .

وقد نشأ الشيخ القرضاوي من صغره على الشجاعة وقول الحق ، وقد حفظ الدعاة من شعره :

تالله ما الطغيان يهزم دعوة	يوماً وفي التاريخ برٌّ يميني
ضع في يدي القيد ألهب أضلعي	بالسوط ضع عنقي على السكين
لن تستطيع حصار فكري ساعة	أو نزع إيماني ونور يقيني
فالنور في قلبي وقلبي في يدي	ربي .. وربي ناصري ومعيني
سأعيش معتصماً بحبل عقيدتي	وأموت مبتسماً ليحيا ديني[2]

---

(١) انظر : مع الله محمد الغزالي دار الثقافة للنشر والتوزيع ط ١٩٨٥م ص ٢١١ .
(٢) انظر : نفحات ولفحات ص ٦٨ .

وللشيخ القرضاوي مواقف خالدة أبدى فيها جرأته، وأظهر فيها وجه الحق، ولا أدل على ذلك من معارضة الشيخ الظاهرة والمعلنة في أجهزة التلفاز وعلى مرأى ومسمع من الناس لمؤتمر السكان الذي أقيم في القاهرة ، وكذلك مؤتمر الدوحة الاقتصادي ، وفي برنامجه الأسبوعي في قناة الجزيرة القطرية «الشريعة والحياة» وجه إليه أحد المشاهدين سؤالاً عن رأيه في مؤتمر الدوحة الاقتصادي ومؤتمر السكان السابق بالقاهرة ، أعلنها الشيخ صراحة بأنه يعارض هذه المؤتمرات، بل أعلن الشيخ ذلك من فوق مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة وهي خطبة تذاع على الهواء مباشرة في التلفزيون القطري .

بل إن للشيخ موقفاً يُكتب بحروف من ذهب في سجل التاريخ ، وذلك حين زار شيمون بيريز رئيس الوزراء الإسرائيلي الدوحة ، فعارض الشيخ هذه الزيارة من على منبر مسجده ، بل قالها صريحة : على الذين صافحوا بيريز ووضعوا أيديهم في يده أن يغسلوا هذه الأيدي سبع مرات إحداهن بالتراب ، وقد كان من بين المصافحين له أمير دولة قطر(١) .

وجرأة الشيخ ظاهرة في كتبه ، واضحة في فتاويه ، بينة في كلماته ، جلية في خطبه ، واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، ولهذا كان للشيخ كما كان لغيره من الدعاة المخلصين موقفاً حازماً في أزمة الخليج ، فقد أعلن الشيخ رفضه الحازم لاحتلال العراق للكويت ، لكنه في المقابل أعلن رفضه التام للاستعانة بالجيوش الكافرة في حرب العراق .

والشيخ لا يزال متحدثًا عن موقف الحكام الضعيف المتخاذل ، تجاه مصالح الأمة، والانصياع الكامل منهم للغطرسة الأمريكية، وفي اجتماع المؤتمر الإسلامي في الدوحة عام ٢٠٠١م أعلن الشيخ أن حكام العرب والمسلمين يلعنون أمريكا بقلوبهم لكنهم لا يقدرون أن يعلنوا ذلك بأفواههم ، خوفاً على عروشهم ، وحرصاً على كراسيهم (٢).

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ج٢ ص ٨١ .

(٢) للمزيد من هذه المواقف راجع المبحث الخاص بموقف الشيخ «مع الحكام» من هذا الكتاب .

٧ -حافظ جيد ومناقش جريء :

السامع للشيخ في خطبه ومحاضراته ومناظراته ، يجد أن الله حباه بحافظة جيدة ، أحسن الشيخ استخدامها عند الحاجة، كما هو الحال في أسئلته التي يستفتى فيها، أو في مناظراته كذلك .

وقد ذكر الشيخ في مذكراته أن أحد المدرسين دخل حصة عليهم فكتب ثلاثة أبيات لابن زيدون يقول فيها :

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع ... سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع

يا بائعاً حظه مني ولو بذلت ... لي الحياة بحظي منه لم أبع

ته أحتمل، واستطل أصبر، وعز أهن ... وول أقبل، وقل أسمع، ومر أطع

ثم مسح المدرس الأبيات وسأل الطلاب من حفظ الأبيات الثلاثة، فوجد من حفظ بيتاً أو اثنين، ولم يكن أحداً حافظاً للثلاثة أبيات سوى الطالب يوسف، ثم كتب المدرس أربعة أبيات أخرى فكان الطالب يوسف حافظاً لها[١].

ولكن الشيخ جعل حفظه لما له فائدة ، أما ما يرى أنه لا فائدة منه فيقول : لا أحسن حفظ ما لا أشعر أني بحاجة إلى حفظه.

ولعل القارئ لمذكرات الشيخ يرى هذه الذاكرة الحديدية - ما شاء الله - التي جعلته يتذكر أحداثا مرات عليها السنون والسنون، والشيخ يكتب عنها كأنها حدثت بالأمس القريب[٢].

وقد استفاد الشيخ من هذه الذاكرة الجيدة التي رزقه الله إياها ، وكانت سلاحاً من أسلحته ، إن اعترضه أحد ، أو ناقشه معارض ، فتراه حاضر الحجة ، سريع البديهة ، مليء الجعبة ، لا يتلعثم ولا يتلكأ ، وقد حدث أن الشيخ كان

---

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج ١ ص ٢٠٩ . ٢١٠ .

(٢) صدر من مذكرات الشيخ ثلاثة أجزاء، وقلت للشيخ يوما : متى ستبدأ إن شاء الله في الجزء الرابع، فأحداثه قريبة العهد، فقال: هذه أبعد الأحداث عن الذهن، وكأني لا أذكر منها شيئا إلا القليل.

يتحدث يوماً في أحد المساجد وكان حديثه في ليلة السابع عشر من رمضان عن غزوة بدر ، وتقبل الجمهور محاضرة الشيخ إلا واحداً هو إمام المسجد فقال للشيخ: حديث عظيم يا أستاذ ، ولكن أما كان من الأنفع أن يتعلم الناس شيئاً من أمور دينهم ؟

قال الشيخ : وسيرة رسول الله ﷺ وغزواته أليست من أمور دينهم ؟

فقال إمام المسجد : أقصد أن يتعلموا كيفية الوضوء والغسل ويعرفوا شروط ذلك وواجباته وسننه .

قال الشيخ : يا سيدي الشيخ في كم آية ذكر الله شؤون الوضوء والغسل وما بينهما من أمور الطهارة ؟ إنها آية واحدة جمعت ذلك كله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ... ﴾ [المائدة: ٦]. وآية أخرى تناولت الموضوع في سورة النساء، ولكن في كم سورة ذكر الله شأني الجهاد والقتال في سبيل الله؟ وسكت إمام المسجد، فقلت: إن عندنا مجموعة من السور القرآنية توحي أسماؤها وحدها بموضوعها – وهو الجهاد – منها : الأنفال ، والتوبة ، والأحزاب ، والفتح ، والصف ، والحشر ، والحديد ، والعاديات ، والنصر [١].

ومن المواقف الجريئة التي أظهر فيها الشيخ جرأته في النقاش في الحق ما كان له مع أحد مدرسيه وهو الشيخ محمود الدفتار ، مدرسه في المرحلة الثانوية، وكان الرجل ذا نزعة صوفية يقول الشيخ : كان الشيخ محمود من أحباء السيد البدوي والمدافعين عنه، وقد اجترأت مرة وناقشته في أن الأضرحة التي تقام للأولياء ليست على منهج السنة، وأن النبي ﷺ نهى عن الصلاة إلى القبور والصلاة عليها، كما نهى عن إضاءتها ، ودخلت مع الشيخ في مناقشة، وقال لي : أيهما أولى: أن تصلي قرب الميضأة أم تصلي بجوار الضريح؟ قلت له : أن أصلي قرب الميضأة ، فنهرني بشدة ، وقال لي : أنت وهابي تبغض الأولياء.

---

(١) انظر : العبادة في الإسلام ص ٣٢٦ .

قلت له : أنا أقول ما درسته في هذا المعهد في (صفوة صحيح البخاري) فأسكتني وأغلق المناقشة .

وفي مرة أخرى ، كان الشيخ يشرح لنا(باب الأضحية) وما لها من فضل أغفله أكثر الناس ، أو قلت قدرتهم على القيام به . وهنا تدخلت وقلت له : يا فضيلة الشيخ : إن كثيراً من الناس يذبحون للبدعة ، ولا يذبحون للسنة . قال لي : كيف يذبحون للبدعة ؟ قلت : عندنا في قريتنا وفي غيرها من القرى أناس كثيرون ينذرون خرافهم لتذبح في مولد السيد، وهذه بدعة ، ولا يذبحون يوم عيد الأضحى ، وهي سنة ، ولو أن العلماء قاموا بواجبهم ، ونبهوا الناس على ذلك ، لأحيينا السنة وأمتنا البدعة. فغضب الشيخ وقال لي : اخرج من الفصل[١].

٨ – همة عالية :

علو الهمة صفة يعرف بها العظام من الرجال ؛ خصوصاً من يروم منهم إصلاح أمة ، أو مقاومة عدو ، وقد أحسن الشاعر حين قال :

ونحن أناس لا تــوسط عندنا لنا الصــدر دون العالمين أو القبر

تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن خطب الحسناء لم يغله المهر

وأحسب أن الشيخ القرضاوي - والله حسيبه - من هذا النوع ، إن آمال الشيخ وطموحاته تفوق طاقاته وقدراته ، ولكنه مع هذا يصارع الزمن ، وكثيراً ما يتمثل بقول أبي الطيب :

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

وكأنّ أبي الطيب يخاطب القرضاوي يوم أن قال :

إذا غامرت في شرف مروم فــلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

---

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٢٠٢ .

والمتابع لنشاط الشيخ منذ عقده الثالث إلى العقد الثامن يرى إنساناً ذا همة عالية ؛ كلما وصل إلى شيء تطلع إلى ما هو أكبر منه ، ولعل نشاط الشيخ كتابةً وخطابةً وشعراً ونثراً ، وإذاعة وتلفزة ، أكبر دليل على ذلك .

وكان من كلام الشيخ : ينبغي على المسلم أن يكون طامحاً إلى المعالي أبداً ولا يرضى بالدون [١].

أقول ومن خلال معايشتي للشيخ ـ وهي فترة قصيرة ـ أقول : إن همة الشيخ الآن وهو ابن الثمانين، تفوق همم أمثاله وهم أبناء الثلاثين أو الأربعين.

٩- عفة اللسان :

صفة ينبغي أن تكون ملازمة للدعاة إلى الله تعالى ، ودعاة الإسلام الحق ألزم ما يكونوا بهذه الصفة ، وقد ضرب لنا النبي ﷺ المثل الأعلى في ذلك، فما كان ﷺ لعاناً ولا فاحشاً ولا بذاءً.

ويشهد المقرّبون من الشيخ وغيرهم : أن الشيخ عف اللسان حتى مع خصومه ، وهو مع المخالفين حريص على هذه الصفة ، وما رأيت الشيخ في كتاباته وخطبه ومحاضراته خرج عن هذه الصفة إلا في القليل النادر ، وربما كان للشيخ في ذلك العذر، حيث إنه في هذا القليل : إنما يقرر واقعاً ، ويؤكد شيئاً ملموساً ظاهراً.

ومن ذلك كلامه في وصف حمزة البسيوني : ضابط مأفون يحمل في صدره قلب وحش ، وفي يده كرباج جلاد ، وبين فكيه لسان « شرشوح »، لا دين له ولا خلق [٢].

وقال : هو الذي كان يحمل وجه خنزير، وقلب وحش، وأنياب كلب عقور[٣].

---

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج٢ ص ٢٠٦ .
(٢) انظر : نفحات ولفحات هامش ص ٥٧ .
(٣) انظر : ابن القرية والكتاب ج٢ ص ٢٥٢.

وفي رد الشيخ – حفظه الله – على جماعة الأحباش جعل عنوان رده « جدال بلا علم، ، وتطاول بلا أدب »[1].

والشيخ في هذا يؤكد الواقعية التي عرف بها الإسلام، وعاش بها الشيخ، وفي هذا يقول الشاعر العربي :

لئن كنت محتاجاً إلى الحلم إنني	إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج
ولي فرس للحلم بالحلم ملجم	ولي فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن رام تقويمي فإني مقوم	ومن رام تعويجي فإني معوج
وما كنت أرضى الجهل خدناً وصاحباً	ولكنني أرضى به حين أحرج

والحق أن الشيخ في رده على المتطاولين عليه ، أو نقده للمخالفين ، لا يخرج بأي حال من الأحوال عن الرد العلمي ، والنقد البناء [2].

وأضرب هنا مثالاً واقعياً لرد الشيخ على بعض المتطاولين عليه وهم « جماعة الأحباش » حيث شنعوا بالشيخ في كل مكان وكالوا له بما تشتهيه أنفسهم من السب والشتائم، لكن الشيخ حين رد عليهم كان جامعاً لواقعية الإسلام التي تبيح رد العدوان ، ومع هذا لم يخرج عن الحد المشروع ، ولم يخرج قلمه حتى وهو غاضب عن العفّة المعهودة له .

وهنا أنقل جزءاً من رد الشيخ على هؤلاء حيث يقول :

منذ سنوات سمعت بجماعة ظهرت في لبنان، أزعجت جماهير المسلمين هناك بأقوال شاذة، واتجاهات منحرفة، وآراء خطيرة، في مجالات العقيدة والفقه والسلوك، وأشد من ذلك خطرا: تكفير كل من يخالفهم من المسلمين، من المحدثين أو من القدماء.

ولقد توقفت في شأنهم أول الأمر، ولم أصدق ما سمعت عنهم، وكففت لساني وقلمي عنهم، فلم أمسهم بكلمة، حتى حصحص لي الحق، وتبين

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٦٨٥ .

(٢) للزيادة في هذا الموضوع راجع ما ذكرته تحت عنوان « الإنصاف » من هذا الكتاب .

الصبح لذي عينين، واصبحت دعاواهم معروفة هنا وهناك، فلم يسعني السكوت، ومسستهم في بعض كتبي الأخيرة مسا رقيقا، ونقدتهم نقدا خفيفا، وأجبت في بعض المؤتمرات عمن سألني عن بعض أقوالهم الشاذة، مثل إباحة التدخين بإطلاق، وإباحة الاختلاط بلا قيود، وغير ذلك، مبينا خطأهم في اجتهاداتهم هذه، دون أن أرميهم بكفر أو فسوق، فليس هذا من طريقتي.

وكأن هذا النقد الهين اللين أصاب منهم مقتلا، فهاج هائجهم، وجن جنونهم، فجاءوا بقضهم وقضيضهم، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم، في غفلة من الزمن، يريدون أن يشوشوا على البرنامج الإسلامي العالمي الذي شرق وغرب (الشريعة والحياة) في قناة الجزيرة في قطر، وصوبوا سهامهم من كل صوب، يحاولون أن ينالوا من البرنامج العتيد وصاحبه، ناسين قول الشاعر قديما:

يا ناطح الجبل العالي ليوهنه ... أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل!

ولما لم تجد هذه المناطحات للجبل شيئا إلا بطح رؤوسهم، أرسلوا إلى مدير قناة الجزيرة، يطلبون إقامة مناظرة بيني وبينهم، ولو أني قبلت هذا المبدأ لأحلتهم على بعض تلاميذ تلاميذي، ليناظروهم، ولكن هؤلاء أقل وأذل من أن يناظروا، وليس لهم وزن علمي يسمح لهم بدخول حلبة مناظرة، حتى مع أصغر التلاميذ.

وكما يقول العرب في أمثالهم: على نفسها جنت براقش! فهم الذين جنوا على انفسهم، وأشعلوها معركة على كل صعيد، جندوا لها جنودهم، وحشدوا لها جهودهم، وستحرقهم نارها إن شاء الله. فقد قال تعالى: ﴿ **وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ** ﴾ [فاطر:٤٣] ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم** ﴾ [يونس:٢٣] ومن سنن الله: أن على الباغي تدور الدوائر، والبغي في مرتعه وخيم.

سأحاربهم وحدي مستعينا بربي، ثم بقلمي ولساني، وسأفضح سرهم، وأكشف سترهم، والشر بالشر يحسم، والبادئ أظلم.

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يالهمدان ظالم؟
متى تحمل القلب الذكي وصارما وأنفا حميا تجتنبك المراغم

وأنا – بحمد الله تعالى – أحمل القلب الذكي، والأنف الحمي، وصارمي هو قلمي الذي جندته للحق طول عمري، وسيظل للحق حتى الممات بإذن الله.

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢–١٦٣] [١].

١٠ ـ تواضعه :

ضرب النبي ﷺ في حياته كلها أروع الأمثلة للتواضع، وقد دلت سنته ﷺ القولية والفعلية على حقيقة هذا الخلق وفضله، ومن كلامه ﷺ : «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٢]. ويقول ﷺ : «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[٣].

ومن بديع كلام أبي يوسف رحمه الله : يا قوم أريدوا بعلمكم الله، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح.

وقد أحسن الشاعر حين قال :

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تكن كالدخان يعلو بنفسه على طبقات الجو وهو وضيع

يقول ابن عطاء الله موضحاً حقيقة التواضع : ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع؛ ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع [٤].

وقد اتخذ الشيخ القرضاوي رسوله ﷺ قدوة حسنة، وضرب مثلاً رائعاً

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص٦٨٥ ـ ٦٨٩ بتصرف.
(٢) رواه مسلم في البر والصلة رقم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة.
(٣) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها رقم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار أخي بني مجاشع.
(٤) انظر : الحكم العطائية والمناجاة الإلهية ص ٥٤.

في التواضع ، يقر له بذلك كل من راءه ، بل إن من يزره في مكتبه في جامعة قطر، يرى مكتباً يظنه الداخل أنه خاص بخريج حديث التخرج ، وأذكر أنني زرت الشيخ مرة في مكتبه وكان الفصل شتاءً، فامطرت السماء، فرأيت الماء يتخلل بعض أماكن المكتب .

ومن تواضع الشيخ اعترافه بماضيه وشدته، بل وفقره وحاجته ، وهو يعلن ذلك على الملأ ، ولا يتنكر من هذا الماضي ، ولذلك لما كان في حفل تسليم جائزة العام الإسلامية فيقول وهو يذكر أصحاب الفضل عليه : وأذكر الشيخ « حامد أبو زويل » معلمي في الكتاب ، ومحفظي القرآن الذي كان يعاملني معاملة خاصة ويسامحني إذا عجزت عن دفع نصف القرش الأسبوعي [1].

ويقول أيضاً : أذكر أننا ونحن طلاب في المعهد الديني بمدينة طنطا ، كثيراً ما كانت تنفد منا النقود، قبل أوانها المحدد، فنعيش على الخبز والملح أياماً. وفي مرة من المرات نفد الخبز نفسه ، ولم يبق من « الزوادة » إلا « الفرافيت » فظللنا نأكل منها أياماً ، وكنا مجموعة نسكن متجاورين ، وكلنا عاش على هذه « الفرافيت » [2].

ويقول أيضاً بتواضعه الجم عن حاله في المعتقل ويذكر موقفاً مع الأستاذ « عبد الحكيم عابدين ». فيقول : رآني الأستاذ « عابدين » يوماً أنتفض من البرد ولم يكن علي من الألبسة الصوفية ما يتدثر به الموسرون عادة ، فأهداني من عنده ما يسمونه « بلوفر» رصاصي اللون ، لأتدفأ به ، وهذه أول مرة ألبس فيها هذا النوع من الثياب [3].

ولهذا لما أراد الشيخ أن يكتب مذكراته اختار لها اسماً يدل على تواضعه،

---

(١) انظر : الشيخ القرضاوي شخصية العام الإسلامية ص ١٣٧ .
(٢) انظر : شخصية العام الإسلامية ص ١٤٠
(٣) انظر : مذكرات الشيخ ج٢ حلقة ١ .

فلم يتنكر لقريته ، ولم ينسى أنه ابن الكُتّاب ، وأراد أن ينسب نفسه إلى القرية والكُتّاب ، وهذا نعم النسب .

وأذكر أنني حضرت نقل مكتبة الشيخ من بيته القديم إلى بيته الجديد ، فوجدت الشيخ قمة في التواضع ، فهو يجالس هذا ، ويضاحك هذا ، على صغر سن الحضور ، ولما حضر الطعام جلس الشيخ وسط الحضور كأنه واحد منهم، يشاركهم طعامهم كما شاركهم العمل .

١١ - رجوعه للحق :

ولقد عرف الشيخ برجوعه إلى الحق إن صح الدليل ولم يكن في يوم من الأيام متمادياً في باطل[١].

١٢ - قبوله للخلاف :

وقد جعلت هذه الصفة مسك الختام؛ فهي صفة ملازمة للشيخ، يرفع بها صوته، ويخط قلمه، وتدبج كتبه، وتتحدث بها خطبه، ويتزين بها فقهه، وتدندن حولها أصوله وتلوح بها مرتكزات دعوته[٢].

* * *

(١ ، ٢) سوف نعرض لهاتين الصفتين بالتفصيل عند حديثنا عن : خصائص المنهج الدعوي لدى الشيخ .

الفصل الثاني
مواهب وأدوات القرضاوي الدعوية

يجمع كثير ممن عرفوا الشيخ ؛ من وافقوه ومن خالفوه، أن القرضاوي استطاع أن يحصل من أدوات الداعية ومواهبه، ومؤهلاته، وخصائصه؛ ما جعله يتبوأ هذه المنزلة في عالم الدعاة والمصلحين .

ومن أبرز هذه المواهب والأدوات :

١ - فهم دقيق :

تعد صفة الفهم من أعظم نعم الله تعالى على خلقه، وفي هذا يقول الإمام ابن القيم في كتابه القيم «أعلام الموقعين» : صحة وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده؛ بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما أو بهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم[١].

وقد سأل رجل علياً ﷺ هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء ؟ قال : «لا إلا فهماً يؤتاه عبد في كتاب الله ، وما في هذه الصحيفة»[٢].

وفي المقابل فإن من أعظم المصائب التي يصاب بها المرء أن يحرم نعمة الفهم ، وعندئذ يرى المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً، ويصبح عنده الحق باطلاً، والباطل حقاً، فيشك في موضع اليقين ، ويستيقن في موضع الشك ، ويجزم في موضع الشك ، ويرتاب في موضع الجزم، بل يصير الحلو عنده مراً ، والمر حلواً ، والطيب لديه خبيثاً ، والخبيث طيباً ، وهؤلاء هم الأخسرون أعمالاً ؛ الذين قال

---

(١) انظر : أعلام الموقعين الإمام ابن القيم ج١ ص ٨٧ .
(٢) رواه البخاري في العلم (١١١) عن علي .

فيهم ربنا : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : ١٠٣، ١٠٤] .

والفهم الذي نعنيه ليس هو مجرد العلم ، بل هو أرقى درجات العلم ، وهو ما قال عنه القرضاوي موضحاً تعبير الإمام الشهيد « بالفهم » بدل « العلم » في رسالة التعاليم قائلاً : وإنما عبر الأستاذ البنا عن « العلم » بـ « الفهم » لأنه هو المقصود من العلم ، فليس العلم بكثرة الرواية بقدر ما هو عمق الدراية ، ولهذا علق القرآن والسنة الخير « بالتفقه في الدين » لا بمجرد « تعلم الدين »[١] .

هذا الفهم الدقيق إنما يؤتاه داعية حصيف ؛ فيشخص العلة التي بين يديه ويهيئ لها الدواء المناسب من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

وهذا الفهم العميق هو الذي جعل الشيخ يقعد للدعوة ، ويؤصل لها ، ويظهر ذلك جيداً في الخطوط العريضة التي ذكرها الشيخ في ملتقى الفكر الإسلامي الثامن عشر بالجزائر ١٩٨٤م ؛ والتي سجلها الشيخ ترشيداً للصحوة، وضمنها عشرين نقطة أساسية دمجها الشيخ فيما بعد إلى عشرة وسماها الشيخ الخطوط العشرة لترشيد الصحوة وهي :

١ - من الشكل والمظهر إلى الحقيقة والجوهر .

٢ - من الكلام والجدل إلى العطاء والعمل .

٣ - من العاطفية والغوغائية إلى العقلانية والعلمية .

٤ - من الفروع والذيول إلى الرؤوس والأصول .

٥ - من التعسير والتنفير إلى التيسير والتبشير .

٦ - من الجمود والتقليد إلى الاجتهاد والتجديد .

٧ - من التعصب والانغلاق إلى الانفتاح والانطلاق .

٨ - من الغلو والانحلال إلى الوسطية والاعتدال .

٩ - من العنف والنقمة إلى الرفق والرحمة .

---

(١) انظر : شمول الإسلام القرضاوي ص٢٣ .

١٠ – من الاختلاف والتشاحن إلى الائتلاف والتضامن[١].

٢ - إيمان عميق :

لا يستطيع داعية مهما أوتي من المواهب والأدوات؛ أن يحصل النجاح في دعوته إن لم يكن على إيمان عميق بدعوته التي يدعو إليها ، وبقدر إيمان الداعية بدعوته ، بقدر ما يكتب له النجاح .

هذا الإيمان هو: الذي يجعل الداعية متعالياً على كل مساومة ، رافضاً لكل تنازل ، متحملاً لكل أذى ، إنه الإيمان الذي جعل محمداً ﷺ يقول لعمه أبي طالب ولقومه : اترون هذه الشمس ؟ قالوا نعم . قال : ما أنا باقدر على أن أدع ذلك ، على أن تستشعلوا لي منها شعلة »[٢].

وفى رواية: « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يمينى، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ».

هذا الإيمان العميق هو الذي جعل إمام أهل السنة أحمد بن حنبل يصبر في محنته ، دون أن تلين له قناة ، أو يضعف له يقين .

وهو هو الإيمان العميق الذي جعل شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحت فهي معي لا تفارقني ، إن حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة[٣].

وهو هو الإيمان العميق الذي جعل شهيد الإسلام سيد قطب يقول لزبانيته وجلاديه : إن السبابة التي أشهد بها في كل صلاة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ﷺ لا يمكن أن تكتب سطراً ، أو عبارة فيها استجداء ؛ فإن كنت مسجوناً بحق فأنا أرضى بالحق ، وإن كنت مسجوناً بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل .

---

(١) انظر : أين الخلل ص٨٣ ، والصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ١٤ .

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٩١١٧) وأبو يعلى (١٧٦١٢) والبزار (١١٥٦) وذكره الألباني في الصحيحة (٩٢).

(٣) انظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب ابن القيم ص ٦٩ ط الأولى دار الكتاب العربي ١٩٨٥م.

وهو هو الإيمان الذي عبر عنه الإمام حسن البنا بقوله : إن تكوين الأمم وتربية الشعوب وتحقيق الآمال ومناصرة المبادئ تحتاج من الأمة التي تحاول هذا ، أو من الفئة التي تدعو إليه على الأقل إلى قوة نفسية عظيمة تتمثل في عدة أمور :

١ – إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف .

٢ – ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر .

٣ – وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل .

٤ – ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له .

يعصم من : الخطأ فيه، والانحراف عنه ، والمساومة عليه، والخديعة لغيره[١] .

وقد تعلم الشيخ القرضاوي أن الإيمان العميق بدعوته أمر واجب ، ومن ثم فقد ثبت الشيخ مع إخوانه ثبات الجبال الرواسي ، ولم يطأطؤا رؤوسهم للباطل، وقد سجل الشيخ ذلك شعراً بقوله :

تالله ما الطغيان يهزم دعـوة ... يوماً وفي التاريخ بر يمينـــي[٢]

وإيمان الشيخ بدعوته هو الذي جعله يقول بملء فيه في خطبة الجمعة : إذا كان كل من يدافع عن وطنه ويستميت في الدفاع عن مقدساته إرهابياً، فانا أول الإرهابيين وأدعو الله : اللهم إن كان هذا إرهاباً فأحيني إرهابياً ، وأمتني إرهابياً ، واحشرني في زمرة الإرهابيين[٣].

وهو هو الإيمان الذي جعله يعلنها من على منبر مسجد « عمر بن الخطاب » حين حذره بعض المخلصين من امتداد أيدي الموساد إليه نظراً لكثرة حديثه عن اليهود وخبثهم فقال الشيخ : إنها الميتة الهنيئة التي كان يدعو بها شيخي البنا وهي أن يفصل هذا عن هذا وأشار إلى رأسه وجسده .

---

(١) انظر : مجموعة الرسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص ٤٥ .
(٢) انظر : نفحات ولفحات ص ٦٨ ، ٦٩ .
(٣) انظر : جريدة الشرق القطرية عدد ٥٠٢٨ .

وهو هو الإيمان العميق بدعوته الذي جعله يقول عن استمساكه بدينه وشرعه ووصف أعدائه له بالرجعية فقال :

يـا رب إن تـك هـذه رجعـية   فاحشرني رجعيا بيوم الدين ! [1]

٣ ـ خلق حسن [2] :

من أبرز صفات الداعية الناجح أن يؤتى خلقاً حميداً، ومن يؤته فقد أوتي خيراً كثيراً، ودعوة الداعيـة للنـاس ليسـت مجـرد كلام يقال، أو الفاظ تنمق، أو كلمات ترتب ، فما أكثر أصحاب الألفاظ الجذلة ، والعبارات الرصينة على مر التاريخ ، ولكن فرق بين من يدعو بخلقه ولفظه ، وبين من يدعو بلفظه وينهى خلقه ما أمر به لفظه .

وقد قال لقمان الحكيم : إن العالم يدعو الناس إلى علمه بالصمت والوقار.

ورحم الله من قال : من لم ينفعك لحظه ، لم ينفعك لفظه .

ولله در من قال : من لم تهذبك رؤيتـه ، فاعلـم أنه غيـر مهـذب، ومن لم ينعشك عبيره على بعد ، فاعلم أنه لا طيب فيه .

ومن ثم كان الخلق الحميد وصف ملازم لكل داعٍ ، فهو إن لم يسع الناس بعلمه وماله، وسعهم بخلقه وفضله ، وقد قال الشاعر :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها   ولكن أخلاق الرجال تضيق

ويُجمع من لاقى الشيخ بأنه في ميدان الخُلق لا يقل عن ميدان العلم ، بل يزيد ، ويحدثني الدكتور علي القرة داغي وهو أحد تلامذة الشيخ فيقول : عاشرت الشيخ قرابـة الثلاثـين عاماً ، ويعلم الله أني ما رأيته يوماً يغتاب أحداً قط، وإذا ذُكر أمامه أحد خصومه، فلا يلبث الشيخ أن يغير الموضوع .

ولك أن تقول : بأن المتقرب من الشيخ يتعلم من أخلاقه قبل أن يتعلم من علمه .

---

(١) انظر : نفحات ولفحات ص ٦٨ .

(٢) للمزيد راجع ما ذكرته الفصل الأول (السيرة الشخصية والحياة الدعوية) صفاته وأخلاقه .

ولهذا فإن الشيخ كان بأخلاقه مع من حوله: أرق من نسمات الهواء ، وأحب إليهم من الماء العذب الفرات على الظمأ، ورحم الله حافظ إبراهيم يوم أن قال :

والناس هذا حظه مال وذا ... علم وذاك مكارم الأخلاق

والمال إن لم تدخره محصناً ... بالعلم كان نهاية الإملاق

والعلم إن لم تكتنفه شمائل ... تعليه كان مطية الأخلاق

فإذا رزقت خليقة محمودة ... فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

٤ - قلب حي :

من نعم الله علي الشيخ أن آتاه الله قلباً حياً ؛ فكانت هذه الحياة شعلة لا تخبو ، ومصباحاً لا ينطفئ ، وجذوة لا تخمد ، ونوراً لا ينقطع ، وكأني بالشيخ الغزالي رحمه الله يتحدث عن القرضاوي وهو يقول : الداعية روح مفحمة بالحق والنشاط والأمل واليقظة ، فمهمته العظمى أن يرمق الحياة بعين ناقدة ، وبصر حديد ، حتى إذا رأى فتوراً نفخ فيه من روحه ليتقوى ، وإذا رأى انحرافاً صاح به ليستقيم ، إنه في المجتمع ناقوس الخطر يدق من تلقاء نفسه كلما عرض لتعاليم الإسلام ما يعكر صفوها ويعوق انطلاقها[1].

ولقد أحسن الشيخ عبد الله بن بيه حين قال عن الشيخ : إنه ضمير الأمة اليوم، ولسانها المعبر عنها .

هذا القلب الحي هو الذي جعل لكلمات القرضاوي روحاً، ويحيلها إلى كائن حي، ولهذا لم يكن بمستغرب عليه أن تحرك كلماته الساكن ، وتوقظ النائم، وإن شئت فقل : وتحيي الميت. أما غيره فإنه يميت الحي ، ويلقي على المتحرك من برودته ما يطفئ حرارته ، ويخمد جذوته ، وشتان بين هذا وذاك .

---

(١) انظر : مع الله الشيخ الغزالي ص ١٨١ .

وهذا ما جعل الشيخ الندوي يقول للشيخ القرضاوي : إن في كلامك روحاً وحرارة خاصة وهذه قَلَّمَا تترجم .

وقال له آخر : إن في كلامك حرقة غير مصطنعة، تؤثر في سامعيك وهي هبة ربانية [1].

إن هذا القلب الحي هو الذي وصفه الشيخ بقوله : القلب الحي ، يعيش مع الله في حب وشوق ، راجياً خائفاً ، راغباً راهباً، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، كما يعيش في هموم الأمة على اتساعها ، ويحيا في آلامها وآمالها ، لا يشغله هم عن هم ، ولا بلد عن آخر ، ولا فئة من المسلمين عن الفئات الأخرى[2].

ولهذا قالوا ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة ، وهكذا صاحب القلب الحي والقلب الميت .

● – عقيدة سليمة :

ومن مواهب الشيخ وأدواته الدعوية التي انطلق بها ، العقيدة السليمة ، وقد ترجم الشيخ هذه العقيدة سلوكاً في حياته ، وكلمات في كتاباته ، وقد ظهر للشيخ في العقيدة عدة كتب منها :

١ – الإيمان والحياة .

٢ – وجود الله .

٣ – حقيقة التوحيد .

٤ – الإيمان بالقدر .

٥ – الشفاعة .

٦ – موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى . . . .

٧ – فصول في العقيدة بين السلف والخلف .

---

(١) للمزيد راجع ما ذكرته في (الفصل الأول) تحت عنوان : «صفاته وأخلاقه» صفة «روحانية الشيخ».

(٢) انظر : الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته ص ٧٦ .

والعقيدة التي رسخت في قلب الشيخ وقدمها لقرائه تقوم على دعامتين[1].

الأولى : النصوص النقلية من القرآن الكريم والحديث الصحيح .

الثانية : البراهين العقلية والعلمية ، التي لفت إليها القرآن بقوة ، والتي أمدنا فيها العلم الحديث بذخيرة هائلة تقمع الماديين ، وتفحم الملاحدة والمشككين[2].

كيفية دراسة العقيدة عند الشيخ :

ويفصل الشيخ كيفية دراسة العقيدة السليمة على النحو التالي :

١ – أن يكون كتاب الله تعالى ، وما يبينه من صحيح السنة ، هو المصدر الفذ للعقيدة المنشودة ، بعيداً عن الشوائب والزوائد والفضول ، التي لحقت بها على مر العصور وبهذا تبقى العقيدة على صفاتها ووضوحها وبساطتها .

٢ – أن نتبع منهج القرآن في مخاطبة العقل والقلب معاً من أجل تكوين الإيمان الصحيح .

٣ – الاهتمام بأدلة القرآن التي ذكرها لإثبات معتقداته ، وإقناع مدعويه والرد على خصومه ، وتفنيد ما يثيرونه من شبهات ومفتريات .

٤ – صرف الهمة إلى مشكلات العقل المعاصر ، والاشتغال بقضايا العقيدة الكبرى مثل : وجود الله ، وتوحيده ، والنبوة ، والحياة الأخرى ، والقدر ؛ أما المشكلات التاريخية مثل : خلق القرآن ، أو الصفات وعلاقتها بالذات هل هي عين ، أم غير ؟ أم لا عين ولا غير ؟ إلخ . فينبغي أن تدرس كتاريخ للفكر الإسلامي .

---

(١) يكاد يكون كل كتاب الإخوان الذين كتبوا في العقيدة يتفقون مع الشيخ في هاتين الدعامتين، بداية من البنا وانتهاء بالشيخ مروراً بسيد قطب وسعيد حوى والغزالي وعمر الأشقر وعبد المجيد الزنداني ومحمد نعيم ياسين، وغيرهم؛ بل وغيرهم من الكتاب في العصر الحاضر .

(٢) انظر : الإخوان المسلمون ٧٠ عاماً ص ٣١٦ .

٥ ـ الاستفادة من ثقافة العصر ، وخصوصاً في ميادين العلوم البحتة كالفلك والطب والفيزياء وغيرها لتأييد قضايا العقيدة وتثبيتها .

٦ ـ أن نتبنى طريقة السلف في وصف الله تعالى بما وصف به نفسه من غير تكييف ولا تمثيل، ولا تحريف ولا تعطيل. وهي الطريقة التي انتهى إليها أساطين علم الكلام من الأشاعرة وغيرهم، مثل أبي الحسن الأشعري في « الإبانة » والغزالي في « إلجام العوام عن علم الكلام » والفخر الرازي في « أقسام اللذات » حيث يقول فيه : « لقد تأملت المناهج الفلسفية ، والطرق الكلامية ، فلم أرها تشفي عليلاً أو تنقع غليلاً . ورأيت خير الطرق طريقة القرآن : أقرأ في الإثبات ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه: ٥]. واقرأ في النفي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]. ومن جرب مثل تجربتي ، عرف مثل معرفتي » .

٧ ـ أن نتبع شبهات المبشرين والمستشرقين والشيوعيين وغيرهم من خصوم الإسلام وتلاميذهم ، والرد عليها رداً علمياً فكرياً بلسان العصر [١].

ويؤكد الشيخ ضرورة أخذ العقيدة من القرآن بعيداً عن شطحات المتكلمين أو فلسفات المتفلسفين فيقول : من أراد أن يعرف العقيدة الإسلامية نقية غير مشوبة ، بينة غير غامضة ، مخاطبة للعقل وللقلب معاً : فليعرفها من القرآن . ومن الخطأ الذي وقع فيه المتكلمون : اعتبارهم نصوص القرآن مجرد أخبار من الله تعالى ، لا تحمل دلائل وبراهين عقلية ، ، تقنع الطالبين للحق ، وتفحم المجادلين للباطل . مع أن القرآن حافل لهذه الدلائل [٢].

العقيدة التي تربى عليها الشيخ :

والعقيدة التي تربى عليها الشيخ هو وإخوانه من تلاميذ البنا ، ليست كلمات تحفظ ، ولا عبارات تردد ، ولا جدالات لا ينتج عنها أثر ، ولا ينتفع بها قلب .

إنها عقيدة كما يقول الشيخ : ترفض الشركيات والخرافات والأباطيل التي

---

(١) انظر : ثقافة الداعية ص ٨٠ ، ٨١ .
(٢) انظر : كيف نتعامل مع القرآن ص ٤٩

الصقت بعقيدة التوحيد ، وتطارد الشرك بالتوحيد ، والأباطيل بالحقائق ، والبدع بالسنن ، والسلبيات بالإيجابيات .

إنها توحيد خالص لله تعالى ، لا يشوبه شرك ، يقين عميق بالآخرة لا يعتريه شك ، وإيمان جازم بالنبوة لا يداخله تردد ولا وهم ، وثقة مطلقة بالقرآن والسنة مصدرين للعقائد والشرائع والأخلاق والسلوك(١).

إن عقيدة الشيخ عقيدة سلفية ، نعم إنها سلفية حقيقية ، تحمل روحها وحقيقتها ، لا شكلها وجدليتها كما يتوهم البعض .

أما ما يثار حول آيات الصفات وأحاديثها الصحيحة ، والتي تثار بين أتباع المدرسة السلفية والمدرسة الأشعرية أو الماتريدية ، فللشيخ فيها رأي آخر ، إنه يرى أن المعركة ليست مع المؤولين لصفات الله ، بل مع الذين يجحدون الله بالكلية ، إن المعركة ليست مع الأشاعرة ولا الماتريدية ولا المعتزلة ؛ ولكنها في الأصل مع الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله أصلاً(٢).

رأي الشيخ في آيات الصفات وأحاديثها :

وللعلم فإن الشيخ في مسالة آيات الصفات يرى ترجيح مذهب السلف على رأي الخلف ، وهو في هذا موافق لشيخه البنا رحمه الله ، يقول القرضاوي : وأنا أرجح رأي السلف - وهو ترك الخوض في لجج التأويل ، مع تأكيد التنزيه - فيما يتعلق بشؤون الألوهية وعوالم الغيب والآخرة ، فهو المنهج الأسلم ، إلا ما أوجبته ضرورة الشرع أو العقل أو الحس ، في إطار ما تحتمه الألفاظ (٣).

هذا كلام الشيخ الذي ردده في كثير من كتبه ، ولكنه أفصح عن أمر آخر أكثر إيضاحا لموقفه من قضية الصفات في كتابه : «فصول في العقيدة بين السلف والخلف» وسأنقل هنا موقف الشيخ ، يقول الشيخ حفظه الله :

أود أن أبوح بسر للقارئ الكريم ، فقد كنت كونت رأيا منذ سنوات في

---

(١) انظر : الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته ص ٧٨ .
(٢) انظر : وجود الله ص ٧ .
(٣) انظر : كيف نتعامل مع القرآن ص ٢٩٣ .

موضوعنا هذا، وهو ما يتعلق بما سموه: (آيات الصفات) أو (أحاديث الصفات) ويتلخص هذا الرأي أو هذا الموقف في ترجيح المذهب المشهور عن السلف رضي الله عنهم، وهو: السكوت وعدم الخوض أو التفويض.

ولكني بعد أن عشت في الموضوع منذ سنوات، ثم عكفت عليه في السنتين الأخيرتين، وتوسعت في القراءة والدراسة والبحث والمقارنة بين أقوال المدارس المختلفة من المتكلمين والأثريين، أو السلف والخلف، أو الحنابلة وغيرهم، من المثبتين والمفوضين والمؤولين، من مبالغين ومعتدلين في كل فريق: اتضح لي بعد ذلك أمور لم تكن واضحة عندي من قبل بالقدر الكافي، ورأيت أن من التبسيط المخل: أن نسكت ونغلق أفواهنا عن الكلام في الموضوع، ونحسب أن القضية قد حسمت بذلك.

فالحق أن النصوص الواردة في الموضوع ليست كلها في مستوى واحد، لا من حيث ثبوتها، ولا من حيث دلالتها. كما أن المروي عن السلف في هذا الأمر ليس كله ذا مفهوم واحد أو نسق واحد.

فما خلاصة الموقف من هذه القضية التي طال فيها الجدال، واستحال إلى صراع ونزال، أو حراب وقتال؟

أولا: النصوص التي تضيف إلى الله تعالى صفات هي في البشر انفعالات نفسية، مثل: الرحمة والرضا والغضب، والمحبة والكراهية، والفرح والغيرة، والعجب ونحوها، وقد ثبتت بآيات القرآن العزيز، أو بالسنة الصحيحة: نثبت هذه الصفات لله سبحانه وتعالى، كما أثبتها لنفسه، في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ونحن مطمئنون كل الاطمئنان، ولا نلتمس لها تأويلا، إذ لا حاجة إليه، ولا نتوقف فيها، لأنها بينة واضحة المعنى. وهذا هو مذهب السلف فيها.

ثانيا: النصوص التي تثبت الفوقية والعلو لله تعالى، نثبتها كما أثبتها الله تعالى لنفسه، لما جاءت به النصوص الغزيرة الوفيرة في القرآن والسنة.

كل هذه النصوص نثبت ما دلت عليه من وصف لله تعالى، ولكنا نفسر

هذا الإثبات بما فسره به المحققون من علماء المنهج السلفي، لا بما يفهمه السطحيون من الحشوية الظاهرية، وبعض غلاة الحنابلة.

ثالثا: النصوص التي يوحي ظاهرها بإفادة التجسيم والتركيب، لله عز وجل مثل النصوص التي تثبت لله تعالى: الوجه واليد واليدين والعين والعينين ونحوها، مما هو في المخلوق أعضاء وجوارح في الجسم. فهذه النصوص يرجح تأويلها إذا كان التأويل قريباً غير بعيد، مقبولا غير متكلف، جاريا على ما يقتضيه لسان العرب وخطابهم، وهذا التأويل ليس واجبا، ولكنه أحق وأولى من الإثبات الذي قد يوهم إثبات المحال لله تعالى، ومن السكوت والتوقف، ومن التأويل البعيد.

وهذا الموقف الذي اخترناه قد اختاره الأئمة المعتدلون المرضيون عند جمهور الأمة، مثل الإمام أبي سليمان الخطابي، والإمام أبي بكر البيهقي، والإمام أبي زكريا النووي، والإمام ابن كثير، والحافظ ابن حجر، وغيرهم[1].

لماذا يرجح الشيخ مذهب السلف:

وقد ذهب الشيخ إلى ترجيح مذهب السلف، ولم يكن هذا التأييد نابعا من هوى، ولا تماشيا مع الموجة التي تجعل بعضا من العلماء يحاولون عدم التعرض لها، وإنما كان الترجيح لأمور، أهمها:

أولا: أن العقل الإنساني قاصر عن إدراك كنه صفات الله تعالى، كما هو قاصر عن إدراك ذاته، فمن المحال أن يدرك المخلوق كنه الخالق، ويحيط المحدود المحدث الفاني العاجز بالكائن المطلق الكامل الأزلي.

ثانيا: أننا لا نأمن - إذا خضنا لجة التأويل، وصرفنا النصوص بإطلاق عن ظواهرها إلى معان نراها نحن بعقولنا أليق بكمال الله سبحانه - أن ننسب إلى الله تعالى من الأوصاف ما لم يرده، وننفي عنه من الصفات ما لم يرد نفيه. وبذلك نكون من الذين يقولون على الله ما لا يعلمون.

---

(١) انظر: فصول في العقيدة بين السلف والخلف. ص ١١٨ وما بعدها بتصرف.

ثالثـا: أن السلف يخشون من فتح باب التأويل: أن يكون ذريعة لدخول الزنادقـة والملاحـدة وأعـداء الإسـلام الذين يريدون أن يهـدمـوه من الداخل، كالباطنية ومن دار في فلكهم من الفلاسفة، ومنحرفي المتصوفة، وغلاة الفرق، ويعطيهم سندا، في صرف آيات الكتاب عن مدلولاتها وظواهرها.

رابعـا: أن مذهب السلف أسلم بالإجماع، لأن فيه إثبات ما أثبته الله تعالى، ونفي ما نفاه في كتابه وعلى لسان رسوله، مع الجزم بنفي التكييف والتشبيه عن الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

خامسا: أن مذهب السلف مسلم به ومتفق عليه من الجميع، والأولى في قضايا العقيدة وأصول الدين: أن يعتصم الإنسان طالب النجاة بالمتفق عليه، فهو أحوط له، وأحزم لأمره، وأصون لدينه.

سـادسـا: أنا وجدنا عددا من كبار الذين خاضوا لجج التأويل، ونصروا مـذهب الخلف، عـادوا في أواخـر أعـمـارهم إلى مـحـجـة السلف، وأيدوا وجهتهم[1].

كما أن الشيخ في مسالة آيات الصفات يرى ألا تجمع في مكان واحد كما يفعل البعض، فيتوهم الله شخصاً مكوناً من أعضاء يقول الشيخ - حفظه الله -: وتلك الحقيقة: أن تعرض هذه الصفات كما وردت في كتاب الله تعالى وسنه رسوله ﷺ، أعني: أن تذكر مفرقة لا مجموعة، فكل مسلم يؤمن بها ويثبتها لله تعالى كما جاءت.

فليـس ممـا يوافـق الكتـاب والسنـة جمعهـا في نسق واحد يوهم تصور ما لا يليق بكمال الله تعالى. كما يقول بعضهم: يجب أن تؤمن بأن الله تعالى وجهاً، وأعيناً، ويدين، وأصابع، وساقاً، ... إلخ. فإن سياقها مجتمعة بهذه الصورة قد يوهم بأن الله تعالى وتقدس كل مركب من أجزاء، أو جسم مكون من أعضاء..

(١) انظر: فصول في العقيدة بين السلف والخلف. ص ١٣٣ وما بعدها بتصرف.

ولم يعرضها القرآن الكريم ولا الحديث الشريف بهذه الصورة . ولم يشترط الرسول لدخول أحد في الإسلام أن يؤمن بالله تعالى بهذا التفصيل المذكور .

ولم يرد أن الصحابة وتابعيهم بإحسان كانوا يعلمون الناس العقيدة بجمع هذه الصفات ، كما تجمع في بعض الكتب المؤلفة في ذلك(١).

موقف الشيخ من العوام:

ولما كانت هذه القضية من القضايا الشائكة، والتي ربما يستعصي فهمها على عوام الناس، الذين لا يستطيعون الغوص في لجج العلم؛ فقد اختار الشيخ موقفا خاصا للعوام – وهو موقف ابن الجوزي، وإمام الحرمين، والغزالي – قال فيه:

والذي أوثره وأرجحه هنا أن نعتصم بأمور أربعة:

١– أن نثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله، فنصفه بما وصف به نفسه، وما تمدح لنا به، وأراد أن يعرفنا به من أوصافه أو أفعاله، ولا نخاف من إطلاقها مادام القرآن قد أطلقها، والرسول قد ذكرها، فلسنا أغير على ربنا منه عز وجل، ولا أغير عليه من رسوله ﷺ، ولا أحرص على التقديس والتنزيه لله جل شأنه منهما.

٢– ألا نزيد من عند أنفسنا على ما وصف به نفسه، أو نغير عبارة القرآن أو السنة بعبارة من عندنا، فهذا قد يدخلنا في مأزق، أو يوقعنا في مزلق، تزل به أقدامنا. وإنما نلتزم العبارات الشرعية كما وردت.

٣– ألا نجمع هذه الصفات أو الأفعال الموهمة لمشابهة الخلق في نسق واحد، أو في سياق واحد، بل نوردها كما أوردها القرآن، وكما أوردتها السنة في مناسباتها، وفي سياقاتها المختلفة.

٤– أن نؤكد أبداً ما دلت عليه النصوص القاطعة، وأجمعت عليه الأمة بكل طوائفها ومدارسها: سلفيين وخلفيين، من تنزيهه – جل ثناؤه – عن مشابهة شيء من خلقه بحال من الأحوال، وكل ما وصف الله تعالى به نفسه،

(١) الإخوان المسلمون ٧٠ عاماً ص ٣٤٣ .

في كتابه أو على لسان رسوله، مما يشترك فيه مع المخلوقين، فهو ثابت له سبحانه بما يليق بكماله وجلاله وعظمته، ويتنزه عن مشابهة المخلوقين فيه[1].

رأي الشيخ في الخلاف القائم بين أتباع السلف وأتباع الخلف :

وقد أغضب الشيخ موقف المثبتين من المؤولين، وموقف المؤولين من المثبتين، لأنه يرى أن الخلاف ليس خلافا كبيرا كما يتوهم البعض، وأنه لا يوجب تكفير أحد الفريقين للآخر، أو حتى تأثيمه وتضليله ، أو تبديعه وتفسيقه . لذا قال الشيخ:

أعتقد أن الخلاف بين المنهجين أو المذهبين لا يوجب تكفير أحدهما للآخر، ، بمعنى الحكم عليه أنه كافر كفراً أكبر يخرج من ملة الإسلام !! فهذا ما لا ينشرح له صدر مسلم ولا يقبله عقل عالم؛ بل أرى أن الخلاف في هذه القضية لا يحتمل تأثيماً ولا تفسيقاً ولا تبديعاً ، إنما أقصى ما فيه : أن يكون خلافاً بين مصيب ومخطئ ، أو مصيب وأصوب منه [2].

وكما عاب الشيخ موقف السلفيين ألقى كذلك باللوم على المتطاولين من المؤولين فقال: وإذا كنا نعيب على بعض السلفيين غلوهم في تكفير بعض المسلمين من المؤولين وغيرهم، أو تفسيقهم وتأثيمهم، فإنا نعيب كذلك على بعض مخالفيهم الغلو في اتهام هؤلاء السلفيين – بل أئمتهم وشيوخهم – بالضلال والمروق، وتقويلهم ما لم يقولوه في دين الله، ورميهم بالتجسيم والتشبيه وهم يبرأون منهما في كل ما كتبوه. حتى قالوا عن الإمام الرباني، علاّمة الأمة، شيخ الإسلام ابن تيمية ما لا يجوز ولا يقبل أن يقال: بحال من الأحوال[3].

٦ – ملكة خطابية رائعة :

تعد هذه من أبرز أدوات الشيخ ومؤهلاته ، فإن الشيخ جمع بين الأسلوب الكتابي ، والأسلوب الخطابي ، والدعاة والعلماء في أمر الكتابة والخطابة ليسوا سواء ، لكنهم على أصناف فمنهم :

---

(١) انظر : فصول في العقيدة بين السلف والخلف ص ١٦٠ وما بعدها بتصرف .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٧٢ وما بعدها بتصرف .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٧٦ وما بعدها بتصرف.

١ – من تسمعه ولا تقرأ له .

٢ – من تقرأ له ولا تسمعه .

٣ – من تسمعه وتقرأ له .

والشيخ القرضاوي من هذا الصنف الأخير ، فهو يُسمع له ويقرأ له ، وإذا سمعه السامع كاد ألا يفرّق بين أسلوب كتابته ، وإذا قرأ له القارئ يكاد ألا يفرّق بين أسلوب خطابه ، فهو يجمع بين الحسنيين: كتابة وخطابة ، ولقد ساعد الشيخ على ذلك عدة أمور :

١ – لغة جميلة .

٢ – عرض رائع .

٣ – لهجة صادقة .

٤ – لسان فصيح .

٥ – صوت قوي .

٦ – أسلوب رصين .

٧ – ذاكرة قوية [١].

٧ – ثقافة واسعة :

حين نتحدث عن الثقافة الواسعة لدى القرضاوي ، فإننا نتحدث عن صاحب كتاب: « ثقافة الداعية »، ويبدو أن الشيخ في إعداده لهذا الكتاب(٢) إنما كان يتحدث عن ثقافته هو، لذا يقول الشيخ : الدعوة عطاء وإنفاق ، ومن لم يكن عنده علم ولا ثقافة كيف يعطي غيره؟! وفاقد الشيء لا يعطيه ، ومن لم يملك النصاب كيف يُزكي[٣].

---

(١) يراجع من هذا الكتاب فصل « الوسائل والأساليب في منهج القرضاوي الدعوي» مبحث «الخطب».

(٢) شارك الشيخ بهذا البحث في المؤتمر الإسلامي الأول لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٣٩٧ هـ، وأخرجه الشيخ كتاباً فيما بعد وأصبح من أشهر كتبه .

(٣) انظر : ثقافة الداعية القرضاوي ص ٥ .

والداعية في نظر الشيخ : ليس مجرد الخطيب الذي يؤثر في الناس بوعظه وصوته وقصصه التي يثير بها العواطف .. هذا قد يوجد ، وإنما أريد الداعية الفقيه ، الداعية الذي يعرف حقيقة الإسلام ، ويعرف ما يجري في هذه الحياة ، ولا يعيش منعزلاً عن عصره وما يدور فيه من تيارات وما يعتريه من مشكلات .. نحن نريد الداعية الذي يفقه أحكام الله الشرعية وسنن الله الكونية .. نحن الآن في حاجة إلى الداعية الفقيه الذي يعلم الناس الإسلام حق التعليم .. الداعية الذي لا يشغل الناس بالسنة وهم يضيعون الفرض ، ويشغلهم بأمر مختلف فيه وهم يرتكبون الكبائر !!(١)

وللشيخ في أنواع الثقافات قدم راسخ ، وتبريز واضح ، وخصوصاً الثقافة الإسلامية بشتّى جوانبها .

ولمعرفة الثقافة لدى الشيخ سنتحدث على النحو التالي :

أولاً : الثقافة الإسلامية .

ثانياً : الثقافة التاريخية .

ثالثاً : الثقافة الأدبية واللغوية .

رابعاً : الثقافةالإنسانية .

خامساً : الثقافة العلمية .

سادساً : الثقافة الواقعية .

* * *

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ص٤٨ ج ١ .

أولاً : الثقافة الإسلامية

١ ـ القرآن وعلومه :

الناظر في مكتبة الشيخ يطالع أول ما يطالعه في كتبه :

١ – كيف نتعامل مع القرآن[١] .

٢ – الصبر في القرآن [٢].

٣ – العقل والعلم في القرآن [٣].

٤ – المرجعية العليا في الإسلام [٤].

٥ – تفسير سورة الرعد[٥].

هذا فضلاً عن الفتاوى المتناثرة للشيخ، والكلمات المبثوثة في كتبه هنا وهناك .

والسامع للشيخ في دروسه الرمضانية التي يلقيها في جامع الإمام «أحمد بن حنبل » بالدوحة في كل عام منذ قرابة ثلاثين عاماً، يلحظ دقة الشيخ في اختيار الآيات القرآنية التي يفسرها، مما يتماشى مع حاجة الناس .

وقد ترى الشيخ يوماً يفسر آية ، ويوماً مجموعة من الآيات، ويوماً سورة كاملة ، ويوماً جزءاً بكامله، وهو في هذا كله تظهر عليه سمات المفسر ، فتسمع

---

(١) وهو كتاب شقيق لكتاب الشيخ «كيف نتعامل مع السنة؟»، وللشيخ الغزالي كتاب بهذا الاسم وهو عبارة عن محاورات وأسئلة طرحها عليه الأستاذ عمر عبيد حسنة . وقد وضع الشيخ القرضاوي في كتابه مجموعة من القواعد والأصول في كيفية التعامل مع القرآن حفظاً وتلاوة واستماعاً وفهماً وتفسيراً واتباعاً وعملاً ودعوة ، كما بين الشيخ مقاصد القرآن وخصائصه .

(٢) وهو تفسير موضوعي جمع الشيخ فيه ما يتعلق بالصبر من الكلمات والآيات في القرآن .

(٣) وهو تفسير موضوعي جمع الشيخ فيه ما يتعلق بالعقل والعلم من الكلمات والآيات في القرآن .

(٤) وهو شرح للأصل الثاني من الأصول العشرين للإمام البنا وضح فيه الشيخ كيفية التعامل مع القرآن والسنة .

(٥) وهو تفسير تحليلي وليس للشيخ غيره ، وهو عبارة عن دروس جمعها وحققها الأستاذ محمود أحمد عوض .

منه لطيفة ، أو إشارة ، أو معنى لغوياً ، أو حكماً فقهياً ، أو صورة بيانية ، ولن تعدم منه نكتة جميلة ، أو طرفة مضحكة .

وهذا ليس بغريب على ابن الكتّاب كما سمّى نفسه في مذكراته.

ولقد أحسن الأخ محمود أحمد عوض حين قال في مقدمة تحقيقه لتفسير سورة الرعد : ومن خلال المعايشة تبين لي منهج الرجل الثابت في التعامل مع القرآن الكريم ، الذي يقوم على النظرة المعتدلة والشاملة ، ويبتعد عن الإفراط والتفريط ، ويربط الآيات بعضها ببعض ، ويتتبع اللفظة في القرآن فيذكر معانيها[١] .

وعلاقة الشيخ بالقرآن بدأت مبكراً منذ نعومة أظفاره ، يوم أن جلس بين شيخه في الكتاب ، ولا تزال علاقة الشيخ بالقرآن مستمرة وتستمر بإذن الله ، حدثني الأستاذ الدكتور علي القرة داغي وهو من تلامذة الشيخ و مرافقيه في كثير من أسفاره ، يقول : إن الشيخ لا يفارقه مصحفه أبداً ، وخصوصاً في أسفاره الطويلة كما في السفر إلى أمريكا ، وإن الشيخ يختلي بنفسه في السفر مردداً كلمات الله بصوت عذب ندي .

والشيخ في اختياره لأدلته من القرآن لا يتعب ولا يمل ، فقرآنه في صدره ، وآياته في قلبه ، وكلماته في دمه ، أشبه ما تكون بثمار دوانٍ، وقطوف دانية، يتناول الشيخ منها ما شاء، وقتما شاء .

فالقرآن ذخيرة من ذخائره ، ومعين يستمد منه ، وضياء يقتبس منه ما يضيء له طريق دعوته ، ويفتح به صدور مدعويه، وهو في هذا كله إنما يحاول جاهداً أن يستخرج من لآلئه ، وينبش عن كنوزه، ليزكي بها النفوس، ويقوّم بها الأفكار، ويصحح بها الاعتقاد. يقول الشيخ في مقدمة كتابه العقل والعلم في القرآن : القرآن الكريم هو مصدري الأول، ومعتمدي الأساسي، أستمد منه الهداية والتسديد ، في كل محاضراتي وخطبي ، وعامة مؤلفاتي وكتبي . ساعدني على ذلك حفظي المبكر للقرآن ، وأنا دون العاشرة ، واستحضاري لآياته

---

(١) انظر : تفسير سورة الرعد ص٩ .

بيسر ، كلما احتجت إلى الاستشهاد بها في مختلف المعاني وشتى الموضوعات[١].

والشيخ ينظر إلى واقع المسلمين وتعاملهم بالقرآن فيرى سوء تعامل مع القرآن ، فيضعون القرآن في غير موضعه ، أو يستعملونه في غير مكانه ، أو يجرونه في غير ما أنزل له ، كما في استعمالهم له كرقى وتمائم ، أو بركة في البيوت ، أو تلاوة على الأموات، أو حتى مداواة للمرضى فقط دون العمل به .

يقول الشيخ : ما رأيت غائباً أشبه بحاضر ، ومنسياً أشبه بمحتفى به ، من القرآن في حياة المسلمين .

إن عشرات الألوف بل مئات الألوف ، يحفظونه عن ظهر قلب ، ومئات الملايين يتلونه أو يستمعون إليه صباحاً ومساء ، آناء الليل وأطراف النهار ، وملايين آخرين يزينون بآياته الجدران ، أو يتبركون بحمل المصحف في جيوبهم أو في سياراتهم ، أو بحمل آية من آياته في حلية تزدان بها صدورهم ، أو تميمة يستشفي بها عوامهم ، بل رأينا بعضهم يفتحون عيادات للاستشفاء بالقرآن ، والعلاج بالقرآن !

نرى المسلمين تفتتح إذاعاتهم وتلفازاتهم بالقرآن ، وتختم بالقرآن ، بل هناك إذاعات كاملة مخصصة كلها للقرآن ، ترتله وتجوده وتفسره .

ومع هذا كله ، نرى المسلمين مقصرين في حق القرآن أبلغ تقصير . فالقرآن لم يصبح هو الموجه الأول لعقول المسلمين ، ولا المؤثر الأول في قلوب المسلمين ، ولا المحرك الأول لسلوك المسلمين ، ولا المغير الأول لما بأنفس المسلمين[٢].

وقد عبّر الشيخ عن هذا شعراً فقال :

هذا الكتاب غدا في الشرق وأسفا ... شمساً تضيء ولكن بين عميان
يحاط بالطفل حرزاً من أذىً وردىً ... وفيه حرزُ الورى من كل خسران

---

(١) انظر : العقل والعلم في القرآن ص ٧ .
(٢) انظر : كيف نتعامل مع القرآن ص ٤٠٥ .

يتلى على ميت في جوف مقبرة وليس يحكم في حي بديوان
فكيف نرقى ومعراجُ الرقيّ لنا أمسى يجر عليه ذيل نسيان؟[1]

ويندد الشيخ بهذا النوع فيقول : فالقرآن لم ينزله الله تعالى لمجرد التبرك بتلاوته ، ولا لتزيين الجدران بآياته ، ولا لقراءته على الأموات ابتغاء أن يرحمهم ربهم .

إنما أنزل الله القرآن ليضبط بهدايته مسيرة الحياة ، ويحكمها بما أنزل الله من الهدى ودين الحق ، ويهدي بنوره البشرية للتي هي أقوم ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور .

فالقرآن لم ينزل ليتلى على الأموات بل ليحكم الأحياء ، لم ينزله لتزدان به الجدران، بل ليزدان به الإنسان [2].

ولعل هذا أحد الأسباب التي دعت الشيخ إلى أن يكتب كتابه القيم « كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟»، وعند مطالعة هذا الكتاب نرى كيف يريد القرضاوي أن يتعامل المسلم مع القرآن :

١ - حفظاً وتلاوة واستماعاً .
٢ - فهماً وتفسيراً
٣ - اتباعاً وعملاً ودعوة .

وخلاصة فهم القرضاوي للقرآن أنه :

أولا : من حيث خصائصه :

١ - كتاب إلهي .
٢ - كتاب محفوظ .
٣ - كتاب معجز .
٤ - كتاب مبين ميسر .
٥ - كتاب الدين كله .

(١) انظر : نفحات ولفحات ص ٣٩ .
(٢) انظر : المرجعية العليا ص ٢٣ .

٦ – كتاب الزمن كله .

٧ – كتاب الإنسانية كلها [١].

ثانياً من حيث مقاصده :

١ – يصحح العقائد والتصورات .

٢ – يقرر كرامة الإنسان وحقوقه .

٣ – يرسخ عبادة الله وتقواه .

٤ – يزكي النفس البشرية .

٥ – يكون الأسرة وينصف المرأة .

٦ – يبني الأمة الشهيدة على البشرية .

٧ – يدعو إلى عالم إنساني متعاون [٢].

ثالثاً من حيث تفسيره :

فقد وضع الشيخ معالم وضوابط ، وحذر من بعض المزالق والمحاذير .

أما المعالم والضوابط فهي :

١ – الجمع بين الرواية والدراية .

٢ – تفسير القرآن بالقرآن .

٣ – تفسير القرآن بالسنة .

٤ – الانتفاع بتفسير الصحابة والتابعين .

٥ – الأخذ بمطلق اللغة .

٦ – مراعاة السياق .

٧ – ملاحظة أسباب النزول .

٨ – اعتبار القرآن أصلاً يرجع إليه [٣].

---

(١) انظر : كيف نتعامل مع القرآن ص ١٧ - ٧٠ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٧١ - ١٢٨ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٢١٤ - ٢٦٤ .

وأما المزالق والمحاذير التي حذر منها فهي :

١ - اتباع المتشابهات وترك المحكمات .

٢ - سوء التأويل .

٣ - وضع النص في غير موضعه .

٤ - دعوى النسخ بلا برهان .

٥ - الجهل بالسنن والآثار .

٦ - الثقة بالإسرائيليات .

٧ - الشرود عن إجماع الأئمة .

٨ - ضعف التكوين العقلي [١].

القرآن في دعاء الشيخ وشعره :

تأثر الشيخ القرضاوي بالقرآن تأثراً واضحاً ، ولك أن تقول إن القرضاوي عاش بالقرآن وللقرآن ومع القرآن - أحسبه كذلك ولا أزكيه على الله تعالى - وقد ظهر هذا التأثر كما هو معروف في كتابات الشيخ ومحاضراته ، و كما في خطبه وكلماته ، وسألقي الضوء هنا على أمرين فقط :

الأول : القرآن في دعاء القرضاوي .

الثاني : القرآن في شعر القرضاوي .

أولاً : القرآن في دعاء القرضاوي :

تشهد قطر كلها بأن الشيخ من أول من سنّ للناس فيها سنة ختم القرآن في صلاة التراويح ، وكان الشيخ محيي هذه السنة في قطر ، ولما كان الشيخ يطيل القراءة ، كان لازماً عليه أن يطيل دعاء القنوت في صلاة الوتر، تماشياً مع إطالة القراءة ، بيد أن الشيخ كان أكثر ما يطيل في ليلة السابع والعشرين [٢]، وليلة

---

(١) انظر : كيف نتعامل مع القرآن ص ٢٦٥ - ٣٦٨ .

(٢) يعتقد كثير من الناس أن ليلة السابع والعشرين من رمضان هي ليلة القدر ، وعلى هذا درج كثير من الأئمة والدعاة ، ومنهم الشيخ القرضاوي الذي درج على تخصيص هذه الليلة بطول القيام وكثرة الدعاء ، =

ختم القرآن[١] ، والمتأمل لدعاء الشيخ في هاتين الليلتين وغيرهما يرى كيف يقتبس الشيخ دعائه من القرآن ، ويلحظ السامع الشيخ في دعائه كيف يرتب دعاءه وينسقه وينظمه ؛ فهو أولاً يثني على الله بما هو أهله مما ورد في القرآن والسنة ، ثم يدعو ربه بدعاء أنبيائه الوارد على ألسنتهم في القرآن ، ويكاد الشيخ لا يترك دعاء واحد منهم بداية بآدم عليه السلام وانتهاء بمحمد ﷺ ومروراً بنوح وهود وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وغيرهم عليهم الصلاة والسلام[٢].

ثم يبدأ الشيخ بعد ذلك بالاقتباس من القرآن والسنة ، واللافت للنظر : هو اقتباس الشيخ من القرآن وتأوله لآياته ، واقرأ معي هذه الأدعية لترى كيف تأثر الشيخ بالقرآن الكريم :

اللهم يا من أهلكت ثمود بالطاغية ، وأهلكت عاداً بريح صرصر عاتية ، وأخذت فرعون وجنده أخذة رابية ، أهلك الطغمة اليهودية المتجبرة الباغية ، ولا تبق لهم في أرضنا من باقية ، اللهم إنهم طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد. اللهم فصب عليهم سوط عذاب، وكن لهم بالمرصاد، ودمرهم كما دمرت إرم ذات العماد .

أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد .

أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس .

سبحان ربي الأعلى ، الذي خلق فسوى ، الذي قدر فهدى ، والذي أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى .

= قال القرطبي : وقد اختلف العلماء في ذلك والذي عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين . وهناك آراء أخرى منها أنها ليلة الحادي والعشرين ، أو الثالث والعشرين ، أو أنها تتنقل في الليالي الفردية من العشر الأواخر . للمزيد في ذلك انظر : الجامع لأحكام القرآن القرطبي ط دار الكتب ج٢٠ ص ١٣٣ ١٣٨٧ هـ .

(١) يطيل الشيخ في دعائه وقد يصل طول دعائه إلى ساعة ؛ ينقص أو يزيد بقليل.

(٢) انظر : ابتهالات ودعوات ص ١٥ وما بعدها .

سبحان الله الأحد، سبحان الله الصمد، سبحان الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد .

اللهم فالق الحب والنوى ، مخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي، فالق الإصباح ، وجاعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباناً، يا من جعل لنا النجوم لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، يا من أنشأنا من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع ، يا بديع السماوات والأرض .

اللهم فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس دونك شيء، أغننا من الفقر، وأوف عنا الدين .

يا من خلق الأرض والسموات العلا، يا رحماناً على العرش استوى، يا من له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما ، وما تحت الثرى ، يا من يعلم السر وأخفى ، يا من له الأسماء الحسنى ، يا من مع عباده يسمع ويرى ، يا من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، يا من لا يضل ولا ينسى، يا من وعد من اتبع هداه بان لا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكره فإن له معيشة ضنكا، ويحشره يوم القيامة أعمى .

يا من خشعت الأصوات لرحمانيته ، وعنت الوجوة لقيوميته ، وشهدت الفطر بوحدانيته، واقرت العقول بربوبيته ، ودلت الدلائل على ألوهيته ، وخضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لعزته ، وسكن كل شيء لهيبته ، وقام كل شيء بقدرته ، ودانت الجبابرة لسطوته ، وأبدع كل شيء بحكمته ، ووسع كل شيء برحمته ، يا من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، يا من خضعت الكائنات لقهره ، ومن قامت السموات والأرض بأمره .

اللهم انت الذي خلقتني فانت تهدين ، وأنت الذي تطعمني وتسقين، وإذامرضت فانت تشفين ، و أنت الذي تميتني ثم تحيين، وأنت الذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ، رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ، واجعل

لي لسان صدق في الآخرين ، واجعلني من ورثة جنة النعيم ، واغفر لآبائنا وأمهاتنا من المسلمين[١].

ثانياً : القرآن في شعر القرضاوي :

من المعروف لدى المشتغلين بالشعر أن كثيراً من الشعراء بعد نزول القرآن اقتبسوا من القرآن، وأخذوا من ألفاظه ومعانيه ، واستلهموا من كلماته ومبانيه ، ومَنْ مِنَ المشتغلين بالشعر ينسى قول حسان عند حديثه عن غزوة الخندق وهو يقول :

وكفى الإله المؤمنين قتالهم ... وأثابهم في الأجر خير ثواب [٢]

ومن كذلك ينسى قول ابن رواحة :

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء حق ... وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة غلاظ ... ملائكة الإله مسومينا [٣]

وعلى مر التاريخ الإسلامي أخذ الشعراء يقتبسون من القرآن ، ومن هؤلاء الشيخ القرضاوي وهذا يظهر جلياً في كثير من شعره بل تكاد جل قصائده إن لم تكن كلها لا تخلو من اقتباس من القرآن وعلى سبيل المثال :

١ - في قصيدته الأولى من ديوانه الأول « يا مرشداً قاد بالإسلام إخواناً» يقول :

وعاش يوسف دهراً يخدم امرأة ... عبداً، وكان له في السجن ما كان

فإن يكن نسل يعقوب كذا فعلوا [٤] ... فلا تلم نسل فرعون وهامانا

---

(١) انظر : ابتهالات ودعوات ص٣٣ وما بعدها .
(٢) انظر : ديوان حسان بن ثابت ص ٤٠ وما بعدها ط دار الكتب العلمية بيروت الأولى ١٩٨٦م.
(٣) انظر : الاستيعاب ابن عبد البر ج ٣ ص ٩٠١ ط دار الجيل بيروت ١٤١٢ هـ .
(٤) أخوة يوسف تابوا من فعلتهم، واستغفر لهم أخوهم كما وعدهم أبوهم يعقوب بالاستغفار، فليس لنا أن نعيرهم بفعلتهم .

ودع أذاهم وقل: موتوا بغيظكم فالغرب مولاكم والله مولانا

٢ ـ وفي قصيدته الثالثة «في ذكرى المولد» يقول:

ما زال فينا ألوف من «أبي لهب» يؤذون أهل الهدى بغياً ونكراناً

يا رب نصرك فالطاغوت أشعلها حرباً على الدين إلحاداً وكفراناً

يا قوم قد أيد التاريخ حجتنا «وحصحص الحق» للمستبصر الآنا[١]

٣ ـ وفي «ملحمة الابتلاء» يرى القارئ لشعر القرضاوي أثر القرآن في ثقافته واضحاً جليا ومن ذلك قوله فيها:

نونية والنون تحلو في فمي أبداً فكدت يقال لي «ذو النون»[٢]

وقوله:

كفى بربك للخليقة محصياً في لوحه وكتابه المكنون[٣]

وقوله:

وعزلت عن بصر الحياة وسمعها وقذفت في قفص العذاب الهون[٤]

وقوله عن السجن الحربي:

هو صورة صغرى استعيرت من لظى في ضيقها وعذابها الملعون

وقوله عن أحد شهداء السجن الحربي:

قولوا لأمي لا تنوحي واصبري أنا عند خالقي الذي يهديني

أنا إنا حرمت وداهكم لجنازتي فملائك الرحمن لم يدعوني

إن لم يصل علي في الأرض امرؤ حسبي صلاتهمو بعليين

أنا في الفردوس أقفز شادياً جذلان كالعصفور بين صون

---

(١) انظر: نفحات ولفحات ص ٤٤.

(٢، ٣) انظر: المرجع السابق ص ٥٤.

(٤) انظر: المرجع السابق ص ٥٥.

أنا في جوار المصطفى وصحابه	أحضى بأجر ليس بالممنون
ولدانها في خدمتي وثمارها	في قبضتي ونعيمها يدعوني
وإذا حرمت العرس في الدنيا فلي	ما شئت فيها من حسان عين[١]

بل إن خاتمة القصيدة كلها قبسات قرآنية يقول فيها الشيخ :

يا من أجبت دعاء نوح : «فانتصر»	وحملته في «فلكه المشحون»
يا من أحال النار حول خليله	«روحاً وريحاناً» بقولك «كوني»
يا من أمرت الحوت يلفظ يونساً	وسترته بشجيرة اليقطين
يا رب إنا مثله في كربة	فارحم عباداً كلهم «ذو النون»[٢]

ولعل قصيدتيّ «ابتهال»[٣] و«مناجاة»[٤] من الديوان الأول من أكثر قصائد الشيخ اقتباساً من ألفاظ القرآن ومعانيه.

كما أن قصائد «الديوان الثاني» كذلك لا تخلو من اقتباس واضح، فانظر على سبيل المثال : قصيدة «هجمة الجند»[٥].

وقصيدة : أم زائرة[٦].

وقصيدة : إليك يا ابن الإسلام[٧].

وقصيدة : إليك يا ابنة الإسلام[٨] . وغيرها كثير .

٢ ـ السنة وعلومها :

تعد السنة النبوية من مؤهلات كل داعية إلى الله تعالى ، وهي تمثل لدى الشيخ القرضاوي – ولدى كل داعية – المصدر الثاني في الدعوة إلى الله، ولا يتصور أن يكون المرء داعياً إلى الله تعالى، إلا إذا ملأ جعبته من السنة النبوية علماً وعملاً .

(١) انظر : نفحات ولفحات ص ٥٩ .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ٦٩ .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ٨٥ .
(٤) انظر : المرجع السابق ص ٨٩ .
(٥) انظر : المسلمون قادمون ص ٩ .
(٦) انظر : المرجع السابق ص ١٧ .
(٧) انظر : المرجع السابق ص ٣١ .
(٨) انظر : المرجع السابق ص ٣٩ .

والشيخ القرضاوي حفظه الله ولج علوم السنة وعلوم الحديث بقوة ، وقد رسخ الشيخ أقدامه في هذا المضمار ، وقد أخرج الشيخ من كتبه في هذا المضمار:

١ – المنتقى من الترغيب والترهيب [١].

٢ – المدخل لدراسة السنة النبوية [٢].

٣ – كيف نتعامل مع السنة النبوية [٣].

٤ – السنة مصدراً للمعرفة والحضارة [٤].

٥ – نحو موسوعة للحديث النبوي [٥].

٦ – قطوف دانية من الكتاب والسنة[٦] .

---

(١) ألف الشيخ هذا الكتاب وهو اختصار لكتاب الترغيب والترهيب بحذف الضعيف والمكرر منه ، واقتصر على الصحيح والحسن ، والتعليق عليه بما لا بد منه في أضيق نطاق ، وكان السبب في ذلك هو ولوع بعض الخطباء والوعاظ بالأحاديث المنكرة والواهية بل والضعيفة أحياناً ، ويكون الشيخ بعمله في هذا الكتاب الذي يقتبس منه الكثيرون يكون قد أنقذ الكثيرين من التعلق بالضعيف من الحديث ، انظر : المنتقى ص ٤٧ .

(٢) ألفه الشيخ استجابة لرغبة قسم الحديث والتفسير بكلية الشريعة جامعة قطر وفق البرامج المطورة للكلية المذكورة ، انظر : ص ٣ من الكتاب .

(٣) ألف الشيخ هذا الكتاب استجابة لكل من المعهد العالي للفكر الإسلامي في واشنطن والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن ، انظر : ص ١٩ من الكتاب .

(٤) ألف الشيخ هذا الكتاب استجابة للمعهد العالي للفكر الإسلامي في واشنطن ، انظر : ص ٧ من الكتاب.

(٥) رسالة موجزة للشيخ كتبها حول مشروع يوضح فيه الشيخ منهجاً مفترضاً لإعداد موسوعة في السنة وما يجب أن تتضمنه ، والطريقة التي ينبغي أن تتم بها والخطوات اللازمة لذلك ، وقد نشرت هذه الرسالة في مجلة مركز بحوث السنة ، ونشرتها مجلة المسلم المعاصر وغيرها من المجلات ، ثم نشرتها مكتبة وهبة كتاباً مستقلاً . انظر : مقدمة الكتاب ص ٤ ، ٥ بتصرف .

(٦) هذا الكتاب أو هذه الرسالة تعد أول مؤلف نثري للشيخ نشر له في عالم التصنيف ، وكان الشيخ وقتها طالباً في كلية أصول الدين ، ولم يكن له قبلها سوى مسرحيته الشعرية « يوسف الصديق» ، وكان تأليف الشيخ لهذه الرسالة استجابة لإخوان المحلة الكبرى، فجمع هذه الأحاديث والآيات وبوبها وركبها ، وكان الشيخ قد أعد لها توسيعاً وتحسيناً وأعد لذلك مسودة لكنها ضاعت مع ما ضاع من تراث الإخوان . انظر : مقدمة الكتاب ص ٣ وما بعدها.

٧ – الرسول والعلم[١].

٨ – المرجعية العليا في الإسلام [٢].

٩ – في رحاب السنة [٣].

وترى الشيخ مدافعاً قوياً عن السنة النبوية، وهو حين يدافع إنما يضرب في ثلاث جبهات :

١ – جبهة التحريف . ٢ – جبهة الانتحال .

٣ – جبهة التأويل .

فيحذر من تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وهو في هذا يسلك طريق العدول من أهل العلم الذين عناهم الرسول ﷺ بقوله : يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغاليين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين [٤].

يقول الشيخ : فهناك التحريف الذي يأتي عن طريق الغلو والتنطع ، والتنكب عن الوسطية التي تميز بها هذا الدين ، وعن السماحة التي وصفت بها هذه الحنيفية ، وعن اليسر الذي اتسمت به التكاليف في هذه الشريعة .

وهناك الانتحال الذي يحاول به أهل الباطل أن يدخلوا على هذا المنهج النبوي ما ليس منه ، وأن يلصقوا به من المحدثات والمبتدعات ما تأباه طبيعته ، وترفضه عقيدته وشريعته ، وتنفر منه أصوله وفروعه .

---

(١) هذا الكتاب : قام الشيخ فيه بجمع الأحاديث المقبولة المتناثرة من مختلف المصادر، وبخاصة الأصلية منها، ودراستها دراسة موضوعية، لبيان موقف الرسول ﷺ في السنة والسيرة عن العلم بمفهومه العام، أو بمفهومه الحديث. انظر : مقدمة الكتاب ص٨ .

(٢) وهو شرح للأصل الثاني من الأصول العشرين للإمام البنا وضح فيه الشيخ كيفية التعامل مع القرآن والسنة .

(٣) هذا الكتاب : مجموعة من الأحاديث قام الشيخ بشرحها وأذاعتها إذاعة قطر عند إنشائها في ستينيات القرن الماضي وتم تفريغها، وهي تحت الطبع .

(٤) الحديث ذكره ابن القيم في مفتاح دار السعادة وقواه لتعدد طرقه ، وكذلك العلامة ابن الوزير ونقل تصحيح أحمد له، وكذلك ابن عبد البر، ورجح العقيلي إسناده . انظر : كيف نتعامل مع السنة ص ٢٨ .

وهناك سوء التأويل الذي به تشوّه حقيقة الإسلام ، ويحرف فيه الكلم عن مواضعه، وتنتقص فيه أطراف الإسلام ، فيخرج من أحكامه وتعاليمه ما هو من صلبه ، كما حاول أهل الباطل أن يدخلوا فيه ما ليس منه ، أو يؤخروا ما حقه أن يقدم ، أو يقدموا ما حقه أن يؤخر (١).

وقد وضع الشيخ عدداً من الضوابط والمعالم التي ينبغي على كل داعية أن يكون مدركاً لها كل الإدراك ، حتى لا يقع فيما حذر منه النبي ﷺ ، ونبه عليه العدول من أهل العلم ، وهذه المعالم والضوابط هي :

١ – فهم السنة في ضوء القرآن .

٢ – جمع الأحاديث الواردة في الموضع الواحد .

٣ – الجمع أو الترجيح بين مختلف الحديث .

٤ – فهم الأحاديث في ضوء أسبابها وملابستها ومقاصدها .

٥ – التمييز بين الوسيلة المتغيرة والهدف الثابت للحديث .

٦ – التفريق بين الحقيقة والمجاز في فهم الحديث .

٧ – التفريق بين الغيب والشهادة .

٨ – التأكد من مدلولات ألفاظ الحديث (٢).

والذي يقرأ ما كتبه الشيخ في كتبه التي ذكرناها، وغيرها، يرى اضطلاع الشيخ وتبحره في علوم السنة متناً وسنداً ، رواية ودراية ، وهو في هذا قد أتعب من جاء بعده بل ومن عاصره ، ممن خالفه أو وافقه .

إن جُل الدعاة تراهم بين فريقين ، إما منشغل بالدعوة فتأخذ أكبر همه وأكثر شغله، وإما منشغلٌ بطلب العلم فيأخذ أكبر همه ومبلغ علمه ، ثم إن من الذين ينشغلون بالعلم فمنهم من ينشغل به دراية ومنهم من ينشغل به رواية ، وقلَّ من يجمع بينهما ، وشيخنا حفظه الله ممن جمع بين الاثنين معاً ، ولعل هذه مزية تميز بها الشيخ القرضاوي عن شيخه الغزالي رحمه الله .

---

(١) انظر : كيف نتعامل مع السنة ص ٢٨ – ٣٠ بتصرف .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٩٣ - ١٨٢ ، والمدخل لدراسة السنة ص ١١٧ - ٢٠٥ .

ومن المعلوم أن الشيخ لم ترسخ قدمه في علم الحديث رواية إلا بعد أن منّ الله عليه بكتابة كتابه القيم «فقه الزكاة»، وقد كان الشيخ قبل هذا الكتاب مقلداً لغيره من أهل الحديث في القديم أو الحديث، وكان مقلداً لأهل الفقه قديماً في اعتمادهم على أهل الحديث، ولعل هذا بدا في كتابه الأول «الحلال والحرام»، فالشيخ كان فيه مقلداً أكثر منه مجتهداً خصوصاً في الحكم على الحديث من حيث القبول أو الرد والصحة أو القبول، وهذا ما يؤكده الشيخ فيقول: هناك أحاديث اعتمدت فيها على تصحيح أو تحسين المتقدمين من أئمة الحديث فقهاء السنة، وأعترف أني لم أناقشهم فيما صنعوا، بل كنت مقلداً لهم، ناقلاً عنهم، ولا غرابة أن يأخذ رجل الفقه عن رجل الحديث[1].

ويعلق الشيخ على قبوله لحديث «من حبس العنب أيام القطاف، حيث يبيعه من يهودي أو نصراني، أو ممن يتخذه خمراً، فقد تقحم النار على بصيرة»[2] بأنه اعتمد على تحسين الحافظ ابن حجر، وسكوت الصنعاني على تحسين الحافظ، ثم يقول: هذا ما غرّني بالحديث المذكور، وجعلني أقبله تقليداً كما قلت، إذ كنت في مرحلة التقليد المطلق في الحديث، ولم أبدأ البحث في أمر الحديث، والخروج جزئياً من إسار التقليد فيه، إلا عندما بدأت أكتب في فقه الزكاة[3].

وقد أظهر الشيخ حقا براعته في التخريج وقدرته في هذا الفن، وراجع إن شئت مثلاً تخريجه لحديث «ليس في المال حق سوى الزكاة»[4].

وهذه القدرة البارعة جعلت الشيخ يقف مع عدد من الأحاديث وقفة ربما يصفه البعض فيها بالجرأة، وذلك حين يرد الشيخ حديثاً صححه المحدثون وخصوصاً جهابذته في العصر الحديث أمثال أحمد شاكر والألباني وشعيب

---

(١) انظر: فتاوى معاصرة ج١ ص ١٠١.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن عبد الله بن بريد عن أبيه. وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (١٢٦٩).

(٣) انظر: فتاوى معاصرة ج٢ ص ١٠٢.

(٤) رواه ابن ماجه. في كتاب الزكاة عن فاطمة بنت قيس (١٧٨٩) وذكره الألباني في ضعيف الجامع رقم (٤٩٠٩). وانظر تعليق الشيخ القرضاوي على الحديث في كتابه: فقه الزكاة ج٢ ص ١٠٢٠.

لأرناؤوط ، كما هو الحال من موقف الشيخ من حديث «بعثت بين يدي الساعة بالسيف ، حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي» حيث ضعف الشيخ هذا الحديث من جهة سنده ومتنه(١).

وكما فعل الشيخ مع هذا الحديث؛ فعل مع الحديث المشهور على ألسنة الناس ، وهو حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة(٢).

٣ ـ الفقه وأصوله :

قليلون هم الدعاة الفقهاء ، أو الفقهاء الدعاة ، وقد منّ الله على الشيخ؛ فجمع بين الفقه والدعوة كما جمع بين الأدب والبيان ؛ وحين يذكر القرضاوي فلا شك أنك ذاكر «فقه الزكاة» وحين يطالع القارئ «فقه الزكاة» فلا شك أنه واقف على موسوعة فقهية تنوء بمثلها المجامع كما قال الأستاذ محمد المبارك .

والحق أن الشيخ في فقهه استطاع أن يمزج بين الفقه والدعوة ، فهو حين يتحدث في الفقه إنما يتحدث بلسان الداعية ، وحين يكتب في الدعوة فإنما يكتب بعقلية الفقيه ، ومن ثم فإنك ترى الشيخ يتبنى من القضايا الفقهية ما يخدم دعوته ، وينفع رسالته ، ويحبب الناس في الدين. وحين يرفض رأياً في قضية من القضايا الفقهية ، فإنه إنما يرفضها بعين الداعية الفقيه ، لأنها ربما لا تتفق مع عظمة الإسلام ، ومقاصد الشرع .

ولعل هذه النظرة التي تبناها الشيخ أدارت حوله معارك ساخنة ؛ مما جعل ناشئة من الناس تطاولوا على الشيخ متناسين قدره وشأنه .

والشيخ منذ نعومة أظفاره ، ومن يوم أن دخل الأزهر ، وعينه تتقلب على كتب الفقه يمنة ويسرة ، وعقله يتنقل بين أقوال الفقهاء في بطون الكتب ، حتى غدا بعد ذلك ذا قدرة فائقة على استنباط الأحكام من أدلتها ، وغدت سمة

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ١٠٦ وما بعدها .

(٢) انظر : تعليق الشيخ على سند هذا الحديث ومتنه في كتاب الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص ٤٩ ـ ٥٥ .

الفقيه ملازمة للشيخ بعد أن أصبح ذا سجية وقدرة على إعطاء كل حادثة ما يليق بها من الأحكام ، مراعياً في ذلك حالة الناس وواقعهم الذي يحيون فيه .

ولعل أول كتاب للشيخ وهو « الحلال والحرام » ظهرت فيه براعة الشيخ الفقهية ، واستحق الشيخ أن ينضم بهذا الكتاب إلى قائمة الفقهاء من الكُتّاب والعلماء .

وحين يتحدث الشيخ عن أهمية الفقه كأداة من أدوات الداعية الناجح وعنصر من عناصر ثقافته يقول : ولا بد للداعية من قدر ثابت من الثقافة الفقهية، بحيث يعرف أهم الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والآداب ، وما لم يعرفه أو يستحضره يكون قادراً على مراجعة حكمه في مصادره الموثقة. وذلك مهم للداعية من عدة نواح ليستطيع أن يجيب السائلين عن الحلال والحرام وشؤون العبادة والأسرة ونحوها ، مما يكثر الناس السؤال عنه ويلجأون عادة إلى الدعاة يلتمسون منهم الفتوى في ذلك . فمن لم يكن متضلعاً من الفقه سكت أو تهرب ، وفي ذلك إضعاف لموقفه وتأثيره ، أو أفتى بغير علم ، وهذه هي الطامة [1].

والشيخ حفظه الله حين يكتب في الفقه فإنه لا ينظر إليه نظرة محدودة تحصره في فقه العبادات فقط ، أو ما يطلق عليه البعض بغير وجه حق فقه « دورات المياه » أو فقه « الحيض والنفاس » إنما الفقه عند الشيخ أشمل وأعم ؛ إنه « العلم الذي يضبط حياة المسلم والجماعة المسلمة ، والأمة المسلمة، والدولة المسلمة بأحكام الشرع ، سواء منها ما يختص بالعلاقة بينه وبين الله تعالى، أم ما يتصل بالعلاقة بين المرء ونفسه ، أم ما يختص بالعلاقة بينه وبين أسرته ، أم ما يتعلق بتنظيم المبادلات والعلاقات المدنية بين الناس »[2].

ويحمل الشيخ على من يقصرون الفقه على أن يتعلق بالحياة الشخصية فقط، مهملين آراء الفقه في الأمور العظام ، واصفاً العصور التي يشيع فيها هذا

---

(١) انظر : ثقافة الداعية ص ٦٩ .
(٢) انظر : نحو فقه ميسر معاصر ص ١١ .

الأمر بأنها عصور التراجع والانحطاط والانحراف فيقول : وقد اعتاد المسلمون في عصور التراجع والانحطاط والانحراف ـ وإلى اليوم ـ أن يسألوا الفقه في مسائل الحيض والنفاس والطهارة والصلاة والرضاع والطلاق ونحوها ، مما يتعلق بالحياة الشخصية للمسلم ، ولا يسألوه في الأمور الكبيرة التي تتعلق بمصير الأمة وكيانها ورسالتها ، كما نرى ذلك في عصرنا .

لا يسألونه عن تسلط الحكام العملاء الخونة ، أو الحكام الجبابرة المستبدين على شعوبهم المقهورة !

لا يسألونه عن نهب المال العام ، والإثراء الحرام ، وتكوين الثروات الضخمة من دماء الكادحين وعرقهم !

لا يسألونه عن تزوير الانتخابات الذي أصبح ظاهرة مميزة لأوطاننا العربية والإسلامية ، فنحن ـ دون العالم ـ بلاد التسعات الأربع المعروفة (٩٩,٩٩ ٪) !

لا يسألونه عن الظلم الاجتماعي : ظلم الأغنياء للفقراء ، والأقوياء للضعفاء ، والرجال للنساء ، وأرباب العمل للعمال ، وأصحاب النفوذ للمستضعفين !

لا يسألونه عن التهاون في أرض الإسلام ، والتنازل عنها لمن اغتصبها بالقوة والاعتراف بأنه أصبح مالكها .

لا يسألونه عن السكوت على شعوب إسلامية تذبح وتباد على مرأى ومسمع من أمة الإسلام ، ولا تجد من يشد أزرها في محنتها ، ويعينها على عدوها .

ويوم سأل بعضهم الفقه الإسلامي في قضية حساسة هي : حكم المرتد في شريعة الله ، وأجاب الفقه بصراحة على لسان فقهائه ودعاته وقضاته ، قامت الدنيا ولم تقعد !!! [١]

كما أن الشيخ في ثقافته الفقهية لم يكن متعصباً لمذهب من المذاهب

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ١٢ .

أو رأي من الآراء ؛ بل كان الشيخ منفتحاً كل الانفتاح على آراء المذاهب ، آخذاً منها ما يناسب العصر ، ويليق بحاجة الناس ، ويقرر الشيخ هذا في كتبه فيقول: ولا أقصد بالمذاهب الفقهية هنا : مذاهب أهل السنة الأربعة ، أو حتى المذاهب الثمانية المدونة «الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والظاهري والزيدي والجعفري والإباضي» فقط ، بل أقصد ما هو أعم من ذلك وأوسع مدى ، كمذاهب الأوزاعي والثوري والطبري ، التي كان لها أتباع يقلدونها ويتعبدون على أساسها ثم انقرضوا ، وسادت مذاهب غيرهم عليها [1].

وهذا هو منهج الشيخ في كتبه الفقهية في «الحلال والحرام» كما في «فقه الزكاة» وغيرهما ؛ بل إن الشيخ يؤكد التزامه بهذا المنهج فيقول: وهذا ما التزمت به في كتبي ، والحمد لله . ففي « فقه الزكاة» أخذت بمذهب أبي حنيفة في زكاة الزروع والثمار ، وإيجابها في كل ما أخرجت الأرض ، أخذاً بعموم الآية ﴿ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ [البقرة ٢٦٧] . وعموم الحديث: « فيما سقت السماء العشر » [2] . ولكني لم آخذ بمذهب أبي حنيفة في عدم اشتراط النصاب في ذلك . كما لم آخذ به في عدم إيجاب الزكاة على حلي المرأة .

وأخذت بمذهب الشافعي في مقدار ما يعطى الفقير المسكين من الزكاة بإعطائه «كفاية العمر »، لا مجرد «كفاية السنة» ما دام في حصيلة الزكاة متسع، وذلك لما يسنده من الحديث النبوي، ومن قول عمر: إذا أعطيتم فأغنوا[3].

ولعل أهم ميزات الشيخ الفقهية هي ما أسماه الشيخ بـ« ضرورة الوصل بين الفقه والحديث» والذي دعا الشيخ إلى جعل هذا الأمر ضرورة أمور عدة أهمها:

---

(١) انظر : الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد ص ٣٣ .
(٢) رواه البخاري في الزكاة برقم (١٤٨٣) عن ابن عمر .
(٣) انظر : نحو فقه ميسر ص ٣١ ، ٣٢ .

١ – وجود كثرة كاثرة ممن ينشغلون بالفقه ، لا يتعمقون في معرفة الحديث ، فتروج لديهم الأحاديث الواهية وما لا أصل له .

٢ ـ وجود كثرة كاثرة ممن ينشغلون بالحديث لا يتعمقون في معرفة الفقه وأصوله، فلا يتذوقون أسراره ، ولا يفقهون مقاصده ، فيقفون عند الظواهر ولا ينفذون إلى المقاصد(١).

وهذا الذي شكا منه الشيخ وشكا منه سابقون من الفقهاء المحدثون أمثال : سفيان الثوري ، وابن عيينة ، وعبد الله بن سنان ، فيقولون : لو كان أحدنا قاضياً لضربنا بالجريد فقيهاً لا يتعلم الحديث ، ومحدثاً لا يتعلم الفقه (٢).

ويضرب الشيخ مثلاً ليؤكد ضرورة الوصل بين الفقه والحديث فيقول : ومن ذلك حديث « ثلاث جدهن جد ، وهزلهن جد : النكاح والطلاق والرجعة » فقد رواه أبو داود وسكت عليه ، والترمذي وقال : حسن غريب ، وابن ماجه ، كلهم من طريق عبد الرحمن بن أردل ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن ماهك ، عن أبي هريرة .

وبعد أن يتحدث الشيخ عن سند الحديث وما فيه من ضعف يقول :

فمثل هذا الحديث – الذي انفرد به مثل هذا الراوي – لا يجوز أن يعتمد عليه في حكم خطير كهذا ، يقرر قاعدة من القواعد ، وهي : اعتبار الهزل جداً في هذه الأمور المهمة المذكورة . وهي مخالفة لما قرره حديث « إنما الأعمال بالنيات » وأمثاله ، وما استنبطه الفقهاء من أن « الأمور بمقاصدها » وإلغاء الشارع – بنصوص ثابتة – آثار النسيان والخطأ والإكراه، لعدم وجود النية والاختيار لها.

ونقل المنذري في « مختصر السنن » عن الإمام أبي بكر المعافري يعني : ابن العربي أنه لم يصح في هذا الباب شيء .

ومن هنا ذهب من ذهب من الأئمة إلى ضرورة اعتبار النية في النكاح والطلاق وغيرها، ونسب ذلك الشوكاني إلى أحمد ومالك، وبه قال جماعة من

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٥٢ ، ٥٣ بتصرف .

(٢) انظر : نظم المتناثر من الحديث المؤثر الكتاني ص ٣ ط دار الكتب العلمية بيروت نقلاً عن نحو فقه ميسر معاصر ص ٥٣ .

الأئمة منهم : الصادق والباقر والناصر . واستدلوا بقوله تعالى ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ [البقرة ٢٢٧] . فدلت على اعتبار العزم ، والهازل لا عزم منه [١].

وقد أسفرت ثقافة الشيخ الفقهية عن كتب رائعة أهمها :

١ – الحلال والحرام في الإسلام .
٢ – فتاوى معاصرة ٣ أجزاء ، ج٤ (تحت الطبع) .
٣ – الاجتهاد في الشريعة الإسلامية .
٤ – مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية .
٥ – عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية .
٦ – شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان .
٧ – من فقه الدولة في الإسلام .
٨ – الفتوى بين الانضباط والتسيب .
٩ – الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد .
١٠ – الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط .
١١ – زواج المسيار حقيقته وحكمه .
١٢ – الضوابط الشرعية لبناء المساجد .
١٣ – فقه الأقليات المسلمة .
١٤ – مئة سؤال عن الحج والعمرة والأضحية .
١٥ – فقه الزكاة جزءان .
١٦ – بيع المرابحة للآمر بالشراء .
١٧ – فوائد البنوك هي الربا الحرام .
١٨ – فقه الغناء والموسيقى في ضوء القرآن والسنة .
١٩ – فقه الصيام .
٢٠ – الضوابط الشرعية لبناء المساجد .
٢١ – السنة والبدعة .
٢٢ – فقه اللهو والترويح .
٢٣ – فقة المقاصد .

---

(١) انظر : نحو فقه ميسر معاصر ص ٥٣ – ٥٥ .

ثانياً : الثقافة الأدبية واللغوية

كان لنشأة القرضاوي الأولى أثر في رسوخ قدمه في اللغة والأدب ، وكانت شهرة القرضاوي الشاعر والأديب أسبق من شهرة القرضاوي الداعية والفقيه[1].

وكتب القرضاوي وكلماته تظهر فيها الناحية الأدبية واللغوية ، وهذه الأداة « الأدبية واللغوية » ضرورة لدى الداعية ، بل إن الشيخ يرى أنها لازمة للداعية كلزوم الثقافة الدينية . وإذا كانت الثقافة الدينية لازمة للداعية في الدرجة الأولى ؛ فإن الثقافة الأدبية واللغوية لازمة له كذلك ، ولكن الأولى تلزمه لزوم المقاصد والغايات ، والثانية تلزمه لزوم الوسائل والأدوات[2].

ويؤكد الشيخ على ضرورة الثقافة الأدبية بقوله « والأدب – بشعره ونثره ، وأمثاله وحكمه ، ووصاياه وخطبه – مهم للداعية ، يثقف به لسانه ، ويجود أسلوبه ، ويرهف حسه ، ويقفه على أبواب من العبارات الرائقة ، والأساليب الفائقة ، والصور المعبرة ، والأمثال السائرة ، والحكم البالغة . ويفتح له نافذة على الروائع والشوامخ ، ويضع يده على مئات بل ألوف من الشواهد البليغة التي يستخدمها الداعية في محلها ، فتقع من القلوب أحسن موقع وأبلغه[3].

ويحذر الشيخ من أخطاء الدعاة اللغوية ؛ التي يندى لها الجبين وينقصم منها الظهر فيقول : واللغة – بمفرداتها ونحوها وصرفها – لازمة لسلامة اللسان ، وصحة الأداء ، فضلاً عن حسن أثرها على السامع . بل صحة الفهم أيضاً ، فالأخطاء اللغوية – إن لم تحرف المعنى وتشوه المراد – يمجها الطبع ، وينفر منها السمع .

وانظر كم يقشعر جلدك ، ويضطرب فؤادك ، ويتأذى سمعك، حين تسمع داعية يقول : التُّبْعة وهو يريد : التَّبِعة . ويذكر الأُهْبَة وهو يريد الأُهْبَة .

---

(١) انظر من هذا الكتاب فصل «الوسائل والأساليب الدعوية عند القرضاوي» ومنها الكتب والشعر والمسرحية .

(٢) انظر : ثقافة الداعية ص ٩٨ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٩٩ .

وآخر ينصب المرفوع ، ويرفع المنصوب ، ولا يفرق بين فاعل ومفعول به ، ولا يبالي بإضافة ولا حرف جر .. فلا يكاد ينهي سطراً من الكلام إلا أضلك فيه ضلة ، أو لطمك - ولطم الخليل وسيبويه معك - لطمة أي لطمة .

وكثيراً ما يؤدي اللحن إلى إفساد المعنى ، وإخراجه إلى ما يناقض الشرع والعقل.

وشر ما يكون ذلك إذا كان اللحن في كتاب الله، كذلك الإمام الذي صلى أعرابي خلفه، فسمعه يقرأ «ولا تَنكحوا المشركين حتى يؤمنوا» قال: ولا إن آمنوا أيضاً لن ننكحهم ، فقيل له إنه يلحن ، وليس هكذا يُقرأ . فقال : أخِّروه قبحه الله لا تجعلوه إماماً . فإنه يحل ما حرم الله[1].

إن القرضاوي الداعية هو كذلك القرضاوي الأديب ، وموهبة القرضاوي الأدبية موهبة نادرة ؛ استطاع بها القرضاوي الأديب أن ينفع القرضاوي الداعية ، حتى غدا داعية أديباً وأديباً داعية ، ولو قدر للشيخ أن يتفرغ للأدب لكان عطاؤه أكثر مما هو عليه الآن ، وهو في هذا يقتدي بالإمام الشافعي يوم أن قال :

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

أسباب تمكن القرضاوي في الثقافة الأدبية واللغوية :

بدت منذ الصغر على القرضاوي الموهبة الأدبية ، فحبب إليه منذ الصغر قراءة الأدب ومتابعة كتابات الكبار أمثال: الرافعي ، والعقاد ، وطه حسين ، وأحمد أمين ، والزيات، وغيرهم ، ويقول الشيخ عن هذه البداية : وقد بدأت أنظم القراءة في غير الكتب المقررة التي لم تعد تشبع فهمي ، أو تملأ فراغ وقتي وحدها، فكان عندي وسيلتان لذلك :

الوسيلة الأولى: وسيلة دار الكتب بطنطا، التي كدت أصبح من روادها الدائمين، لأقرأ فيها كتب الأديب الشهير مصطفى لطفي المنفلوطي، الذي كان أدبه أحب إلى قلوب الشباب وعقولهم من غيره، لسلاسته وتدفقه وعذوبته،

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٩٨ .

وللموضوعات التي يطرقها، كما في كتابه الشهير (النظرات) بأجزائه الثلاثة. وكما في القصص التي ترجمها بأسلوبه الخاص، مثل العبرات وماجدولين وفي سبيل التاج والشاعر والفضيلة وغيرها.

كما كنت أقرأ لأديب طنطا مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، وأوراق الورد، والمساكين، وغيرها.

وأقرأ أحياناً لطه حسين والعقاد وأحمد أمين والزيات وغيرهم من كتاب مجلتي (الرسالة) و(الثقافة) الشهيرتين في ذلك الوقت.

والوسيلة الثانية: استئجار كتب معينة لقراءتها في أيام معدودة وردها إلى المكتبة، وقد كانت في طنطا مكتبة جعلت ذلك مهمتها، وسمت نفسها اسما دالاً على ذلك، وهي (مكتبة فك الأزمة) في شارع درب الأثر بطنطا[1].

واستمر اهتمام الشيخ بدراسته الأدبية واللغوية حتى إتمام الشهادة الثانوية، وكان اختيار الكلية بالنسبة له أمر هام، فاقترح عليه بعض الأصدقاء أن يتقدم إلى كلية «دار العلوم» فهي تأخذ المتفوقين من أبناء الأزهر، وقال أصحاب هذا الاقتراح للشيخ: ستبرز في مجالي تخصصها: مجال الدراسات اللغوية، ومجال الدراسات الشرعية[2].

واقترح آخرون للشيخ أن يتقدم لكلية «اللغة العربية» بالأزهر لتفوقه في علوم اللغة العربية، لكنه رفض أيضاً لأنه رأى أنه نهل من علوم العربية وآدابها ما يروي ظمئه[3].

لكن دراسة الشيخ اللغوية لم تقف عند هذا الحد بل عاودته ثانية بعد تخرجه من كلية «أصول الدين» حيث التحق الشيخ بـ«معهد الدراسات العربية العالمية» التابع للجامعة العربية، والتحق الشيخ بقسم اللغة والأدب، بعد أن رفض المعهد قبوله في قسم القانون والفقه، لأنه ليس من خريجي كلية

---

(١) انظر: ابن القرية حلقة ٩.

(٢، ٣) انظر: ابن القرية والكتاب ج١ ص ٤٠٥.

«الشريعة» وكانت الدراسة في المعهد فرصة ممتعة، فتحت للشيخ آفاقاً جديدة في دراسة الأدب واللغة، لم تتح له في الأزهر [1].

وقد أنهى الشيخ دراسته بالمعهد واستدعاه رئيس القسم الدكتور «إسحق الحسيني» وحثّه على الاستمرار لنيل درجة «الماجستير» واتفق معه على الموضوع الذي سيكتب فيه، وهو «النقد اللغوي» ليعالج الأخطاء اللغوية الشائعة، ولكن الشيخ رأى أنه ليس من المصلحة تشتيت الجهد في أكثر من جهة، خصوصاً وأن الشيخ وقتها كان قد انشغل بالدراسة في كلية «أصول الدين» لنيل درجة الماجستير [2].

ويمكن القول بأن هذه الثقافة الأدبية لدى القرضاوي أثمرت الكثير والكثير، نعم أثمرت وأثمرت، وصنعت وصنعت، ويكفي أنها صنعت للشيخ لغة خاصة إلى حد ما يتميز بها بين الكُتّاب إن كتب، وبين الفقهاء إن صنف، ويصعب على أي باحث أن ينحي كتب الشيخ من دائرة الكتب الأدبية، وأي كتاب من هذه الكتب، وإن لم يكن كتاب أدب في أصله فلا يخلو من الأدب المبثوث في ثناياه.

وقد أثمرت هذه الثروة الأدبية ما يلي:

١ – ديوان نفحات ولفحات.

٢ – ديوان المسلمون قادمون.

٣ – مسرحية يوسف الصديق.

٤ – مسرحية عالم وطاغية.

٥ – مذكرات ابن القرية والكتاب (ثلاثة أجزاء).

* * *

---

(١) انظر: ابن القرية والكتاب ج٢ ص٢١٣ بتصرف.

(٢) انظر: المرجع السابق ج٢ ص٢١٦ بتصرف.

ثالثاً : الثقافة التاريخية

للشيخ القرضاوي قراءات متأنية في التاريخ الإنساني بصفة عامة ، والتاريخ الإسلامي بصفة خاصة ، والسبب في ذلك أن الشيخ يرى أن التاريخ يعيد نفسه، وأنه كما قال العربي قديماً : ما أشبه الليلة بالبارحة ، وكأني بالشيخ يتحدث عن نفسه يوم أن وصف الإمام الندوي بقوله: والشيخ يملك حساً تاريخياً فريداً ، ووعياً نادراً بأحداث الكبار، والدرس المستفاد منه [١].

معنى التاريخ :

ويعرف التاريخ الدكتور: عبد العظيم الديب بقوله : إن التاريخ في حقيقته «ليس هو الحوادث »، ولا سردها وتبويبها، ولكنه تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان .

وبهذا المفهوم للتاريخ تهرع الأمم في الأزمات والنكبات إلى تاريخها ، تستلهمه العبرة والعظة، وتستضيء به حاضرها ومستقبلها .

والتاريخ بهذا المعنى ليس علم الماضي، وإنما هو علم الحاضر والمستقبل، ولذا كان حرص أعدائنا على طمس تاريخنا وتشويهه ، لتضليل الحاضر، وطمس الطريق إلى المستقبل[٢].

ويرى الشيخ القرضاوي أن التاريخ: هو ذاكرة البشرية وسجل أحداثها وديوان عبرها ، والشاهد العدل لها أو عليها[٣]، وأنه من الضروري أن يستشهد الداعية للمعاني والقيم التي يدعو إليها بأحداث التاريخ ومواقف الأبطال ، وغير الأبطال [٤].

---

(١) انظر : الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته ص ٨٣ .
(٢) انظر : نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي مرجع سابق ص ١٥-١٧ .
(٣) انظر : ثقافة الداعية ص ٨٩ .
(٤) انظر : المرجع السابق ص٨٨ .

ويؤكد الشيخ هذا المعنى في كتابه الجديد « تاريخنا المفترى عليه » فيقول: إن التاريخ هو ذاكرة الأمة، وأعداء الأمة يريدون أن يمحو ذاكرتنا التاريخية، بحيث ننفصل عن ماضينا وننسى أمجادنا ونهيل التراب على تراثنا وحضارتنا، ونبدأ من الصفر، مثل الأمم التي لا تاريخ لها، فإذا لم يستطيعوا محو ذاكرتنا سعوا إلى إفسادها، فحشوها بمعلومات خاطئة، أو مقلوبة، أو مزورة، عن رسالة الأمة، وحضارتها وتاريخها ورجالها وتراثها. وبهذا تنخلع الأمة من جذورها، ويلعن آخرها أولها، وتمسي أمة بلا جذور ولا أعماق.

إن تاريخ كل أمة مادة أصيلة في تربيتها لأبنائها ؛ ولا سيما إذا كانت أمة ذات تاريخ عريق ومجيد ، وكان لها دورها ورسالتها وأثرها في العالم . على أن الواجب على الأمة أن تتعلم من مآثرها وأمجادها التاريخية، كما تتعلم من أخطائها ونقاط ضعفها [١].

ويرى الشيخ بأن هذا أعون على تثبيت هذه القيم والمعاني في العقول والقلوب ؛ فإن الكلمات قد تنسى ، ولكن الوقائع قلَّما تنسى [٢].

وكما أن التاريخ عند الشيخ هو ذاكرة البشرية فهو كذلك عنده : ذاكرة الأمة ومرآة ماضيها التي تنطلق منها إلى مستقبلها ، ولا يجوز للأمة أن تهمل تاريخها وتبدأ من الصفر إلا إذا كانت أمة فاقدة لذاكرتها ؛ فهي أمة مريضة إذن ومبتلاة ، ولو جاز هذا لأمة من الأمم لما جاز لأمتنا الإسلامية التي صنعت تاريخاً من أعرق التواريخ ، وحضارة شامخة الذرى ؛ فاقت الحضارات بشمولها وتوازنها وربانيتها وإنسانيتها وأخلاقيتها ، فلا غرو أن يهتم العلماء والمفكرين بالتاريخ وكتابة التاريخ[٣].

كما أن التاريخ عند الشيخ هو: مخزن العبر، ومعلم الأمم، فكما أن الفرد

---

(١) انظر : تاريخنا المفترى عليه ص ١٠ .
(٢) انظر : ثقافة الداعية ص ٨٨ .
(٣) انظر : لقاءات ومحاورات ج ١ ص٥٨ .

يتعلم من أحداث أمسه لغده ، فإن الأمة أيضاً تأخذ من ماضيها لحاضرها ، وتستفيد من صوابها وخطئها معاً ، ومن انتصاراتها وهزائمها جميعاً [1].

وهوكذلك المرآة التي تتجلى فيها سنن الله تعالى في الكون عامة ، وفي الاجتماع البشري خاصة [2].

ولقد ندد الشيخ بمن يهمل تاريخ أمته، وعدَّ هذا النوع من الناس فاقداً للذاكرة ؛ يقول الشيخ : والتاريخ إنما هو في الواقع ذاكرة الأمة الحافظة الواعية ، والأمة التي تهمل تاريخها أشبه بالفرد يفقد ذاكرته ، ويعيش ليومه وحده ، بلا ماض يعرفه ويبني عليه ، إنه إنسان مبتلى ، مقطوع الجذور ، يرثى لحاله ، وهو أحوَج ما يكون إلى العلاج [3].

ودراسة التاريخ عند الشيخ لا تعني دراسة التاريخ الإسلامي فحسب ، ولكن تعني دراسة التاريخ البشري كله ، فليست العبر في التاريخ الإسلامي وحده .. يقول الشيخ : على أننا لا نعني بالتاريخ ، تاريخ المسلمين فحسب ، بل تاريخ البشرية حيثما عرف ، وتاريخ الأمم في أي أرض كانت، وفي أي عصر كانت ، وعلى أي ملة كانت ، مسلمة أو غير مسلمة ، فالعبرة لا تؤخذ من سير المؤمنين وحدهم ، بل تؤخذ من المؤمن والكافر، ومن البر والفاجر ، لأن الفريقين تجري عليهما سنن الله بالتساوي ، ولا تحابي هذه السنن أحداً شأنها شأن السنن والقوانين الطبيعية [4].

كما أن الشيخ لا يريد من قراءة التاريخ مجرد القراءة ؛ إنما يريدها قراءة ببصيرة نافذة ، ووعي حاضر ، فليس من المهم قراءة الأحداث مسرودة متتابعة ، بل المهم النفاذ إليها ومعرفة العبرة منها والوصول إلى سنن الله فيها [5].

والشيخ حين ينظر إلى التاريخ فإنه يراه تاريخاً يستوعب حياة الساسة

---

(1) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ١٠٠ .
(٢، ٣، ٤، ٥) المرجع السابق ص ١٠١ - ١٠٣.

والقادة ، كما أنه تاريخ الأمم والرعية ، إنه تاريخ يسجل حياة الناس سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً ودينياً .

وحين يحكم الشيخ على التاريخ فيؤكد بأن الحكم ينبغي أن يكون : بمجموع أحداثه ووقائعه، وبكل فئاته وطبقاته ، وبجميع أقطاره وأمصاره ، وبالمقارنة بينه وبين غيره من تواريخ الأمم في عصره . وهنا نجد تاريخنا يتميز على كل تواريخ الأمم في تلك العصور[1].

وحين ينظر القرضاوي إلى التاريخ الإسلامي فإنه لا يعني أنه تاريخ ملائكة مطهرين، أو أنبياء معصومين ، لا خطايا فيه ولا أخطاء كما يفهم من كلام بعض المتحمسين الذين يكتبون تاريخ الإسلام بعاطفة المحب، لا بعقل الباحث[2].

وللشيخ في قراءته التاريخية بروز واضح[3]، ويظهر ذلك في كتاباته، وخطبه ، ومحاضراته ، حين ينزلها الشيخ على الواقع ، فهو يستشهد على عز الإسلام بأيام الإسلام الأولى ؛ أيام خالد في اليرموك ، وسعد في القادسية ، وعمرو في أجنادين ، وطارق في الأندلس ، وصلاح الدين في حطين ، وقطز في عين جالوت ، ومحمد الفاتح في القسطنطينية .

ويحذر من الفرقة التي تؤدي إلى الضياع ، ويربط بين حال المسلمين اليوم وبين حالهم أيام الصليبيين في بلاد الشام والأندلس ، فيجعل السبب في الهزائم قديماً هو خيانة الضعفاء والمنافقين من الحكام مما ساعد على قيام إمارات وممالك للصليبيين في ديارنا .

ويرى القرضاوي اهتمام الداعية بالثقافة التاريخية ، أمراً مهماً وأن الداعية إنما يحتاج إليه لعدة أمور أهمها :

(١ ، ٢) انظر : تاريخنا المفترى عليه ص ٩ .

(٣) ولهذا رأينا المنشغلين بالتاريخ يسترشدون بآراء الشيخ ، وأذكر منهم الدكتور: علي محمد الصلابي، وقد حضرته وهو يخبر الشيخ بأنه أنهى كتابه عن بني أمية، وأنه استفاد من كتاب الشيخ «تاريخنا المفترى عليه»، وأنه بصدد الكتابة عن الدولة العباسية، وسيتعرض للحروب الصليبية، وطلب من الشيخ بعض التوجيهات فأسداه بعض النصائح والتوجيهات.

١ – أنه يوسع آفاقه ، ويطلعه على أحوال الأمم ، وتاريخ الرجال ، وتقلبات الأيام بها وبهم ، فقد يرى الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سنن الله في المجتمعات بلا محاباة ولا جور : كيف ترقى الأمم وتهبط ؟ وكيف تقوم الدول وتسقط ؟ وكيف تنتصر الدعوات وتنهزم ؟ وكيف تحيا الحضارات وتموت ؟ وكيف ينجح القادة ويفشلون ؟ وكيف تنام الشعوب وتصحو ؟

٢ – أن التاريخ أصدق شاهد على ما يدعو إليه الدين من قيم ومفاهيم . فهو مرآة مصقولة تتجلى فيها عاقبة الإيمان والتقوى ، ونهاية الكفر والفجور ، وجزاء الشاكرين نعمة الله ، وعقوبة الكافرين بها ، وكيف يجني من يغرس الخير، ويحصد من يزرع الشوك .

٣ – أن التاريخ كثيراً ما يعين على فهم الواقع الماثل ، ولا سيما إذا تماثلت الظروف ، وتشابهت الدوافع .

وأكثر من ذلك أن بعض القضايا الحاضرة لها جذورها التاريخية البعيدة الأغوار، فمن لم يعرف أغوار ماضيها لم يدرك أسرار حاضرها. فالصدام بين الإسلام والمسيحية في هذا العصر لا يعرف حق المعرفة ما لم يعرف صراع الحروب الصليبية ، وما دفع إليها من بواعث ، وما صحبها من دمار ، وما خلفته من آثار وما أسفرت عنه من نتائج . . بل لا يعرف إلا من بداية الصراع منذ موقعة اليرموك وفتوح الشام ومصر وإفريقية في عهد الراشدين . بل منذ معركة مؤتة وغزوة تبوك في عهد النبي ﷺ .

٤ – أن بعض جوانب التاريخ لها صلة وثيقة بعمل الداعية واهتماماته ، وأعني الجانب العقلي أو الفكري في التاريخ ، مثل : تاريخ الأديان : نشأتها وتطورها ، وأهم الشخصيات والوقائع المؤثرة في سيرها وما آلت إليه في النهاية[١].

وقراءة الشيخ للتاريخ ليست قراءة عادية ، إنه يقرأ التاريخ بعين ناقدة ،

---

(١) انظر : ثقافة الداعية ص ٨٨ ، ٨٩، ٩٠ .

وبصيرة نافذة ، إنه ينظر إليه كما ينظر الصيرفي إلى الذهب فيبعد الدخيل عن الأصيل .

لقد قرأ الشيخ التاريخ بعين المحدث لا بعين الإخباري ، ومن ثم فإنه يقف عند كل حادثة يستشهد فيدقق في سندها ومتنها ، ويأخذ منها ما يؤكد فكرته، لذا يقول الشيخ : إن تاريخنا الإسلامي قد كتب نقلاً عن روايات شفهية ينقص أكثرها السند والتوثيق ، لهذا كان من أهم ما نحتاج إليه في كتابة تاريخنا هو توثيق المصادر ، ولا أعني بتوثيق المصادر مجرد أن يقال : هذه الواقعة ذكرها الطبري أو البلاذري أو ابن الأثير في كتابه كذا الجزء كذا ، فهذا ليس توثيقاً [1].

و يقول الشيخ فيما شاع في حادثة الهجرة من أمر العنكبوت والحمام: هل كان هناك عنكبوت ؟ هل كان هناك حمام ؟

أما الحمام فلم تصح فيه رواية قط ، ولم تأت رواية لا صحيحة ولا حسنة بهذا الأمر ، وأما العنكبوت فوردت هناك رواية حسنها من حسنها وضعفها من ضعفها ، ثم يقول الشيخ : وعلى كل حال فإن لله جنوداً قد يكون منها هذا العنكبوت الذي وصف الله بيته بأنه أوهن البيوت ، فلا عجب أن يحفظ الله رسوله بأوهن البيوت [2].

وحين تمسك العلمانيون بمقالة للخليفة العباسي المنصور : حين قال : أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، تصدى الشيخ لهذا الاستشهاد التاريخي وفنده من جهتين :

الأولى: من جهة أصله التاريخي : فهو نقل من كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، والشيخ يرى كما يرى - غيره - أن كتب الأدب لا تعد في عداد المراجع في المسائل الفقهية .

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ج ١ ص٥٩ .
(٢) انظر : خطب الشيخ القرضاوي ج٤ ص ١٤ .

الثانية : أنه وإن قالها فهي كلمة هو قائلها ، لا يؤخذ منها حكم ولا توجيه، فلسنا مأمورين باتباع سنة المنصور [١].

وثقافة الشيخ التاريخية جعلته يدعو الدعاة عند اقتباسهم من التاريخ أن يدركوا أمرين :

الأول : أنه ليس كل ما تحويه كتب التاريخ صحيح مائة في المائة ، فكم حوت مراجع التاريخ من مبالغات وتشويهات وتحريفات، تكذبها الحقائق الثابتة بالاستقراء أو بالموازنة بالأدلة الناصعة في مصادر أخرى [٢].

الثاني : أن التاريخ كما تعرض للتحريف والتشويه في كتابته ، تعرض كذلك للتحريف والتشويه في تفسيره ، فالماركسيون يفسرونه تفسيراً مادياً طبقيا ، والقوميون يوجهونه وجهة قومية ، فالإسلام في نظرهم انتفاضة عربية ، أو وثبة من وثبات العبقرية العربية [٣].

ويرجع الشيخ مسؤولية تشويه « تاريخنا المفترى عليه » على ثلاثة أصناف فيقول: وأود أن أقول بصراحة: أننا – نحن المسلمين – المسؤولون أولاً عن إشاعة هذه الصورة عن تاريخ أمتنا. وأول المسؤولين عن ذلك ثلاثة أصناف من علمائنا، هم: المؤرخون والأدباء والمحدّثون[٤].

ويرى الشيخ أن مسؤلية المؤرخين تتمثل في أمور أربعة، وهي:

أولها : أنهم تساهلوا كل التساهل في رواية الأحداث المتعلقة بالفتن بين الصحابة رضي الله عنهم، وبدولة بني أمية، ولم يمحصوا هذه الروايات، ولم يبحثوا في الأسانيد، ويخضعوها لميزان الجرح والتعديل، كما فعلوا ذلك حينما بحثوا في أحكام الفقه وغيره.

والأمر الثاني: ولعهم بالغرائب، وركونهم إلى المبالغات والتهاويل، وذكر

---

(١) انظر : بينات الحل الإسلامي ص ١٧٠ وما بعدها .
(٢) انظر : ثقافة الداعية ص ٩٣ بتصرف .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ٩٦ ، ٩٧ بتصرف .
(٤) انظر : تاريخنا المفترى عليه ص ٢٢٩ .

أرقام وأعداد ومقادير لا يمكن أن يقبلها منطق، أو يصدقها عاقل، إلا إذا أعطى عقله إجازة!

والأمـر الثـالث: ان كتب التاريخ العام التي صنفها المؤرخون الكبار: جعلت أكبر همها، ومحور بحثها وعنايتها: الجانب السياسي والعسكري في التاريخ، وكأنها قصرت التاريخ على الملوك والحكام ومن يدور في فلكهم من القواد والأعوان، ولم تعط مساحة كافية للشعوب والجماهير والفئات والطبقات المختلفة في قلب المجتمع.

والأمـر الرابع: عدم التركيز على الجانب المشرق، والنقاط المضيئة في تاريخ الإسلام، وهو فرع عما ذكرناه من الاهتمام بالتاريخ السياسي أكثر من الاهتمام بالتاريخ الإصلاحي والتجديدي، والاهتمام بسير الخلفاء والملوك أكثر من الاهتمام بسير الشعوب والجماهير، ومن يقودها يعلمها ويرشدها من العلماء والمربين والدعاة[1].

أما كتب الأدب فيرى الشيخ ان هذه الكتب: تروي حكايات الأدب في شعره ونثره وطرائفه وأقاصيصه وأساطيره.. وتحكي أخبار الأدباء والشعراء ومن يلحق بهم في جدهم وهزلهم، وفي صحوهم وسكرهم، وفي وقارهم ومجونهم، وفي استقامتهم وانحرافهم، وهي تقصد بذلك: إمتاع القارئ وتسليته، وشغل فراغ وقته بما يضحك ويلهي، وبما قد يحزن ويبكي، فليس المقصود من هذه الكتب التحقيق العلمي، والتمحيص التاريخي.

وطالما ان هذه الكتب بهذ المستوى فلا يجوز لنا الاستشهاد بما فيها.

أما المحدثين فقد أوقع الشيخ الملامة عليهم لأمرين:

الأول: ان المحدثين - أو كثيرا منهم - يشاركونهم في حمل قدر من المسؤولية. وذلك بما نقلوه من الروايات التي تحصر الخلافة الراشدة - خلافة النبوة - في مدة ثلاثين سنة بعد رسول الله ﷺ، ثم يكون بعدها الملك العضوض.

---

(١) انظر: المرجع السابق ص٢٣٠ وما بعدها بتصرف.

الثـاني: أنهم ساقوا أحاديث كثيرة في الفتن وأشراط الساعة، توحي إلى قارئها: أن الإسلام في إدبار، والكفر في إقبال، وأن كل زمان شر مما قبله بإطلاق، وأن الخير يقل، والشر يكثر، وأن الأخيار يتأخرون، والأشرار يتقدمون، مما ترك انطباعا لدى الكثيرين: أنهم في آخر الزمان، وأن الساعة توشك أن تقوم، وأنها لا تقوم وفي الأرض من يقول: الله، الله[1].

وللشيخ اقتراح طالما نادى به وهو أن تعاد كتابة التاريخ مرة ثانية ولكن بطريقة المحدثين لا بطريقة الإخباريين فيقول : وواجبنا الآن أن نراجع منهج المحدثين - أي منهج الجرح والتعديل - في نقد الأسانيد التي تروى بها الوقائع التاريخية في أمهات الكتب وفي غيرها من الكتب التي تروى بالأسانيد أيضا ولو كانت كتب أدب كالأغاني ، أو العقد الفريد أو نحو ذلك[2].

ويذكر الشيخ آفتين يجب الابتعاد عنهما عند كتابة التاريخ، وهما :

الأولى: ضعف التوثيق: وهذا يعني أن نعيد النظر في أسانيد الروايات، فإذا كان الراوي صاحب نحلة ويروي ما يروج نحلته، ويؤيد طائفته، فلابد أن نقف منها موقف المتشكك إن لم يكن موقف الرافض. وكذلك إذا كان الراوي متهما بالكذب أو بفحش الغلط وعدم الضبط، أو نحو ذلك، مما يسقط اعتبار روايته أو يشكك في قبولها. أعني أن لابد هنا أن نستعين بمنهج المحدثين، وإن كان جمهور المؤرخين يرفضون ذلك، لأنهم لا يحسنون هذا المنهاج.

الثانية: سوء تفسير التاريخ: حيث يتعرض التاريخ للتحريف والتشويه في تفسيره.

ولهذا شدد الشيخ النكير على الدعاة الذين تسرعوا في أحكامهم على تاريخنا الإسلامي فيقول : ومما يعجب له المرء ويأسف أيضاً : أن يقع بعض الدعاة في هذا المازق الحرج، ويصدق كل ما قيل عن بني أميه، حتى ربما أصابت نباله من الخليفة الثالث ذي النورين ، الذي تستحي منه الملائكة، أحد السابقين

---

(١) انظر : المرجع السابق ص٢٦٦ - ٢٦٩ .

(٢) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص٦٠ .

الأولين من المهاجرين : عثمان بن عفان رضي الله عنه . وقع في ذلك رجال كبار القدر ، عظماء المنزلة والأثر في الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيله : مثل الإمام العلامة أبي الأعلى المودودي في باكستان : في كتابه «الخلافة والملك» والذي جلب عليه ما جلب من القيل والقال . وإن كان هذا مغموراً في بحر حسناته.

وكذلك الأديب الكبير، والداعية المفكر، والمجاهد الصلب: الشهيد سيد قطب في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» الذي حمل فيه على بني أمية حملة عنيفة، حتى جردهم من اعتبار العنصر الأخلاقي في سياستهم وتعاملهم.

وأيضاً الداعية الكبير محمد الغزالي في كتابه « الإسلام والاستبداد السياسي » الذي قال فيه عن يزيد بن معاوية: إنه لا يصلح لإدارة مدرسة ابتدائية، وصوب سنان قلمه إلى بني أمية بصفة عامة.

وأضيف إليهم الداعية العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي الذي أطلق على بني أمية أحكاماً عامة، ما كنت أحب أن تصدر عن مثله .

وعندما كتب الشيخ عن « تاريخنا المفترى عليه» رأى لزاما عليها أن يعدد مآثر ومفاخر هذا التاريخ، وذكر منها:

١- عمق الجانب الرباني.

٢- وضوح المعاني الإنسانية.

٣- رسوخ القيم الأخلاقية.

٤- شيوع التسامح الديني.

٥- قدرة الإسلام على الانتشار السلمي.

٦- القدرة على تجاوز المحن الكبرى[1].

* * *

---

(١) انظر: تاريخنا المفترى عليه ص ١٢٨ وما بعدها .

رابعاً : الثقافة العلمية

من الثقافات التي يحتاج إليها كل داعية في دعوته ما تعارف عليه بالثقافة العلمية[1]، والمقصود من هذه الثقافة كل علم يقوم على الملاحظة والتجربة ، مثل الفيزياء والكيمياء ، والطب والفلك .... وغيرها .

والشيخ القرضاوي إن كان عد هذا النوع من ثقافات الداعية، فقد استطاع أن يحصل من هذه الثقافة العلمية ما يؤيد به عدداً من القضايا الدينية ، ويوضح عدداً من المفاهيم الشرعية ، فضلاً عن أن يدافع بهذه الثقافة، ويرد بها شبهات الخصوم ، ومفتريات الأعداء بما ثبت عن طريق العلم الحديث .

وهذه الثقافة العلمية جعلت الشيخ يكثر النقل في عدد من كتبه من كلام علماء الرياضيات والفلك والفيزياء والطب وغيرها مما دونه « كريس موريسون » في كتاب « الإنسان لا يقوم وحده » والذي ترجم إلى العربية تحت عنوان « العلم يدعو إلى الإيمان » وكذلك يكثر النقل من كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » وهو مؤلف كتبه ثلاثون عالماً أمريكياً ، وكذلك كتاب « الإنسان ذلك المجهول » للدكتور « الكسيس كاريل » .

ولعل هذا واضحاً فيما كتبه الشيخ في العقيدة وخصوصاً في « وجود الله » و « حقيقة التوحيد » و « الإيمان والحياة » وغيرها من كتبه حفظه الله .

وهذا ما جعل الشيخ يخالف شيخه « الغزالي أبا حامد » في كون تعلم هذه العلوم فضيلة لا فريضة ، والمتأمل في رد الشيخ القرضاوي على شيخه الإمام

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن العلوم التجريبية نشأت في أحضان الإسلام ، وبرع فيها كثير من أبنائه ، بل إن عدداً من علماء المسلمين استطاعوا أن يجمعوا بين العلوم التجريبية وبين علوم الشريعة ، و قد ذكر الشيخ القرضاوي من هؤلاء :

١ - جابر بن حيان الكيميائي المشهور ، وكان يسمى جابر الصوفي لكثرة زهده .

٢ - الخوارزمي مبتكر علم الجبر وإنما وصل إليه وهو يؤلف رسالة في علم الميراث .

٣ - ابن رشد الحفيد الفقيه المعروف وصاحب كتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» وصاحب كتاب «الكليات» في الطب وقد تتلمذت عليه أوربا .

٤ - الفخر الرازي صاحب التفسير الكبير كان من أشهر أطباء زمانه .

٥ - ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى كان أحد فقهاء الشافعية . انظر : تاريخنا المفترى عليه ص ١٣٧ .

أبي حامد الغزالي يرى فيه ثقافة الشيخ واطلاعه على الجديد في هذه الثقافة فيقول : هذا ولا نوافق الإمام الغزالي على اعتباره التعمق في دقائق الحساب ، وحقائق الطب : مجرد فضيلة لا فريضة ، فلعل هذا كان بالنسبة إلى زمنه، أما زمننا فيعتبر التعمق في هذه العلوم وما يشبهها من الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء وعلوم الأرض «الجيولوجيا» والأحياء «الحَيوان والنبات» وعلوم البحار والصحراء ، والتشريح ووظائف الأعضاء وغيرها ، بحيث يصل إلى دقائقها ، ويرتقي إلى حقائقها : فريضة لازمة ، والأمم تتسابق في هذا تسابقاً خطيراً ، كل منها تحاول أن تحتل مكاناً يجعل لها قدراً ، وأن تهيئ الفرص للنوابغ من أبنائها ليتعمقوا ويتفوقوا .

ولولا التعمق في هذه العلوم ما وصل عصرنا لتحطيم الذرة ، وغزو الفضاء، وصناعة الكمبيوتر والإنترنت والثورة التكنولوجية ، وثورة البيولوجيا «هندسة الوراثة والجينات» وثورة الاتصالات ، وثورة المعلومات ، وغيرها مما أمسى من خواص عصرنا .

وقد لا يكفي واحد متخصص في جانب لإسقاط الحرج والإثم عن الأمة ، إنما هذا بحسب الحاجة ، والغالب أن الأمة تحتاج في كل مجال إلى فريق من الخبراء ، يسدون الثغرة ، ويلبون الحاجة ، ويورثون الخبرة لمن بعدهم [١].

وفي فتاوى الشيخ وخصوصاً الجزء الثاني والثالث تلحظ مدى ثقافة الشيخ العلمية ؛ وعلى سبيل المثال ترى هذه الفتاوى في الجزء الثاني :

* قتل الرحمة أو تيسير الموت للمريض .
* زرع الأعضاء .
* الإجهاض بناء على تشخيص مرض الجنين .
* تحريم المخدرات .
* تحريم القات .
* إجهاض الحمل الناشئ عن اغتصاب .
* الاستنساخ : هل يجوز في البشر ؟

---

(١) انظر : كتاب نحو فقه ميسر معاصر ص ٢٠٠ .

* اكتشاف خريطة الجينات البشرية وموقف الإسلام .

والناظر إلى فتوى الشيخ فيما يعرف بالاستنساخ يرى مدى ثقافته العلمية يقول الشيخ : ولقد بدأت المخاوف التي خشيها الناس من تطور الهندسة الوراثية، تظهر فيما عرف اليوم باسم الاستنساخ حيث تمّ هذا الإنجاز العلمي في دنيا الحيوان في صورة النعجة « دوللي » الشهيرة ، التي لم تولد من التقاء الذكر بالأنثى، أو الكبش والنعجة ، أو التقاء الحيوان المنوي الذكري بالبييضة الأنثوية، كما هو المعتاد فيما خلق الله من حيوان وإنسان .

ولكنهم أخذوا بييضة من هذه النعجة المعينة ، وفرغوها من نواتها ، أي نزعوا منها النواة تماماً ، ثم جاؤوا بخلية حية من جسم النعجة ، ووضعوها مكان النواة ، فانقسمت وتكاثرت ، كما في البييضة الملقحة ، بعد أن وضعت في رحم الشاة ، وتم النمو الجنيني المعتاد ، حتى ولدت شاة كاملة ، مشابهة للشاة التي استنسخت منها تمام المشابهة. أي مشابهة التوأم للتوأم إذا كان من بييضة واحدة .

وبهذا أمكن تخليق نسخة أخرى طبق الأصل من النعجة التي أخذت منها البييضة ، وفي الإمكان استنساخ نعجات أو نسخ أخرى مطابقة تمام المطابقة للنعجة الأصلية في جسمها وشكلها ولونها وحجمها ونوع صوفها ... إلخ[(١)].

والثقافة العلمية في نظر الشيخ إنما هي ضرورة للداعية للأسباب الآتية :

١ – أنها مهمة لفهم الحياة المعاصرة وقد أصبح العلم شريانها والمحرك لكثير من أمورها .

٢ – أن بعض ما يعزى إلى العلم يتخذ وسيلة للتشكيك مثل نظرية التطور « دارون »، فلا بد من معرفة شيء عن مثل هذه النظرية حتى يمكن اتخاذ موقف محدد منها .

٣ – أن من هذه الحقائق ما يمكن أن يستخدمه الداعية في تأييد الدين وتوضيح مفاهيمه ، ونصر قضاياه[(٢)].

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٥٢٣ – ٥٢٥ .
(٢) انظر : ثقافة الداعية ص ١١٣ ، ١١٤ بتصرف .

خامساً : الثقافة الإنسانية

يطلق على علم الاجتماع والنفس والاقتصاد والفلسفة والأخلاق : العلوم الإنسانية، وهذه العلوم ضرورية لكل داعٍ نصب نفسه داعية إلى الله تعالى ، خصوصاً في عصرنا الحاضر الذي انتشرت فيه هذه العلوم انتشاراً واسعاً بين المثقفين في عالمنا العربي والإسلامي على السواء ، ولكن مع انتشار هذه العلوم انتشرت معها سمومها ، وتسربت أضرارها في داخل مجتمعاتنا ، بعد أن ملئت بآراء تضر بالدين ، وتهدم العقيدة ، وتزلزل الإنسان ، من أمثال آراء فرويد في علم النفس ، ودوركايم في علم الاجتماع ، وماركس في علم الاقتصاد ، وغيرهم.

والشيخ القرضاوي حفظه الله ذا ثقافة إنسانية واسعة ، وهو وإن لم يكن متخصصاً فيها كلها ، فقد أصبح علماً مبرزاً في أحد علومها ، وعلى قدم راسخ في بقيتها ، ونقصد بذلك بأن الشيخ يعد من علماء الاقتصاد الإسلامي ، هذا إذا علمنا أن للشيخ من الكتب في هذا المجال :

١ – فقه الزكاة .

٢ – مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .

٣ – بيع المرابحة للآمر بالشراء.

٤ – فوائد البنوك هي الربا الحرام .

٥ – دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي .

أما ما يعرف بعلم النفس والفلسفة والاجتماع فإن المتأمل لكتب الشيخ يجد أنه على إلمام واسع بهذه العلوم ، بل يقف من هذه العلوم موقف الناقد البصير ، والمتصفح الواعي، والمقتبس اليقظ .

وللقارئ أن يطالع كتب الشيخ وسيجد مدى هذه الثقافة الواسعة ، وليقرأ مثلاً ما كتبه الشيخ في سلسلة كتبه : حتمية الحل الإسلامي :

١ – الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا.
٢ – الحل الإسلامي فريضة وضرورة.
٣ – بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمغتربين.
٤ – أعداء الحل الإسلامي.

إن كتب الشيخ مليئة بأقوال علماء النفس والفلسفة والاجتماع، مليئة بأسمائهم، لكن الشيخ ينقل لينقد الباطل، ويرد السموم، ولكن إن وجد حقاً عندهم فلا مانع لدى الشيخ أن يستدل بأقوال العقلاء منهم. يقول الشيخ في معرض حديثه عن حاجة الإنسان إلى الصحة النفسية والقوة الروحية: ولهذا نرى الذين يعيشون بغير عقيدة راسخة يتعرضون أكثر من غيرهم للقلق النفسي، والتوتر العصبي، والاضطراب الذهني، وهم ينهارون بسرعة إذا صدمتهم نكبات الحياة، فإما انتحروا انتحاراً سريعاً، وإما عاشوا مرضى النفوس، أمواتاً كالأحياء! على نحو ما قال الشاعر العربي قديماً:

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً   كاسفاً باله قليل الرجاء!

وهذا ما يقرره علماء النفس وأطباء العلاج النفسي في العصر الحديث. وهو ما سجله المفكرون والنقاد في العالم كله.

يقول المؤرخ الفيلسوف «أرنولد توينبي»: الدين إحدى الملكات الضرورية الطبيعية البشرية، وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي، تضطره إلى التماس العزاء الديني على موائد لا تملك منه شيئاً.

ويقول الدكتور «كارل بانج» في كتابه «الإنسان العصري يبحث عن نفسه»: إن كل المرضى الذين استشاروني خلال الثلاثين سنة الماضية، من كل أنحاء العالم، كان سبب مرضهم هو نقص إيمانهم، وتزعزع عقائدهم، ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم.

ويقول «وليم جيمس» فيلسوف المنفعة والذرائع: إن أعظم علاج للقلق – ولا شك – هو الإيمان.

ويقول الدكتور «بريال»: إن المرء المتدين حقاً لا يعاني قط مرضاً نفسياً.

ويقول « ديل كارنيجي » في كتابه « دع القلق وابدأ الحياة » : إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوي والاستمساك بالدين ، كفيلان بأن يقهرا القلق ، والتوتر العصبي ، وأن يشفيا من هذه الأمراض .

وقد أفاض الدكتور « هنري لنك » في كتابه « العودة إلى الإيمان » في بيان ذلك والتدليل عليه بما لمسه وجربه من وقائع وفيرة ، خلال عمله في العلاج النفسي(١).

ويتحدث الشيخ عن عجز العلم والفلسفة عن إيجاد مخرج بديل للإنسان عن الحضارات المادية : لقد تبين لنا أن إنسان العلم الحديث هو « ذلك المجهول » الذي لم يستطع العلم أن يسبر غوره ، وأن يتعرف على حقيقته ، وأن ينفذ إلى أعماقه ، كما بين ذلك « اليكس كاريل » و « رينيه دوبو » ، وغيرهما . لقد عرف العلم الجمادات أو المادة ، وحللها واكتشف قوانينها، ولكنه عجز عن معرفة الإنسان، لأن الإنسان من التركيب والتعقيد بحيث لا يعرفه إلا من خلقه فسواه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤].

وما دام العلم يجهل الإنسان، فلا يؤمل منه أن يحسن توجيهه وتربيته والتشريع له، بل بدا اليوم أن العلم – وبعبارة أدق : تطبيقاته التكنولوجية – أصبح خطراً على فطرة الإنسان، وبيئة الإنسان.

و« إنسان الفلسفة » ليس أحسن حظاً من إنسان العلم، والفلسفة رغم اهتمامها بالإنسان – منذ أنزلها « سقراط » من السماء إلى الأرض ووجه العقل الإنساني إلى محاولة اكتشاف ذاته : اعرف نفسك – لم تتفق على رأي في نظرتها إلى الإنسان : أهو روح أم مادة؟ جسم يفنى أم روح يبقى؟ عقل أم شهوة؟ ملاك أو شيطان؟ الأصل فيه الخير أم الشر؟ .. أهو إنسان كما نراه، أم ذئب مقنع؟ أهو أناني أم غيري؟ أهو فردي أم جماعي؟ أهو ثابت أم متطور؟ أتجدي فيه التربية أم لا تجدي؟ أهو مختار أم مجبور.

اختلفت الفلسفات في الإجابة عن هذه التساؤلات وتناقضت، فلا تستطيع أن تخرج منها بطائل، حتى قال شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود

---

(١) انظر : بينات الحل الإسلامي ص ٤٦ - ٤٧ .

وهو أستاذ الفلسفة في كلية أصول الدين – قبل أن يكون شيخًا للأزهر : الفلسفة لا رأي لها، لأنها تقول الرأي وضده، والفكرة ونقيضها.

هنا نجد الفلسفة الإلهية مناقضة للفسلفة المادية، والفلسفة المثالية مناقضة للفلسفة الواقعية، وفلسفة الواقع معارضة لفلسفة المنفعة أو اللذة، إلى آخر ما نعرفه من تناقضات في الساحة الفلسفية، فهذا يثبت، وذاك ينفي، وهذا يبني، وذاك يهدم.

ومن هنا لا تستطيع الفلسفة وحدها أن تهدي الإنسان سبيلاً أو تشفي له غليلاً، أو تمنحه منهجًا يركن له ويطمئن إليه ويقيم حياته على أمناسه.

فهل تستطيع المذهبية الماركسية وفلسفة المادية الجدلية - التي كان لها بريقها ودعاتها، في عصرنا - أن تقوم بهذه المهمة ؟

ونقول : إذا عجز العلم ، وعجزت الفلسفة عن إنقاذ الإنسان المعاصر من الدمار المعنوي الذي يهدده صباح مساء ، فلا يتصور أن تكون « الماركسية » هي البديل الذي يقدم قارورة الدواء للمريض ، ومضخة الإطفاء للحريق كما توهم ذلك بعض الناس أيام نفاق سوق الماركسية [١].

إن هذه النصوص وغيرها توضح مدى اطلاع الشيخ على هذه العلوم ، وأقوال أصحابها ، بل إن كتب الشيخ مليئة بأسماء هؤلاء العلماء من أمثال : ألكسيس كاريل - رينيه روبو - هنري لنك - جون ديوي - جارودي - لوثين - بريال - ديل كارينجي - وليم جيمس - كارل يانج - أجوست سياتيه - كونت كانت - ماكس نوردوه[٢] .

وللشيخ نظرة ثاقبة في هذه العلوم التي تسمى بالعلوم الإنسانية ، إنه يرى أنها :

١ – تؤثر في تكوين الشخصية الإنسانية للفرد .

٢ – تؤثر في تكوين الشخصية الحضارية للأمة[٣].

---

(١) انظر : الإسلام حضارة الغد ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٢) راجع في ذلك للشيخ من كتبه : الإيمان والحياة ، الإسلام حضارة الغد ، الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه ، بينات الحل الإسلامي ... وغيرها .

(٣) انظر : نحو فقه ميسر ص ٢١٣ .

كما يرى الشيخ بأن هذه العلوم : إن لم تكن معبرة عن عقائد الأمة ، وإنما تعبر عن مثل قوم آخرين فإن إثمها يكون أكبر من نفعها ، وتكون معول هدم لمعنوية الأمة ووحدتها (١).

بل يؤكد الشيخ بأن نقل هذه العلوم الإنسانية عن الآخرين نقلاً حرفياً بما وراءها من أصول نظرية واتجاهات فلسفية أشبه بـ « نقل الدم » من إنسان لآخر ، فإذا كان من فصيلة غير فصيلته ـ ولو كان نقياً من أي مكروب أو تلوث ـ فقد يكون سبباً في هلاك المنقول إليه ، فكيف إذا لم يسلم من التلوث(٢) .

ومع هذا فإن الشيخ لا يقف من هذه العلوم موقف الانغلاق المقيت ولا الانفتاح المزري ، ولكنه يرى الأخذ منها بضوابط ، لذا يقول : نريد أن نقف من هذه العلوم موقف الأحرار لا موقف العبيد ، نأخذ منها وندع ، وفقاً لمسلماتنا العقائدية والفكرية التي تميز شخصيتنا(٣) .

ويقول الشيخ -حفظه الله أيضا : وإذا كانت العلوم الإنسانية في وضعها الغربي المعاصر : حافلة بالثغرات التي ذكرناها ، فلا يجوز لنا ـ باعتبارنا مسلمين لنا هويتنا الدينية والأخلاقية والثقافية والحضارية ـ أن نأخذها كما هي ، على أنها قواعد مسلمة ، وحقائق ثابتة ، بل ندرسها بعقول متفتحة ، وبصائر نيرة ، غير متعصبين لها ولا عليها ، مستفيدين مما فيها من صواب ، وجوانب إيجابية ، متجنبين ما فيها من خلل وزلل ، شأنها شأن كل جهد بشري ، وكل فكر بشري ، فهو يحتمل الصواب والخطأ ، والاستقامة والانحراف .

فلا ينبغي لنا الإعراض عنها بالكلية ، لأنها من إنتاج غير المسلمين ، فالعزلة غير مقبولة ، كما لا يجوز لنا أن نأخذها بحذافيرها ، على أنها حقائق علمية يقينية ، فالتقليد الأعمى غير مشروع (٤).

ومن هنا فقد أبدى الشيخ ملاحظاته على هذه العلوم وجعل أهمها :

١ — أنها علوم ظنية تخمينية .

(١ ، ٢) انظر : نحو فقه ميسر معاصر ص ٢١٣ .
(٣) المرجع السابق..
(٤) انظر : المرجع السابق ص ٢٢٥ .

٢ ـ أن هذه العلوم غير محايدة بل تلعب الذاتية فيها دورا كبيرا .

٣ ـ أن هذه العلوم في صورتها المعاصرة علوم غربية ، وأن ما يدرس منها في جامعاتنا ليس أكثر من ترجمة إلا ما ندر ، ومن ثم فإنها ليست علوم عالمية الوجهة ولا إنسانية الطابع[١] .

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن ثقافة القرضاوي في العلوم الإنسانية لم تكن نتيجة القراءة العامة التي كان يحرص عليها كل عالم فحسب ؛ وإنما درسها القرضاوي دراسة منتظمة مرتين :

الأولى : في كلية أصول الدين.

الثانية : في تخصص التدريس بعد تخرجه من كلية أصول الدين، يقول الشيخ عن هذه الدراسة : وأعتقد أنا أخذنا جرعة كافية ومروية من علوم النفس والتربية ، وصلتنا أكثر بالحياة المعاصرة والثقافة المعاصرة . وكان مدرسونا وأساتذتنا في هذه العلوم من خريجي الجامعات المدنية والعصرية ، وليسوا من الأزهريين ، فكان في ذلك تلقيح لثقافتنا الأزهرية العتيقة[٢].

* * *

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢١٤-٢١٨ بتصرف .

(٢) انظر : ابن القرية والكتاب ج٢ ص ١٥ .

سادساً : الثقافة الواقعية

من أدوات الشيخ القرضاوي ومؤهلاته الدعوية أيضاً ثقافته الواقعية ، بمعنى أن الشيخ ذو ثقافة واسعة بواقع الحياة التي يعيشها ، والمجتمع الذي يحيا به ، فالشيخ لم يكتف بالثقافة الإسلامية ولا التاريخية ولا اللغوية ولا الإنسانية ولا العلمية ، ولكنه ضم إلى هذه الثقافات ثقافة أخرى وهي ثقافة الواقع الذي يعيش فيه ، والعصر الذي وجد فيه ، إنها ثقافة تعني أن يكون الداعية على دراية بما في واقعه من نظم ، وما يسوده من مذاهب ، وما يتحرك فيه من تيارات ، أن يكون على دراية بآلام الأمة وأحزانها ، وأفراحها وأتراحها ، ومصائبها ونكباتها ، وصراعتها ومشكلاتها .

إن هذه الثقافة الواقعية تجعل الداعية لا يجلس مراقباً من برج عاجي ، لكنه جندي في ميدان المعركة ، يقلب النظر هنا وهناك ، ويرجع البصر كرتين ، مراقباً حال أمته وما يحاك بها ، أو يدبر لها بليل .

والواقعية عند القرضاوي تعني أن يكون الداعية على إلمام بما يلي :

١ – معرفة واقع العالم الإسلامي سياسياً واقتصادياً وجغرافياً وثقافياً .

٢ – معرفة واقع القوى المعادية للإسلام كاليهود والصليبيين والشيوعية ، وكذلك المؤسسات المشبوهة كالماسونية .

٣ – معرفة واقع الأديان المعاصرة كاليهودية ، والنصرانية ، والهندوكية ، والبوذية .

٤ – معرفة واقع المذاهب السياسية المعاصرة كالشيوعية والرأسمالية الاشتراكية.

٥ – معرفة واقع الحركات الإسلامية المعاصرة .

٦ – معرفة واقع الفرق المنشقة على الإسلام ، كالبهائية والبابية .

٧ – معرفة البيئة المحلية التي يعيش فيها الداعية [1].

---

(١) انظر : ثقافة الداعية ص ١١٩ وما بعدها باختصار .

إن هذه الثقافة الواقعية هي التي جعلت الشيخ يكتب في مجالات شتى :

فحين رأى الشيخ اجتهاداً في غير محله أخرج كتابه : « الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط ».

وحين علت أصوات القائلين بإباحة فوائد الربا أخرج كتابه « فوائد البنوك هي الربا الحرام ».

وحين يرى أمتنا وقد أهدرت الوقت فيخرج كتابه : « الوقت في حياة المسلم ».

وحين يرى الصحوة الإسلامية في حاجة إلى ترشيد فيخرج لها « أين الخلل » ، و« أولويات الحركة الإسلامية ».

وحين يرى رقاب العلمانيين تشرأب هنا وهناك يسكتهم بكتبه : « الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه » ، ولما أسفرت العلمانية عن وجهها في تركيا و تونس أخرج كتابه « التطرف العلماني » .

وحين تطاول أحدهم وزعم أن الأمة الإسلامية وهم وخيال ، أخرج الشيخ كتابه « الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم ».

وحين رأى فشو ظاهرة التكفير في المجتمع أخرج رسالته القيمة « ظاهرة الغلو في التكفير ».

وحين رأى تهاون البعض في قضية فلسطين أخرج الشيخ كتابه الرائع « القدس قضية كل مسلم ».

وحين طلّت العولمة برأسها على العالم حدد الشيخ موقف المسلمين من العولمة في كتابه « المسلمون والعولمة ».

هذه الثقافة الواقعية هي التي نوعت كتابات الشيخ وعددت كتبه ، لذا فإن الشيخ لم يقصر نفسه على نوع واحد من الكتابات ولكنه عدد وصنف .

والشيخ حين يكتب في أي اتجاه فإنما يكتب عن علم ودراية ، يقول الشيخ عن موقف المسلمين من العولمة : وللناس من العولمة مواقف ثلاثة ، طرفان وواسطة، شأن الناس في معظم القضايا الكبيرة إما مُفْرِطون أو مُفَرِّطون أو متوسطون .

فأما الطرف الأول فهو طرف المندفع إلى العولمة ، والمتحمس لها ، السابح في تيارها ، ممن يتعاملون معها بغير قيود ولا تحفظ . كالذين ذكر عنهم الحديث النبوي أنهم يتبعون سنن غيرهم من الأمم ، شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخل الآخرون جحر ضب لدخلوه .

وهذا موقف الغلاة من دعاة « التغريب » ودعاة « التطبيع » في عالمنا العربي الإسلامي .

وأما الطرف الآخر ، فهم عكس هؤلاء ، يهربون من المواجهة، ويلوذون بالصومعة ، وينكفئون على الذات، في عزلة وتقوقع، وغيبة عما يدور به الفلك حولهم في دنيا الفكر، ودنيا الاقتصاد ، ودنيا السياسة، وغيرها ، مؤمنين بسياسة إغلاق الأبواب، التي تهب منها الرياح ، خشية أن تحمل هذه الرياح بعض الأتربة أو الأهوية الضارة . مع أن الحاجة إلى هذه الرياح مؤكدة .

وهذا هو موقف كثير من الخائفين من اللقاء مع الآخرين، من المتمسكين بكل قديم، والمتوجسين من كل جديد .

وأما الواسطة فهو الموقف المقبول ، الذي يمثل المنهج الوسط للأمة الوسط . إنه موقف المؤمنين القوي البصير المنفتح ، المعتز بهويته ، الواعي لرسالته ، المتمسك بأصالته ، المؤمن بعالميته ، المغالي بثقافته ، وحضارة أمته ، الذي لا يفر من المواجهة ، ولا يخاف من الحوار ، بل ينطلق من أفق واسعة ، ويقف على أرض صلبة . يأخذ ويعطي ، ويستقبل ويرسل ، ولا يفرط في خصائصه الذاتية، ولا مقوماته الأساسية [1].

وحين يتحدث عن الصهيونية وما تريد فيقول : تريد الصهيونية العالمية أن تهيمن على العالم شرقيه وغربيه ، وبعبارة صريحة : تريد أن « تهود » العالم . وليس معنى « تهويد » العالم أن يدخل في الديانة اليهودية ، فاليهود لا يعنون بنشر دينهم ، وهو بطبيعته ليس ديناً عالمياً انتشارياً . إنما هو « دين قومي » مغلق

---

(١) انظر : المسلمون والعولمة ص ١٣١ ، ١٣٢ .

على أهله . إن عقائده وشرائعه وطقوسه وأحلامه وجنته تدور حول « إسرائيل » وشعب إسرائيل ، وملك إسرائيل . حتى « الله » ذاته ، هو « رب إسرائيل » وليس « رب العالمين » كما هو عندنا نحن المسلمين .

فما معنى « التهويد » إذن ؟

التهويد المقصود هنا : أن يسخر اليهود العالم لمصلحتهم ، ليدور في فلكهم ، وتحقيق أحلامهم ، وأن يغسلوا أدمغة البشر ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، مما فيها من مفاهيم ومواريث فكرية ، ليملأوها بما يشاءون من أفكار ، يلقنونها على أنها حقائق مسلّمة ، وإن كانت في الواقع أباطيل وترهات .

التهويد هنا : أن يكونوا هم « عقل العالم » كما تدل على ذلك « بروتوكولات » حكماء صهيون ، التي نشرت في لغات العالم المختلفة ، وإن شكك فيها الكثيرون ، ولكن الواقع يصدقها بالفعل[1] .

ويتحدث الشيخ عن الليبرالية وفشلها في مجتمعاتنا فيقول : إن السبب الأول – الذي نعتبره سبب الأسباب – لفشل الليبرالية عندنا ، أننا – نحن المسلمين – لا نؤمن بها ، ولا بشريعتها ، ولا نمنحها عن رضا ولاءنا واحترامنا ، بل نؤمن أعمق الإيمان ، أن الليبرالية الديمقراطية نظام قاصر ، ككل الأنظمة التي يضعها البشر لأنفسهم بعيداً عن هدى الله ونوره ، فتأتي – حتماً – مليئة بالثغرات ونقاط الضعف والقصور ، التي تنكشف للناس يوماً بعد يوم ، وما ذلك إلا لأن البشر أنفسهم قاصرون قصوراً ذاتياً . فهم محدودون بطبيعة تكوينهم وثقافتهم وتأثير عصرهم وبيئتهم ومحيطهم ، زيادة عن تأثير ميولهم ونزعاتهم وأهوائهم التي لا يجسر إنسان على ادعاء العصمة منها . ولهذا لم تبرأ الليبرالية الديمقراطية من عيوب ذاتية مصاحبة لها ، لا يزال المفكرون والمصلحون يحاولون علاجها . ولهذا كان ينقصها النظرة العميقة الشاملة المتوازنة إلى الدين وإلى العلم ، وإلى الفرد والمجتمع ، وإلى الحياة والكون ، فقد جاءت نظرتها إلى هذه الأمور جانحة إلى الغلو الإفراط ، أو التقصير والتفريط .

---

(١) انظر : أعداء الحل الإسلامي ٧٠ .

ولا عجب أن وجدنا أهلها أنفسهم يكتشفون عجزها وقصورها ، وينصرفون عنها أو يعدلونها ، أو يثورون عليها ، ذاهبين إلى أيديولوجية أخرى مضادة لها ، فينتقلون من النقيض إلى النقيض .

وهذا سبب عام لفشل الليبرالية وتخبطها وعجزها عن إسعاد المجتمعات التي سارت فيها أزماناً غير قصيرة [1].

إن الثقافة الواقعية لدى الشيخ القرضاوي لم تجعله يتقوقع داخل الفقه كما يريده البعض بمعناه الضيق ، فقه العبادات أو المعاملات فحسب ، إنما جعلت من الشيخ نذيرا كلما بدت في الأمة ثلمة ، أو ظهر عليها اعتداء ، فتراه يزأر للمستضعفين في أفغانستان ، واللاجئين في فلسطين والمشردين في كشمير، والمطاردين في الفلبين والمتآمر عليهم في العراق، فضلاً عن رده على المتطاولين والمنافقين من العلمانيين .

* * *

(١) انظر : الحلول المستوردة ص١١٧ .

الفصل الثالث
الوسائل والأساليب في منهج القرضاوي الدعوي

توطئة :

أولاً : تعريف الأسلوب :

١ ـ في اللغة : الأسلوب : هو الطريق ، وعنق الأسد ، والشموخ في الأنف[١].

وهو : كل طريق ممتد .

وهو : الطريق ، والوجه ، والمذهب[٢] .

وهو : الفن ؛ يقال : أخذ فلان في أساليب من القول ، أي أفانين منه [٣].

٢ ـ في الاصطلاح : هناك تعريفات عديدة للأسلوب في الاصطلاح ، منها :

– الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار مفرداته[٤].

– طريقة الإنشاء أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير[٥] .

٣ ـ الاسلوب الدعوي : هو فن الدعوة [٦].

---

(١) انظر : القاموس المحيط الفيروزأبادي .
(٢) انظر : تهذيب اللغة الأزهري ج ١٢ ص ٤٣٥ ط الدار المصرية للتأليف بدون تاريخ .
(٣) انظر : لسان العرب ابن منظور .
(٤) انظر : خصائص القرآن د : فهد الرديمي .
(٥) انظر : الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية أحمد الشايب.
(٦) انظر : مناهج الدعوة وأساليبها د : علي جريشة .

وهو : الطريقة أو المذهب الذي يلجأ إليه الداعي إلى الله ، ليحقق بذلك أهداف الدعوة[١] .

ومن هذا كله يمكن القول بأن أسلوب الدعوة : هو الطريقة الناجحة المؤثرة المناسبة لحال المدعو .

ثانياً : تعريف الوسيلة

١ - في اللغة : للوسيلة في اللغة معان متعددة منها :

الوسيلة : القربة، وما يتقرب به إلى الغير ؛ والجمع : وُسُل ووسائل[٢] .

٢ - في الاصطلاح: وللوسيلة في الاصطلاح تعريفات عديدة أيضا، منها:

قال القرطبي: القربة التي ينبغي أن يطلب بها [٣].

وقال ابن كثير : ما يتوصل به إلى تحصيل المقصود [٤].

وقال الرازي : التي يتوصل بها إلى المقصود [٥].

وقال ابن الأثير : ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به [٦].

وقال الطاهر بن عاشور : أريد بها ما يبلغ به إلى الله ، وما يقرب العبد من الله بالعمل بأوامره ونواهيه [٧].

وقال علي عبد الحليم محمود : هي العمل الذي يحقق أهداف الدعوة إلى الله[٨] .

---

(١) انظر : فقه الدعوة إلى الله د: علي عبد الحليم محمود ج١ ص ٢١٥ ط الثانية دار الوفاء ١٤١١ هـ .

(٢) انظر : لسان العرب ج١١ ص ٧٢٥ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن القرطبي ط دار الكتب ج٦ ص ١٥٩ ١٣٨٧ هـ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج٢ ص٤٨ ط دار القلم بيروت بدون تاريخ .

(٥) انظر : التفسير الكبير الفخر الرازي ج١١ ص١٧٣ دار الكتب العلمية بيروت ط٤ ١٤٠٧ هـ .

(٦) انظر : النهاية في غريب الحديث ابن الأثير ج٥ ص ١٨٥ ط المكتبة العلمية بدون تاريخ .

(٧) انظر : التحرير والتنوير ابن عاشور ج٤ ص١٨٧ مكتبة ابن تيميه بدون تاريخ .

(٨) انظر : فقه الدعوة ج١ ص٢٣٤ .

وقال البيانوني : ما يتوصل به الداعية إلى تطبيق مناهج الدعوة من أمور معنوية أو مادية[1] .

أما إذا قيدنا الوسيلة بالدعوية فيمكن القول بأن الوسيلة الدعوية هي : الطريقة المقيدة بالشرع، الموصلة إلى الله تعالى .

وإنما كانت مقيدة بالشرع لتخرج الوسيلة الغير مقيدة بالشرع ، مهما كانت النتيجة ؛ لأن الغاية لا تبرر الوسيلة .

ثالثاً : العلاقة بين الوسيلة والأسلوب :

كثيراً ما تتداخل الوسائل مع الأساليب لدرجة أنه يصعب التفريق بينهم أحياناً، وكثيراً ما يذكر المؤلفون بعض الوسائل ضمن الأساليب، ويذكر آخرون بعض الأساليب ضمن الوسائل ، فبعضهم يذكر الخطابة مثلاً على أنها وسيلة ، بينما يذكرها آخرون على أنها أسلوب ، وهذا جائز .

ويمكن القول بأن الوسيلة أعم من الأسلوب ، والأسلوب أخص منها، ولا مانع أن يكون الأسلوب وسيلة أو العكس ، ولهذا سوف أتناول وسائل الشيخ القرضاوي وأساليبه الدعوية دون فصل الوسائل عن الأساليب .

* * *

(١) انظر : المدخل إلى علم الدعوة ص٤٩ .

تمهيد

الدعوة إلى الله تعالى «فن»، والداعية الفطن «يتفنن» في الوصول إلى قلوب الناس ، لكن وسائله وأساليبه ينبغي ألا تخالف نصاً ثابتاً ، ولا تعارض حكماً شرعياً، وليس معنى ذلك أن الوسائل والأساليب توقيفية؛ لا بل كل وسيلة لا تتعارض مع النصوص الشرعية مقبولة شرعاً وسائغة عقلاً .

ولقد استخدم الدعاة على مر العصور والدهور أساليب ووسائل ما عرفها السابقون، وحسبهم ما روي عن رسول الله ﷺ : « الحكمة ضالة المؤمن فأنى وجدها فهو أحق الناس بها »(١).

بل قد يجد من الوسائل والأساليب ما استحدثه الغرب الكافر ، ولا مانع من استخدام ذلك ، فقد تعلم أبو هريرة رضي الله عنه من شيطان في صورة آدمي، وقال له النبي ﷺ في الحديث الصحيح « صدقك وهو كذوب » (٢).

والداعية الحريص على هداية الناس حري به ألا يدع وسيلة إلا واعتلى منبرها ، مبصراً أهله ، ومنذراً قومه ، داعياً إلى ربه على هدى وبصيرة .

والشيخ لا يكاد يترك وسيله من وسائل الدعوة إلا قرع بابها ، ولا أسلوباً من أساليبها إلا ولجه ، من القديم والحديث على السواء ، اللهم إلا اللغة الأجنبية فإنه لم يتح له ذلك ، ولا يرجع هذا إلى تقصير منه ، بل إلى عدم توجيه له منذ الصغر ، يقول الشيخ في مذكراته : لو وجدت من يعلمني لغة أجنبية لخطوت فيها خطوات سريعة ، فقد كانت قدرتي اللغوية فائقة ، ولكن لم يكن في قريتنا ما يعين على ذلك ، وما يدفع إليه (٣).

وسنقسم الأساليب التي عرف بها الشيخ إلى قسمين :

القسم الأول : الوسائل والأساليب المقروءة .

القسم الثاني : الوسائل والأساليب المسموعة .

---

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٧) عن أبي هريرة وقال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٩)، وذكره الألباني في ضعيف الجامع (٤٣٠١).

(٢) البخاري في الوكالة رقم (٢٣١١) عن أبي هريرة .

(٣) انظر : مذكرات الشيخ ج١ ص ٢١٠.

المبحث الأول
الوسائل والأساليب المقروءة

١ ـ الفتاوى :

التعريف :

الفتوى لغة : الجواب في الحادثة .

وشرعاً : بيان الحكم الشرعي في قضية من القضايا جواباً عن سؤال سائل، معين كان أو مبهم ، فرد أو جماعة .

وقد عرفت كتب الفتاوى في تراثنا الفقهي منذ القدم ، واشتهر في كل مذهب من المذاهب كتب للفتاوى ، كالفتاوى الهندية والبزازية في المذهب الحنفي ، وفتاوى ابن الصلاح والنووي في المذهب الشافعي ، وفتاوى ابن رشد والشاطبي في المذهب المالكي .

وفي العصر الحديث ظهر عدد من كتب الفتاوى في مختلف البلدان ، ومنها فتاوى العلامة رشيد رضا ، والشيخ شلتوت ، وتوالت في الآونة الأخيرة كتب الفتاوى ، مثل فتاوى الشيخ ابن باز ، والشيخ الشعراوي ، والشيخ ابن عثيمين، والشيخ كشك ... وغيرها .

ولعل أشهر كتب الفتاوى في القديم والحديث فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، والتي بلغت (٣٥) خمسة وثلاثين مجلداً .

مكانة الفتوى في الإسلام :

للفتوى في الإسلام منزلة عظيمة ، ومكانة مهمة ، وخطورة جسيمة ، ذلك أنها توقيع عن الله رب العالمين ، وإعلام منه إلى الناس أجمعين ، ولهذا كان التشديد من شأنها ما روي عنه ﷺ : « أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار »[١] .

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل ، والدارمي مرسلاً عن عبد الله بن جعفر ، وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (١٨١٤) .

ومن أروع ما جاء عن الصديق قوله : أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله برأيي ؟

وهذا إمام دار الهجرة مالك بن أنس يروى انه قال : وددت أني ضربت عن كل فتوى كذا سوطاً ولم أكن أفتيت بشيء .

وقد أبكت هذه الجراة ربيعة بن عبد الرحمن وقال : استفتي من لا علم له، وظهر في الإسلام امر عظيم . ثم قال ربيعة - رحمه الله - ولبعض من يفتي ها هنا أحق بالسجن من السراق[(١)] .

ويعد أول من قام بهذا المنصب الشريف - كما قال ابن القيم - سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين عبد الله ورسوله وأمينه على وحيه ﷺ [(٢)].

كما اشتهر عدد من الصحابة بالفتوى ذكر ابن القيم: أنهم مئة ونيف وثلاثون نفساً ما بين رجل وامرأة منهم المكثر ومنهم المقل [(٣)].

شروط المفتي عند القرضاوي :

أما صفات المفتي فإن الشيخ القرضاوي فصل فيها، ونستطيع إجمالها في الآتي:

أولاً : من حيث الثقافة :

١ - أن يكون ذا صلة وثيقة بالكتاب والسنة .

٢ - أن يكون ذا ملكة في فهم لغة العرب وتذوقها .

٣ - أن يتمرس بأقوال الفقهاء ليعرف منها مدارك الأحكام ، وطرائق الاستنباط ، ويعرف منها كذلك مواضع الإجماع ومواقف الخلاف .

٤ - أن يتمرس بعلم أحوال الفقه ، ومعرفة القياس والعلة ، وذلك بمعايشة الفقهاء في كتبهم وأقوالهم .

٥ - أن يتعرف على واقع الناس ، حتى يربط فتواه بحياة الناس [(٤)].

---

(١) انظر : جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر ج٢ ص ٢٠١ .

(٢، ٣) انظر : أعلام الموقعين ابن القيم ج١ ص ٣٨ ط مكتبة ابن تيمية .

(٤) انظر : الفتوى بين الانضباط والتسيب ص ٢٧ وما بعدها .

ثانياً : من الناحية الأخلاقية :

١ ــ أن يطابق عمله علمه .

٢ ــ أن يزاوج بين العمل والخشية .

٣ ــ أن يزين عمله بالتقوى ومكارم الأخلاق[١] .

الشيخ والإفتاء :

ولما كانت الفتوى وسيلة من وسائل الدعوة في القديم والحديث ، فقد اعتلى الشيخ يوسف القرضاوي منبر هذه الوسيلة في وقت مبكر ، ويؤكد الشيخ ذلك قائلاً : فقد كان مما كتبه الله تعالى لي أن أشتغل بإفتاء الناس منذ عهد مبكر ، فقد كنت أؤم الناس وأخطبهم وأدرسهم وأنا طالب في القسم الابتدائي « الإعدادي الآن » من الأزهر الشريف ومن خطب الناس أو درسهم فلا بد أن يسألوه[٢].

وازداد إفتاء الشيخ يوماً بعد يوم نظراً للقائه بالجماهير وازدياد شعبيته ، وقد كان من عادة الشيخ - وهي عادة طيبة ليت كل الدعاة والخطباء يقدمون عليها - كان من عادته - حفظه الله - أن يعقد بعد صلاة الجمعة ندوة للرد على أسئلة المصلين فيما يتعلق بأمور دينهم[٣].

وأخذ الإفتاء لدى الشيخ نوعاً آخر ، حيث بدأ الشيخ في كتابة بعض الفتاوى في عدد من المجلات الإسلامية مثل « منبر الإسلام » التي تصدرها وزارة الأوقاف المصرية، و« نور الإسلام » التي يصدرها علماء الوعظ والإرشاد بالأزهر[٤].

ولما قدم الشيخ إلى قطر أخذت الفتوى لوناً جديداً ، فظهر للشيخ برنامجان ليرد الشيخ فيهما على أسئلة الجمهور ، البرنامج الأول إذاعي وهو

---

(١) انظر : الفتوى بين الانضباط والتسيب ص ٣٥ - ٤٠ بتصرف واختصار .

(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٥ .

(٣) انظر : خطب الشيخ القرضاوي ج١ ص ٧ .

(٤) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٨ .

بعنوان «نور وهداية» والثاني تلفزيوني وهو بعنوان «هدى الإسلام» والذي لا يزال مستمراً حتى الآن [١].

ولما كثرت الرسائل والأسئلة، وتوالت الخطابات والأجوبة، أشار بعض المخلصين على الشيخ بجمع هذه الفتاوى، فاختار الشيخ منها ما يصلح للجميع أو ما يتعلق بالواقع والمجتمع، وأخرجه للناس كتابة، بعد أن حذف المكرر، وهذب العبارات، وحسّن الفتاوى ببعض من الإضافات، وقد ظهر للشيخ إلى وقتنا هذا ثلاثة أجزاء بعنوان «من هدي الإسلام» فتاوى معاصرة [٢].

منهج الشيخ في الإفتاء:

وقد وضع الشيخ لنفسه منهجاً اجتهد أن يسير عليه، وكان من أهم قواعده في الإفتاء:

أولاً: التحرر من العصبية المذهبية والتقليد الأعمى: والذي دعا الشيخ إلى ذلك هو ذم المقلدين والمتعصبين، ويرى الشيخ أن المفتي لا يتطلب منه أن يكون بالغاً إلى درجة الاجتهاد المطلق ولكن حسبه عده أمور:

١ - ألا يلتزم رأياً في قضية بدون دليل قوي، سالم من معارض معتبر.

٢ - أن يكون قادراً على الترجيح في الأقوال المختلفة والآراء المتعارضة بالموازنة بين أدلتها.

٣ - أن يكون أهلاً للاجتهاد الجزئي.

ثانياً: تغليب روح التيسير والتخفيف على التشديد والتعسير: ويرجع ذلك لسببين:

١ - أن الشريعة مبنية على التيسير ورفع الحرج.

٢ - طبيعة العصر الذي نعيش فيه، حيث أصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر لطغيان الحياة المادية الجارفة.

---

(١) انظر: فتاوى معاصرة ج ١ ص ٩.

(٢) انظر: الفتوى بين الانضباط والتسيب ص ٣.

ثالثاً : مخاطبة الناس بلغة العصر مع تجنب المصطلحات الوعرة، والألفاظ الغريبة.

رابعاً : الإعراض عما لا ينفع الناس ، كالمفاضلة بين الأصحاب ، تأويل الرؤى والأحلام.

خامساً : التزام روح الوسط بين المتحللين والمتزمتين ، والاعتدال بين التفريط والإفراط .

سادساً : إعطاء الفتوى حقها من الشرح والإيضاح : فالشيخ لا يقتنع في الفتوى بالجواب بالمقتضب ، نعم أو لا ، أو حرام أو حلال ، فهذا إن جاز مع بعض الأشخاص لا يجوز مع مجموع الناس [١].

مزالق الفتوى كما يراها القرضاوي :

وقد حذر الشيخ من مزالق الفتوى ، وخصوصاً في الوقت الحاضر ، ويرجع السبب في ذلك إلى سرعة انتشار الفتوى بوساطة وسائل الإعلام من طبع ونشر وإذاعة وتلفزة وإنترنت ، وقد جمع الشيخ هذه المزالق في أمور ستة :

* الجهل بالنصوص أو الغفلة عنها .
* سوء التأويل .
* عدم فهم الواقع على حقيقته .
* الخضوع للأهواء .
* الخضوع للواقع المنحرف .
* تقليد الفكر الغربي [٢] .

وقد بين الشيخ القرضاوي المنظار الذي يحكم رؤيته الوسطية في الفتوى فصارت مقبولة ، فقال عن هذا المنظار : في فتواي أحمد الله أني أنظر إلى الإسلام بعين وعلى العصر بعين أخرى ، إلى الإسلام وأصوله وتراثه ، والعصر وتياراته ومشكلاته ، وفي نظري إلى الإسلام لا يهمني أن أرضي أطرافاً معينة ،

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج ١ ص ١٠ - ٣٦ بتصرف ، وانظر الفتوى بين الانضباط والتسيب ص ١٠٠ - ١٣٥ بتصرف .

(٢) للتفصيل في هذه المزالق انظر الفتوى بين الانضباط والتسيب ص ٥٩ - ٩٩ .

كما لا يهمني أن أرضي أصحاب السلطان ، كما لا يهمني أن أرضي العوام ، بعض الناس لا ترضي السلطات لكنها تحاول أن ترضي الجماهير ، وهذا أخطر ، لأن الذي يتبع أهواء السلطان سرعان ما يكتشف ويتبين زيفه ، وإنما الذي يتبع أهواء العامة يصعب أن يكشف إلا عند الخاصة أو ذوي البصيرة [1].

وقد صدر للشيخ ثلاثة مجلدات ، تمتاز بالفهرسة والتقسيم ، وهي في الغالب مقسمة إلى : القرآن، والحديث، وعقائد، وعبادات، والمجتمع ومعاملاته، والسياسة والحكم، والفقه، والطب وقد اعتنى الشيخ في المجلد الثالث بفقه الأقليات، كما أن للشيخ جزءاً رابعاً تحت الإعداد.

٢ - الكتب :

« كتبه - أي القرضاوي - لها ثقلها وتأثيرها في العالم الإسلامي » هكذا قال العلامة ابن باز رحمه الله عن كتب الشيخ القرضاوي، والشيخ حفظه الله كاتب إسلامي بارز ، وهو من أبرز الكتاب الإسلاميين في الفترة الأخيرة ، ومن أكثرهم عطاء ، ولا يكاد الشيخ يترك باباً من أبواب الثقافة الإسلامية إلا وهو يسجل فيه مولوداً صغيراً ، أو شبلاً كبيراً ، أو أسداً هصوراً .

والشيخ حفظه الله كاتب بالفطرة ، صاحب قلم سيال، وفكر ثاقب ، وهمة عالية ، وتحرك متواصل ، ترجم ذلك كله إلى كتابات طوفت مشارق الأرض ومغاربها .

وقد يعجب المتابع لرحلة الشيخ الكتابية ، بداية من كتابه « الحلال والحرام » ومروراً بـ« فقه الزكاة » و« الإيمان والحياة »، و« العبادة في الإسلام » . . . . . . وانتهاء بـ« فقه الجهاد » ، وغيرها . . ليقف أمام عدد هائل من الكتب والمؤلفات ؛ مع كثرة أسفار الشيخ ، وتعدد أعماله ، وتنوع اهتماماته ، ولكن إذا عرف السبب بطل العجب، فإن كثرة هذا العطاء مع كثرة هذه الأعمال يرجع إلى عدة أمور :

١ - التوفيق من الله تعالى، وإكرام الله له بالبركة في وقته ، والشيخ كثيراً

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ج٢ ص ١٣٥ ، ١٣٦ بتصرف .

ما يـردد قـولـه تعـالـى ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. وكثيراً ما يدندن بقول الشاعر :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده[١]

ب ـ عمل الشيخ المتواصل والذي يصل نحو (١٤) أو (١٥) ساعة تقريباً يومياً[٢]، فلا يدع الشيخ لحظة دون الاستفادة منها ، فهو يكتب في بيته ومكتبه ، وفي سفره وحضره، في حله وترحاله ، في بره وجوه ، بل إنه ليكتب وهو في فراش المرض ، و في جو السماء ، وهذه بعض الكتب التي كتب لها مقدماتها وهو في جو السماء :

– من أجل صحوة راشدة تجدد الدّين وتنهض بالأمة .

– الفتوى بين الانضباط والتسيب .

– بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمغتربين .

ج – أن كثيراً من كتب الشيخ هي في الأصل خطبة من الخطب، أو محاضرة من المحاضرات، أو ندوة من الندوات، انقدح في ذهن الشيخ أن تخرج إلى عالم الكتابة .

ويمكن تقسيم كتب الشيخ وسبب خروجها إلى النور على النحو التالي :

١ ـ كتب أصلها بحوث أعدت لمؤتمرات وندوات :

* شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان .
* ثقافة الداعية .
* عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية .
* الثقافة الإسلامية بين الأصالة المعاصرة .
* دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي .
* كيف نتعامل مع السنة النبوية .
* كيف نتعامل مع القرآن .

(١ ، ٢) انظر : يوسف القرضاوي فقيه الدعاة وداعية الفقهاء. عصام تليمة ص ٨٠ .

* رعاية البيئة في شريعة الإسلام .
* بناء المساجد .
* الأسرة كما يريدها الإسلام .

٢ـ كتب ألفت لتكون مقررات دراسية مثل :

* الخصائص العامة للإسلام .
* المدخل لمعرفة الإسلام .
* الاجتهاد في الشريعة الإسلامية .
* المدخل إلى دراسة الشريعة الإسلامية .

٣ـ كتب فرضها واقع الأمة الثقافي والسياسي والفكري مثل :

* سلسلة حتمية الحل الإسلامي وهي أربعة أجزاء .
* سلسة ترشيد الصحوة الإسلامية ومنها :
– الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف .
– الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .
– أين الخلل .

٤ـ كتب يفرضها واجب الوفاء للمكتوب عنهم مثل :

* الشيخ الغزالي كما عرفته .
* أبو الحسن الندوي كما عرفته .

٥ ـ كتب ألفت نزولاً على رغبة بعض المقربين مثل :

* سلسلة نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام وصدر منها ستة أجزاء .
* حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا .

٦ـ كتب تفرضها المناسبة التاريخية مثل :

* التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا .
* الإخوان المسلمون : سبعون عاماً في الدعوة والتربية والجهاد .
* أمتنا بين قرنين .
* الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه .

* مقومات الفكر عند الشيخ محمد إبراهيم البشير. (تحت الطبع).

٧- كتب ألفت لتكون رداً على مواقف وأفكار أو كتب لأشخاص معروفين مثل :

* الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه ، في الرد على دكتور فؤاد زكريا.
* فوائد البنوك هي الربا الحرام ، في الرد على دكتور سيد طنطاوي .
* الشفاعة ، في الرد على دكتور مصطفى محمود .

٨ - كتب ألفت لشعور الشيخ بأن المكتبة في حاجة إليها مثل :

* الإيمان والحياة .
* فقه الزكاة .
* سلسلة تيسير فقه السلوك . وصدر منها أربعة أجزاء.
* ملامح المجتمع الذي ننشده .
* العبادة في الإسلام .

٩- كتب كانت في الأصل مقالات صحفية مثل :

* الدين في عصر العلم . وهو فصل من كتاب بينات الحل الإسلامي .
* أين الخلل . وقد شارك به الشيخ في مجلة الأمة .
* الأصولية . وقد شارك به الشيخ في جريدة الشرق الأوسط عن مصير الأصولية .

١٠- كتب كانت في الأصل محاضرات ، وفرغت من أشرطتها مثل :

* السنة والبدعة . وكانت محاضرة القاها الشيخ في مركز الدعوة والإرشاد بقطر .

١١- كتب ألفت إثر أسئلة ومحاورات مثل :

* الأقليات الدينية والحل الإسلامي .
* نحن والغرب.

١٢- كتب مقتبسة من كتابات سابقة للشيخ دعت الحاجة إلى إفرادها في كتيب صغير مثل:

* مركز المرأة في الحياة الإسلامية. أحد فصول كتاب ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده .

* النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه ، وهو مجموع من فتوتين من فتاوى معاصرة .

* الدين في عصر العلم . أحد فصول بينات الحل الإسلامي .

* الفتوى بين الانضباط والتسيب . أصلها مقدمة لكتاب الفتاوى .

خصائص القرضاوي الكتابية :

تمتاز كتابات القرضاوي ومؤلفاته بميزات عديدة نشير إليها بإيجاز :

١ – الأسلوب الأدبي الرائع .
٢ – الشمول .
٣ – كثرة المراجع والمصادر .
٤ – الغزارة والتنوع .
٥ – الجمع بين مخاطبة العقل وتحريك العواطف .
٦ – الرفق مع المخالفين ، والشدة مع المتطاولين .
٧ – الجمع بين الأصالة والمعاصرة .
٨ – قوة الاستدلال مع حسن الاستشهاد بالكتاب والسنة .
٩ – التنبيه على الأولويات .
١٠ – الإيمان بالفكرة والصدق في التعبير عنها .
١١ – ترجمة الكثير منها إلى لغات عدة .
١٢ – كشف زيف النظريات المادية .
١٣ – الواقعية .
١٤ – العمق .
١٥ – عدم التعصب لرأي بعينه .
١٦ – اتسامها بالحرارة والحيوية لارتباطها بواقع الحياة .
١٧ – النقد الهادف والبناء حتى لمن أحب .
١٨ – الاعتدال بين المتشددين والمتسيبين .
١٩ – السهولة واليسر بعيداً عن التقعر والتكلف والتعقيد .

٣ ـ الشعر :

يعد الشعر وسيلة من الوسائل الدعوية ، وأسلوباً من أساليبها، وهو أسلوب قديم جديد، أو وسيلة قديمة متجددة، والتاريخ الإسلامي حافل بفطاحل الشعراء وفحولهم ممن كافحوا بكلماتهم عن هذا الدين، ونافحوا بأشعارهم عن حرمات الإسلام، وذادوا عنه بقوافيهم وأبياتهم.

ومَن من الناس لا يذكر حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وعلي بن أبي طالب ، وعمر، وابن عباس ، ومعاوية ، وعائشة ، والشافعي ، وابن المبارك ، وابن القيم ، وابن حزم ....وغيرهم ؟

أو لا يذكر قول كعب بن زهير رضى الله عنه في قصيدته الشهيرة [بانت سعاد] بين يدي رسول الله ﷺ وفيها يقول :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول (١)

وروى أحمد في مسنده أن الأسود بن سريع قال لرسول الله ﷺ : إني حمدت ربي بمحامد ومدح وإياك . فقال ﷺ : « أما إن ربك يحب المدح ، فهات ما امتدحت به ربك عز وجل ، فأنشده »(٢).

قال القرطبي : قال ابن عبد البر : ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ، ولا من أولي النهى ، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا قد قال الشعر، أو تمثل به أو سمعه (٣).

ومن المواقف الرائعة التي سجلها التاريخ في صحائفه لحسان بن ثابت رضي الله عنه ما رواه الإمام مسلم : أن المشركين هجوا رسول الله ﷺ وكان منهم أبو سفيان، فقال حسان : ائذن لي في أبي سفيان يا رسول الله ﷺ ، قال كيف بقرابتي منه ؟ قال : والذي أكرمك لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من الخميرة ، فقال حسان :

---

(١) انظر : القصيدة بكاملها في السيرة النبوية ابن هشام ج٤ ص ١٤٦ .

(٢) رواه أحمد في المسند(١٥٥٩٠) عن الأسود بن سريع ، وقال محققوه: إسناده ضعيف.

(٣) انظر : جامع أحكام القرآن ١٣ ص ١٥١ .

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

وفي رواية أخرى عند مسلم أيضا : أن رسول ﷺ أرسل إلى عبد الله بن رواحة، ثم أرسل إلى كعب بن مالك ، ثم أرسل إلى حسان . فلما دخل عليه قال : قد آن أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضاري بذنبه ، ثم أدلع لسانه فجعله يحركه فقال : والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم ، فقال له رسول الله ﷺ : «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»(١).

وقد قسم أرباب العربية الشعراء إلى أقسام :

١ - شاعر خنذيد : وهو الذي يجمع مع جودة شعره رواية الجيد من غير شعره.

٢ - شاعر مفلق : وهو الذي لا رواية له؛ إلا أنه مجود كالخنذيد في شعره.

٣ - شاعر فقط : وهو فوق الرديء بدرجة .

٤ - شعرور : وهو الذي لا شيء عنده (٢).

والشيخ القرضاوي لا يقل رتبة عن القسم الثاني ، فهو شاعر خنذيد ، ذلك أن الشيخ راوية جيد لشعر غيره من القدماء والمحدثين ، والقارئ للشيخ والسامع له يرى ويسمع أطايب الحكَم، ولطائف الأبيات التي يستشهد بها الشيخ، في شتى الموضوعات، ومختلف المقامات .

وأعجب ما في الشيخ أنه لا يكثر من شعره في خطبه أو محاضراته أو كتاباته بقدر ما يكثر من شعر غيره ، هذا على الرغم من روعة ما عند الشيخ من الشعر، مما يستشهد به غيره، ويزين به الخطباء خطبهم، والكتاب صحائفهم.

ولعل الشيخ عبد الحميد كشك - رحمه الله - كان من أشهر الخطباء ،

---

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة رقم (٢٤٩٠) عن عائشة ، وكان مما قاله حسان :

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
هجوت محمداً براً تقياً رسول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

(٢) انظر : العمدة في محاسن الشعر ونقده ابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط الرابعة دار الجيل ١٩٧٢م ج١ ص ١١٦ .

وأسبقهم استشهاداً بشعر الشيخ القرضاوي ، فكم استشهد بأبيات عديدة من الملحمة النونية ومن ذلك قوله :

أرأيت بالإنسان يُنفخ بطنه ... حتى يُرى في هيئة البالون ؟
أسمعت بالإنسان يُضغط رأسه ... بالطوق حتى ينتهي لجنون ؟
أسمعت بالإنسان يُشعل جسمه ... ناراً وقد صبغوه بالفزلين ؟
أسمعت ما يلقى البرىء ويصطلي ... حتى يقول : أنا المسيءُ خذوني
أسمعت بالآهات تخترق الدجى ... رباه عدلك .. إنهم قتلوني
إن كنت لم تسمع فسل عمّا جرى ... مثلي ولا ينبيك مثل سجين[1]

وكذلك استشهاده بقول القرضاوي الشاعر :

صبرنا إلى أن مل من صبرنا الصبر ... وقلنا : غداً أو بعده ينجلي الأمر !
فكان غد عاماً ولو مد حبله ... فقد ينطوي في جوف هذا الغد الدهر !
وقلنا : عسى أن يدرك الحق أهله ... فصاحت «عسى» من «لا» و«لا» طعمها مر !
سلام على الدنيا سلام على الورى ... إذا ارتفع العصفور وانخفض النسر ![2]

والشيخ القرضاوي من شعراء الحركة الإسلامية في العصر الحديث، بل هو من أكثرهم عطاء، وأوسعهم شهرة، وقدر صدر له ديوانان، كما أن الشيخ كذلك من الأدباء الفقهاء والفقهاء الأدباء، ولئن كان الشيخ أطلق على الأستاذ علي الطنطاوي ـ رحمه الله ـ أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، فإن الشيخ يستحق هذا اللقب أيضاً وبجدارة .

بداية القرضاوي الشعرية :

الشيخ القرضاوي بدأ بداية شعرية مبكرة ، ساعده على ذلك حبه للغة العربية وعلومها، فضلاً عما حباه الله به من لسان فصيح ، وملكة لغوية رائعة ،

---

(١) انظر: نفحات ولفحات ص ٥٨ .
(٢) هذه القصيدة من القصائد الضائعة ولم تبق إلا هذه الأبيات فقط .

وقد كانت شهرة الشيخ الشاعرية سابقة لشهرته الفقهية والدعوية والفكرية ؛ يقول في حواره مع الأستاذ عمر بطيشة في برنامجه « شاهد على العصر » : أنا كنت أقول الشعر في الحقيقة في مطلع حياتي حتى إني في وقت من الأوقات عرفت بالشعر أكثر مما عرفت بغيره ، كانوا إذا قيل القرضاوي ، يقولون : القرضاوي الشاعر ؟ يعني قبل الخطيب أو الداعية ، ثم شغلت فعلاً بالجانب الفقهي والجانب الفكري والجانب الدعوي (١).

وهذا ما جعل الشيخ « الغزالي » - رحمه الله - عند سماعه قصيدة « السعادة » أن يقول : القرضاوي لديه قابلية أن يكون شاعراً عظيماً (٢).

أول قصيدة للقرضاوي :

وكانت أول قصيدة للشاعر الناشئ بعنوان « صفارة الإنذار » ، وقد كان الشعر هو الشرك الذي صاد به شباب الإخوان الشاعر يوسف القرضاوي ، ذلك أن القرضاوي الشاعر كان قد ذاع صيته بين شباب المعهد الأزهري فدعاه بعض شباب الإخوان لإلقاء قصيدة في افتتاح الموسم الثقافي بدار الإخوان، وكانت القصيدة قافية القافية من أبياتها :

قلبي يحس برحمة تتدفـــق ويـرى الملائك حولنا قد أحدقوا
وكأن أحمد والصحابة أقبلوا فرحاً بنا قد باركوا وتحلقـوا(٣)

القرضاوي والشعر :

للشيخ القرضاوي نظرة في الشعر كغيره من الشعراء والأدباء ، والشعر عند القرضاوي دمع العين حين يعتصرها الأسى ، والعود الذي يعزف عليه آهات الألم وأنات الوجع ، يقول الشيخ :

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ٣٤ ، لقاءات ومحاورات ج٢ ص ٢١٩ .
(٢) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٢٥٨ وانظر : ما ذكرته في الفصل الثاني «مواهب وأدوات القرضاوي الدعوية» «الثقافة الأدبية واللغوية».
(٣) انظر : المرجع السابق ج ١ ص ١٧٧ .

ثار القريض بخاطري فدعوني أفضي عليكم بفجائعي وشجوني
فالشعر دمعي حين يعصرني الأسى والشعر عودي يوم عزف لحوني (١)

وقد نظم الشيخ قصيدة رائعة ، بين فيها نظرته إلى الشعر ، ورأيه في أهله ، كان عنوانها : « أنا والشعر » كان مطلعها :

أريد له هجراً فيغلبني حبي وأنوي ولكن لا يطاوعني قلبي (٢)

وفيها يرى الشيخ أن الشعر لا غنى للإنسان عنه ، ، وهو يعني بذلك الشعر الرصين ، والكلمات العفيفة ، والأفكار الهادفة ، فيقول :

وكيف أطيق الصبر عنه وإنما أرى الشعر للوجدان كالماء للعشب
فكم شد من عزم وبصر من عمى وأيقظ من نوم وذلل من صعب (٣)

ويحمل الشيخ حملة نكراء على المتاجرين بأشعارهم ، الذين جعلوا كلماتهم سلعة رخيصة تباع وتشترى ، فزيفوا الحقائق ، وبدلوا القيم ، فجعلوا الخبيث طيباً ، والطيب خبيثاً ، وصار الحلو عندهم مراً ، والمر عندهم حلواً ، ورفعوا الوضيع ، وضيعوا الحقوق ، يقول الشيخ :

لقد بغضت لي الشعر في مصر ثلة يبيعونه بالمال للبغي والنهب
فكم سافح قد لقبوه بفاتح وكم مسرف سموه ذا الكرم الرحب
وكم فاجر باغ مشوا في ركابه وسموه ليثاً وهو أدنأ من كلب
وكم ولغت في حرمة الناس كفه فغطوا عليها كالخضاب على الشيب
إذا كان هذا ديدن الشعر في الورى فما هو إلا السم في المشرب العذب (٤)

---

(١) انظر : نفحات ولفحات ص ٥٤
(٢، ٣، ٤) انظر : المرجع السابق ص ٥٠ .

كما يلسع الشيخ بسياط كلماته من جعلوا الشعر للغزل في نهود النساء وشفاههن ، ممن وقفوا شعرهم على قصص الحب والهيام والغرام فيقول :

وطائفة أخرى أطاعوا هواهمو ... فجازوا إلى اللذات درباً إلى درب
يقولون : ليس المرء إلا فؤاده ... وكيف يعيش المرء جسماً بلا قلب؟!
فغاصوا به في الغيد والحب والهوى ... كأن لم يكن في القلب معنى سوى الحب
إذا لم يكن في القلب دين وهمة ... وبغض لطغيان فما هو بالقلب![1]

ويختم الشيخ قصيدته ببيان رسالته الشعرية ، وهدفه النبيل منها ، فيذكر أن شعره إنما هو للحق والحق وحده ، لدعوته لا لغيرها ، ومن ثم فإنه يرى أن شعره كوكباً عالياً يرمي شياطين الإنس بشهب من نار ، يقول الشيخ :

وقفتك يا شعري على الحق وحده ... فإن لم أنل إلاه قلت لهم : حسبي!
وإن قال غر : ثروتي ، قلت :دعوتي ... وإن قال لي : حزبي ، أقول له : ربي!
فعش كوكباً يا شعر يهدي إلى العلا ... وينقض رجماً للشياطين كالشهب[2]

وللشيخ القرضاوي نظرة ثاقبة في الشعر ، فهو لا يرى الشعر مجرد قواف وأوزان ، خالية من المضمون والغاية ، ولذا تراه يعترض على كل ما يخل بالشعر العربي الإسلامي الأصيل فيقول : هناك اعتراض آخر خاص بالمضمون فقد لاحظت أن كثيراً من معاني الشعر الحديث فيها خروج عن القيم والعقائد والشرائع والتقاليد ، فهو ليس ثورة على القافية أو الوزن ، ولكنه ثورة على تراثنا كله من عقائد وقيم وأخلاقيات وهذا هو الخطر [3].

(١ ، ٢) انظر : المرجع السابق ص ٥١ .
(٣) انظر : لقاءات ومحاورات ج٢ ص ٢٢١ .

والشعر الخالد في نظر الشيخ هو: الشعر الذي يعبر عن آلام الأمة ويصور آلامها ويتحدث عن آهاتها ، لا شعر النهود والأرداف كما هو عند كثير من الشعراء الآن ، يقول الشيخ : لكن إذا توجه الشعر الحديث إلى تعبئة الأمة للثورة على الصهيونية وللوقوف في وجه الغاصبين الذين يريدون أن تذهب القدس نهائياً ، ويسعون إلى اغتصاب كل فلسطين ، وهدم المسجد الأقصى فربما كتب له الخلود (١).

ميزات القرضاوي الشعرية :

وإذا كان القرضاوي قد اقتحم ميدان الشعر ، وغاص في بحوره ، فإنه اقتحم هذا الميدان وهو له أهل ، وغاص في بحوره وهو سباح ماهر ، فهو كما يقول الأستاذ حسني جرار : القرضاوي شاعر عبقري البيان ، صادق العاطفة والإحساس ، وذو خيال خصب ، وموهبة عميقة ، وأداء جميل ، وتوفيق كامل ومؤثر في رسم الصور والمشاعر ، تبدو في شعره سلامة العرض وفصاحة الأسلوب وطول النفس(٢).

ومن ثم فقد عرف شعر القرضاوي بعدة ميزات منها :

١ ــ السلامة والتدفق .

٢ ــ الصدق في الإحساس والتصور .

٣ ــ الأسلوب القصصي .

٤ ــ الالتزام بعقيدة التوحيد .

٥ ــ الالتزام بالفكر الإسلامي والاعتزاز به .

٦ ــ كما أن شعر الشيخ يتسم بالواقعية فهو « منبثق من الواقع فكرة وتجربة وأسلوباً ، شعر يحمل معاناة إنسانية من خلال المفاهيم والتصورات الإسلامية ،

---

(١) انظر : المرجع السابق ج٢ ص ٢٢١ .
(٢) انظر : نفحات ولفحات ص ٢٥ .

شعر يتحدث عن آلام الناس ويدعو إلى إزالة المظالم وإصلاح الفساد ، شعر يتحرك في إطار الإسلام ويلتزم المنهج الإسلامي ، إنه شعر دعوة ، وزاد من زاد الدعاة »[1].

الأغراض الشعرية في شعر القرضاوي :

يذكر علماء اللغة والأدب أن للشعر أغراضاً ومجالات ، كالمدح والثناء ، والرثاء والهجاء ، والوصف .... وغيرها ، وكان للشيخ الشاعر مساهمات عديدة في معظم هذه الأغراض الشعرية وعلى سبيل المثال :

١ـ الرثاء :

وله في ذلك قصيدة بعنوان « دمعة وفاء » يقول في مطلعها :

أبكي وهل يشفي البكاء غليلا؟ وقد انتوى عنا الحبيب رحيلاً
أبكي وليس من البكا بد، وإن كان المصاب على القلوب جليلاً
أبكي على غصن نما فيّ روضة للحق أذبله المنون ذبولاً[2]

٢ـ الوطنية :

وله في ذلك قصيدة بعنوان « يا أزهر الخير » ألقاها بعد كلمة ارتجالية في توديع كتائب الأزهر إلى فلسطين وفيها يقول :

دع المداد وسطر بالدم القاني وأسكت الفم واخطب بالفم الثاني
فم المدافع في صدر العداة له من الفصاحة ما يزري بسحبان
يا أزهر اليوم قدها الخير عاصفة فإنما أنت من نور ونيران
هذا شبابك في الميدان منطلق فهل نرى في الشيوخ اليوم كاشاني[3]
متى أرى ألسن الدنيا تحدث عن «حمروش»[4] مصر ككاشانيّ إيران[5]

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢٤ ، ٢٥ بتصرف .

(٢) انظر : المرجع السابق ص٤٧ .

(٣) كاشاني : هو آية الله كاشاني ، وكان قد لبس الكفن وقاد المظاهرات ضد شاه إيران ، فلفت أنظار العالم بصنيعه هذا.

(٤) حمروش : هو إبراهيم حمروش ، وكان شيخ الأزهر وقتها .

(٥) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٤٥١ .

٣ـ الوصف :

ويبدو ذلك في قصيدته «في ذكرى المولد» وفيها يصف شباب الإخوان بقوله :

يا سيد الرسل طب نفساً بطائفة	**باعوا إلى الله أرواحاً وأبداناً**
قادوا السفينة فما ضلوا ولا وقفوا	**وكيف لا وقد اختاروك ربانا**
عاشوا على الحب أفواهاً وأفئدة	**باتوا على البؤس والنعماء إخواناً**
الله يعرفهم أنصار دعوته	**والناس تعرفهم للخير أعواناً**
والليل يعرفهم عباد هجعته	**والحرب تعرفهم في الروع فرساناً(١)**

٤ ـ المديح :

وإن كان الشيخ مُقلاً في هذا الجانب؛ إلا أنه له بعض الأبيات في المدح ، ومنها قصيدته في مدح الإمام البنا، وكذلك قصيدته التي نظمها بعد اعتقاله ذات مرة، يقول في القصيدة :

لم أنس وقفة «صالح» بشجاعة	**وأخي الدمرداش والعسال**
وثبات حسان ومحيي حوله	**رغم الضنى في الجسم والأثقال**
وبقربنا شيخ يجلجل صوته	**ضرب الخسيس لشامخ متعال**
عبد المعز يقول : دونكم اضربوا	**إمهال ربي ليس بالإهمال (٢)**

وله كذلك قصيدة ضائعة بعنوان «الدعوة تتحدث عن نفسها» وفيها يمدح القرضاوي دعوته، ضاعت جلها ولم يبق منها إلا أبيات رسخت في ذاكرة الشيخ، وفيها يقول :

يا دعوة الحق قصي ما لقيت فقد	**يؤذى الهدى ويعان الباطل البور**
قالت : ولد حق وحق الشرق مكتئب	**وباطل الغرب مسرور ومغرور**
لا عدل في الأرض بل ظلم وتفرقة	**والعدل أعظم ما تحوي الدساتير**
حق الإباحي محفوظ ومحترم	**وحق الدين مهضوم ومهدور**

---

(١) انظر : نفحات ولفحات ص٤٤ .

(٢) انظر : المسلمون قادمون ص ١٠ .

إلى أن يقول :

ظنوا وراء اللحى بلهاً ودروشة ... مهلاً فخلف اللحى أسد مغاوير
للغرب هم أجل للشرق هم أمل ... للدين نصر ، وللأوطان تحرير[1]

٥ ـ الهجاء :

وإذا كان الشيخ قد عرف عند القاصي والداني والخاصة والعامة بعفة اللسان، ودماثة الخلق ، إلا أن الظروف قد تضطره أحياناً إلى الهجاء ، لكنه لا يهجو إلا من يستحق ، ومن هؤلاء صلاح نصر وبعض رجال الثورة فيقول :

أترى أولئك ينتمون لآدمٍ ... أم هم ملاعينٌ بنو ملعون ؟
تالله أين الآدمية منهمو ... من مثل محمودٍ ومن ياسين
من جودة أو من دياب ومصطفى ... وحمادةٍ وعطية وأمين
لا تحسبوهم مسلمين من اسمهم ... لا دين فيهم غير سبّ الدين
لا دين يردع لا ضمير محاسبٌ ... لا خوف شعبٍ لا حمى قانون
من ظن قانوناً هناك فإنما ... قانوننا هو حمزة البسيوني
جلاد ثورتهم وسوط عذابهم ... سموه زوراً قائداً لسجون
وجه عبوسٍ قمطرير حاقدٌ ... مستكبر القسمات والعرنين
في خده شجٌ ترى من خلفه ... نفساً معقدةً وقلب لعين
متعطشٍ للسوءِ في الدم والغِ ... في الشرّ منقوعٍ به معجون[2]

٦ ـ المناسبات :

وكثيراً ما يقرض الشيخ في المناسبات الخاصة أو العامة ، ومن ذلك :

قصيدته الرائية التي ألقاها بمؤتمر طلاب الأزهر عام ١٩٥٢م وفيها يقول :

صبرنا إلى أن مل من صبرنا الصبر ... وقلنا :غداً أو بعده ينجلي الأمر !
فكان غد عاماً ولو مد حبله ... فقد ينطوي في جوف هذا الغد الدهر ![3]

---

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٣٠٥ .
(٢) انظر: نفحات ولفحات ص ٥٦ ، ٥٧ .
(٣) هذه القصيدة من قصائد الشيخ الضائعة ولم تبق إلا هذه الأبيات فقط .

٧ـ الشعر القصصي :

ومن ذلك قصيدة « ثورة لاجئ » وفيها يسجل الشيخ حواراً بينه وبين طفل فلسطيني لاجئ في خيام اللاجئين ، وقد أبدع الشيخ في هذه القصيدة ، والذي يقول في مطلعها :

رأيتــه مطرقـاً يبكـي فـأبكـانـي ... وهاج من قلبي المكلوم أشـجـانـي

في زهرة العــمــر إلا أن دهرك لا ... يرعى الشيوخ ولا يرثى الصبيان[١]

٨ـ الشعر المسرحي :

كما في مسرحية « يوسف الصديق » فقد كان للنزعة الأدبية التي عُرف بها الشيخ منذ صغره أثر في توجهه إلى خوض غمار الكتابة المسرحية ، وكان الشيخ في ذلك متأثراً بكتابات السابقين، وخصوصاً شوقي في مسرحيتيه الشهيرتين « مصرع كليوباترا » و « مجنون ليلى » .

ولتأثر الشيخ بهذا النوع من الأدب نسج على منوال هاتين القصيدتين مسرحية شعرية عن « يوسف الصديق » عليه السلام ، و ذلك في نهاية المرحلة الابتدائية ، وقد أتم الشيخ وليده الأول في عالم الكتابة وهو في السنة الأولى الثانوية ، ومن المفارقات أن يجتمع « اليواسف » كلها في هذه المسرحية ، يقول الشيخ : فالموضوع هو « يوسف » عليه السلام ، والمؤلف هو « يوسف القرضاوي » ، والمطبعة هي المطبعة « اليوسفية » لصاحبها « يوسف »[٢] .

٩ـ الغزل :

والشيخ وإن كان مقلاً في هذا الغرض؛ إلا أنه كتب وتغزل ، لكن غزل الشيخ ليس غزل مراهق عاشق، ولا حبيب ولهان ، بل هو غزل في دعوته، كما في غزله في ليلة القدر، والتي يقول فيها :

عشقتها فاسترقت قلبي العاني ... فقمت أنشد فيها عذب ألحاني[٣]

---

(١) انظر : المرجع السابق ص٨١ .

(٢) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ١٩٥ .

(٣) انظر : نفحات ولفحات ص٢٢ .

وكذلك غزله في حبيبه ﷺ، وفي قصيدة له «في ذكرى الهجرة» يقول :

سهرت إلى نجم السما أتطلع	وأصبحت من جام الأسى أتجرع
وما بي هوى ليلى ولا عشق زينب	و لا غرني قرط وعقد مرصع
ولكنني أهوى العلا في محمد	وليس لقلبي في سواه تطلع[1]

كما أن للشيخ قصيدة غزلية كاملة في «بنت قنا» وهي بعنوان «القلة القناوي» وقد ذكرنا بعض أبياتها عند الحديث عن فكاهة الشيخ فلتراجع.

١٠ ـ التهنئة :

كما في قصيدته «تهنئة ودعاء» يهنئ فيها عروسين بالزواج يقول في مطلعها :

قم فحي الطهر وافاه الندى	قم فحي النيل لاقى بردى
قم فحي الأموي اليوم قد	عانق الأزهر ثم اتحدا[2]

١١ـ التوبة والتضرع :

كما في قصيدته «مناجاة» يقول الشيخ فيها :

يا خير من أعطى وأكرم من عفا	وإذا دعاه مذنب لا يُعْرِضُ
رب اسمك الغفار فاعف تكرماً	يدعوك مكسور الجناح مُهَيَّضُ
عبد بضاعته الكلام ، جهاده	صحف تسطر أو قريض يقرض
يدعو الورى للصالحات ، وسفره	في صالح الأعمال خلو أبيض[3]

١٢ـ الحماسة :

كما في قصيدته « يا أمتي وجب الكفاح » يقول في مطلعها :

يا أمتي وجب الكفاح	فدعي التشدق والصياح
ودعي التقاعس ليس ينصر	من تقاعس واستراح

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص٣٠٦ .
(٢) انظر : المسلمون قادمون ص ٨١ .
(٣) انظر : نفحات ولفحات ص٩٠ .

ودعي الرياء فــــقــد تكلـــ مــت المـذابـح والجـــــراح
كـــذب الدعـــاة إلـى السـلا م ، فــلا ســلام ولا ســمـــاح
مـــا عـــاد يجـدينا البكـــا ء عـلـى الـطـلـول أو الـنــواح
لـغــــة الـكـــلام تعطـلـت إلا الـتـكـلـــم بـالـرمـــاح
إنـــا نـتــوق لألـســـن بكم على أيد فـــصـــاح[1]

١٣-التأمل :

كما في قصيدته الممتعة «السعادة» وفيها يقول :

قل للذي يبـغي السـعـــادة هل علمت من السـعـيـد ؟
إن السـعـــادة أن تعـيـش لـفـكـرة الحق التـلـيـد
لـعـقـيـدة كـبـرى تحـل قـضـيـة الكون العـتـيـد[2]

١٤-الفخر والاعتزاز :

والشيخ حين يكتب في الفخر والاعتزاز لا يفتخر بأمر من أمور الجاهلية ، ولكنه يعتز بإيمانه ويفتخر بإسلامه، كما في قصيدته «أصولي أصولي» ويقول في مطلعها:

أصـــولـــي أصـــولـــي أجـل أنـا ، لا وصـــولـــي
أصـــولـي لــي أصـلـــي ولـي نـســبي الحنيـــفي
و أصل أصـــولي القـــرآن دســـتـوري الإلـهـــي
وسـنـة أحـمـد المختـــار لـــي زاد ولـــي ري

١٥ - الحكمة في شعر القرضاوي[3]:

عرف الأقدمون بحكمة شعرهم ، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على فلسفتهم في الحياة ومَنْ مِنَ الناس لا يعرف حكمة الشاعر:

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٩٤ .
(٢) انظر : نفحات ولفحات ص ٧١ .
(٣) سأطيل الحديث عن هذا الغرض كمثال من أغراض الشيخ الشعرية ، وذلك لشيوع هذا الغرض في شعر الشيخ.

إذا المرء لم يدنس اللوم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

وقول الآخر :

لا يعجبنك من يصون ثيابه ... حذر الغبار وعرضه مبذول

والقرضاوي في شعره حكيم وفيلسوف ، وقصائده تعج بالحكمة ، وقلّ أن تخلو قصيدة من قول الحكمة ومن ذلك :

ومن تكن برسول الله قدوته ... كانت خلائقه روحاً وريحاناً(1)

وقوله :

والليث لن تحني الأقفاص هامته ... وإن تَحكّم فيه ألف سجان(2)

وقوله :

إذا لم يكن في القلب دين وهمة ... وبغض لطغيان فما هو بالقلب(3)

وقوله :

أفعندنا كبش النطاح ونعجة ... في الحرب جماء بغير قرون(4)

وقوله :

فعليك بذر الحب لا قطف الجنى ... والله للساعين خير معين (5)

وقوله :

كل النفائس قد تعوض إن تضع ... والعمر إن ضيعت ليس يعوض

وإذا أتى الأجل المقدر وقته ... لم يغن عنك مطبب وممرض(6)

وقوله :

شعب بغير عقيدة ... ورق تذريه الرياح

من خان حي على الصلاة ... يخون حي على الكفاح(7)

---

(1) انظر : المرجع السابق ص ٣٧ .
(2) انظر : المرجع السابق ص ٤٠ .
(3) انظر : المرجع السابق ص ٥١ .
(4) انظر : المرجع السابق ص ٦٣ .
(5) انظر : المرجع السابق ص ٦٩ .
(6) انظر : المرجع السابق ص ٩٠ .
(7) انظر : المرجع السابق ص ٩٨ .

وقوله :

والليل إن تشتد ظلمته ... نقول : الفجر لاح
والفجر إن يبزغ فلا ... نوم وحي على الفلاح[1]

وقوله :

من اهتدى بهدى الأخيار كان على ... خير وسار وعين الله ترعاه
ومن مشى خلف ركب السوء ضاع ... كما ضاعوا وتاه بعيداً مثلما تاهوا[2]

وقوله :

ضرب الرجال وهم أسارى قيدهم ... من شيمة الأوغاد لا الأبطال
والليث ليس يعيبه إيذاؤه ... ما دام في الأقفاص والأغلال
الجسم قد يؤذى وليس بضائر ... نفساً تعز على أذى الأنذال[3]

وقوله :

يا ناشداً للهدى في الغرب معذرة ... إن الهدى حيث وحي الله قد هبطا
من رام شهداً فإن النحل مصدره ... ومن بغى السم فليطلب له الرقطا[4]

وقوله :

من عاش في كنف الإيمان كان له ... أمناً وعاش رضي النفس مغتبطا
يحيا مع الله في أنس وفي سعة ... ما ضاق يوماً بمأساة ولا قنطا[5]

وقوله :

هل يستوي من رسول الله قائده ... دوماً وآخر هاديه أبو لهب[6]

وقوله :

لا تبتغوا الحق عند الغرب ويحكمو ! ... نبع الحقيقة في القرآن لم يشب
إن الدعارة في الأرواح فاعلة ... ما يفعل السم في الأبدان من وصب[7]

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٩٨ .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٠٢ .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٢ .
(٤) انظر : المرجع السابق ص ٣٢ .
(٥) انظر : المرجع السابق ص٣٦ .
(٦) انظر : المرجع السابق ص ٣٩ .
(٧) انظر : المرجع السابق ص ٤٠ .

وقوله :

إن الرذيلة داء شره خطر ... يعدي ويمتد كالطاعون والجرب

جرح الجسوم يسير أن تداويه ... والجرح في العرض كم يفضي إلى العطب

والكسر في العرض كسر لا انشعاب له ... كسر الزجاجة كسر غير منشعب

من ضيّع العرض يوماً لن يعوضه ... ما عند قارون من مال ومن نشب(١)

وقوله :

إذا رمت العلا من غير بذل ... فنم واحلم، وكُلْ لحماً وأرزاً(٢)

وقوله :

وإن يعتز بالدنيا جهول ... فكن بالدين والتقوى أعزا

وإذا لم تكسك التقوى ستعرى ... وإن حلّوك ديباجاً وخزاً(٣)

وقوله :

فالمرء من غير دين ... شيء يضاهي « الغزلا »

والعيش من غير دين ... يبدو سراباً مضلا

والكون من غير دين ... لغزاً أبى أن يحلا(٤)

وقوله :

ومن عاش بلا دين ... يعيش مضطرب النفس

كلفظ ما له معنى ... كتمثال من « الجبس »

كمصروع لشيطان ... تخبطه من « المس »(٥)

متى يكتب القرضاوي شعره ؟

بعد انشغال الشيخ بالجانب الدعوي والفكري والفقهي، أصبح إنتاجه الشعري قليلاً، لكن قد تأتي ظروف يمر بها الشيخ شخصياً، أو تمر بها الأمة

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢، ٣) انظر : المرجع السابق ص ٥٢ .

(٤) انظر: المرجع السابق ص ٥٣ .

(٥) انظر : المرجع السابق ص ٦٠ .

الإسلامية ، فتهيج الأحداث أحاسيسه ، وتتحرك مشاعره، ليعبر عما يدور حوله من أحداث، وعادة ما يكون ذلك في أوقات الفراغ كزيارة لمعتقل، أو نوم على فراش المرض ، ولذلك تجد أن كثيراً من شعر الشيخ هو شعر المحن[1] ، ولذا يقول في قصيدته النونية أو « ملحمة الابتلاء » :

كم قال صحبي أين غر قصائد ... تشجي القلوب بلحنها المحزون ؟
وتخلد الذكرى الأليمة للورى ... تتلى على الأجيال بعد قرون
ما حيلتي والشعر فيض خواطر ... مادمت أبغيه ولا يبغيني
واليوم عاودني الملاك فهزني ... طرباً إلى الإنشاد والتلحين[2]

القرضاوي وشعره الضائع :

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن شعر القرضاوي لم يدون كله، ولن يدون كذلك ، لأن الظروف القاسية التي مرّت بها الحركة الإسلامية في منتصف القرن الماضي جعلت كثيراً من شعراء الدعوة يلجأون إلى طرق متعددة حتى لا تنسب إليهم ، حيث كانت هذ القصائد بمثابة منشورات ثورية ضد الثورة « المباركة » ورجالها « الأشاوس ».

وهذا ما جعل شعراء الدعوة الإسلامية يلجأون إلى طرق متعددة منها :

الطريقة الأولى : الشعر الرمزي :

وفيه يرمز الشاعر برموز حين لا يستطيع الإفصاح ، ويكتفي بالإشارة عن العبارة، وبالتلميح بدلاً عن التصريح ، ومن هذا قصيدة الشاعر « محمد المجذوب » والتي بعنوان « اللعين الأول » وفيها يقول :

كان جوان ـ ليته لم يكن ـ ... يزاول الدفن بإحدى المدن
وكان كل الناس يكرهونه ... لغير ذنب غير ما يحكونه
من كونه يجرد الأمواتا ... من كل شيء يستر الرفاتا
لذاك ضج الشعب من جرائمه ... فلا يرى ثمة غير شاتمه[3]

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ص ٣٤ .
(٢) انظر : نفحات ولفحات ص ٥٤ .
(٣) انظر : « أجمل مائة قصيدة في الشعر الإسلامي المعاصر » المجموعة الأولى أحمد الجدع ط. دار الإسراء ص : ١٣٣ .

الطريقة الثانية : النشر دون التوقيع :

نشر القصيدة دون التوقيع باسم كاتبها ، وذلك كما في قصيدة « مناقشات سياسية » والتي عرف فيما بعد كاتبها، وهو الشاعر « محمد مصطفى حمام »، وفيها يقول :

أداروها شُيوعيَّهْ وسمُّوها اشتراكيَّهْ
وقالوا كُلُّ ذي مالٍ عريقٌ في اللصوصيَّهْ
وما قَدْ نلتُ من إرْثٍ فَنَهْبٌ وانْتِهازيَّهْ[1]

الطريقة الثالثة : الأسماء المستعارة :

وفيها يوقع الشاعر على قصيدته ، ولكن باسم مستعار كما في هذه القصيدة التي وقّع تحتها الشاعر باسم « ابن الكنانة » وجعل عنوانها : « فنحن لسنا » « فئة » « وإنما » « اتجاه » وفيها يقول :

يود لو يصنع من آلامنا دماه
يود لو يحصي علينا همسة الشفاه
يود لو ينزع من صدورنا : « الله » !
ونحن أقوى منه ... من جميع ما نواه
بالرأي لا بالسوط نبني أمة الدعاة[2]

الطريقة الرابعة : طريقة التلقين :

وهذه إحدى الطرق التي لجأ إليها الشيخ القرضاوي كما هو معروف عن قصيدته النونية، التي كان الإخوان يحفظونها فور إلقائها في السجن ، وكان السبب في ذلك هو التضييق على المعتقلين من الإخوان ، فكان الشيخ القرضاوي يلجأ إلى هذا الأسلوب لما منع عنه القلم والقرطاس ، فلم يجد إلا أن يقرض الشعر، ويحفظه مجيدو الحفظ من طلبة الإخوان في المعتقل ، حتى أتم الشيخ الملحمة كاملة والتي زاد عدد أبياتها عن الثلاثمائة[3].

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٥.
(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٦٣
(٣) انظر : ابن القرية والكتاب ج٢ ص ١٧٠ وما بعدها .

ولهذه الأسباب فقد ضاع من القرضاوي الشاعر قصائد حزن عليها حزناً شديداً ، وتألم لفقدانها ألماً شديداً ، ومن هذه القصائد المفقودة :

١ ـ قصيدة « الدعوة تتحدث عن نفسها » ولم يبق منها إلا القليل من الأبيات، وفيها يقول الشيخ:

يا دعوة الحق قُصّي ما لقيت	يؤذى الهدى ويعان الباطل البور
قالت : ولد حق وحق الشرق مكتئب	وباطل الغرب مسرور ومغرور
لا عدل في الأرض بل ظلم وتفرقة	والعدل أعظم ما تحوي الدساتير
حق الإباحي محفوظ ومحترم	وحق الدين مهضوم ومهدور

٢ ـ قصيدة « في ذكرى الهجرة » ومن أبياتها :

سهرت إلى نجم السما أتطلع	وأصبحت من جام الأسى أتجرع
وما بي هوى ليلى ولا عشق زينب	و لا غرني قرط وعقد مرصع
ولكنني أهوى العلا في محمد	وليس لقلبي في سواه تطلع

٣ ـ قصيدة « وداع الشهداء في فلسطين » وقد ضاعت كلها ولم يبق إلا مطلعها وفيها يقول الشيخ :

زملوهم بما بهم من ثياب   لن يعيب الحسام بالي القراب[١]

٤ ـ قصيدة « نساء اليوم » يرد فيها الشيخ على أعضاء الجمعيات النسائية اللائي طالبن بحذف « نون النسوة » من لغة الخطاب ، وبقي من هذه القصيدة عدة أبيات سأذكرها عند الحديث عن شمول دعوة الشيخ للمرأة.

٥ ـ قصيدة ذات نزعة فلسفية بعنوان « مناجاة القبر » ولم يبق منها إلا بيتين من مطلعها وهما :

حنانيك ماذا في حناياك يا قبر   بربك خبر قبل أن يقدح الخُبْر

---

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص٣٠٧ .

ألا ليت شعري ما تكن ليوسفٍ أروح وريحان أم النار والجمرِ ؟[1]

٦ ـ قصيدة بمناسبة سكنى الشيخ هو وبعض إخوانه في بيت كان مشبوهاً ولم يعرفوا إلا بعد شهر، ولم يبق منها إلا عدة أبيات ، وفيها يقول الشيخ :

إن أنس لم أنس داراً كنت ساكنها تبـاً لساكنها ، تبـاً لكاريها

قد خيم الشر فيها ، واستطال بها زَرع المفاسد إذ دارت سواقيها[2]

٧ ـ قصيدة بعنوان « المولد النبوي » .

٨ ـ قصيدة في رثاء الشيخ المراغي .

٣ـ المسرحية :

كان للنزعة الأدبية التي عرف بها الشيخ منذ صغره – كما ذكرت من قبل – أثر في توجهه إلى خوض غمار الكتابة المسرحية ، وكان الشيخ في ذلك متأثراً بكتابات السابقين وخصوصاً أمير الشعراء أحمد شوقي في مسرحيتيه الشهيرتين « مصرع كليوباترا » و« مجنون ليلى » .

وفي عام ١٩٤٩م تلقفت « كلاب الصيد » من زبانية العهد الملكي مجموعة من شباب الإخوان ، وبالطبع كان منهم الطالب يوسف ، وأودع هو وإخوانه في غياهب السجون ما بين معتقل « هايكستب » ومعتقل « الطور » وكان الشيخ رهين معتقل « الهايكستب » ، وكانت قراءته وقتها في الأدب والتاريخ وخصوصاً كتاب « العقد الفريد » فأثر في نفسه موقف سعيد بن جبير والحجاج ان يوسف الثقفي ، ورأى الشيخ أن قصة سعيد مع الحجاج تمثل موقف الدعاة وقتئذ ومصارعتهم للطغيان ، فكأن التاريخ يعيد نفسه، فتتكرر المأساة ويتجدد الطغيان، ولكنه كما يقول الشيخ: بصورة أعنف وأقسى، وأشد ضراوة ووحشية[3].

(١ ، ٢) انظر : المرجع السابق ج١ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .
(٣) انظر : عالم وطاغية ص ٤ .

وقد كُتبتْ هذه القصة مرتين، الأولى في « الهايكستب » وكان الشيخ قد تركها مع بعض إخوانه عند خروجه، فقاموا بتمثيلها عقب الإفراج عن الشيخ .

ولما ضاعت مسودة هذه القصة قام الشيخ بكتابتها مرة ثانية بعد مضي سبعة عشر عاماً في عام ١٩٦٨م ، لأن الظروف وقتها كانت هي نفس الظروف كما كانت من سبعة عشر عاماً أو أشد .

وقد مثلت هذه المسرحية في أكثر من بلد ، وفي عديد من الجامعات المصرية والعربية [١].

وهذا يجعلنا نعرج على حكم التمثيل لنتعرف على رأي الشيخ .

حكم الإسلام في التمثيل :

التمثيل من الوسائل التي استجدت في العصور المتأخرة ، ولذلك وقف العلماء المعاصرون منها مواقف متباينة ، ما بين معارض ، ومؤيد ، ومتوقف ، وكان للشيخ القرضاوي رأي فيه . فما هي هذه الآراء ؟ وما هو رأي الشيخ القرضاوي ؟

أولاً : تعريف التمثيل :

لغة : التشبيه : يقال مثل الشيء بالشيء تمثيلاً وتماثلاً : أي شبهه به وقدره على قدره[٢].

وفي الاصطلاح : تجسيد الحادثة التاريخية أو الواقعة الاجتماعية أو الموقف السياسي أو الفكرة التوجيهية بشخصيات بشرية أو صور مادية وحية[٣] .

ثانياً أهمية التمثيل :

١ ـ جمعه بين خصائص الوسائل اليدوية والسمعية والبصرية في وقت واحد مما زاد إقبال الناس عليه .

---

(١) وأذكر أنني كنت طالباً في جامعة الأزهر فقام اتحاد الطلاب بالإعداد لهذه المسرحية ، وتم إعداد البروفات لها، وبعد تحديد موعد العرض ومكانه ، قام أمن الجامعة بمنع العرض لظروف أمنية !!!!

(٢) انظر : المعجم الوسيط ج٢ ص ٨٥٣ .

(٣) انظر : حكم الإسلام في وسائل الإعلام عبد الله ناصح علوان ط دار السلام ص ٤٠ .

٢ ـ تنوع أشكالها وموضوعاتها ، فمنها المأساة والملهاة والشعبية والهزلية ، ومنها المسلسلة والسلسلة وغيرها مما جذب المشاهدين وأسر أفئدتهم[١] .

حكم التمثيل : لم يجمع العلماء على رأي واحد على التمثيل ويمكن إجمال الأقوال فيما يلي :

* التحريم القطعي لكونه كذباً والكذب حرام ؛ وبه قال الشيخ أحمد الغماري .

* التحريم أيضاً ولكن لكون النبي ﷺ لم يفعله ؛ وبه قال الدكتور عمارة نجيب .

* التحريم أيضاً ولكن لكونه شعاراً تعبدياً للكفار ؛ وبه قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد والشيخ حمود عبد الله التويجري .

* الإباحة بشروط وضوابط ؛ وبه قال الشيخ صالح الفوزان ، والشيخ محمد صالح العثيمين ، والشيخ صالح بن محمد اللحيدان ، والشيخ مصطفى الزرقا[٢] .

ويعد الشيخ القرضاوي من أنصار هذا الرأي ، بل هو من دعاته الأشداء، ونصرائه الأقوياء ، وهو رأيه من بداية مشواره الدعوي ، فيقول حفظه الله في كتاب « الحلال والحرام »: ولا شك أن السينما وما ماثلها أداة هامة من أدوات التوجيه، الترفيه. وشأنها شأن كل أداة ؛ فهي إما أن تستعمل في الخير أو تستعمل في الشر ، فهي بذاتها لا بأس بها ولا شيء فيها . والحكم في شأنها يكون بحسب ما تؤديه وتقوم به .

وهكذا نرى في السينما : أنها حلال طيب ، بل قد تستحب وتطلب إذا توافرت لها الشروط الآتية :

---

(١) انظر : المدخل إلى علم الدعوة د : محمد أبو الفتوح البيانوني ط الرابعة وزارة الأوقاف بقطر عام ١٩٩٧م ص ٣٥٥ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٣٢٦ ـ ٣٢٩ بتصرف .

أولاً : أن تتنزه موضوعاتها التي تعرض فيها عن المجون، والفسق، وكل ما ينافي عقائد الإسلام وشرائعه وآدابه .

ثانياً : ألا تشغله عن واجب ديني أو دنيوي ، وفي طليعة الواجبات الصلوات الخمس .

ثالثاً : أن يتجنب مرتادها الملاصقة والاختلاط المثير بين الرجال والنساء الأجنبيات منهم [١].

رابعاً : أن يكون عددها معقولاً وملائماً لمجتمع جاد ، لا مجتمع عابث .

خامساً : ألا تتخذ أعشاشاً للغرام ، وأوكاراً للمتفلتين والمتفلتات من قيود الفضيلة .

سادساً : ألا تتخذ وسيلة لابتزاز أموال الشعب نتيجة لاحتكار طائفة من الناس لها[٢].

ولقد كان للشيخ فتوى يبيح للمرأة التمثيل فضلاً عن الرجل ، وقد نشرت مجلة المجتمع الكويتية[٣] تفصيل هذه الفتوى ، وقد تلقف البعض هذه الفتوى بكثير من « الطقطقة »، وعظيم من « الشنشنة » وببالغ الإثارة و« الزوبعة »، متهمين الشيخ بالتسيب والتفريط .

وقد كان مجمل فتوى الشيخ ومضمونها : أنه يرى تمثيل المرأة أمر ضروري، وأن أي عمل درامي هادف لا توجد فيه المرأة فهو عمل غير منطقي، واستدل الشيخ لرأيه بورود المرأة في القصص القرآني كما هو الحال في قصة آدم وحواء ، ونوح وامرأته ، ولوط وزوجته ، والخليل وزوجته ، وانتهاء بعيسى وأمه ، ووضع الشيخ شروطاً وضوابط أجملها فيما يلي :

* أن يكون اشتراكها في التمثيل ضرورياً .
* أن تظهر بلباس الإسلام ولا تضع المساحيق .

---

(١) انظر : الحلال والحرام ص ٢٦٧-٢٦٨ .

(٢) انظر : بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين ص ٢١٠ .

(٣) انظر : مجلة المجتمع الكويتية عدد ١٣١٩ ، وكان الشيخ قد قال ذلك في ندوة تحت عنوان «العلاقة بين الفقه المعاصر والإعلام المتميز» .

* أن يراعي المخرج والمصور عدم إبراز مفاتنها والتركيز عليها أثناء التصوير.
* أن تتفوه بالكلام الحسن ، وتبتعد عن الكلام الفاحش والبذيء ، وتبتعد عن مشاهد الانحراف والمجون في أعمالها .

تعليق على فتوى الشيخ :

ومع كامل احترامنا للشيخ وبالغ تقديرنا له، فإني أخالفه الرأي في هذه القضية، ولا أوافقه تماماً فيما ذهب إليه ، وأحسب أن الشيخ سيتسع صدره لمثل هذا .

وبمناقشة فتوى الشيخ نتساءل بداية ما هي الضرورة التي تستوجب عمل المرأة في التمثيل ؟ هل هي ضرورة شخصية ؟ هل ضرورة اجتماعية ؟ هل ضرورة دعوية ؟ أم ماذا ؟

ثم ما هو المنطق الذي يجعل أي عمل درامي يخلو من العنصر النسائي عملاً غير هادف ؟!

ثم إن هذه الشروط والضوابط التي ذكرها الشيخ لا تلتزم بها أي ممثلة حتى من سمعن فتوى الشيخ ، أو ادعين أنهن يعملن بها .

إننا بحاجة فعلاً إلى عمل درامي هادف يجسد الأحداث التاريخية ، والوقائع الاجتماعية ، ويصور المواقف السياسية ، والأفكار الاجتماعية ، ويعرف الناس بالأخلاق الاجتماعية ، لكن لا حاجة في كل هذا إلى ظهور المرأة ، وإنما يكتفى مثلاً برواية كلامها، أو حكاية حديثها، كما هو الحال عند تمثيل قصة نبي من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، أم أن قصص الأنبياء لتكون عملاً درامياً هادفاً يستلزم فيها ظهور الأنبياء ؟!!

ثم إن الشيخ حفظه الله حين أباح عمل المرأة كما هو منتشر في عدد من كتبه، ذكر أن عمل المرأة مقيد بشروط وعدد منها :

١ – أن تكون محتاجة إليه كأن تكون أرملة أو مطلقة ، أو لم تتزوج بعد ولا عائل لها .

٢ – أن يكون المجتمع نفسه في حاجة إلى عمل المرأة كما في تطبيب النساء وتعليمهن[١].

---

(١) انظر : ملامح المجتمع الذي ننشده ص ٣٩١ وما بعدها بتصرف .

وقد كان للشيخ حفظه الله كلاماً رائعاً أرى أنه يخالف ما ذهب إليه مؤخراً، فقد قال حفظه الله في الجزء الأول من الفتاوى وهو يتحدث عن الغناء واحترافه : وإذا كان هذا في مجرد « السماع » « أي التشديد على سماع الأغاني الهابطة » فإن الأمر في « الاحتراف» بالغناء يكون أشد؛ لأن الاندماج في البيئة الفنية كما تُسمى خطر شديد على دين المسلم؛ يندر أن يخرج منه سالماً معافى.

ولهذا كان الأولى بالمسلم الحريص على دينه أن يأخذ بالعزيمة لنفسه، وأن يتقي الشبهات، وينأى بنفسه عن هذا المجال الذي يصعب التخلص فيه من شائبة الحرام إلا ما ندر.

ومن أخذ بالرخصة فليتحر لنفسه وليتخير ما كان أبعد عن مظان الإثم ما استطاع .

هذا في الرجل ، أما المرأة فالخطر منها وعليها أشد ، ولذا فرض الله تعالى عليها من التصون والتحفظ والاحتشام في لبسها ومشيها وكلامها ما يباعد الرجال من فتنتها ، وما يباعدها من فتنة الرجال ، ويحميها من أذى الألسن ، وشره الأعين ، وطمع القلوب المريضة كما قال تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ** ﴾ [الأحزاب : ٥٩]، وقال: ﴿ **فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾ [الأحزاب : ٣٢].

واحتراف المرأة للغناء يعرضها لأن تَفْتن أو تُفتن، ويورطها في محرمات قلما تستطيع التغلب عليها ، من الخلوة بالأجنبي للتلحين ، أو التسجيل ، أو التعاقد أو غيرها، ومن الاختلاط بالنساء المتبرجات « المتحررات » من المسلمات بالوراثة، ومن غير المسلمات وهو محرم أيضاً [(١)].

هذا هو كلام الشيخ في « القديم » وهو يعارض ما ذهب إليه في « الجديد »، وينبغي علينا أن ننبه إلى ما يدور وراء « الكواليس » كما يقال؛ بعيداً عن عين الرقيب، داخل، « الأستوديوهات » وداخل ما هو داخل « الأستوديوهات » ناهيك عن الجو العام الذي يعيشه أهل الفن والطرب ؛ أسأل الله لنا ولهم الهداية.

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٦٩٢-٦٩٣ .

٤ - البيانات :

من الوسائل الدعوية التي استجدت في الحقبة الماضية ما يعرف بالبيانات ، والبيان عبارة عن كلمة مكتوبة أو خطبة مسموعة يصدرها عالم أو فقيه، أو هيئة أو جماعة لتعبر عن رأيها في قضية ما ، ويوزع البيان على الجامع والمحافل والإذاعات والمحطات المتلفزة ، ليعرف الناس ما يتعلق بهذا الأمر .

وللشيخ قدم السبق في هذا المضمار ، ولذا تراه إذا أصابت الأمة جائحة – وما أكثرها – تراه ينبري ليصدر بياناً يعبر فيه عن موقفه كعالم مسلم . وقد يجمع الشيخ على بيانه عدداً من الدعاة والعلماء والمفكرين .

ومن أشهر بيانات الشيخ: بيان مقاطعة البضائع الأمريكية، وبيانه الذي نعى فيه الشيخ أحمد ياسين رحمه الله[١].

٥ - الرسائل :

المراسلة وسيلة من الوسائل الدعوية التي تعارف عليها الدعاة منذ القدم ، وكتب التاريخ والسير تقص علينا مكاتبة رسول الله ﷺ للملوك والأمراء والعظماء، حيث كتب ﷺ إلى كسرى وقيصر والنجاشي وعظيم القبط وغيرهم .

ولا تزال هذه الوسيلة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، غير أن هذه الوسيلة الدعوية ليست قاصرة على المؤمنين، فلا مانع من أن تكون المراسلة بين أهل الإيمان وأصحاب الدعوة وغيرهم .

وقد سلك الشيخ هذه الوسيلة فكتب إلى كثيرين من أهل الدعوة وغيرهم، ومن أشهر رسائل الشيخ ما كتبه إلى العلامة الهندي الرجل الرباني « أبي الحسن الندوي» وكذلك ما كتبه الشيخ في رده على رسالة وجهت إليه من الكاتب « أسامة أنور عكاشة »[٢] ، وهذه مقتطفات من رسالة الشيخ إلى العلامة أبي الحسن الندوي :

أستاذنا الجليل : إن الحديث إليكم بل الحديث عنكم ليعذُب ويحلو ،

---

(١) هذان البيانان وغيرهما من أراد الاطلاع عليها فليراجع موقع فضيلة الشيخ.

(٢) الكاتب المصري «أسامة أنور عكاشة»، معروف في الوسط الفني بكتابة المسلسلات والقصص والروايات، ومن آخر أعماله مسلسل «عمرو بن العاص» وقد تطاول في أحد تصريحاته على سيدنا عمرو بن العاص، ورفع عليه أحد المحامين المصريين قضية ما زالت إلى الآن في أروقة المحاكم.

ولكن الاستماع إليكم أعذب وأحلى ، وإذا كان لمثلي عدة يعتد بها فهي حب الصالحين الربانيين من أمثالكم على نحو ما قال الأول :

أحب الصالحين ولست منهم ... عساني أن أنال بهم شفاعة
وأكره من بضاعته المعاصي ... وإن كنا سواء في البضاعة

فعسى أن يكون من ثمرات حبكم في الدنيا دعوة منكم صالحة بظهر الغيب ، وفي الآخرة شفاعة حسنة عند الله[1] .

ومن أشهر رسائل الشيخ رسالته إلى الرئيس الفرنسي جاك شيراك والتي وجهها إليه بعد منع فرنسا للحجاب، جاء فيها :

سيادة الرئيس :

إنني باسمي واسم هؤلاء أعلن شديد أسفي، لما قرأناه وسمعناه من توجه فرنسي لمنع الطالبات المسلمات من ارتداء الحجاب في المدارس، وهو ما أستغربه كل الاستغراب، وأنكره غاية الإنكار، فهو يجبر المسلمة أن تخالف دينها ، وتعصي أمر ربها الذي قال في كتابه : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ** ﴾ [الأحزاب : ٥٩]، ووجوب الحجاب على المرأة المسلمة أمر أجمعت عليه كل المذاهب والمدارس الإسلامية سنية وشيعية وزيدية وإباضية.

وقد ساءنا وآلمنا أن يصدر هذا التوجه - الذي لا نملك أن نصفه إلا بالتعصب ضد التعاليم الإسلامية ، والقيم الإسلامية - من فرنسا خاصة ، بلد الحرية والانفتاح ، وأم الثورة التي نادت بالحرية والمساواة والإخاء، والتي فيها أكبر مجموعة إسلامية في أوربا.

فهذا التوجه ينافي حريتين أساسيتين من الحريات التي هي من حقوق الإنسان : الحرية الشخصية، والحرية الدينية . وقد أكدتهما كل الدساتير ومواثيق حقوق الإنسان .

٦ - الشبكة العالمية للمعلومات « الانترنت » :

الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، لا يحدها زمان ، ولا يقيدها مكان ، وهذا

---

(١) انظر : الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

ما أكده القرآن في بدايات تنزيله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]، وقال سبحانه : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : ١٥٨]، وقال جل شانه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : ١] .

والشيخ القرضاوي يؤمن بعالمية الدعوة كما يؤمن بها كل مسلم ، وقد عبرت كلمات الشيخ عن هذه العالمية ، كما ترجمتها أشعاره التي تغنى بها الشباب المسلم في كل مكان ، لذا يقول الشيخ :

يا أخي في الهند أو في المغرب ... أنا منك أنت مني أنت بي

لا تسل عن عنصري عن نسبي ... إنه الإسلام أمي وأبي [١]

ولما ظهر في الآونة الأخيرة ما عرف بالشبكة العنكبوتية أو المعلوماتية « الإنترنت » عمل الشيخ متحمساً لإيجاد موقع يتحدث إلى المسلمين وإلى غير المسلمين عن الإسلام وخصائصه ، فأنشأ الشيخ هو والمخلصون من إخوانه الموقع العالمي « إسلام أون لاين » " islam-online.com " وتم افتتاح هذا الموقع في يوم ٤ / ١٠ / ١٩٩٩م وقدم الشيخ كلمة الافتتاح - والتي تعتبر من الكلمات التاريخية - وقد أوضح فيها الملامح العشرة لهذا المشروع .

والشيخ هو رئيس مجلس إدارة هذا الموقع ، وهو المشرف عليه ، ولا يخلو محور من محاور الموقع إلاّ وللشيخ فيه كلمة أو حكم أو فتوى أو استفسار .

كما أن للشيخ موقعاً خاصاً به على الإنترنت، تعرض عليه كتبه وكلماته وخطبه ومحاضراته وهو « القرضاوي نت » . "www.qaradawi.net.com"[٢] .

---

(١) انظر : نفحات ولفحات ص ١١٢ .

(٢) أعلنت الدار العربية للعلوم، ناشرة مجلة إنترنت وورلد (الطبعة العربية) ، نتائج استفتاء لمعرفة خيار القراء في مجال منتجات وخدمات الإنترنت في العالم العربي، والذي استمر على مدى أربعة أشهر ، وقد نال موقع القرضاوي جائزة أفضل المواقع الشخصية العربية، مما يشير إلى شعبية الموقع بين متصفحي الإنترنت واهتمامهم به.
كما فاز الموقع أيضا بجائزة أخرى في فبراير (٢٠٠٥م) .

٧ - المقالات الصحفية :

من الوسائل التي جدت في القرنين الماضيين الصحف والمجلات ، وقد انبرى كثير من الدعاة عبر هذه الوسيلة يزودون عن الشريعة ويوضحون محاسنها ، وكان من هؤلاء مصطفى صادق الرافعي ، ومحمد عبده ، ومحمد رشيد رضا ، وحسن البنا ، وعلي الطنطاوي ، ومحمد الغزالي وغيرهم كثير ، ورأى الشيخ القرضاوي أن هذا منبر جديد ينبغي ألا يترك لأعداء الله يصولوا فيه ويجولوا ، دون رادع يردعهم أو زاجر يزجرهم .

وقد ملأت كلمات القرضاوي وكتاباته الصحف والمجلات المصرية والعربية، وعدداً لا بأس به من المجلات غير العربية : بل زينت مقالاته هذه الصحف، وتحلت بها هذه المجلات، وألبستها حللاً من سندس وإستبرق .

ومن المجلات التي قامت بنشر مقالات الشيخ على سبيل المثال :

مجلة « الأزهر » و « نور الإسلام» و « منبر الإسلام» و « الدعوة» و« الشعب» و « الأهرام» و« آفاق عربية» و « لواء الإسلام» و« الاعتصام» وغيرها في مصر، و« حضارة الإسلام» بدمشق و « الوعي الإسلامي و « المجتمع» و« العربي» بالكويت، و « الشهاب» ببيروت ، و« البعث الإسلامي» بالهند، و« الدعوة» بالرياض، و« الدوحة» و« الأمة» في قطر، و« منار الإسلام» في أبو ظبي ، و« المسلم المعاصر» وغيرها [١].

وبعض هذه المقالات قام الشيخ بجمعها في كتاب واحد كما هو الحال في كتابه القيم « من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا » .

والمتأمل لمقالات هذا الكتاب يجد أن كل عنوان من هذه العناوين يصلح لأن يكون كتاباً وحده ، كما يلحظ القارئ قوة في الأسلوب ، وشدة في البيان ، يأمل الشيخ من خلالها إلى إيجاد صحوة إسلامية حقيقية أصيلة ، تتميز بالرشد

---

(١) انظر : نفحات ولفحات ص ١٩ .

والنضج والاستنارة ، صحوة عقول ذكية ، وقلوب نقية ، وعزائم فتية ، صحوة تعرف غايتها وتعرف طريقها ، تعرف من لها ، ومن عليها ، من هو صديقها ، ومن هو عدوها .

صحوة تعمل على تجديد الدين ، وإنهاض الدنيا به ، صحوة تصحح المفاهيم المغلوطة، وتقوم المسالك العوج ، وتوقظ العقول النائمة ، وتحرك الحياة الراكدة، وتنفخ الروح في الجثة الهامدة ، فتعيد إليها الحياة والحركة والنماء[1].

وهذه بعض عناوين هذه المقالات :

١ ـ الإسلام والتطور .

٢ ـ لا بد من مقياس نحتكم إليه .

٣ ـ طريق لا طريق غيره .

٤ ـ هذه الأمة لن تموت .

٥ ـ أمنية عمرية أو حاجتنا إلى رجال .

٦ ـ كافحوا الأمية .

كما أن هناك كتباً أخرى أصلها مقالات جمعت فيما بعد لتضم إلى مكتبة الشيخ ومنها :

١ ـ «الدين في عصر العلم» وهو عبارة عن مقالات نشرت في مجلة منار الإسلام الإماراتية ، ثم نشر في بحث مستقل مع المجلة ، وقد جعله الشيخ الفصل الأول من كتاب بينات الحل الإسلامي .

٢ ـ «مستقبل الأصولية الإسلامية» وهو مشاركة صحفية في جريدة الشرق الأوسط في ملف افتتحته الصحيفة المذكورة تحت عنوان «مصير الأصولية» في عام ١٤١٣ هـ.

* * *

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٧ .

المبحث الثاني

الوسائل والأساليب المسموعة

١ـ المسجد :

كان للمسجد دور عظيم منذ فجر الدعوة الإسلامية ، وكم ربى المصطفى ﷺ رجالاً وأبطالاً في ساحة المسجد ، ومن من الناس لا يذكر الجيل الأول الذي تربى على ترتيل القرآن ، وسماع الأذان ، وخشوع الجوارح ، وخضوع القلوب ، وسح الدموع في مسجد رسول الله ﷺ .

لقد كان النبي ﷺ يعقد في المسجد حلق العلم ودروس التعلم ، كما كان يستقبل فيه الوفود ، ويجيش فيه الجيوش ، ويرسل السرايا ، ويعلم الناس معالم الخير .

وظل للمسجد دوره في حياة الأمة حتى كانت فترات الخمود والجمود ؛ فعزل المسجد عن دوره ، وقنعوا له بإقامة شعيرة الصلاة فقط ؛ فخلا المسجد من حيويته التي أعد لها .

ثم كان للمسجد دوره بعد ذلك في إيقاظ الأمة، وتحريك الهمة في نفوس الناس، كما رأينا المسجد مؤخراً؛ فهو مفجر الثورات ، ومحرر الشعوب، وهل انطلقت انتفاضة شعب فلسطين إلا من المساجد ؟ وهل حرك الجهاد الأفغاني إلا من على المنابر ؟

والشيخ القرضاوي يدرك جيداً دور المسجد ، فليس المسجد قاصراً عنده على الدور التعبدي فحسب ؛ ولكنه يرى بأن المسجد :

١ ـ جامعة شعبية للتثقيف والتهذيب تسع الجميع في رحابها في الليل وفي النهار ، والصيف والشتاء ، ولا ترد طالباً ، ولا تشترط رسوماً ، ولا تضع قيوداً ولا عراقيل ، جامعة تعلم :

* قواعد العقائد .

* وفرائض العبادات .
* ومكارم الأخلاق .
* ومحاسن الآداب .
* وطرائق المعاملات .

٢ ـ برلمان محلي للتشاور والتفاهم ، وأي برلمان كهذا ونوابه هم : ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة ١١٢] .

٣ ـ مؤتمر للتعارف والتحاب ، وأي مؤتمر كهذا الذي يجمع فيه :
* خلاصة الحي في كل صلاة .
* وصفوة البلد في كل جمعة .

٤ ـ معهد للتربية الأساسية : إنه حقل تجرب في ساحته تعاليم الدين النظرية ، وتوضع مبادئه الإنسانية موضع التنفيذ ، وهل تعلم الناس الحرية والإخاء والمساواة إلا في المسجد ؟[١]

وإذا كان هذا هو المسجد فينبغي أن تكون له رسالة واضحة المعالم ، إنها كما يقول الشيخ القرضاوي : رسالة أساسية في الحياة الإسلامية ، فهو يقوم بمهمة كبيرة : دعوية وتثقيفية وتربوية[٢]، ووظيفة اجتماعية، ففيه يلتقي أهل الحي فتتعارف وجوههم، وتتقارب قلوبهم ، وتتصافح أيديهم ، وتقوى روابطهم[٣] .

كان اعتراض الشيخ اعتراضاً قوياً على من يحاول اختزال دور المسجد في مجرد أداء صلاة فحسب فيؤكد الشيخ بأن المسجد : ليس ديراً لرهبنة ، ولا زاوية للمتعطلين ، ولا تكية المدراويش ، فليس في الإسلام رهبنة ولا دروشة[٤] .

وانطلاقاً من هذا الدور البالغ الأهمية كان للشيخ أثر واضح في المسجد

---

(١) انظر : العبادة في الإسلام ص ٢٣٦ وما بعدها بتصرف .
(٢) انظر : خطب القرضاوي ج٢ ص ٩ .
(٣) انظر : الضوابط الشرعية لبناء المساجد ص٦ .
(٤) انظر : العبادة في الإسلام ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

أينما كان ، وكان له بالمسجد ارتباط قوي ؛ فهو يرى أن المسجد هو مصنع الرجال، لذا تراه يقول :

لا بد من صنع الرجال	ومثله صنع السلاح
وصناعة الأبطال علم	في التراث له اتضاح
من لم يلقن أصله من	أهله فقد النجاح
لا يصنع الأبطال إلا	في مساجدنا الفساح
في روضة القرآن في	ظل الأحاديث الصحاح(١)

ولما انقطع الشيخ عن مسجده في الدوحة بسبب المرض وسفره للعلاج في ألمانيا ، اشتاقت نفسه للمسجد وأهله ، فارسل لهم قصيدة جاء فيها :

يا إخوة في رضا ربي عرفتهمو	في دوحة الخير يا حياكم الله
هلا بعثتم شعاعاً من مساجدكم	تلوح لنا في «بون» أضواه ؟
فلا أذان ولا قرآن نسمعه	ولا تراويحنا واحرٌ قلباه(٢)

وقد اهتم الشيخ بالمسجد ودوره البالغ وكان من وسائل الشيخ الدعوية داخل المسجد ما يلي:

أ ـ الخطب :

تعد الخطبة من أقدم الوسائل الدعوية وأنجحها ، ، يأتي الناس لها طواعية مختارين ، وقد اشتهر في القديم وفي الحديث خطباء بارعون ، هزوا أعواد المنابر ، فاطرقت لهم الرؤوس واشرأبت لهم الأعناق وسكنت لهم النفوس ، وانقادت لهم الجوارح والأبدان .

ومن منا لا يذكر علي بن أبي طالب، والأحنف بن قيس، وطارق بن زياد، وابن أبيه ، والحسن البصري، وابن الجوزى، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين .

والشيخ القرضاوي حفظه الله فارس في هذا الميدان ، منذ أن اعتلى المنبر وهو في العقد الثاني من عمره إلى وقتنا هذا، وهو في العقد الثامن من عمره

---

(١) انظر : نفحات ولفحات ص ٩٥ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٠١ .

- أطال الله في عمره - تسمعه فكأنما تسمع شابا لم يتجاوز الثلاثين أو الأربعين كأنما هو أسد يزأر ، أو سيل يزحف .

وإذا خطب الشيخ في الجلوس جثوا على ركبهم جثيا، وزحفوا إليه زحفا، فتسكن الأسماع، وتحلق الأرواح ، وإذا تحدث خطف الأضواء ، وجذب الأسماع، وجلب الأبصار ، وسحر العقول ، وأخذ الأفئدة والقلوب، وتحسب حين تسمع القرضاوي أنه قد رضع حقاً من أسداء الشريعة الغراء، وتضلع من صدر الملة السمحاء.

وقد ساعد الشيخ على ذلك علمه الغزير وثقافته الواسعة الشرعية وغير الشرعية، وموضوعاته الغنية، ولغته الجميلة ، وعرضه الرائع ، ولهجته الصادقة، ولسانه الفصيح ، وصوته القوي ، وأسلوبه الرصين ، وذاكرته القوية .

إنه إذا خطب يخيل إليك أنه ينتقي ألفاظه انتقاء ، وكأن الكلمات بين يديه يأخذ منها ما يشاء ويدع ما يشاء ، مما يزيده رباطة في جأشه ، وقوة في قلبه ، وثقة في نفسه .

وللشيخ قدرة غريبة في استحضار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، فضلاً عن أقوال العلماء، وحكم الحكماء، وأشعار السابقين، وتجارب اللاحقين .

وأعجب ما في خطب الشيخ: إنه يجمع بين فقه الفقيه، وبلاغة الأديب، وحرارة الداعية، وروح المربي، وأصالة العالم، ورواية المحدث، وحس المؤرخ، ودقة المناظر، وترتيب المحاضر، فترى كلماته كأنها كائن حي ، كأنما هي طائر له أجنحة، أو إنسان له قلب يخفق، ولسان ينطق .

وعلى بلاغة الشيخ وأدبه ، فإنك لا ترى في خطبه سجعاً متكلفاً ، ولا ألفاظاً غريبة، ولا جملاً غير مرتبطة ، بل هي قطع من الأدب دونما تكلف أو نصب .

وخطب الشيخ ليست من الخطب الموسمية ، التي لا تنفك عن مواسم العام؛ فخطبة عن الهجرة وأخرى عن المولد النبوي وثالثة عن الإسراء والمعراج وهكذا، لا ؛ ولكن خطب الشيخ تراها خطباً تثبت العقيدة ، وتصلح العبادة ، وتقوم الأخلاق ، وتبين أسس التعامل بين الناس .

إنها خطب تمس الواقع فى كل مجالاته الفردية والأسرية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية فتعالج أمراضه ، وتقوم اعوجاجه ، وتصحح أخطاءه ، تشد على يد التائب ، وتأخذ بيد العاصي ، وتوجه المخطئ ، وتوقظ النائم ، وتحرك الراكد ، وتنبه الغافل ، وترد الشارد ، وتعلم الجاهل ، وتهدي الحائر ، وتبصر العمي ، وتنفخ الروح في الجثث الهامدة .

إنها خطب : « تقدم الدين عقيدة سليمة ، وعبادة خالصة ، وأخلاقاً فاضلة، وآداباً سامية ، وأعمالاً صالحة ، وتشريعات عادلة ، وعلوماً نافعة ، وفنوناً راقية ، وحضارة متوازنة »[1] .

وأبرز ما في خطب الشيخ أنه لا ينكفئ على القديم دون أن يعرّج على الجديد ، بل هو دائم التجديد في خطبه ، باحث عن مشاكل أمته ، لينوه عليها، داعياً مستمعيه إلى مشاركة إخوانهم في مصائبهم ، ومعايشتهم في مآسيهم ، فتراه تارة يذكر بقضية فلسطين وتارة بقضية الأفغان ، وثالثة بالعراق ، ورابعة بكشمير، وخامسة بتركيا ، وسادسة وسابعة ، ثم يعود أدراجه ليعود إلى قضية فلسطين والأقصى من جديد .

إن خطب القرضاوي ليست مجرد كلام يقال ، بل هي تربية وتعليم، وترشيد وتفهيم، وبيان وتعريف وتفقيه وتثقيف، وكلها تنبع من واقعه الذي يحياه ، وآلامه التي يعيشها ، ومن ثم فهو يعيش الخطبة بقلبه وعقله ، ويحياها بعواطفه وجوانحه ، فإذا تكلم تكلم بعروقه ودمه ، وإذا تحدث تحدث بشرايينه وقلبه ، وهذا ما يظهر في قسمات وجهه ، وبريق عينيه ، وعبرات لسانه ، ونبرات صوته ، وحركات يديه ، وإشارات أصابعه .

ومن ثم تراه يُضحك جمهوره تارة ، ويبكيهم تارة أخرى ، ربما في خطبة واحدة ، دونما تكلف مصطنع ، أو تصنع متكلف .

والحق أن الخطابة عند القرضاوي : نداء صارخ ، وصوت قوي ، من قلب مهموم، وفؤاد مكلوم، ،هى علم نافع، وثقافة هادية، من عقل بصير، وفؤاد مستنير، ولب ملهوف ، وشخص مشفق محب، وإنسان ناصح أمين، إلى قلوب

---

(١) انظر : خطب القرضاوي ج١ ص ٩ .

شاردة، وأشخاص غافلة، إنها كلمات مدوية، وصيحات عالية، وصرخات ملتهبة قوية، إلى كل فرد من أفراد هذه الأمة ليفيقوا أو ينتبهوا .

مميزات الخطبة عند القرضاوي:

للخطابة من القرضاوي مميزات عدة ؛ ومن أهم هذه المميزات :

١ – ارتباط الخطبة بالواقع الذي يعيشه المسلمون .

٢ – اشتمال الخطبة على أهم قواعد الدين ، من عقيدة سليمة ، وعبادة خالصة ، وأخلاق فاضلة ، وآداب سامية ، وأعمال صالحة ، وتشريعات عادلة ، وحضارة متوازنة .

٣ – الجمع بين الأصالة والمعاصرة .

٤ – توثيق الخطبة بالأدلة الموثقة .

٥ – البعد عن إسرائيليات التفسير ومنكرات الحديث ، وخرافات العوام وأوهام الخواص.

٦ – الاعتدال والوسطية في عرض القضايا بعيداً عن غلو المغالين وتفريط المتسيبين.

٧ – الأسلوب الأدبي الرصين .

٨ – الأداء الحي الفعال .

٩– مخاطبة العقل وتحريك العواطف .

١٠ – التعريج على مشاكل الأمة وقضاياها .

١١ – التنوع في الموضوعات .

١٢ – الغزارة في الأدلة .

١٣– البعد عن المسائل الفرعية الخلافية .

١٤ – استقلاله بذاته وعدم تقليده لأحد .

١٥– الشمول .

١٦ – عدم التكلف أو الاصطناع .

١٧ – رد شبه المتطاولين من الكفار والملحدين والمنافقين .

« مشوار» القرضاوي الخطابي :

مشوار الشيخ الخطابي طويل ، بدأه الشيخ في قريته « صفط تراب » واستمر المشوار حتى انتهى به المطاف في مسجد عمر بن الخطاب بقطر ، مروراً بمسجد آل طه في المحلة ومساجد القاهرة وساحات المعتقلات ومسجد أبي بكر الصديق بقطر.

ويذكر الشيخ أن أول خطبة منبرية له كانت في السنة الرابعة من المرحلة الابتدائية، وطلب من الشيخ أن يلقي خطبة في أحد مساجد قريته « مسجد المتولي » بعدما عرف الشيخ بإلقاء الدروس ، فأعد الشيخ خطبة كتب الله له فيها التوفيق ، كانت تحت عنوان « الشكر لله » وقد أثنى الناس خيراً على الشيخ ، ويرجع ذلك لكونه لم يقلد أحداً لكنه تقمص شخصيته هو(١).

وأخذ الشيخ يتنقل بين مساجد القرية كلما سنحت له فرصة ، وقد ساعده على ذلك انضمامه لجماعة الإخوان المسلمين ، فاعتبروه داعية من دعاتها يجوب القرى والمدن فيما عرف وقتها بمديرية الغربية .

وبعد انتقال الشيخ إلى القاهرة بعد إتمام المرحلة الثانوية ، كثرت أعباؤه ومتطلباته، ففكر الشيخ في البحث عن عمل ليفي بحاجاته وأشار عليه صديقه « محمد الدمرداش » بالتقديم في وزارة التربية والتعليم للعمل كمدرس ، لكن الشيخ رفض هذا الاقتراح حتى لا ينقطع عن القاهرة مركز الدعوة والنشاط والحركة .

فدله بعض إخوانه على مسجد يبنى بالمحلة الكبرى على أن يكون خطيباً فيه ، فذهب الشيخ إلى القائمين على المسجد وهم أسرة « آل طه » ، وتم افتتاح المسجد ، وبدأت الأقدام تصطف في داخل المسجد وخارجه ، حتى تم بناء مبنى آخر من عدة طوابق بجوار المسجد ، حتى غدا المسجد يطلق عليه « مسجد الشيخ يوسف » بعد أن أصبح الناس يتوافدون عليه من طلخا ، ودمنهور ، وطنطا، والمنصورة (٢).

---

(١) انظر : ابن القرية ج ص ١٧٨، وخطب الشيخ القرضاوي ج١ ص ٥ .

(٢) انظر : ابن القرية ج١ ص ٤٤٤ ، وخطب الشيخ القرضاوي ج١ ص ٦ .

وكان من رواد المسجد الأديب الشاعر « محمد حوطر » وكان يسجل خطب الشيخ بقلمه الرصاص ، وكان له طريقة خاصة في الاختزال ، ثم يبيض الخطبة في المساء ، وقد تجمع للشيخ عدد لا بأس به من الخطب ، فأشار عليه البعض بأن يطبعها فاعدها الشيخ للطبع بعد التنقيح والترتيب وسماها « نفحات الجمعة »[1] لكنه لم ير النور ، بل ذهب مع ما ذهب عند حل جماعة الإخوان الأول عام ١٩٥٤ م[2].

وبعد إتمام الشيخ دراسته تم تعيينه خطيباً بجامع الزمالك سنة ١٩٥٦ م ، وكان وزير الأوقاف وقتها الشيخ أحمد حسن الباقوري ، فتم تعيين الشيخ الغزالي في الجامع الأزهر على أن يحل القرضاوي مكانه في مسجد الزمالك ، وكان اختيار القرضاوي لهذا المسجد لشعور المسؤولين بشدة الحاجة إلى خطباء مرموقين يعملون على رفع الروح المعنوية لدى الشعب ، ويشعلون جذوة الحماس في صدره ، ويبعثون الأمل في نفسه ، ويمحون اليأس من قلبه وذلك بعد العدوان الثلاثي على مصر .

وقد استمر الشيخ في هذا المسجد سنة ونصفاً ، ثم حيل بعدها بين الشيخ وبين أي عمل حكومي في أي مجال يتصل بالجماهير .

ومنذ أن قدم الشيخ إلى قطر في عام ١٣٨١هـ-١٩٦١م بدأ يزاول مهمته ورسالته ، واعتلى المنابر من جديد ، ولم تكن الخطبة منتظمة في بداية حياته في قطر ، ولما أنشئ مسجد « أبو بكر الصديق » أسندت الجمعة فيه إلى الشيخ ، واستمر به إلى أنشئ مسجد « عمر بن الخطاب » فنقل إليه الشيخ خطيباً مفوهاً ، ومتحدثا مؤثراً ، و أسداً هصوراً إلى يومنا هذا حفظه الله تعالى[3].

وقد شرع أحد تلاميذ الشيخ ومحبيه بجمع هذه الخطب وهو الدكتور خالد السعد ، فقام بتفريغها وتخريج أحاديثها، والتعليق عليها أحياناً ، وقد خرج منها سبعة أجزاء حتى اليوم[4].

---

(١) تم العثور عليه مؤخرا، ومعظم خطب الجزء السابع منه.

(٢) انظر : ابن القرية عدد٢٢ ، وخطب الشيخ القرضاوي ج١ ص ٦ .

(٣) انظر : خطب الشيخ القرضاوي ج١ ص ٦ ، ٧ .

(٤) ستة أجزاء من إعداد الأخ الدكتور خالد السعد، والجزء السابع من إعداد العبد الفقير كاتب هذه السطور.

من طرائف خطب القرضاوي :

لكل خطيب وداعية مواقف ترى فيها العجائب والغرائب ، تارة في الموضوع ، وتارة في المكان ، وأحياناً في السبب ، وربما في كيفية معالجة أمر طارئ ، ومن طرائف خطب الشيخ : أن خُيِّر بين الخطابة أو الغناء ، فاختار الخطابة ، وكانت هذه الخطبة في «السجن الحربي» حين عاد الشيخ وإخوانه من إحدى المحاكمات ، وجمع حمزة البسيوني من حوكم ومن لم يحاكم بعد ، ثم قال لهم : تريدون أن تجعلوا من أنفسكم أبطالاً ؟ أنا هنا القانون ، ثم التفت إلى القرضاوي وقال : رايح تخطب لي في المحكمة وتنكر ما نسب إليك؟ فاخطب لي الآن خطبة ؟

فقال القرضاوي : المجال ليس مجال خطابة .

قال : اختر واحدة من اثنتين : إما أن تخطب وإما أن تغني ؟

وتحت تسلط وجبروت حمزة البسيوني اضطر الشيخ إلى إلقاء خطبة تحدث فيها عن أسباب البلاء وأسباب رفعه ، ثم انتهى ، فسكت البسيوني ، وانفض الجمع [1].

القرضاوي يخطب جالساً :

ولما طال العمر بالشيخ - أسأل الله أن يطيل عمره وأن يحسن عمله - واشتد ألم ركبته عليه ، اضطر الشيخ إلى أن يخطب جالساً ، بعد أن أخذ يصلي جالساً منذ فترة طويلة، ولما تم إجراء عملية للشيخ في ركبته أصبح بعدها لا يخطب إلا جالساً ، ومع طول عمر الشيخ ، وألم ركبته ، واضطراره إلى الخطبة جالساً ، إلا أن حماسة الشيخ، وصرخاته الملتهبة ، ونبرته القوية ، وصيحاته العالية ، وكلماته المدوية ما زالت ولا تزال ترى في خطبه .

ب - الدروس :

الدروس لون من التقاء الداعية بالجمهور ، وقد أنارت دروس العلماء بيوت الله منذ فجر الإسلام ، ولعل حلقات ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وأبي هريرة ، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين أكبر دليل على ذلك .

---

(١) انظر : مذكرات الشيخ ابن القرية ج٢ ص ١٢٧ .

وقد سلك الدعاة الربانيون والعلماء العاملون هذا الدرب ، يعلمون الناس دينهم ودنياهم ، وقد سلك القرضاوي هذا الدرب منذ الصغر .

وقد كان إلقاؤه الدروس سابقاً لاعتلائه المنبر بسنة تقريباً ، وذلك أن أهل « صفط تراب » بل قرى مصر كلها كانوا ولايزالون يتحلقون حول مشايخهم في عصر رمضان ليستمعوا إليهم ، وكان الطالب يوسف يواظب على حضور الدروس في مسجد « المتولي » ليستمع إلى الشيخ « عبد المطلب البتة » وحدث أن تأخر الشيخ عبد المطلب فأشار أحد الحضور إلى الشيخ يوسف قائلاً : ما قولك يا شيخ يوسف تجلس مكان الشيخ وتقول لنا كلمتين مما تعلمت في الأزهر؟ فقام الشيخ وارتجل كلمة عن التوبة لاقت قبولاً حسناً لدى الحضور ، ومن يومها أصبح الشيخ يوسف هو البديل للشيخ عبد المطلب إذا تأخر أو غاب، وكان ذلك في السنة الثانية من المرحلة الابتدائية [١].

اعتاد الشيخ في هذه الفترة على إلقاء دروسه ، وكانت هذه الدروس تأخذ الطابع الوعظي ، هدفها الأول هو تثبيت الإيمان وتصحيح المفاهيم الخاطئة ، معتمداً على الرقائق و الترغيب والترهيب .

لكن الشيخ بدأ يتجه بدروسه إلى منحىً آخر ، حيث سلك بالناس مسلكاً فقهياً، يعرف الناس فيه فقه الأحكام ، وخصوصاً فقه العبادات، وعلى الأخص أحكام الصلاة ، ويبدو أن منهج الشيخ ثابت منذ الصغر فقد تميزت دروسه الفقهية من الصغر بما يلي :

١ - البعد عن الحشو والفضول وما لا حاجة للناس حقيقة به .

٢ - تبني التيسير والتخفيف عن الناس .

٣ - التحرر من التعصب لمذهب إمام بعينه .

وكان معتمد الشيخ في هذه الدروس الفقهية كتاب « فقه السنة » للشيخ سيد سابق رحمه الله تعالى .

وفوجئ الناس من الشيخ بكلام جديد لا تقيد فيه بمذهب معين ، حتى

---

(١) انظر : ابن القرية ج١ ص١٧٨ ، وخطب الشيخ القرضاوي ج٢ ص ٥ .

غدا وكان للشيخ مذهباً جديداً ، فكان أحدهم إذا خالف أهل القرية في أمر ما قيل له : صل على مذهب الشيخ يوسف ! [1]

دروسه في المعتقل :

وإذا كان أول درس للشيخ في حياته بعنوان « التوبة » ، فقد كان أول درس للشيخ في معتقل الطور تحت عنوان « لا ندم على الماضي ، ولا جزع من الحاضر ، ولا يأس من المستقبل » وقد كان هذا الدرس بطلب من العلامة الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - وقد استقبل الإخوان هذا الدرس بقبول طيب ، وأثنوا عليه ثناء حسناً ، وكان هذا أول درس عام في معتقل الطور [2].

ولما انتظم الشيخ في الخطابة في « المحلة الكبرى » ثم في « القاهرة »؛ سن الشيخ لنفسه سنة حسنة، حيث يجعل بعد الخطبة درساً يتلقى فيه أسئلة الحضور واستفساراتهم .

وبعد سفر الشيخ إلى قطر وجد الساحة أمامه مستعدة لقبول كل خير ، فانتظم الشيخ في الدروس قبل انتظامه في الخطبة ، وكان شهر رمضان فرصة طيبة اغتنمها الشيخ وأحسن استغلالها ، فكان له في رمضان درسان الأول بعد العصر في مسجد الشيخ « خليفة بن حمد » ولي العهد آنذاك ، وآخر في صلاة التراويح، ثم استقر الشيخ في مسجد « الشيوخ » منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً [3].

وكانت بداية دروس الشيخ انتظاماً بمسجد الشيخ « خليفة بن حمد » حيث أرسل الشيخ القرضاوي من قبل الشيخ « عبد الله تركي »[4] وكان الشيخ « خليفة بن حمد » يواظب على حضور هذه الدروس، وكان ترتيب الشيخ ابن تركي أن ينتقل الشيخ القرضاوي بعد مرور النصف الأول من رمضان، وقد حدث ذلك ، فسأل ولي العهد عن سبب تغيير القرضاوي . فقال ابن تركي : إنه للتنويع . فقال ولي العهد : لا أريد تنويعاً. لا أريد إلا القرضاوي[5]. وقد كانت

---

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص٢٣٩ .

(٢) انظر : المرجع السابق ج١ ص٣٩٢ .

(٣) انظر : خطب الشيخ القرضاوي ج١ ص ٧ .

(٤) أحد رجالات التعليم في قطر وكان مفتشاً للعلوم الشرعية بوزارة التعليم في قطر ، وكان حريصاً على جلب مدرسي العلوم الشرعية من مصر ، وكان ابن تركي حريصاً كل الحرص على مجيء القرضاوي إلى قطر ، وطلب ذلك من الأزهر .

(٥) انظر : ابن القرية والكتاب ج٢ ص ٣٦٢ .

دروس القرضاوي متنوعة منها الفقهي ومنها الوعظي ، ومنها دروس المناسبات كبدر وفتح مكة وغير ذلك .

وفي العام الدراسي ١٩٩٠ - ١٩٩١ م أعير الشيخ إلى الجزائر بطلب من الرئيس الجزائري الأسبق « الشاذلي بن جديد » ليتولى رئاسة المجلس العلمي لجامعة الأمير « عبد القادر » للعلوم الإسلامية في مدينة « قسطنطينة » ، واستغل بعض المخلصين وجود الشيخ فطلبوا منه أن يقوم بدرس أسبوعي في التفسير في أحد المساجد الكبيرة بالعاصمة ، ووقع الاختيار على سورة « يوسف » عليه السلام فوجدت السورة ترحيباً في نفس الشيخ ، واستمر عاماً كاملاً وانتهى العام الدراسي دون أن يكمل الشيخ « يوسف » سورة سيدنا « يوسف » عليه السلام .

وبعد أن استقر الشيخ في الخطابة بمسجد « عمر بن الخطاب » بقطر ، كان يعقد كل يوم اثنين درساً بعد صلاة العشاء ، وكان هذا الدرس حراً ينتقل فيه الشيخ من علم إلى علم ، فتراه تارة يكون في العقيدة ، وأخرى في الأخلاق ، وثالثة في التفسير وهكذا .

وفي العام الدراسي ١٩٩١ - ١٩٩٢م وبعد عودة الشيخ من الجزائر اقترح عليه بعض المخلصين في الدوحة أن يبدأ الشيخ دروساً تفسيرية من سورة « الرعد » ليكون إتماما لتفسير المنار للإمام المجدد « محمد رشيد رضا » ، فنزل الشيخ على رغبة إخوانه وبدأ بمقدمة سورة الرعد ، ثم شرع في التفسير حتى أتم السورة كلها، وقد قام مشكوراً الأستاذ « محمود أحمد عوض » بتفريغ هذه المادة العلمية على الورق ، ثم قام بضبطها ، والتعليق عليها وعرضها على الشيخ فنقح وأضاف، ثم خرجت بعد ذلك كتاباً هو « تفسير سورة الرعد »[١] .

ولعل أشهر دروس الشيخ هي دروسه الرمضانية التي يلقيها الشيخ في الجامع الكبير بالدوحة « مسجد الشيوخ » حيث يجلس الشيخ يومياً ما لم يحل بينه وبين الجلوس حائل ، فيختار آية من الجزء المتلو ، أو سورة بأكملها، أو جزءا بتمامه ، فيجعل الشيخ درسه هذا سياحة مباركة ، فيصول ويجول ، دون ملل أو سآمة من الجالسين ، ودون إفراط ولا تفريط في هذا العرض المبين .

وهذا ما جعل الجرائد القطرية تتسابق على تفريغ هذه المادة يومياً، فما يقال في المساء يعلن على الملأ في الصباح ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

---

(١) انظر : تفسير سورة الرعد ص ١٣ ، ١٤ .

٨ ـ البرامج الإذاعية والتلفزيونية :

لم يكن القرضاوي في يوم من الأيام بعيداً عن وسائل الإعلام ، بل هو شديد القرب منها، كثير الظهور فيها ، حتى إن بعضاً من المتطاولين على الشيخ قالوا إنه « شيخ الفضائيات العربية » وقال آخرون : إن دولاً عربية استغلت الشيخ بعد عملية السلام التي قام بها الرئيس الراحل أنور السادات ونصبته شيخاً لمصالحها السياسية !!

والحق أن الشيخ لم يسع إلى هذه القنوات أو الإذاعات ، بل هي التي سعت إليه ، وهي في المقام الأول المستفيدة أولاً من علم الشيخ ، وثانياً من شهرته بين الناس .

ولعل من نافلة القول أن أذكر هنا بأن تلفزيون قطر أسس في صيف عام ١٩٧٠م ، وكان الشيخ وقتها يقضي أجازته الصيفية في لبنان لعدم تمكنه من النزول إلى مصر، ولما افتتح التلفزيون القطري أرسل القائمون عليه إلى الشيخ في لبنان ليسجل حلقات تبث على مشاهدي القناة الجديدة ، وسجل الشيخ يومها ست حلقات ثم أرسلت إلى الدوحة [١].

وأما بالنسبة لقناة الجزيرة وبرنامجها « الشريعة والحياة » فقد سمعت الشيخ يقول لأحد زوّاره : إن هذا فتح من الله ما رتبت له ولا سعيت وراءه ، بل خير ساقه الله إليّ ، وقد عرضوا عليَّ الفكرة فرحبت بها ، وقلت إنها فرصة ليصل صوتي إلى إخواني في أوربا وأمريكا .

وللشيخ بعض البرامج الإذاعية والتلفزيونية الثابتة ومنها :

١ ـ برنامج « نور وهداية » وهو برنامج إذاعي في إذاعة قطر ، وقد كلف فيه الشيخ بالرد على أسئلة المستمعين ، وقد توقف هذا البرنامج بعد سبعة عشر عاماً لكثرة مشاغل الشيخ .

٢ ـ برنامج « حديث الغروب » وهو برنامج إذاعي ، وكان يقدم في رمضان، وظل الشيخ يقدمه لمده خمس سنوات قبل أذان المغرب .

٣ ـ برنامج « هدي الإسلام » وهو حلقات تلفزيونية في تلفزيون قطر ،

---

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج٣ ص ٢٣٩ .

كلف الشيخ أيضاً بالرد على أسئلة المستمعين، وما زال هذا البرنامج مستمرا منذ إنشاء تلفزيون قطر منذ ما يزيد عن ثلاث وثلاثين عاماً ، وهو برنامج أسبوعي يعرض كل جمعة .

٤ ـ برنامج « الشريعة والحياة »[1] وتبثه قناة الجزيرة الفضائية ، وقد رجى المسؤولون الشيخ للمشاركة في هذا البرنامج فلم يتوان في القبول، ورأى أن هذه فرصة ليصل صوته وآراؤه إلى المسلمين في أوربا وأمريكا، فهم في نظره في أمس الحاجة إلى فقه التيسير الذي يتبناه .

٥ ـ برنامج « المنتدى » وكانت تبثه قناة أبو ظبي الفضائية ، وأوقف بعد أحداث سبتمبر، ومنع الشيخ من دخول الإمارات لظروف أشبه ما تكون سياسية .

٦ ـ كما أن للشيخ برامج تذاع بين الفينة والأخرى ، في مناسبات عديدة كان أشهرها برنامج يؤدى في عصر كل يوم من شهر رمضان في « تلفزيون قطر »، واستمر هذا البرنامج مدة طويلة ، وكان للشيخ فيه سياحة قرآنية ، يطوف بالناس في حدائق القرآن وبساتينه ، فيقطف كل يوم آية أو عدة آيات ، فيشنف آذان الناس ويشجي أسماعهم بتفسير كلام الله .

ولعل برنامجي « الشريعة والحياة » و« المنتدى » من البرامج التي تظهر مدى فقه الشيخ، وسعة أفقه، واتساع مداركه ، ورحابة صدره ، وغزارة علمه ، حيث تعرض على الشيخ الأسئلة دون إعداد سابق ، وتجهيز مسبق ، بل هي أسئلة ساعتها ، واستفسارات وقتها ، فينطلق الشيخ كالسهم ، ويزأر كالأسد ، مجيباً غير متلعثم ، وموضحاً غير متردد ، مزيناً إجاباته بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والقطع الأدبية ، والأبيات الشعرية ، كأنما الشيخ يجيب من إعداد سابق أو كتاب مفتوح .

وفي الآونة الأخيرة بدأت القنوات الفضائية تتنافس على عرض مقابلات مع الشيخ ، يتحدث فيها عن حياته ومذكراته ، فقامت القناة الفضائية القطرية

---

(١) أود الإشارة هنا إلى أن فضيلة الشيخ لا يتقاضى من قناة الجزيرة ريالاً واحداً، وإنما يتبرع بالمبلغ كله لموقع إسلام أون لاين.

ببرنامج «ورثة الأنبياء» وكان أول الورثة هو القرضاوي ، واستمر البرنامج أكثر من عشر حلقات ، وهو من إعداد الأستاذ عبد العزيز السيد .

وكذلك قامت قناة «اقرأ» بعرض عدد من الحلقات سجلها مع الشيخ القرضاوي الشيخ عبد السلام البسيوني .

كما أعدت كذلك المذيعة «كريمان حمزة» برنامج مع الشيخ في قناة اقرأ الفضائية .

موقف الشيخ من التلفزيون :

التلفاز أو التلفزيون من الوسائل التي عرفها العالم مؤخراً ، وكأي جديد لم يتفق العلماء حول هذه الوسيلة ، وكان لهم فيها كذلك آراء وأقوال نجملها فيما يلي :

تعريفه : هو جهاز نقل الصور والأصوات بواسطة الأمواج الكهربية ، وقد أطلق عليه لفظ «الرائي»[1] .

أهميته :

١ ـ اجتماع أهم خصائص الوسائل السمعية والبصرية مثل :

* الامتداد الزماني والمكاني بحيث لا تخلو ساعة ولا مكان من بث .

* تنوع موضوعاته .

* سهولة الاستماع إليها والمشاهدة لها فقد ينصت إليه الشخص قائماً أو قاعداً أو أثناء الطعام وأثناء الكلام وعند النوم .

٢ ـ شدة جاذبيته للناس وخصوصاً بعد البث الملون .

٣ ـ تنوع المشاهدين له من الكبار والصغار[2] .

حكمه :

نظراً لما يعرضه التلفزيون من أمور مختلفة فقد اشتمل على ثلاثة أنواع من الوسائل:

١ ـ الوسيلة المباحة : نظراً لما يبث فيه من خير مباح .

---

(١) انظر : المعجم الوسيط مرجع سابق ص ٨٦ .

(٢) انظر : المدخل إلى علم الدعوة مرجع سابق ص ٣١٨ ، ٣١٩ بتصرف .

٢ ـ الوسيلة المشوبة : نظراً للبرامج الكثيرة التي اختلط فيها الخير بالشر .

٣ ـ الوسيلة المختلف في حكمها : نظراً لما تقوم عليه من أنواع التصوير التي اختلف العلماء في حكمها[1] .

لهذه الأمور وغيرها كان الحكم للعلماء فيها على رأيين :

١ ـ التحريم مطلقاً : بل قال أصحاب هذا الرأي بحرمة شراء الجهاز، وحرمة بيعه، وحرمة دخوله المنزل .

٢ ـ الإباحة : لمن كان في نفسه القدرة على التحكم في هذا الجهاز وضبط أسرته وأولاده ، فيجعل رقيباً على الأولاد لا من خارجهم ، ولكن من أنفسهم ، وذلك بتعريفهم الحلال والحرام .

وكان الشيخ القرضاوي من أنصار هذا الرأي ، وقد أوضح رأيه هذا في تلفزيون قطر منذ أن طلب من الشيخ أن يقدم برنامج « هدي الإسلام » أي منذ ثلاثين عاماً أو أكثر ، وسجل الشيخ رأيه هذا في فتاويه فقال حفظه الله : إن التلفزيون كالراديو وكالصحيفة وكالمجلة ، كل هذه الأشياء أدوات ووسائل لغايات ومقاصد ، لا تستطيع أن تقول : هي خير، ولا تستطيع أن تقول : هي شر . كما لا تستطيع أن تقول : إنها حلال أو إنها حرام ولكنها بحسب ما توجه إليه .. وبحسب ما تتضمنه من برامج وأشياء .. كالسيف ، ، فهو في يد المجاهد أداة من أدوات الجهاد ، وهو في يد قاطع الطريق أداة من أدوات الإجرام .. فالشيء بحسب استعماله . والوسائل دائماً حسب مقاصدها .

ممكن أن يكون التلفزيون من أعظم أدوات البناء والتعمير الفكري والروحي، والنفسي والأخلاقي والاجتماعي . والراديو والصحيفة كذلك .

وممكن أيضاً أن يكون من أعظم أدوات التخريب والإفساد ، فهذا راجع إلى نوعية ما يتضمنه من مناهج وبرامج ومؤثرات .

الذي أستطيع أن أقوله : إن هذه الأشياء فيها الخير ، وفيها الشر ، وفيها الحلال وفيها الحرام . والذي قلته من أول الأمر : إن المسلم يستطيع أن يكون فقيه

---

(١) انظر : المدخل إلى علم الدعوة مرجع سابق ص ٣٢١ بتصرف

نفسه في هذه الأمور ، فيفتح الراديو أو التلفزيون عندما يكون هناك خير ، ويغلقه عندما يكون هناك شر.

وتبقى في هذه الناحية المسئولية الكبرى على الدولة بصفة عامة وعلى المسئولين عن هذه الأجهزة الإعلامية بصفة خاصة ، فإن الله سائلهم عن كل ما تحمله هذه الأدوات للناس ، فليحضروا للسؤال من الآن جواباً ..[1]

٩ ـ المؤتمرات والندوات :

يجمع جل المتخصصين في ميدان الدعوة والعاملين لها ولا أكون مبالغاً إذا قلت كلهم بأن الشيخ متحدث لا يبارى ، ومتكلم لبق ، ومحاور ماهر ، ومن ثم فإن كثيراً من المؤتمرات والندوات لا تخلو من حضور الشيخ إلا إذا كان الشيخ قد شغل بمؤتمر آخر أو ندوة أخرى ، وحضور الشيخ عادة ما يزيد المؤتمرات والندوات إثراءً بالغاً ، وحيوية ماتعة، وهذا يرجع إلى اقتراحاته البناءة ، وآرائه الجريئة ، وفتاويه المعاصرة .

والذي ينبغي التنويه عليه: أن هذه المؤتمرات والندوات، عادة ما يطلب من الشيخ أن يقدم فيها بحثًا من البحوث أو كلمة من الكلمات ، فما تلبث الأيام إلا عن مخاض يعقبه مولود جديد يضم إلى مكتبة الشيخ ، ومن هذه الكتب :

١ ـ كتاب « شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان » شارك به الشيخ بحثاً في ندوة التشريع الإسلامي بليبيا .

٢ ـ كتاب « ثقافة الداعي » شارك به الشيخ بحثاً في المؤتمر العالمي الأول لتوجيه الدعوة و إعداد الدعاة بالمدينة المنورة بالمملكة العربية السعودية .

٣ ـ كتاب « عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية » شارك به الشيخ بحثاً في المؤتمر العالمي الأول للفقه الإسلامي.

٤ ـ كتاب « دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي » شارك به الشيخ بحثاً لندوة اقتصادية إسلامية دعت إليها « مجموعة البركة » .

٥ ـ كتاب « الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة » شارك به الشيخ بحثاً في ندوة بكلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر .

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٦٩٤-٦٩٥ .

٦ - كتاب « رعاية البيئة في شريعة الإسلام » شارك به الشيخ بحثاً للمؤتمر الأول للمحافظة على البيئة من منظور إسلامي بجدة بالمملكة العربية السعودية .

١٠ - المحاضرات :

ونظراً لشهرة الشيخ في ميدان الإلقاء مع ما تميز به من الغزارة العلمية في الفقه والدعوة ، ونظراً كذلك لما يجمعه الشيخ من قناعة في الأسلوب ، وحرارة في الأداء ، وحيوية في الإلقاء ، فقد أخذت المساجد ، والجامعات ، والجمعيات ، والمعاهد ، والأندية ، والمراكز الثقافية ، والمؤسسات العلمية ، والهيئات الخيرية في الدول العربية ، والإسلامية ، والدول الأوربية ، أخذت هذه جميعاً تتسابق على دعوة الشيخ لإلقاء المحاضرات في جنباتها ، وتحت قبابها ، وبين جدرانها ، فنعمت بالشيخ ونعم الشيخ بها .

ويندر أن تكون هناك دولة زارها الشيخ ولم يلق فيها محاضرة .

وقد جمع عدد من هذه المحاضرات وضم إلى مكتبة الشيخ ومن هذه المحاضرات :

١ - كتاب « الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير » ، وكان الشيخ قد افتتح بها الموسم الثقافي السابع لوزارة التربية والتعليم بقطر .

٢ - كتاب « التربية عند الإمام الشاطبي »، القاها في المهرجان الذي أقيم للإمام الشاطبي في مدينة الجزائر عام ١٩٩١ م .

٣ - كتاب « السنة والبدعة »، ألقيت بمركز الدعوة والإرشاد بقطر .

٤ - كتاب « الاستلحاق والتبني في الشريعة الإسلامية » ، ألقيت أيضاً بمركز الدعوة والإرشاد بقطر .

٥ - كتاب « الإسلام الذي ندعو إليه »، ألقيت أيضاً بمركز الدعوة والإرشاد بقطر.

٦ - كتاب « لماذا الإسلام »، وكان الشيخ قد سجلها على شريط لمؤتمر اتحاد الطلبة المسلمين السنوي في أمريكا وكندا ، بعد أن تعذر سفر الشيخ إلى هذا المؤتمر .

١١ ـ المناظرات :

لعل من نافلة القول بأن الشيخ القرضاوي مناظر جيد، ومناقش جريء[١]، وقد أحسن الإسلاميون استخدام هذا الجانب لدى الشيخ ، وقد كانت مناظرة الشيخ بالاشتراك مع الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ في المناظرة الشهيرة التي أقامتها دار الحكمة «نقابة الأطباء بالقاهرة» في عام ١٩٨٦م مع جماعة من العلمانيين دعت منهم الدكتور فرج فودة ، والدكتور وحيد رأفت ، والدكتور فؤاد زكريا ، من أشهر المناظرات ، ولم يلب الحضور سوى فؤاد زكريا ، وكانت هذه المناظرة من أكثر المناظرات انتشاراً ، ومن أعظمها أثراً .

والحق أن الشيخ كان فارس الحلبة ، وقد ساعده على ذلك أن كلمته جاءت بعد كلمة الدكتور فؤاد زكريا ، فأظهر زيفه ، وفند أباطيله ، وأبان عواره، وأتى على بنيانه من قواعده ـ وإن لم يكن له قواعد ـ فسقط في يدي الرجل ، وكأن السقف خر عليه من فوقه ، فلما أعطيت دفة الكلام ثانية للدكتور فؤاد زكريا صب جام غضبه على الشيخ يوسف ، وزعم أن الشيخ استحوذ على الجماهير بتأثيره العاطفي عليهم ، برفع صوته حيناً وخفضه حيناً آخر !!

ولكن الأمر كما قال الشيخ القرضاوي بأنه كان : في المقام الأول عقلانياً وموضوعياً ومنطقياً[٢]. وقال أيضاً : والحق أن هذا ـ تقبل الجمهور لكلام الشيخ القرضاوي وإعراضهم عن الدكتور فؤاد زكريا ـ لم يكن لضعفه ولا لقوتي ، بل لضعف الباطل الذي نصب نفسه للمحاماة عنه ، ولقوة الحق الذي أكرمني الله بالدفاع عنه[٣] .

هذا وقد دعت هذه الأباطيل الشيخ ليصدر كتاباً يرد فيه على الدكتور فؤاد زكريا خصوصاً والعلمانيين على وجه العموم، بعيداً عن التأثير العاطفي، أو اللعب بمشاعر الجماهير كما يزعم الدكتور فؤاد زكريا، يقول القرضاوي في مقدمة هذا الكتاب : «من هنا اتجه فكري إلى أن أرد على دعاوى الدكتور فؤاد زكريا خاصة، وعلى العلمانيين عامة ، في كتاب يقرأ ، لا في محاضرة تسمع ،

---

(١) يراجع ما ذكرناه من صفات الشيخ تحت عنوان «حافظ جيد ومناقش جريء».
(٢ ، ٣) انظر : الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه ص ١٢ ، ص ١٣ .

بعيداً عن تأثير قوة الصوت وتشجيع الجماهير ، وسيعلم الدكتور أننا دائماً أصحاب الحجة الأقوى ، والمنطق الأسد ، سواء حاضرنا أو كتبنا ، لأننا نعبر عن الحق الذي قامت به السماوات والأرض [١].

وبعد هذه المناظرة خرج الشيخ القرضاوي بقناعة مفادها أن هذه المناظرات لا تثمر ولا تؤتي أكلها[٢] ، حيث يجلس الطرفان يقدم كل منهما حجته ، ثم ينفض الأمر ، وكل على قناعة بما لديه ، ورضى بما عنده ، غير آبه بما قال خصمه، وكانت نية الشيخ معقودة على ألا يعيد الكرة مرة ثانية ، حتى كان مايو ١٩٩٧م وفوجئ الناس بأن قناة الجزيرة القطرية تستضيف الشيخ القرضاوي ورجلاً اسمه صادق العظم وهو أيضاً من دعاة العلمانية ، وقد اعتذر الشيخ في بداية الحلقة بأنه لم يكن راضياً بالحضور ، وأنه اقترح للقناة عدداً من أسماء الإسلاميين إن أرادوا ذلك ؛ لكن الشيخ رضخ في النهاية تحت إلحاح القائمين على البرنامج، ولما عرفوا من حياء الشيخ .

وجاء الوقت المحدد للبرنامج ، وفوجئ المشاهدون بأمر لم يكن في الحسبان، فمعد البرنامج ومقدمه لم يكن بالمقدم المنصف ؛ بحيث يعطي كل واحد من المتحاورين وقتاً محدداً لا يحق للآخر أن يقاطعه فيه ، ولكن بدا أن من علا صوته، وارتفع صراخه ، كان له أن يتحدث، وتكون له الكلمة .

* * *

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ١٣

(٢) قد لا تؤتي المناظرة أكلها لدى الخصم المناظر ، لكنها قد تؤتي أكلها لدى المخدوعين بهذا الخصم وكثير ما هم .

الفصل الرابع

السمات العامة لمنهج القرضاوي الدعوي

المبحث الأول :

التيسير

سمة من السمات التي عرف بها الشيخ القرضاوي ، وعلامة ظاهرة لاحت في أفق فتاويه كلما غدا أو راح ، ميزة عرف بها حتى عدها البعض عيباً ، وجعلها آخرون نقصاً، فهل كان الشيخ محقاً في ذلك ؟ أم كان مجحفوه على حق ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في هذه السطور .

ما المقصود بالتيسير في اللغة:

اليُسْرُ و اليَسارُ و المَيْسَرةُ و المَيْسُرَةُ، كله: السُّهولة والغنى؛ و اليُسْر: ضدّ العُسْر، و تَيَسَّر الشيء و اسْتَيْسَرَ تَسَهَّل. ويقال: أَخَذَ ما تَيَسَّر وما اسْتَيْسَر، وهو ضدّ ما تَعَسَّر والْتَوَى، والتيسير يكون في الخير والشر، والميسورُ: ما يُسِّرَ[1].

ماذا يعني الشيخ القرضاوي بالتيسير ؟

يظن البعض أن الشيخ القرضاوي حفظه الله إنما يبحث عن اليسر والتيسير من غير دليل ، أو أنه يلوي أعناق النصوص لياً ليصل إلى مبتغاه ، وسؤال يطرح نفسه : وماذا يستفيد الشيخ من تيسيره للناس إن لم يكن معه الدليل ؟ هل إرضاؤه للحكومات ؟ أم إرضاؤه للأشخاص ؟ أم ماذا ؟

إن الشيخ لا يبحث عن رضا الحكومات؛ خصوصاً وأن مبدأه في التيسير واضح كل الوضوح منذ أن صدر له كتابه الأول «الحلال والحرام» في عام ١٩٦٠ م؛ فهل كان يبحث وقتها عن رضا الحكومة أم ماذا ؟ إن قارئ التاريخ يجد أن الشيخ لم يكن في يوم من الأيام في فترة صدور كتابه «الحلال والحرام»

---

(١) انظر: لسان العرب ج ٥ ص ٢٩٧ .

على حالة وفاق مع الحكومة المصرية ابداً ، بل كان شخصاً غير مرغوب فيه ، ثم لماذا يبحث عن رضا الأشخاص وهو لا يعود عليه نفع مادي منهم ولا معنوي ، إذن فلماذا هذه التهم ؟

ولا نملك إلا أن نقول مع الشيخ :

إذا محاسني اللاتي أدل بها كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر ؟

ولهذا فإن الشيخ يقول عن التيسير الذي يعنيه : التيسير الذي أعنيه هو الذي لا يصادم نصاً ثابتاً محكماً ، ولا قاعدة شرعية قاطعة، بل يسير في ضوء النصوص والقواعد والروح العامة للإسلام ، وليس معنى هذا أن ألوي أعناق النصوص رغماً عنها لأستخرج منها ـ كرهاً ـ معاني وأحكام تيسر على الناس[١].

هل التيسير في الدين بدعة قرضاوية؟

من العجب العجاب أن يحاول البعض إلزام الناس بما يشق عليهم ، وإجبار الخلق على ما فيه شدة عليهم ، وأعجب من هذا أن يكون ذلك باسم الدين .

إن التيسير على خلق الله هو روح هذا الدين ، وإن استقراء نصوص القرآن وصحيح السنة يؤكد على أن التيسير أمر مطلوب ، وقصد مشروع ، وكأن إخواننا هؤلاء لم يقرءوا قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، أولم يقرءوا قول الله سبحانه : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة ١٧٨] .

أولم يسمعوا قوله جل شانه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ [النساء :٢٨]

وقوله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [المائدة :٦] .

وقوله عز من قال : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨]

ألم يقل النبي ﷺ لأبي موسى ومعاذ : « يسرا ولا تعسرا »[٢].

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ١٤ بتصرف .

(٢) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١١٣٠) ، رواه البخاري في المغازي رقم (٦١٢٤) ، ومسلم في الجهاد (١٧٣٣) عن أبي موسى ومعاذ .

ألم يقل النبي ﷺ للأمة كلها : « يسروا ولا تعسروا »[١].

ألم تقل عائشة - رضي الله عنها - : « ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً »[٢].

ألم يقل ﷺ : « خير دينكم أيسره »[٣].

ألم يقل ﷺ في وصف هذه الشريعة : « إني أرسلت بحنيفية سمحة! »[٤].

هذا ما فطن إليه سلفنا الصالح ، وعمل به علماؤنا الأجلاء ، ولهذا قال الإمام سفيان الثوري : إنما العلم الرخصة من ثقة ، أما التشديد فيحسنه كل أحد.

إن التشديد إن جاز أن يأخذ به الإنسان على نفسه ، فإنه لا يجب عليه إلزام الناس به، ولذلك قالوا في وصف محمد بن سيرين : كان أرجى الناس لهذه الأمة ، وأشدهم أزراً على نفسه .

وأروع من هذا أن يحيل الإمام الناس إلى صاحب التيسير إن كان يرى هو غير ذلك، ولهذا قال الحسين بن بشار الحزمي : سألت أحمد بن حنبل عن مسألة في الطلاق . فقال : إن فعل حنث . قال الحسين : فقلت : يا أبا عبد الله اكتب لي بخطك، فكتب لي في ظهر الرقعة « قال أبو عبد الله : إن فعل حنث » . قال الحسين : فقلت : يا أبا عبد الله إن أفتاني إنسان ؟ يعني لا يحنث قال أحمد : تعرف حلقة المدنيين ؟ قال الحسين : قلت : نعم فإن أفتوني حل ؟قال : نعم[٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١٥٠٢) رواه البخاري في المناقب رقم (٣٥٦٠) ، ومسلم في الفضائل رقم (٢٣٢٧) عن عائشة.

(٣) رواه أحمد (٢٥٩٣٦) عن أعرابي ، وقال محققوه : إسناده حسن. وذكره الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣٠٩).

(٤) رواه أحمد (٢٤٨٥٥، ٢٥٩٦٢) عن عائشة ، وقال محققو المسند : حديث قوي وهذا سند حسن .

(٥) انظر : طبقات الحنابلة ج١ ص ١٤٢ .

لماذا يتبنى القرضاوي التيسير ؟

والشيخ القرضاوي إنما ذهب إلى الدعوة بالتيسير على الناس لا التعسير ، لترجح ذلك عنده ، بل عده أولوية من الأولويات التي ينبغي أن يركز عليها الدعاة اليوم ، ومن ثم فهو يقول بأولوية التخفيف والتيسير على التشديد والتعسير(١) .

والشيخ إنما يتبنى ذلك لأمرين :

الأول : أن الشريعة مبنية على التيسير، ورفع الحرج عن العباد، وهذا ما نطق به القرآن الكريم وصرحت به السنة المطهرة(٢) .

ويؤكد الشيخ هذا في موضع آخر فيقول : وقد تبين لي بطول الدراسة والممارسة أن الرجوع المباشر إلى الكتاب والسنة يقترن دائماً بالتخفيف والتيسير، والبعد عن الحرج والتعسير (٣).

الثاني : طبيعة عصرنا الذي نعيش فيه، وكيف طغت المادية على الروحية، والأنانية على الغيرية، والنفعية على الأخلاق، وكيف كثرت فيه المغريات بالشر، والمعوقات عن الخير وأصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر .

والفرد المسلم في هذه المجتمعات يعيش في محنة قاسية ، بل في معركة دائمة ، فقلما يجد من يعينه ، وإنما يجد من يعوقه(٤) .

ويشد الشيخ على هذا الأمر بنواجذه فيقول : ولهذا ينبغي لأهل الفتوى أن ييسروا ما استطاعوا ، وأن يعرضوا على المسلم جانب الرخصة أكثر من جانب العزيمة ، ترغيباً في الدين ، وتثبيتاً لأقدامه على طريقه القويم(٥) .

ويقول في موضع آخر : وعلينا نحن معلمي الدين أن نشحذ أسلحتنا لجهاد الشيطان ومطاردته ، وننفر أتباعه من بضاعته ، وإغرائهم ببضاعتنا ، وجذبهم إلى سوقنا ، ولن يكون ذلك أبداً بالتعنت والتزمت ، والإحراج والتشديد والتعسير والتنفير (٦).

---

(١) انظر : في فقه الأولويات ص ٧١ .
(٢) انظر هذه الأدلة في فقه الأولويات ص ٧١ - ٧٤ ، وفتاوى معاصرة ج١ ص ١٢ .
(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٦ .
(٤) انظر : المرجع السابق ج١ ص ١٤ بتصرف .
(٥) انظر : المرجع السابق ج١ ص ١٣ . (٦) انظر : العبادة في الإسلام ص ٣٢٧ .

وقد يتوهم البعض أن الشيخ إنما يدعو للتيسير استجابة لضغط الواقع، أو نزولاً على رغبات الناس، أو تماشياً مع أهوائهم ، فيرفع الشيخ هذا الوهم بقوله: وأود أن أقرر في بداية الأمر أن التيسير أمر مطلوب شرعاً في ذاته ، وليس مجرد استجابة لضغط الواقع ، أو تناغماً مع روح العصر ، كما يتصور بعض الناس [1].

الشيخ القرضاوي وتيسير الفقه .

وقد كان لعمق ظاهرة التيسير لدى الشيخ أن دعا إلى تيسير الفقه ، ويعني الشيخ بتيسير الفقه أمرين :

الأول : التيسير في الفهم .

الثاني : التيسير في الأحكام للعمل والتطبيق .

أما النوع الأول وهو التيسير في الفهم إنما يتحقق في نظر الشيخ بأمور منها :

١ ـ توخي السهولة والتوسط : بأن يكتب بلغة سهلة وأسلوب مبسط بعيد عن وُعُورة المصطلحات ، مع التوسط بين الإيجاز الملغز الذي عرفت به المتون ، والإطناب الممل الذي يتسع في الشرح والتفصيل .

٢ ـ مخاطبة العقل المعاصر بلغة عصره ، فإنسان القرن الخامس عشر الهجري غير الإنسان منذ قرنين أو ثلاثة .

٣ ـ استخدام معارف العصر ومقاديره ومصطلحاته .

٤ ـ ربط الفقه بالواقع وحذف ما لا يتصل به .

٥ ـ بيان الحكمة من التشريع حتى يقتنع به العقل ويطمئن به القلب .

٦ ـ ربط الأحكام بعضها ببعض وبالمقاصد الكلية للشريعة .

٧ـ التخفف من كثرة الزوائد والتشعيبات والتعقيدات التي أضافتها العصور المختلفة .

٨ ـ الاستفادة من كتابات العصر من العلماء الثقات ، ومن قرارات المجامع الفقهية والعلمية ، ومن الرسائل الجامعية .

---

(١) انظر : تيسير الفقه للمسلم المعاصر ص ١٣ .

٩ ـ عرض مستويات مختلفة من الكتب ، فليس الناس على مستوى واحد .

١٠ ـ الالتزام بالترقيم ووسائل الإيضاح والفهرسة الدقيقة [١].

وأما النوع الثاني وهو التيسير في الأحكام للعمل والتطبيق فيتحقق بجملة أمور :

١ – مراعاة جانب الرخص .

٢ – مراعاة الضرورات والظروف المخففة .

٣ – اختيار الأيسر لا الأحوط في زماننا .

٤ – التضييق في الإيجاب والتحريم .

٥ – التحرر من العصبية المذهبية .

٦ – التيسير فيما تعم به البلوى .

٧ – رعاية المقاصد .

٨ – تغير الفتوى [٢].

نموذج من تيسير الشيخ في فتواه :

ومن الفتاوى التي جنح الشيخ فيها إلى التيسير أسوق هذا النموذج، يقول الشيخ: ومن اللهو الذي يمارسه كثير من الناس: اللعب بالورق (الكوتشينة) ويسأل الكثير عن حكمه.

ومما لا شك فيه: أن اللعب إن كان بمال، بحيث يحتمل الكسب أو الخسارة، فهو قمار (مَيْسِر) محرم بلا نزاع.

وأما إذا لعب لمجرد التسلية، فقال البعض: إنه حرام. لأنه يقوم على الحظ والنصيب، فأشبه النَّرْد.

ولكن الواقع: أن في لعب الورق جانبين: جانبا للحظ، وجانبا للنظر والمهارة، فهو يشبه النرد من ناحية، ويشبه الشطرنج من ناحية أخرى. على أنا قد

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ١٦ ـ ٢٣ بتصرف .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٢٤ ـ ٣٧ بتصرف.

ناقشنا قضية اعتماد النرد على الحظ وحده، وقلنا: إن هذا غير مسلّم، فهو يعتمد على الحظ في جزء من اللعب، ثم يعتمد على التفكير بعد ذلك. ولهذا أرى الاكتفاء بكراهته، إذا لم يبلغ حد الإسراف والانهماك، بحيث تضيع معه الواجبات الدينية والدنيوية.

لعبة (الدومينو):

ومثل اللعب بالورق في الحكم فيما أرى: لعبة (الدومينو) المعروفة ففيها شبه من النرد يقوم على الحظ، وشبه بالشطرنج يقوم على المهارة في الحساب وإعمال الفكر. وكثيرا ما يتبارى فيها الأذكياء: أيهم يغلب الآخر. لهذا أرى أن الحكم عليها بالكراهة هو الأقرب، ما لم يكن اللعب على مال، فهو قمار محرم بلا نزاع، أو يسرف فيها حتى تشغل عن واجب ديني أو دنيوي، فتحرم أيضا، فهذا ضابط عام في كل لهو ولعب[1].

* * *

(١) انظر: فقه اللهو والترويح ص ١٢٥.

المبحث الثاني

التبشير لا التنفير

هذه السمة مكملة للسمة السابقة وهي التيسير لا التعسير ، وقد تبنى الشيخ التيسير في الفتوى كما أشرنا سابقاً ، وهنا نراه يتبنى التبشير في الدعوة ، وإذا أعطي العبد هذا فإنه في نظر الشيخ : قد آوى إلى ركن ركين وهُدِيَ إلى صراط مستقيم(١).

التبشير عند القرضاوي ، ولماذا؟

ويرى الشيخ القرضاوي أن التبشير هو: كل دعوة تحبب الله تعالى إلى عباده، وترغبهم في عبادته وطاعته ، وتقودهم بحب ورفق إلى اتباع صراطه المستقيم (٢).

وإذا كان هذا هو التبشير فإن التنفير في نظر الشيخ : يكون باتباع النهج الذي ينفر الناس من شرع الله مثل منهج الترهيب الدائم ، والتخويف المستمر من الله تعالى ، بذكر آيات الوعيد والعذاب والبطش من الله ، دون آيات الوعد والتنعيم والرحمة منه سبحانه (٣).

وقد عُرِف الشيخ بهذه السمة؛ ولعل كتابه « المبشرات بانتصار الإسلام » أوضح دليل على ذلك، ففيه وضح الشيخ سبب تبنيه مبدأ التبشير وذكر عدة أسباب وهي :

١ - أن التبشير مطلوب لأننا مأمورون بصفة عامة أن نبشر ولا ننفر .

(١ ، ٢ ، ٣) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ١٦٠ .

٢ـ أن المسلمين عامة والعاملين للإسلام خاصة يمرون بمرحلة عصيبة من مراحل تاريخهم المعاصر، وتكاد تغلب في هذه المرحلة عوامل اليأس ومشاعر الإحباط؛ وهذا الشعور إذا استسلمت له الأنفس قتل فيها الهمم، وخدَّر العزائم، ودمر الطموحات .

٣ـ أن القوى المعادية للإسلام، تريد أن تعلن ـ بل قد أعلنت بالفعل ـ على الإسلاميين حرباً نفسية، تيئسهم من الأمل في غد أفضل، والرجاء في مستقبل مشرق، وبدأت حملات مسعورة، تحركها قلوب موتورة، وتقودها أقلام مأجورة، وأبواق مأمورة، تتهم وتلطخ وتشوه كل ما هو إسلامي .

٤ـ أن كثيراً من المتدينين يشيع بينهم فكر مغلوط عن «آخر الزمان» وبعبارة أخرى: عن مستقبل أقرب إلى السواد، إن لم يكن أسود حالكاً .

لهذا كنا في حاجة إلى تجلية حقيقة «المبشرات» الغائبة عن كثيرين [١] .

مظاهر التبشير عند القرضاوي :

هذا وقد سجل الشيخ في كتاباته مظاهر التبشير ويحسن بنا أن نشير إليها باختصار:

١ ـ تغليب الأمل والتفاؤل .

٢ ـ تغليب جانب الرحمة والمغفرة والعفو الإلهي على جانب البطش والعقوبة والانتقام .

٣ ـ التركيز على المبشرات بانتصار الإسلام وحسن مستقبله وعدم التركيز على أحاديث الفتن وأشراط الساعة .

٤ ـ اتساع الصدور لكل الناس وإن لم يكونوا على المستوى المنشود .

٥ ـ الرفق بالإنسان إذا وقع منه الخطأ، فمن شأن الإنسان أن يخطئ وينسى .

٦ ـ التدرج بالناس في الدعوة والتعليم [٢] .

---

(١) انظر : المبشرات بانتصار الإسلام ص ٥، ٦ .

(٢) تراجع هذه المظاهر بالتفصيل في كتاب : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ١٦١ ـ ١٧١، وانظر المبشرات بانتصار الإسلام .

مظاهر التنفير عند القرضاوي :

وإذا كان للتبشير مظاهر عند الشيخ فإن للتنفير مظاهر أهمها :

١ – الغلظة والفظاظة في التعامل مع الناس .

٢ – سوء المظهر في الصورة واللباس والسمت للداعية .

٣ – تقديم الإسلام في صورة منفرة ، حيث يقدم بعض الناس الإسلام في صورة تقشعر من هولها الجلود وترتعد من قسوتها الفرائص ، وتوجل من ذكرها القلوب .

٤ – إساءة الظن بالناس(١) .

رأي الشيخ في تفسير أحاديث الفتن وأشرط الساعة والتعلق بها :

وإذا كان التركيز على المبشرات بانتصار الإسلام مظهراً من مظاهر التبشير فإن الشيخ يرى التركيز على أحاديث الفتن وأشراط الساعة يعد مظهراً من مظاهر التنفير، خصوصاً إذا شرحت هذه الأحاديث بشرح مغلوط ، أو فهمت بفهم مقلوب ، أو وضع منقوص .

وفي تعليق الشيخ على حديث «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً»(٢) ، يقول الشيخ : ومن المؤسف أن كثيراً من الأحاديث المتعلقة بـ« آخر الزمان» أو ما يسمى «أحاديث الفتن» و«أشراط الساعة» يفهمها بعض الناس فهماً يوحي باليأس من كل عمل للإصلاح والتغيير . ولا يتصور أن يدعو الرسول الكريم ﷺ الأمة إلى اليأس والقنوط، وترك الفساد يستشري في الناس ، والمنكرات تنخر في عظام المجتمع ، دون أن يصنع الناس شيئاً ، يُقوِّم ما اعْوَجّ ، أو يصلح ما فسد(٣).

---

(١) يراجع في التفصيل لهذه الظاهرة كتاب : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ١٧٢ - ١٨٧ .

(٢) رواه مسلم في باب الإيمان رقم (١٤٥) عن أبي هريرة .

(٣) انظر : المبشرات بانتصار الإسلام ص ١٢١ .

ويذكر الشيخ رؤيته وفهمه لهذا الحديث بقوله : والذي أراه أن الحديث يتحدث عن دورات أو موجات تأتي وتذهب ، وأن الإسلام يعرض له ما يعرض لكل الدعوات والرسالات من القوة والضعف ، والامتداد والانكماش ، والازدهار والذبول ، وفق سنن الله التي لا تتبدل ، فهو كغيره خاضع لهذه السنن الإلهية ، التي لا تعامل الناس بوجهين ، ولا تكيل لهم بكيلين ، فما يجري على الأديان والمذاهب يجري على الإسلام، وما يجري على سائر الأمم يجري على أمة الإسلام(١).

* * *

(١) انظر : المرجع السابق ص ١٢٣ .

المبحث الثالث

الوضــــوح

الإسـلام هو دين الفطرة ومن سـمـات هذا الدين الوضـوح ، قـال تعـالى : ﴿ قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الـزمـر : ٢٨]، وقـال ﷺ : « قـد تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها ولا يزيغ عنها إلا هالك . . »[١].

واسمع إليه ﷺ وهو يرد على أحد المتكلفين المتشدقين: عن المغيرة بن شعبة قال: ضربت امرأة ضرتها بعمود فسطاط وهى حبلى فقتلتها، قال: فجعل رسول الله ﷺ دية المقتولة على عصبة القاتلة وغرة ، فقال رجل من عصبة القاتلة: أنغرم دية من لا أكل ولا شرب ولا استهل فمثل ذلك يطل؟! فقال رسول الله ﷺ : أسجع كسجع الأعراب »[٢].

وقد ابتليت الأمة في كثير من الأوقات بأناس تنطعوا في ألفاظهم وكلماتهم ومصطلحاتهم، ظهر هذا التنطع عند الفلاسفة المتكلمين ، وبعض الفقهاء والمتصوفين ، حتى غدت كلمات هؤلاء ألغازاً تحتاج إلى حل ، وأقفالاً تحتاج إلى مفتاح ، وقد حمل الإمام ابن القيم على هؤلاء حملة قوية في كتابه مدارج السالكين فقال :

فأين في كتاب الله أو سنة رسوله أو كلام الصحابة؛ الذين نسبة معارف من بعدهم إلى معارفهم كنسبة فضلهم ودينهم وجهادهم إليهم ما يدل على ذلك أو يشير إليه؟ فصار المتأخرون أرباب هذه الاصطلاحات الحادثة بالألفاظ المجملة، والمعاني المتشابهة أعرف بمقامات السالكين، ومنازل السائرين وغاياتها، من أعلم الخلق بالله بعد رسله ؛ هذا من أعظم الباطل ، وهؤلاء في باب الإرادة والطلب والسلوك نظير أرباب الكلام من المعتزلة والجهمية، ومن سلك

---

(١) رواه أحمد (١٧١٤٢) عن العرباض بن سارية ، وقال مخرجو المسند : حديث صحيح بطرقه وشواهده ، وهذا إسناد حسن، ورواه الحاكم (١ / ٩٦) وابن ماجه (٤٣) ، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٩٣٧) .

(٢) رواه مسلم في القسامة رقم (١٦٨٢) عن المغيرة.

سبيلهم في باب العلم والخبر عن الله وأسمائه وصفاته، فالطائفتان بل وكثير من المصنفين في الفقه من المتكلفين أشد التكلف، وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا.

فلا تجد هذا التكلف الشديد، والتعقيد في الألفاظ والمعاني عند الصحابة أصلا، وإنما يوجد عند من عدل عن طريقهم، وإذا تأمله العارف وجده كلحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل، فيطول عليك الطريق ويوسع لك العبارة، ويأتي بكل لفظ غريب ومعنى أغرب من اللفظ، فإذا وصلت لم تجد معك حاصلاً طائلاً، ولكن تسمع جعجعة ولا ترى طحنا.

فالمتكلمون في جعاجع الجواهر والأعراض، والأكوان والألوان، والجوهر الفرد، والأحوال والحركة والسكون، والوجود والماهية والانحياز، والجهات والنسب والإضافات، والغيرين والخلافين، والضدين والنقيضين، والتماثل والاختلاف، والعرض هل يبقى زمانين؟ وما هو الزمان والمكان؟ ويموت أحدهم ولم يعرف الزمان والمكان، ويعترف بأنه لم يعرف الوجود هل هو ماهية الشيء أو زائد عليها؟ ويعترف أنه شاك في وجود الرب هل هو وجود محض، أو وجود مقارن للماهية؟ ويقول: الحق عندي الوقف في هذه المسألة.

وكذلك كثير من المنتسبين إلى الفقه، لهم مثل هذا التكلف وأعظم منه، فكل هؤلاء محجوبون بما لديهم موقوفون على ما عندهم خاضوا بزعمهم بحار العلم وما ابتلت أقدامهم، وكدوا أفكارهم وأذهانهم وخواطرهم وما استنارت بالعلم الموروث عن الرسل قلوبهم وأفهامهم، فرحين بما عندهم من العلوم، راضين بما قيدوا به من الرسوم، فهم في واد ورسول الله وأصحابه في واد، والله يعلم أنا لم نتجاوز فيهم القول بل قصرنا فيما ينبغي لنا أن نقوله، فذكرنا غيضاً من فيض وقليلاً من كثير(١).

---

(١) انظر: مدارج السالكين ابن القيم ج ٣ ص ٤٣٦ - ٤٤٠ بتصرف.

الوضوح في منهج القرضاوي:

والشيخ القرضاوي يتسم منهجه الدعوي بالوضوح ، وقد اقتبس الشيخ هذه السمة من سمات الدين الخالد ، ومن ثم فقد كانت دعوة الشيخ واضحة كل الوضوح وسوف ألقي الضوء على وضوح دعوة الشيخ كالتالي :

١ – في الألفاظ والكلمات .

٢ – في الأهداف والغايات .

٣ – في الأساليب والوسائل .

٤ – في المواقف الحاسمة .

أولاً : دعوة الشيخ واضحة في الألفاظ والكلمات :

الشيخ القرضاوي في ألفاظه وكلماته الدعوية واضح كل الوضوح فهو يبتعد كل البعد عن المصطلحات الغامضة ، والكلمات المشتبهة ، والألفاظ الوعرة ، والمسالك المطولة ، والتقسيمات الشائكة ، تقرأ هذا في كتابات الشيخ في العقيدة كما في الفقه، وتراها في الدعوة كما تراها في السياسة ، وتلحظ ذلك في كتابات الشيخ ومقالاته ، كما تلحظها في خطبه وكلماته .

إنه صريح كل الصراحة واضح كل الوضوح ، يصل إلى ما يريد بغير ما لف ولا دوران ، لذا ترى الشيخ حين يدعو إلى تيسير الفقه يؤكد على توخي السهولة والتوسط وأن هذا إنما يكون بما يلي :

١ - أن يكتب بلغة مبسطة، وأسلوب سهل، بعيد عن الإغراب في الألفاظ، والتكلف في العبارات .

٢ - تجنب وعورة المصطلحات التي فيها كثير من الغموض لدى القارئ غير المتخصص ، وترجمتها إلى عبارات سلسة مفهومة للشخص العادي .

٣ - التوسط بين الإيجاز الملغز ، الذي عرفت به « المتون » في المذاهب المتبوعة، والتي كان المقصود منها تسهيل الحفظ ، ثم احتاجت المتون إلى شروح، والشروح إلى حوآش ، والحواشي أحياناً إلى تقريرات . . .[1]

ويحمل الشيخ على دعاة الغموض والتكلف ، ويجعل هذا الغموض إنما هو

---

(١) انظر : نحو فقه ميسر معاصر ص ١٦ .

دليل على البعد عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يقول الشيخ : فالقرآن « كتاب مبين » يسره الله للذكر ، وجعله هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، وفيه قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ [النساء : ١٧٤].

والسنة - كالقرآن - قدمت أجل الحقائق ، وأشرف المعارف ، وأسمى التوجيهات ، في وضوح رائع ، وبساطة فائقة ، وسهولة مشرقة . لا تكلف فيها ولا تعمل ، ولا تعمق ولا تعقيد ، وقد قال الله لرسوله: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦] .

ومن عاش مع النبي ﷺ في سنته وسيرته ، تبين له هذا الوضوح واليسر كالصبح لذي عينين . وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم .

وفرق بين أن تقرأ في الاستدلال على وجود الله تعالى قول القرآن الكريم : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥ ، ٣٦] وبين أن تقرأ قول المتكلمين في نفس الموضوع : « العالم بجميع أجزائه محدث ، إذ هو أعيان وأعراض ، فالأعيان ما له قيام بذاته . وهو إما مركب وهو الجسم ، أو غير مركب كالجوهر ، وهو الجزء الذي لا يتجزأ . والعرض ما لا يقوم بذاته ، ويحدث في الأجسام والجواهر ، كالألوان والأكوان والطعوم والروائح . والمحدث للعالم هو الله !! اهـ من العقائد النسفية . وفيه - مع تكلفه - إشكالات واعتراضات، وهو ما كتب في علم الكلام ، فكيف بغيرها ؟!

وفرق بين قوله ﷺ لمن سأله أن يدله على أمر يعتصم به ، فقال « قل آمنت بالله، ثم استقم »[1] وقوله : « البر حسن الخلق . والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس »[2].

فرق بين هذا التوجيه الرباني الواضح السهل المنير للعقل والقلب معاً ، وبين تعمقات الفلاسفة ، وتدقيقات المتكلمين ، وتشقيقات بعض الفقهاء ، وتمتمات

---

(١) رواه مسلم في الإيمان رقم (٣٨) عن سفيان بن عبد الله .

(٢) رواه مسلم في البر والصلة برقم (٢٥٥٣) عن النواس بن سمعان .

كثير من الصوفية ، في الأحوال والمقامات، والتقاسيم والتعاريج، التي أكثرها أحاج وألغاز ، لا يتصورها أكثر الناس إلا بصعوبة ، ولا يفهمها إلا بترجمة[1] .

وإذا كان الشيخ يكره الغموض على بعض المنتسبين إلى الإسلام فإنه ينكر كذلك الغموض وعدم الوضوح على الأيدلوجيات الحديثة ودعاتها فيقول : ومن العجيب أن الذين يحاولون التنقص من هذه الخصيصة من خصائص الإسلام ، بالتهويل أو التضخيم في أمر الاختلاف الذي حدث في تاريخ المسلمين ، وإلصاق كل فئة شاذة مارقة بصميم الأمة المسلمة ، هؤلاء يتعامون عن الغموض البيِّن ، والاختلاف البارز ، الذي يراه ويلمسه كل دار للأيديولوجيات الوضعية المعاصرة التي أصبحت « أصنام » هذا العصر ، وغدا هؤلاء ، وأمثالهم من الكتاب « الكهنة » الجدد لهذه الأوثان .

إن هذه الأيدلوجيات الحديثة البراقة ، تفتقر إلى مجرد تعريف دقيق - أو كما يقول المناطقة : جامع مانع - يحدد مدلولها ، ويوضح طبيعتها ومفاهيمها الأساسية ، فإن هذا التعريف المجرد مفقود ، ولهذا يختلفون حولها في كل شيء ، حتى في معناها : ما هو ؟

خذ مثلاً : الديمقراطية . . .

فنحن لا نكاد نجد القرن العشرين أيدلوجية اجتماعية ، ولا تنظيمية سياسية ، من الليبرالية ، إلى الاشتراكية ، إلى الشيوعية ، أو حتى الفاشيستية ، أو النازية ، إلا وتدعي كل منها أنها هي « الديمقراطية » الحقة ، وأن ما عداها ديمقراطية زائفة ، وبات الناس حائرين ، أي هذه الديمقراطيات هو الأصيل ، وأيها المدعي ؟

ولا يخرج من هذا الغموض وهذه البلبلة الاحتكام إلى معايير خلقية أو روحية ، لأن الجميع يدعون الحرص على الحرية والمساواة وكرامة الإنسان .

ولا الاحتكام إلى « معايير اجتماعية وضعية » لأن كل فئة ستقدم لنفسها معياراً تبرر به منهجها وأسلوبها ، فمفكرو الديمقراطية الغربية يعتمدون المعيار

---

(١) انظر : كيف نتعامل مع التراث ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ .

السياسي ، ويميزون ديمقراطيتهم بالحرية السياسية . على حين يعتمد الماركسيون المعيار الاقتصادي، فيميزون ديمقراطيتهم بالحرية الاجتماعية والاقتصادية .

ويتحدى الصينيون المعيارين معاً خلال ما يسمونه « الديمقراطية الجديدة » . ويتحداها أيضاً الثوريون الآسيويون والإفريقيون من خلال ما يدعونه « الديمقراطية الاشتراكية » .

بل وجدنا من يجمع الضدين ، من خلال ما يسمونه « الدكتاتورية الديمقراطية »[1].

ثانياً : الوضوح في الأهداف والغايات :

ووضوح منهج القرضاوي الدعوي في الأهداف والغايات إنما يستمده من وضوح الإسلام ، أو من الإسلام الواضح ، الإسلام الواضح الذي قال عنه الشيخ : الإسلام الذي ندعو إليه : إسلام واضح وضوح الشمس في رابعة النهار ، إسلام القرآن والسنة ، مصادره واضحة ، أصوله بينة [2].

والأهداف والغايات الدعوية التي ظهرت في دعوة الشيخ القرضاوي ، هي أهداف وغايات شيخه البنا رحمه الله وهذه الأهداف الواضحة للشيخ وشيخه تتمثل في أمور سبعة وهي :

١ – الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته ، في خلقه وعاطفيته و في عمله وتصرفه .

٢ – البيت المسلم في تفكيره وعقيدته ، في خلقه وعاطفيته ، في عمله وتصرفه .

٣ – الشعب المسلم في تفكيره وعقيدته ، في خلقه وعاطفيته ، في عمله وتصرفه .

٤ – الحكومة المسلمة التي تقود الشعب إلى المسجد وتحمل الناس على هدي الإسلام .

---

(١) انظر : الخصائص العامة ص ١٩٥ – ١٩٧ بتصرف .
(٢) انظر : الإسلام الذي ندعو إليه ص ٩ .

٥ – ضم كل جزء من الوطن الإسلامي الذي فرقته السياسة الغربية وأضاعت وحدته المطامع الأوربية .

٦ – أن تعود راية الله إلى كل البقاع التي سعدت بالإسلام جبناً من الدهر.

٧ – عالمية الدعوة ونشرها في كل آفاق الأرض [١].

ثالثاً : الوضوح في الوسائل والأساليب :

وهذا ما عرف به الشيخ القرضاوي منذ نعومة أظفاره ، فلم يكن غامضاً في وسائله وأساليبه الدعوية ، وهذه وسائله المقروءة، والمسموعة، والمرئية، كلها تشهد بالوضوح .

ولعل قائلاً أن يقول : وأين الوضوح وشيخكم ظل فترة طويلة جندياً بل قائداً في جماعة «الإخوان المسلمون» ودعوتها ؟

ولهؤلاء نقول : وما العيب في انضمام الشيخ إلى جماعة ما ؟

وما الخطأ في انضمامه إلى جماعة ما ؟

وما المحرم في انضمامه إلى جماعة ما أيّاً كانت هذه الجماعة ؟

أو ليس العمل لنصرة الإسلام من أجل الأعمال ؟

أو ليس التعاون على البر والتقوى من آكد الفروض ؟

أو ليس الشيطان قريباً من الواحد أشد من قربه من الاثنين أو الثلاثة، فضلاً عن الجماعة ؟

ولهذا حمل الشيخ على من يقول بعدم شرعية العمل الجماعي فقال : ومما يجب التنبيه عليه، ولا يحسن السكوت عنه هنا : ما يشيعه بعض الأفراد وبعض الفئات التي تحمل النسب الإسلامي، من أفكار تتعلق بهذا الجانب .

ومن ذلك ما صدر لبعضهم من حكم أو فتوى تجعل أي تكوين لجماعة ، أو انتساب إليها عملاً محرماً ، وابتداعاً في الدين لم يأذن به الله ، سواء سميت هذه المؤسسة جماعة أو جمعية أو حزباً ، أو ما شئت من الأسماء والعناوين .

وهذه جرأة غريبة على دين الله ، وتهجم على الشرع بغير بينة ، وتحريم

---

(١) انظر : مجموع الرسائل الإمام البنا ص ١٧٧ ، ١٧٨ باختصار ، والإخوان المسلمون القرضاوي ص ٨٦ ، ٨٧ ، والخصائص العامة للإسلام القرضاوي ص ١٨٢ وما بعدها .

لما أحل الله بغير سلطان . فالأصل في الأشياء والتصرفات المتعلقة بعادات الناس ومعاملاتهم الإباحة . وتكوين الجماعات العاملة للإسلام منها .

بل الصواب أن تكوين هذه الجماعات مما توجبه نصوص الشرع العامة، وقواعده الكلية . فالله تعالى يقول : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٢]. ويقول : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران : ١٠٣]

والرسول ﷺ يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً »[١] ، « يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار »[٢].

إن العمل الجماعي لنصرة الإسلام ، وتحرير أرضه ، وتوحيد أمته ، وإعلاء كلمته فريضة وضرورة . فريضة يوجبها الدين ، وضرورة يحتمها الواقع ، والعمل الجماعي يعني تكوين جماعات أو أحزاب تقوم بهذا الواجب [٣].

والحق أن جماعة « الإخوان المسلمون » خصوصاً وأي جماعة من الجماعات التي تعمل للإسلام لم تذهب إلى السرية في عملها إلا حين ألجأتها الحكومات إلى هذا وإلا فإن هذه الجماعات بأكملها لو أعطيت لها الفرصة ، وفتحت لها أبواب الحرية ، لما لجأوا إلى السرية في عملهم أبداً .

وقد عد الشيخ الوضوح من أهم ملامح وقسمات الحركة الإسلامية في الغد فقال : أن تتجنب الثنائية في القيادة والعمل ، فلا تسمح بوجود قائد سري ، وآخر علني ، ونظام في النور، وآخر تحت الأرض ، وقادة رسميين ظاهرين في « الفترينة » وآخرين أخفياء يعملون في « الورشة » ! وإنما جماعة واحدة ، وقيادة واحدة ، وعمل مشترك ، يتحمل الجميع مسئوليته »[٤].

---

(١) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (١٦٧٠) ، رواه البخاري في الصلاة رقم (٤٨١) ، ومسلم في البر والصلة رقم (٢٥٥٨٥) عن أبي موسى.

(٢) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٧) والحاكم (٢٠٠١) وذكره الألباني في صحيح الترمذي برقم (٣٨٢).

(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٦٦٣ ، ٦٦٤ بتصرف.

(٤) انظر : الحل الإسلامي فريضة وضرورة ص ٢٢٨ .

رابعاً : الوضوح في المواقف الحاسمة :

في بعض الأوقات يؤثر الإنسان السلامة لنفسه، حرصاً على البقاء، أو خوفاً على الرزق؛ وإن استساغ الناس هذا الأمر، فإن للدعاة موقفاً مغايراً، ورأياً مخالفاً.

والشيخ القرضاوي يعرف بالوضوح كل الوضوح، وخصوصاً في المواقف الحاسمة التي تحتاج إلى بيان، وتنتظر الأمة فيها أن تسمع كلمة العلماء .

إنه لا يحب في المواقف الحاسمة اللف ولا الدوران ، ولا يلجأ إلى التميع ولا الإرجاء، ولكنه يعلنها صريحة وإن كلفه الأمر ما كلفه مردداً قول أمير الشعراء :

قف دون رأيك في الحياة مجاهداً   إن الحياة عقيدة وجهاد

وعلى نحو ما قال الشاعر :

فإما حياة تسر الصديق   وإما ممات يغيظ العدا

إن الوضوح من الشيخ في المواقف الحاسمة مطلوب لأنه عالم من أبرز علماء الأمة، وإذا لم يظهر العلماء بمواقفهم الحاسمة فعلى الدنيا السلام ، وقد قال القائل :

يا أيها العلماء يا ملح البلد   ما يصلح الملح إذا الملح فسد ؟

إن الشيخ القرضاوي لا يسعه السكوت إذا احتاج الموقف إلى الكلام، ولا يسعه الصمت إذا احتاج الموقف إلى حديث ،ولا يسعه التنحي إذا احتاج الموقف إلى مواجهة، وكثيراً ما ينتظر الناس كلمة الشيخ في هذه المواقف الحاسمة.

وفي أزمة العراق الأخيرة تغيب الشيخ عن منبره في الدوحة مدة طويلة ، من منتصف شهر شعبان ١٤٢٣ هـ حتى أوائل المحرم ١٤٢٤ هـ ، حتى ظن الناس بالشيخ الظنون، وتوهموا الأوهام ، وأشاعوا الأقاويل ، فمنهم من قال : منع الشيخ من الخطابة ، ومنهم من قال : إن الشيخ لم يمنع ولكنه آثر السلامة لحساسية الموقف فانسحب مختاراً ، وقد أساءوا بالشيخ الظن ، وهنا رد الشيخ على هؤلاء بقوله في خطبته الأولى التي كانت بتاريخ ٧ / ٣ / ٢٠٠٣ م :

سألني من سألني: ما موقفك في هذه القضية ؟ وأنا قد أعلنت موقفي أيها الأخوة، لم أخبئ موقفي ولم أخرس لساني أبداً، أعلنت موقفي في أكثر من مرة في برنامج «الشريعة والحياة»، وأعلنت موقفي للصحف، وأعلنت موقفي للإعلام في بريطانيا وفي بعض البلاد الأوروبية، وأعلنت موقفي لصحفيين أمريكيين زاروني هنا في قطر وسألوني ما موقفي ؟

موقفي موقف معروف غير مجهول، مكشوف غير مستور، لأنه لا يمكن إلا أن يكون موقف الشرع الإسلامي من هذه القضية، ما موقف الشرع من غزو بلد إسلامي؟ هل يجهل أحد هذا الموقف؟ هل هذا الحكم الشرعي مجهول لأحد؟ إن جميع الفقهاء من جميع المذاهب كلهم يقولون: إذا غزا الكافر بلداً مسلماً فإن على جميع أهله أن يخرجوا وينفروا لمقاومته وطرده من ديارهم، هذا يعتبر فرض عين على أهل البلد جميعاً رجالهم ونسائهم، كل من يقدر على المقاومة لابد أن يقاوم حتى قال الفقهاء: تسقط الحقوق الفردية في هذه الحالة فتخرج المرأة بغير إذن زوجها، ويخرج الولد بغير إذن أبيه، ويخرج الخادم بغير إذن سيده، لأن حق الجماعة وحق الأمة فوق حقوق الأفراد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، على أهل البلد أن يقاوموا الغزاة خفافاً وثقالاً، مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فإن قدروا على طردهم وإخراجهم من ديارهم فبها ونعم، وإلا انتقلت الفرضية إلى جيرانهم ومن يليهم من المسلمين، فيجب عليهم أن ينضموا إليهم ويقاوموهم بما يستطيعوا من الرجال والمال والسلاح، ويصبحوا جماعة واحدة في مقاومة الغزاة المحتلين، فإن عجز من يليهم انتقل الواجب إلى من يليهم، ثم من يليهم، حتى يشمل المسلمين كافة.

* * *

المبحث الرابع

الوسطية

من أبرز خصائص الإسلام خصيصة الوسطية، والوسطية تعني التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل[1].

والحق أن الكون كله إنما قام على التوسط والاعتدال ، ولا يكاد شيء في الكون كله يخرج عن هذه الخصيصة ، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩] .

وللإمام الشاطبي كلام رائع يوضح فيه ميزة الوسطية فيقول رحمه الله: المفتي البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال، والدليل على صحة هذا: أنه الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة؛ فإنه قد مر أن مقصد الشارع من المكلف الحمل على التوسط من غير إفراط ولا تفريط، فإذا خرج عن ذلك في المستفتين خرج عن قصد الشارع، ولذلك كان ما خرج عن المذهب الوسط مذموما عند العلماء الراسخين، وأيضا فإن هذا المذهب كان المفهوم من شأن رسول الله ﷺ وأصحابه الأكرمين، وقد رد عليه الصلاة والسلام التبتل[2]، وقال لمعاذ لما أطال بالناس في الصلاة: «أفتان أنت يا معاذ؟»[3]، وقال: «سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا»[4]

---

(١) انظر: الخصائص العامة للإسلام القرضاوي ص ١١٥ .

(٢) رواه البخاري في النكاح برقم (٥٠٧٣) ومسلم في النكاح رقم (١٤٠٢) عن سعد بن أبي وقاص بلفظ «رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا».

(٣) رواه البخاري في الأدب رقم (٦١٠٦) ومسلم في الصلاة رقم (٤٦٥) عن جابر بن عبد الله.

(٤) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٣) عن أبي هريرة..

وقال: «عليكم من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا »[١] وكثير من هذا .

وأيضا فإن الخروج إلى الأطراف خارج عن العدل ولا تقوم به مصلحة الخلق؛ أما في طرف التشديد فإنه مهلكة، وأما في طرف الانحلال فكذلك أيضا؛ لأن المستفتى إذ ذهب به مذهب العنت والحرج بغض إليه الدين، وأدى إلى الانقطاع عن سلوك طريق الآخرة وهو مشاهد، وأما إذا ذهب به مذهب الانحلال كان مظنة للمشي مع الهوى والشهوة ؛ والشرع إنما جاء بالنهي عن الهوى، واتباع الهوى مهلك والأدلة كثيرة .

فعلى هذا يكون الميل إلى الرخص في الفتيا بإطلاق مضاد للمشي على التوسط كما أن الميل إلى التشديد مضاد له أيضا، وربما فهم بعض الناس أن ترك الترخص تشديد فلا يجعل بينهما وسطا وهذا غلط ، والوسط هو معظم الشريعة وأم الكتاب[٢] .

والشيخ القرضاوي من دعاة الوسطية ، بل يعد من أبرز دعاتها، وقد اتسمت دعوة الشيخ بالوسطية، كما عرف منهجه الدعوي بالاعتدال ، يقول حفظه الله موضحاً خصائص منهجه في الفتوى: ومن خصائص المنهج الذي سرت عليه: التزام روح التوسط دائماً، والاعتدال بين التفريط والإفراط. بين الذين يريدون أن يتحللوا من عرى الأحكام الثابتة بدعوى مسايرة التطور من المتعبدين بكل جديد ، وبين الذين يريدون أن يظل كل ما كان على ما كان من الفتاوى والأقاويل والاعتبارات، تقديساً منهم لكل قديم[٣].

ويرى الشيخ بأن الوسطية هي الطابع العام والسمة الأصلية لثقافتنا وحضارتنا الإسلامية - بصفة عامة - على امتداد القرون [٤].

ولقد ظهرت هذه الوسطية في كتابات الشيخ كما هو واضح في أولويات الحركة الإسلامية وفي فقه الأولويات ، والصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي،

---

(١) رواه البخاري في الصوم رقم (١٩٧٠)، ومسلم في صلاة المسافرين رقم (٧٨٥) عن عائشة وهذا لفظ البخاري.

(٢) انظر : الموافقات الشاطبي ج ٤ ص ٢٥٨- ٢٦٠ .

(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٢١ .

(٤) انظر : الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد ص ١٥ .

ومستقبل الأصولية الإسلامية ، والصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ، وأوليات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة .... وغيرها .

ووسطية الشيخ تظهر حتى في عناوين كتبه ، فهو يتخذ موقفاً وسطاً بين طرفين، بين الغاليين والمقصرين ، بين المتشددين والمتساهلين ، وقد زادت هذه الكتب « البينية » عن العشر كتب وهي :

١ – الفتوى بين الانضباط والتسيب .

٢ – الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد .

٣ – الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط .

٤ – الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة .

٥ – الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف .

٦ – الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير .

٧ – الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .

٨ – الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه .

٩ – النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه .

١٠ – الجويني إمام الحرمين بين المؤرخين الذهبي والسبكي .

١١ – ثقافتنا بين الانغلاق والانفتاح .

وقد لاحظ بعض الدارسين هذا على كتابات الشيخ ، بل إن الشيخ يسعى إلى تكوين جمعية ثقافية أسماها « جمعية الأمة الوسط في الفكر والثقافة » [١].

لماذا اختار القرضاوي الوسطية ؟

والشيخ القرضاوي في تبنيه لمنهج الوسطية في الدعوة إنما اختاره لعدة أسباب :

١ ـ أن هذه الأمة هي الأمة الوسط بنص كتاب الله ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ [البقرة : ١٤٣][٢].

٢ ـ أن الوسطية السمة الأصلية للحضارة الإسلامية على مرّ القرون .

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢٦١ .

(٢) من اللطائف أن هذه الآية تتوسط سورة البقرة حيث أن رقمها ١٤٣ ، وسورة البقرة آياتها ٢٨٦ .

٣ ـ أن الكون كله قائم على الوسطية والاعتدال .

٤ ـ أن طبيعة الإنسان قائمة على الوسطية بين المادية والروحية ، وبين الجماعة والفردية .

٥ ـ أن الوسطية تمثل منطقة الأمان والبعد عن الخطر ، فالأطراف عادة تتعرض للخطر والفساد بخلاف الوسط فهو محمي ومحروس بما حوله؛ وفي هذا قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً(١)

٦ ـ أن الوسطية هي إحدى السمات الظاهرة والخصائص الواضحة في الإسلام؛ فهو وسط في الاعتقاد والتصور ، وسط في التعبد والتنسك ، وسط في الأخلاق والآداب، وسط في التشريع والنظام (٢).

٧ ـ أن الوسطية أطول عمراً وأكثر بقاءً ، وأشد نفعاً من التفريط أو الإفراط.

٨ ـ أن الوسطية هي طوق النجاة للدعوة الإسلامية؛ بل للأمة الإسلامية كلها(٣) .

٩ ـ أن الإعراض عن الوسطية هو الهلاك بعينه والضياع في الدين والدنيا معاً سواء كان هذا الإعراض جنوحاً إلى جانب التسيب والانفلات ، أم كان الإعراض عن الوسطية جنوحاً إلى جانب الغلو والتنطع والتشدد (٤).

وقد أبرز الشيخ أهم ثلاث نقاط قادته إلى الوسطية فقال :

العامل الأول : عامل أساسي: أنه هذا الطريق الذي اسمه الوسطية الإسلامية ، وهو طريق لم نبتدعه ، فهو يعبر عن روح الإسلام ، وهو التيار الذي أعبر عنه ، وجندت نفسي في السنوات الأخيرة ، ومنذ فترة للعمل من أجله ، وهو تيار الوسطية الإسلامية .. وهذه الوسطية ليست ابتداعاً من عندي إنما هي روح الإسلام الحقيقي ، الذي عبر عنه القرآن بقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] . فالقرآن يدعونا إلى هذه الوسطية حيث يقول الله

(١، ٢) انظر : الخصائص العامة للإسلام ص ١٢١، ١٢٢ .

(٣) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢٤١ .

(٤) انظر : المرجع السابق ص ٢٤٢ .

تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٨، ٩]. والطغيان في الميزان الزيادة عن الحد، والاخسار نقص عن المطلوب .. لا إفراط ولا تفريط، هذا هو المنهج الإسلامي الصحيح، والنبي ﷺ يقول: « إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين »[١].

العامل الثاني : عامل التجربة : فهو أني نشأت في مدرسة تعمل في خدمة الإسلام، هذه المدرسة قام عليها رجل يتميز بالاعتدال في فكره وتحركه وعلاقاته، وذلك هو الإمام الشهيد حسن البنا .. فقد كان هذا الرجل أمة واحدة في هذه الناحية، حيث كان يتعامل مع جميع الناس حتى كان بعض مستشاريه من الأقباط،، وأدخلهم اللجنة السياسية، وكان يصطحب بعضهم في المؤتمرات، ورأى التقارب مع الشيعة ولذلك استقبل زعمائهم في المركز العام في القاهرة « المركز العام للإخوان المسلمين » .. فهذا الاعتدال عندي من تأثري أيضاً من اتجاه حسن البنا ومدرسته .

العامل الثالث : عامل شخصي : وهو أنني شخصياً ممن وهبهم الله فطرة الاعتدال والتوازن في النظر إلى الأمور : فأحب دائماً ألا أكون من المغالين إلى اليمين، ولا المتطرفين إلى اليسار وهذه موهبة إلهية .. وبعض الناس يميلون إلى التشدد، وبعضهم يميل إلى التحلل والتسيب، وأنا أجد نفسي دائماً في الموقف الوسط ..[٢].

المعالم المميزة لتيار الوسطية عند القرضاوي :

والشيخ القرضاوي حين دعا إلى الوسطية وقاد تيارها، كانت هذه الوسطية ذات معالم واضحة عند الشيخ، لأن هذا التيار الوسطي هو المخلص والملاذ للأمة من تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين[٣].

---

(١) رواه أحمد (١٨١٥) ابن عباس، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورواه أبو يعلي (٢٤٧٢) وابن ماجه (٣٠٢٩)، والحاكم (٤٦٦١). وذكره الألباني في صحيح النسائي رقم (٢٨٦٣).

(٢) انظر : لقاءات ومحاورات ج٢ ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢٥٤ .

وأهم معالم هذا الفكر الوسطي كما يراه الشيخ هي أنه :

وسط بين دعاة المذهبية الضيقة ، ودعاة اللامذهبية المنفرطة .

وسط بين أتباع التصوف وإن انحرف وابتدع ، وأعداء التصوف ، وإن التزم واتبع .

وسط بين دعاة الانفتاح على العالم بلا ضوابط ، ودعاة الانغلاق على النفس بلا مبرر .

وسط بين المحكمين للعقل : وإن خالف النص القاطع، والمغيبين للعقل : ولو في فهم النص .

وسط بين المقدسين للتراث، وإن بدا فيه قصور البشر ، والملغين للتراث ، وإن تجلت فيه روائع الهداية .

وسط بين المستغرقين في السياسة على حساب التربية ، والمهملين للسياسة كلية بدعوى التربية .

وسط بين المستعجلين لقطف الثمرة قبل أوانها ، والغافلين عنها حتى تسقط في أيدي غيرهم بعد نضجها .

وسط بين المستغرقين في الحاضر الغائبين عن المستقبل ، والمبالغين في التنبؤ بالمستقبل كأنه كتاب يقرءونه .

وسط بين المقدسين للأشكال التنظيمية كأنها أوثان تعبد ، والمتحللين من أي عمل منظم كأنهم حبات عقد منفرط .

وسط بين الغلاة في طاعة الفرد للشيخ والقائد كأنه الميت بين يدي الغاسل، والمسرفين في تحرره كأنه ليس عضواً في جماعة .

وسط بين الدعاة إلى العالمية دون رعاية للظروف والملابسات المحلية ، والدعاة إلى الإقليمية دون أدنى ارتباط بالحركة العالمية .

وسط بين المسرفين في التفاؤل متجاهلين العوائق والمخاطر ، والمسرفين في التشاؤم فلا يرون إلا الظلام ، ولا يرقبون للظلام فجراً .

وسط بين المغالين في التحريم كأنه لا يوجد في الدنيا شيء حلال ، والمبالغين في التحليل كأنه لا يوجد في الدنيا شيء حرام .

وسط بين الذين ينكرون الإلهام مطلقاً ، فلا يعترفون بوجوده ولا بأثره . . . والذين يبالغون في الاعتداد به ، حتى جعلوه مصدراً للأحكام الشرعية .

وسط بين دعاة التشدد ولو في الفروع والجزئيات . . ودعاة التساهل ولو في الأصول والكليات .

وسط بين فلسفة المثاليين الذين لا يكادون يهتمون بالواقع . . وفلسفة الواقعيين الذين لا يؤمنون بالمثل العليا .

وسط بين دعاة الفلسفة « الليبرالية » التي تعطي الفرد وتضخمه على حساب المجتمع . . ودعاة الفلسفة الجماعية « الماركسية » التي تعطي المجتمع وتضخمه على حساب الفرد .

وسط بين دعاة الثبات ولو في الوسائل والآلات . . ودعاة التطور ولو في المبادئ والغايات .

وسط بين دعاة التجديد والاجتهاد وإن كان في أصول الدين وقطعياته . . ودعاة التقليد وخصوم الاجتهاد وإن كان في قضايا العصر التي لم تخطر ببال السابقين .

وسط بين الذين يهملون النصوص الثابتة بدعوى مراعاة مقاصد الشريعة . . والذين يغفلون المقاصد الكلية باسم مراعاة النصوص .

وسط بين دعاة الغلو في التكفير حتى كفروا كل المسلمين المتدينين . . والمتساهلين فيه ولو مع صرحاء المرتدين .

هذه هي الوسطية التي تبناها هذا الفكر ، وإن كان الغالب على مجتمعاتنا اليوم : السقوط بين طرفي الإفراط والتفريط ، إلا من رحم ربك ، وقليل ما هم[1].

وتتلخص معالم هذا الفكر الوسطي عند الشيخ في عدة نقاط :

١ – فقهه للدين فقهاً يتميز بالشمول والاتزان والعمق .

٢ – فقهه لواقع الحياة دون تهوين ولا تهويل: لواقع المسلمين، وواقع أعدائهم .

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، وانظر : الشيخ يوسف القرضاوى شخصية العالم ص ١٤٥ وأولويات الحركة الإسلامية ١٠٧ .

٣ ـ فقه سنن الله وقوانينه التي لا تتبدل، وخصوصاً سنن الاجتماع البشري.

٤ ـ فقه مقاصد الشريعة وعدم الجمود على ظواهرها.

٥ ـ فقه الأولويات، وهو مرتبط بفقه الموازنات .

٦ ـ فقه الاختلاف وأدبه مع الفصائل الإسلامية الأخرى (التعاون في المتفق عليه والتسامح في المختلف فيه) .

٧ ـ الجمع بين السلفية والتجديد (أو بين الأصالة والمعاصرة) .

٨ ـ الموازنة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر.

٩ ـ الإيمان بأن التغيير الفكري والنفسي والخلقي أساس كل تغيير حضاري.

١٠ ـ تقديم الإسلام مشروعاً حضارياً متكاملاً لبعث الأمة ، وإنقاذ البشرية من الفلسفات المادية المعاصرة .

١١ ـ اتخاذ منهج التيسير في الفتوى ، والتبشير في الدعوة.

١٢ ـ إبراز القيم الاجتماعية والسياسية في الإسلام ، مثل : الحرية والكرامة والشورى والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان .

١٣ ـ الحوار بالحسنى مع الآخر ، أي المخالفين من غير المسلمين ، أو من المسلمين المغزوين عقلياً، والمهزومين روحياً.

١٤ ـ اتخاذ الجهاد سبيلاً للدفاع عن حرمات المسلمين وديار الإسلام[١].

ولما تحدث الشيخ عن جيل النصر المنشود وصف هذا الجيل بالوسطية والتوسط والتوازن والاعتدال في كل شيء فقال : وهم ـ مع صلابتهم وقوتهم وجهادهم وغيرتهم ـ متوازنون معتدلون، على صراط مستقيم، لا يميلون إلى اليمين، ولا ينحرفون إلى الشمال ، لا يَغْرَقون في الماديات ، ولا يُغْرِقون في

(١) انظر : فقه الأولويات ص ١٩٠ ، ١٩١ ، و للتوسع في شرح هذه المعالم انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢٦٦ وما بعدها ، والصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ص ٤٢ وما بعدها .

الروحانيات، يعلمون أن لربهم عليهم حقاً، وأن لأنفسهم عليهم حقاً، ولأسرهم عليهم حقاً، ولمجتمعهم عليهم حقا، فهم يعطون كل ذي حق حقه، غير جانحين إلى الإفراط، ولا مائلين إلى التفريط ، لا يطغون في الميزان ولا يخسرون، بل يقيمون الوزن بالقسط. ولا يخسروا الميزان [1].

ويقول أيضاً : لا يهملون الجسم من أجل تصفية الروح، ولا يغفلون الروح من أجل متاع الجسم. يمزجون بين الروح والمادة ، ويربطون بين الدنيا والآخرة، ويجمعون بين العلم والإيمان ، بين الواقعية والمثالية، بين العقل الذكي والقلب النقي، بين الثبات على الغايات والتطور في الأساليب ، بين أداء الواجبات وطلب الحقوق،، بين الحرص على القديم والاستفادة من الجديد ، لا ينقطعون عن الماضي، ولا ينعزلون عن الحاضر، ولا يُفرِّطون في قديم نافع، ولا يضيقون بجديد صالح [2].

ومن شعر الشيخ في ذلك وهو يدعو شباب الإسلام إلى التوسط والاعتدال فيقول في قصيدته «ابن الإسلام»:

يا ابن الحنيفة دين الحق، ها هو ذا	يدعوك، فانهض وشمر عاملا نشطا
خير الأمور سبيل القصد، فامض به	ولا تمل عنه ، لا وكساً ولا شططا
بين المغالاة والتقصير منزلة	هي التي جعلتنا أمة وسطا
فاثبت على منهج الإسلام في ثقة	مستعلياً يتحدى ضغط من ضغطا
والزم طريق رسول الله في صبر	وفي اعتدال، وجانب خلط من خلطا [3]

* * *

(١) انظر : جيل النصر المنشود ص ٤٥ ، ٤٦ .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ٤٨ ، ٤٩ .
(٣) انظر : المسلمون قادمون ص ٣٦ ، ٣٧ .

المبحث الخامس

التجميع لا التفريق

من أعجب المفرقات أن هذه الأمة أراد الله لها أن تكون أمة واحدة ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢] . وأراد أعداؤها أن تكون أمماً متناحرة ، أو أمماً متناثرة، والأعجب أن هذه الأمة اختارت ما أراده الأعداء لا ما أراده الله ، وآثرت الوحدة والفرقة على الجماعة والالتئام .

ولعل من آفات العمل الإسلامي والحركة الإسلامية ، التناحر فيما بينها ، حتى بدا اعتزاز كل فصيل بنفسه ، وازدرائه لغيره أمراً واضحاً لكل ذي عينين ؛ وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣] .

إن الوقت الذي تعيشه الأمة الآن ليس وقت الخلافات والتشاجر، ولا وقت الخصومات والتناحر، وهذا ما نوه عليه الشيخ الغزالي رحمه الله لأحد الشباب المتحمسين: اسمع يا بني لماذا تحبون الخصومات العلمية القديمة؟ كانت هذه الخصومات ودولة الإسلام ممدودة السلطة، خفيفة الضرر، إنكم اليوم تجددونها ودولة الإسلام ضعيفة، بل لا دولة له، فلم تعيدونها جذعة، وتسكبون عليها من النفط ما يزيدها ضراماً ؟[1].

ضرورة التجميع :

والشيخ القرضاوي حفظه الله من أشد الدعاة إلى توحيد الكلمة ، ومن أبرز الدعاة إلى توحيد الصف ، وهو في دعوته للتجميع إنما يرى أن ذلك التجميع ضرورة لأنه :

أولاً : أمر دعت إليه آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ .

---

(١) انظر : هموم داعية محمد الغزالي ص١٧ ط الأولى دار الحرمين للطباعة والنشر ١٩٨٣م.

ثانياً : أمر عاشه السلف الصالح .

ثالثاً : أن واقع الأمة وظروفها وضروراتها تقتضي ذلك [1].

والشيخ يرى بأن التجميع أمر واجب على الأمة وأنه : لو لم يكن منطق الدين يفرض عليهم أن يجمعوا صفهم ولا يتفرقوا ، لكان منطق الحياة ومنطق الواقع يفرض عليهم ذلك ، فإن الأهداف الكبيرة لا تتحقق إلا بتكاتف القوى ، والأعمال العظيمة لا تتم إلا بتضافر الجهود ، كما قال ذو القرنين للقوم الذين طلبوا منه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً، ويدفعوا له مبلغاً من المال، فعرض عليهم ما هو أجدى وأرشد من ذلك ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾ [الكهف : ٩٥] . فبالتعاون بينه وبين القاعدة الشعبية - مع عون الله تعالى وتمكينه - أمكنه أن يبني سده العظيم .

يؤيد هذا المنطق ويؤكده : أن أعداء الأمة يتكتلون بعضهم مع بعض ، ويوالي بعضهم بعضا ، ويتفقون على الكيد للمسلمين رغم اختلافهم فيما بينهم ، يشير إلى ذلك القرآن حين يقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال :٧٣][2] .

ولهذا فإن الشيخ القرضاوي أصَّل قاعدة المنار الذهبية التي قال فيها شيخه العلامة «رشيد رضا» : نتعاون فيما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه ؛ ومما قاله الشيخ القرضاوي في هذا الصدد : وهل يمكن لعالم مسلم يرى تعاون اليهودية العالمية ، والصليبية الغربية ، والشيوعية الدولية ، والوثنية الشرقية ، خارج العالم الإسلامي - إلى جوار الفرق التي انشقت عن الأمة ومرقت عن الإسلام ، داخل العالم الإسلامي - إلا أن يدعو أهل القبلة الذين التقوا على الحد الأدنى من الإسلام ، ليقفوا صفاً واحداً في وجه هذه القوى الجهنمية التي تملك السيف والذهب ، وتملك قبلهما المكر والدهاء والتخطيط ، لتدمير هذه الأمة مادياً ومعنوياً ؟! [3]

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج ٢ ص ١٣١ بتصرف .

(٢) انظر : أمتنا بين قرنين ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ١٣١ .

وقد كان الشيخ القرضاوي شديد الإعجاب بشيخيه «البنا» و«رشيد رضا» رحمهما الله؛ وكان من أسباب إعجابه هو محاولة التجميع التي عرف بها كلا الشيخين، فهو يقول عن «الشيخ رضا» وقاعدته الذهبية : ولم يضع «السيد رشيد» هذه القاعدة من فراغ، بل الذي يظهر للمتأمل أنه إنما استنبطها من هداية الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح ، وإملاء الواقع وظروفه وضروراته (١).

ويقول عن شيخه «البنا» : وقد كان التكوين العقلي والنفسي لحسن البنا يتجه إلى البناء لا الهدم وإلى الجمع لا التفريق(٢) .

ويقول في موضع آخر: فالرجل يريد أن يجمع الأمة على الأهداف الكبرى، وأن يحشد صفوفها على اختلاف وجهاتها في مقابلة القوى المعادية للإسلام جهراً والمتربصة به سراً ، ويحرص على أن تتناسى الخلافات الجزئية فيما بينها لتقف أمام أعدائها صفاً كأنهم بنيان مرصوص (٣).

والذي يؤلم الشيخ أن يرى أهل الباطل يتقاربون ، وأهل الضلال يتحدون، إنه يتألم حين يرى تقارب الكنائس والمذاهب النصرانية وتباعد المسلمين ، ويتألم أكثر حين يرى تقارب النصرانية العالمية مع أختها الكبرى اليهودية العالمية ، على ما بينهما من دماء وحروب ، وفي المقابل يرى اختلاف المسلمين في الكليات لا في الفروع وتقاتلهم على الجزئيات قبل الأصول ، يقول الشيخ حفظه الله : لقد رأينا الكنائس والمذاهب النصرانية يتقارب بعضها مع بعض ، رغم أن كل مذهب يعتبر ديناً مستقلاً بذاته ، وإن انتسبوا جميعاً إلى المسيحية ، فالكاثوليكية غير البروتستانتية ، وكلتاهما غير الأرثوزكسية ، وقد وقع بين هذه المذاهب من الصراعات والحروب ما انتفخت به بطون الكتب ، وما سجله التاريخ بمداد من الدم الأحمر ، ثم وجدوا المصلحة في تناسي هذا كله، والاتفاق على الحد الأدنى .

بل رأينا المسيحية تتقارب مع اليهودية، برغم العداء التاريخي بينهما ، وبرغم ما صنعه اليهود بالمسيح عليه السلام ، رأينا ذلك في الفاتيكان وتبرئة

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج ٢ ص ١٣١ .
(٢ ، ٣) انظر : شمول الإسلام ص ٣٠ ، ٣١ .

اليهودية من دم المسيح، ورأينا ذلك في المسيحية الأصولية ومساندتها المتحمسة والمتعصبة لدولة إسرائيل. رأينا ذلك أخيراً في اعتذار بابا الفاتيكان « يوحنا بولس الثاني » بصراحة عما وقع لليهود على يد الكنيسة المسيحية .

ورأينا اليهودية والوثنية الهندوسية تتعاونان وتتحالفان سراً وعلانية ، ورأينا الشيوعية الروسية السوفيتية والرأسمالية الأمريكية الغربية - في زمن الحرب الباردة - تتعايشان سلمياً ، بل تعقدان سياسة الوفاق من أجل المصلحة المشتركة.

فلماذا يكون المسلمون دون غيرهم ، هم الاستثناء الوحيد في العالم ، ليظلوا مناكرين غير متعارفين ، متباعدين غير متقاربين ، متخاذلين غير متناصرين، متفرقين غير مجتمعين ؟[1] .

ويقول في موضع آخر: ونحن نرى خصوم الإسلام يعملون في صورة تجمعات و تكتلات كبرى ، وبذلك يتمكنون من تحقيق أهدافهم الإقليمية والعالمية ، بتكاتفهم وتساندهم، وفناء بعضهم في بعض .

وهم بذلك يطبقون ما أوجبه ديننا ، فلو لم يكن هذا دينا مفروضاً من الله علينا لوجب علينا أن نقتبسه، حتى لا نختلف عنهم .

وإذا جاز لبعض الناس أن يتفرقوا ويختلفوا في أوقات العافية والرخاء والنصر ، فلا يجوز لهم بحال أن يتفرقوا في ساعات الشدة والعسرة والمحنة، فالمفروض أن المحن تجمع المتفرقين، وأن المصائب يجمعن المصابين ، وقديماً قال الشاعر :

عند الشدائد تذهب الأحقاد ....[2]

ويؤكد الشيخ على ضرورة الالتحام وخصوصاً بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م فيقول : ونحن الآن نعاني محنة قاسية ، وقوارع شديدة، في كل وطن من أوطاننا، وفي أمتنا بصفة عامة، وخصوصاً بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، دخلت الأمة من مشرقها إلى مغربها في امتحان عسير ، وموقف خطير، يستوجب منها عامة، ومن علمائها ودعاتها وفصائل صحوتها خاصة : أن ينسوا

---

(١) انظر : أمتنا بين قرنين ص ٢٢٢ .

(٢) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٣٤١ .

خلافاتهم الجانبية ، ومعاركهم الهامشية ، ويقفوا في جبهة واحدة متراصة في المعركة التي يواجهها الإسلام وأهله، فعند المعركة يجب أن يتلاحم الجميع ، ويتساند الجميع ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

نعم لقد كان الشيخ ومازال حريصاً كل الحرص على التعاون والتقارب والتجميع والتأليف :

* تعاون على المتفق عليه .
* وتجميع في الغايات والأهداف .
* وتقارب في الوسائل والأساليب .
* وتأليف للقلوب والعزائم .

المتفق عليه كبير :

ومن ثم فإنه يرى أن المتفق عليه فيما بيننا أكثر من المختلف فيه، وأن التعاون في المتفق عليه يؤدي إلى نتائج نحسد عليها إن نزلنا بها إلى أرض الواقع؛ يقول الشيخ : وأعتقد أن ما نتفق عليه ليس بالشيء الهين ولا القليل ، إنه يحتاج منا إلى جهود لا تتوقف، وعمل لا يكل ، وإرادة لا تعرف الوهن ، يحتاج منا إلى عقول ذكية، وعزائم قوية ، وأنفس أبية، وطاقات بناءة .

ألسنا متفقين على أن القرآن كلام الله، وأن محمدا رسول الله ؟

فلنتعاون على غرس معاني الإيمان الجملي في أنفس الناشئة .

ألسنا متفقين على أن الإلحاد أعظم خطر يهدد البشرية ؟

فلنتعاون على تحصين الشباب من وباء الإلحاد .

ألسنا متفقين على أن الإيمان بالدار الآخرة ركن في كل دين ؟

فلنتعاون ـ إذن ـ على تقوية الإيمان بالآخرة ، واليقين بالجزاء .

ألسنا متفقين على أركان الإسلام العملية الخمسة ؟

ألسنا متفقين على دعائم الإيمان الست ؟

فلماذا لا نتعاون على تجليتها وتثبيتها، وإيصالها إلى عقول المسلمين وقلوبهم .

ألسنا متفقين على مكارم الأخلاق التي بعث الرسول ليتممها ؟

فلنتعاون ـ إذن ـ على إشاعة هذه الفضائل ، وترسيخ هذه القيم .

ألسنا متفقين على مجموعة طيبة من الأحكام الشرعية القطعية الثابتة بحكم القرآن والسنة ؟

فلنتعاون على رعايتها والعمل على حسن تطبيقها .

ألسنا متفقين على أن الصهيونية اليوم خطر داهم، وأنها تطمح في المدينة وخيبر ، وأنها تخطط وتعمل ، وأنها تحاربنا من منطلق ديني، تستثير به إيمان اليهود بتوراتهم وتلمودهم ، ونبوءات أنبيائهم ؟

فلماذا لا نتعاون على أن نحاربهم بمثل ما يحاربوننا به .

ألسنا متفقين على أن الغرب لم يتحرر حتى اليوم من روح الحروب الصليبية ؟

فلنتعاون ـ إذن ـ على التصدي لهذه الحروب الجديدة .

ألسنا متفقين على أن التنصير ، يغزو عالمنا الإسلامي ؟

فلنتعاون كلنا على الوقوف في وجه هذا الغزو الديني الموجه إلى دين هذه الأمة وصميم عقيدتها .

ألسنا متفقين على أن الشيوعية تحاربنا في العقيدة ، وتحاربنا في الفكر ، وتحاربنا في الأرض ؟

فلنتعاون جميعاً على أن نقاوم الغزو الماركسي الشيوعي .

ألسنا متفقين على أن مئات الملايين من المسلمين في أنحاء العالم يجهلون أولويات الإسلام المتفق على فرضيتها وضروريتها ، ولا يكادون يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه .

فلنتعاون على تعليم هذه الشعوب ألف باء الإسلام ، والأركان الأساسية للدين .

السنا متفقين على أن المليارات الأربعة من سكان هذه الكرة لا يعرف أكثرهم عن الإسلام شيئاً يذكر ، وإذا عرف فإنه يعرف صورة مبتورة أو مشوهة؟

فلماذا لا نتعاون على هذا العمل الكبير ، ونجند له من الرجال والأموال ما هو جدير به ، وما يعادل أهميته .

السنا متفقين على أن القوى العلمانية تبذل جهوداً مستميتة لإيقاف تطبيق الشريعة الإسلامية ؟

فلماذا لا يتعاون الإسلاميون بمختلف مدارسهم وفصائلهم للوقوف صفاً واحداً أمام هذا التكتل العلماني المؤيد [١].

الصحوة الإسلامية بحاجة إلى التجميع :

ولقد كان الشيخ شديد اللهجة في حديثه إلى الصحوة الإسلامية ، وتوجيهها إلى التجميع والاتفاق لا التفارق والاختلاف ، حتى عد موقفها هذا موقفاً محرماً ، فقال لهم جميعاً : لماذا لا يتناسى الإسلاميون خلافاتهم الجزئية في المسائل الاجتهادية ، والأمور الفرعية ، لتتضام جهودهم ، وتلتئم صفوفهم ، وتتوحد جبهتهم ، في مواجهة القوى الضخمة المعادية لهم ، والمتربصة بهم ، والكائدة لهم ، والتي تختلف فيما بينها وتتفق عليهم .

إن المتفق عليه ليس بهين ولا قليل ، وهو يحتاج من الجبهة الإسلامية العريضة إلى جهود وجهود ، تشغل كل تفكيرهم ، وكل أوقاتهم ، وكل إمكاناتهم ، ومع هذا لا تكفي لملء الفراغ ، وتحقيق الآمال ، وإصابة الهدف المنشود .

حرام على الجبهة الإسلامية أن تعترك فيما بينها على اللحية ، والثوب والنقاب والحجاب ، والسدل والقبض ، والتأويل والتفويض و تحريك الإصبع في التشهد ، وتدع تلك الثغرات الهائلة دون أن تسدها بكتائب المؤمنين الصادقين[٢].

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص ١٤٩ - ١٥٦ بتصرف .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٥٧ .

التيار الوسطي أحوج:

ويخص الشيخ في دعوته إلى التجميع تيار الوسطية من شباب الصحوة فيقول لهم : وأعتقد أن على تيار الوسطية واجباً كبيراً ، يجب أن يسعى إليه ، ويحرص عليه ، ويجاهد من أجله ، وهو العمل بصدق وإخلاص لتجميع الصف الإسلامي - صف العاملين للإسلام - على الأصول التي لا ينبغي الخلاف عليها ، أي على أركان العقيدة الستة : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ، وعلى الأركان العملية الخمسة : الشهادتين، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان ، وحج البيت ، وعلى أصول الفضائل وأمهات الأخلاق، وعلى اجتناب أصول الرذائل والمحرمات ، وبخاصة الكبائر والموبقات[١] .

ويؤكد الشيخ على ضرورة الاجتماع ولو على الكليات والأصول فيقول : وبحسبنا اللقاء الإجمالي على هذه الكليات ، ولا بأس أن نختلف في الجزئيات والتفاصيل ، لا بأس أن نختلف في الفروع ، ونختلف في المواقف ، ونختلف في الاجتهادات ، فهذا الاختلاف تقتضيه طبيعة الدين ، وطبيعة البشر ، وطبيعة الكون والحياة ، كما فصلت ذلك في كتابي « الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم » .

وقد ذكرت في أكثر من كتاب لي : أنه لا مانع من أن تتعدد الجماعات العاملة للإسلام ، ما دام تعددها تنوع وتخصص ، لا تعدد تضارب وتناقض ، فتعدد التنوع يؤدي إلى المزيد من الإثراء والنماء ، وتعدد التناقض إنما يؤدي إلى التآكل والفناء .

لابد من جهد يبذل لتجميع العاملين لخدمة الإسلام ، و نصرة دعوته ، وتحكيم شريعته، وتوحيد أمته ، جهد فكري ، وجهد عملي ، لتقريب الشقة ، وزرع الثقة ، وغرس روح التسامح وحسن الظن ، وتنقية الأنفس من آفات العجب والغرور، واتهام الآخرين واحتقارهم: « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم »[٢] .

(١ ، ٢) انظر : في فقه الأولويات ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

ويعد الشيخ هذا التجميع إحدى أولويات الحركة الإسلامية فيقول : وفي رأيي أن هذا العمل من الأولويات المهمة والمقدمة في الساحة الإسلامية اليوم. وإذا لم ينتبه الإسلاميون لخطر التمزق الذي يعيشونه، فسيؤكلون جميعاً، ستفترسهم المخالب والأنياب الحادة للقوى المعادية للإسلام وأمته ، سيُضربون تياراً بعد تيار ، ومجموعة بعد مجموعة ، حتى يُقضى عليهم جميعاً [١].

تقارب على الأقل:

وأقل ما يطلبه الشيخ هو تقارب الفصائل الإسلامية الكبرى على الأقل فيقول : وإذا كنا لا نملك اليوم القدرة على تجميع قوى أمتنا الكبرى من المحيط إلى المحيط ، فلنجتهد - على الأقل - في تجميع قوى الفصائل الكبرى في الصحوة الإسلامية ، القابلة للحوار والتفاهم ، وذلك بإزالة النتوءات ، وتقليص التطرفات، وتقريب المفاهيم ، وتنسيق المواقف ، والوقوف صفاً واحداً في القضايا المصيرية، يتعاون الجميع في المتفق عليه ، ويتسامحون في المختلف فيه ، فهذا التفاهم والتعاون والتجمع : فريضة دينية ، وضرورة حيوية ، فإذا لم تجمعنا الفكرة الواحدة ، فلتجمعنا المحنة المشتركة . على نحو ما قال شوقي :

فإن يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا إن المصائب يجمعهن المصابينا [٢]

إن الذي يزعج الشيخ ويؤرقه ويذيب قلبه حسرات هو : أن تعادي الصحوة نفسها ، وأن يكون عدوها من داخلها ، كأن يضرب بعضها بعضاً، ويكيد بعضها لبعض ، وأن يكون بأسها بينها [٣].

غير أن الشيخ لا يمانع من تعدد الجماعات والفصائل الإسلامية ولا يرى ذلك أمراً مذموماً ، بل يراه ظاهرة صحية لا مرضية ، وشيئاً مفيداً غير مضر ، يقول الشيخ : إن اختلاف مناهج العمل للإسلام ، وتعدد الجماعات العاملة لتجديده ، ليس ظاهرة مرضية ، ولا أمراً مذموماً عند الله ، ولا عند الذين آمنوا؛ بشرط أن يكون اختلاف تنوع وتخصص، لا اختلاف تضاد وتناقض ، بمعنى أن

(١ ، ٢) انظر : في فقه الأولويات ص ١٩٤ .
(٣) انظر : الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع ص ٥ .

يكون هناك تكامل وتناسق وتعاون بين هذه الأنواع من العمل ، بحيث يكمل بعضها بعضاً ، ويشد بعضها أزر بعض ، وتجمعها القضايا الكبرى ، والمواقف المصيرية ، لتواجه العدو المشترك صفاً واحداً كالبنيان المرصوص [١].

إن هذا التعدد أمر لا يزعج الشيخ ولا يقلقه فيقول : لا يزعجني أن يكون في الصحوة مدارس أو فصائل أو جماعات ، لكل منها منهجه في خدمة الإسلام، والعمل على التمكين له في الأرض ، وفقاً لتحديد الأهداف وترتيبها ، وتحديد الوسائل ومراحلها ، والثقة بالقائمين على تنفيذها من حيث الأمانة والقوة ، أو الكفاية والإخلاص[٢] .

بل إن الشيخ يعد محاولة جمع الحركة الإسلامية في جماعة واحدة ضرب من السذاجة فيقول : ولست من السذاجة بحيث أدعو إلى جماعة أو حركة واحدة ، تضم جميع العاملين للإسلام في نظام واحد ، وتحت قيادة واحدة ، فهذا تقف دونه حوائل شتى ، وهو طمع في غير مطمع .[٣]

أو هو على الأقل حلم جميل بعيد التحقيق: يقول الشيخ : ولهذا أرى أن الحلم بالحركة التي تستوعب كل الحركات ، أو الجماعة التي تضم كل الجماعات حلم جميل ولكنه - بمنطق الواقع - بعيد التحقيق [٤].

ومن شعر الشيخ في ذلك :

أدعوه والدمع بالعينين مختنق	والقلب محترق مما شهدناه
في كل أرض أرى الإسلام في خطر	من أهله وبنيه قبل أعداه
تفرقوا شيعاً والكفر مجتمع	واليوم يبدو الذي قد كان أخفاه
فاجمع إلهي شمل المسلمين على	هداك وانصر لمن للدين والاه[٥]

* * *

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٢٢ .
(٢ ، ٣) انظر : الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع ص ٦ .
(٤) انظر : شمول الإسلام ص ٣٤ .
(٥) انظر : نفحات ولفحات ص ١٠٢ .

المبحث السادس
التحرر من التعصب والمذهبية

من أكبر الأدواء التي منيت بها أمتنا في عصور التخلف والانحطاط داء وبيل اسمه «التعصب»؛ هذه الكلمة البغيضة التي جاء الإسلام ليحاربها شكلاً وموضوعاً، وكان من روائع توجيهات المصطفى ﷺ « ليس منا من دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية، أو مات على عصبية »[١].

وقد كان من الكلام الخالد للفاروق عمر رضي الله عنه في وصيته لأبي موسى الأشعري: ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم ، فراجعت فيه رأيك فهديت لرشدك أن ترجع فيه الحق، فإن الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل [٢].

إن عمر يربي أبا موسى على عدم التعصب لرأيه أو الإصرار عليه إن بدا له خطؤه، وكيف لا وهو الذي راجعته امرأة فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر [٣].

وإذا كان هذا المرض العضال قد عرفت به الجاهلية؛ فإنه لايزال ينخر في جسم أمتنا إلى يومنا هذا ، فترى ظاهرة التعصب طافحة بين الناس، هذا متعصب لجنسه وذاك لوطنه ، وثالث للغته ، ورابع للونه ، وخامس . وسادس.... وهكذا .

ورحم الله ابن القيم حين قال: فالبصير الصادق يضرب مع كل قوم بسهم ويعاشر الناس على أحسن ما عندهم .

وأخطر من هذا كله أن ينخر هذا المرض في جسد الصحوة الإسلامية كما ينخر السوس في الخشب ، ويسري فيها كما تسري النار في الهشيم ، حتى رأينا لافتات ترفع، وولاءات تنصب، وبيعات تؤخذ، لفكر، أو لرأي، أو لجماعة، أو لحزب ، كلها باسم الإسلام ، ولقد رأينا من يقصر الإسلام على جماعته،

---

(١) رواه أبو داود. في الأدب (٥١١١) وذكره الألباني في ضعيف أبي داود رقم (١٠٩٥) .
(٢) الاستذكار لابن عبد البر (١٠٣٧). (٣) انظر: القرطبي (٩٥٥).

والصواب في رأيه ، والإمامة في مشايخه ، والتُّقى في من أخذ عنهم ، وأما غير هؤلاء فهم الهالكون أبناء الهالكين ، وقد قرأت كلمة رائعة لعبد السلام البسيوني في مقالة له في مجلة المنار الجديد تحت عنوان « السلفية الملطشة » يقول فيها : إذا جاءت أحدهم الفتوى من الشيخ فلان ، أو صدر رأي من الأخ علان كانت برداً وسلاماً ، وإذا جاء الكلام من غيرهما كان (زفتاً وسخاماً) لأن الآخرين – ببساطة – أغبياء ، يغلب عليهم ضيق الأفق ، والرداءة والخبث والتخلف والكيد للإسلام !!

أهذا معقول .. لقد رأيت أقواما إذا جاءتهم الفتوى من العالم العظيم ابن باز عظموها ورفعوها .. وإذا جاءتهم من غيره سخروا وتنقصوا ..

ورأيت غيرهم إذا جاءتهم الفتوى من القرضاوي (حفظه الله وأدامه) جعلوها راية ومناراً، وإذا جاءت من غيره استسخفوها وازدروها !

رأيت من يقول ابن جاز .. ومن يقول : الأرضاوي !

من يقول : أعمى البصر والبصيرة .. ومن يقول الضال المبتدع !

ومن يقول : الألباني (حمار في الحديث) – هكذا والله – ومن يقول (مثلما كانت تقول المعتزلة في الماضي) : نحن أهل العدل والتوحيد ، وغيرنا جهال جامدون !

ما هذا السخف ؟! اف والله وأف وأف !

أليس هذا إفكًا وسوء منهج ؟

ثم أليس هذا تحجيرا للإسلام وتنميطًا للفكر ؟

كيف أحصر الإسلام المعاصر في الألباني وابن باز وابن عثيمين ، أو القرضاوي والغزالي وأبي شقة ، أو شيخ الأزهر أو إمام الحرم ، في السلفيين أو الإخوان !؟

كيف أُحنبل الإسلام أو أُوَخْوِنه .. وبس ؟

هذا هو الواقع .. للأسف الشديد .. عند كثيرين من الطيبين ![1]

---

(١) انظر : مجلة المنار الجديد .

التعصب والمتعصب عند القرضاوي :

والشيخ القرضاوي حاول جاهداً أن يبعد نفسه عن التعصب لأنه يرى أن المتعصب : إنسان لا يرى إلا ذاته ، ولا يسمع إلا قول نفسه ، ولا يؤمن بأحد غيره ، أو غير فرقته وجماعته التي ينتمي إليها ، فمنها يبدأ ، وإليها ينتهي، فهو مغلق الذهن والنفس عن « الغير » ، وكل الناس « غير » ما عداه وفرقته التي منحها عقله وشعوره وولاءه ، فهي التي تفكر له وتحدد له من يحب ومن يكره، وعمن يرضى وعمن يسخط ، دون أن يعطي نفسه حق التأمل في هذه المقولات أو الامتحان لها ، أو مناقشتها فهذا كفر ، أو سبيل الكفر المؤدي إلى البوار ، جهنم يصلاها وبئس القرار [١].

ولهذا فقد عدَّ الشيخ التعصب الجامد المظلم من أشد ما يطمس العقل البشري ، ويرجع الشيخ ذلك لكون التعصب : يحبس صاحبه في قمقم القديم الذي كان عليه الآباء ، أو الواقع الذي عليه الأكثرية أو الرؤساء، كما أنه - أي التعصب - يعمي المرء ويصمه، ويجعل عقله كأنما هو منحوت من حجارة صماء[٢].

وإذا كان هذا هو المتعصب ، فإن التعصب في نظر الشيخ يعني : أن يغلق الإنسان عقله على فكرة معينة ولا يسمح لنفسه بفتح أي نافذة للحوار مع مخالفيه في العقيدة أو الفكر، أو في الرأي الفقهي أو السياسي ، ولا يسمح بنقد نفسه ، أو مراجعتها مرة واحدة بل رأيه دائماً هو الصواب، الذي لا يحتمل الخطأ، ورأي غيره هو الخطأ الذي لا يحتمل الصواب[٣].

وليس معنى هذا أن الشيخ يرضى بأن يتنازل المرء عن رأيه ؛ لا بل هو يقر بأن لكل إنسان أن يلزم رأيه ومعتقده؛ شريطة أن يترك لغيره ما وصل إليه

(١ ، ٣) انظر الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) انظر : الناس والحق ص ٥٨ .

اجتهاده، وألا يفرض رأيه على غيره، لذا يقول الشيخ: ليس من التعصب إذن أن يثبت المرء على دينه، وأن يعتصم بحبله المتين، وإلا لكان كل متدين متعصباً، وقد قال الله لرسوله ﷺ : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣](١).

وقد دعا الشيخ القرضاوي إلى عدم التعصب للرأي مهما كان قائله ، ما لم يكن معصوماً ، وهو في هذا يؤكد ما قاله الإمام مالك رحمه الله يوم أن قال : كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا صاحب هذه الروضة ، وهو ما قاله أيضاً الإمام البنا في أصوله العشرين حيث قال في الأصل السادس : وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقاً للكتاب والسنة قبلناه وإلا، وإلا فكتاب الله أولى بالاتباع(٢) .

وقال أيضاً رحمه الله : والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سبباً للتفرق في الدين ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره ، ولا مانع من التحقق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب(٣) .

وقد وضح الشيخ القرضاوي حفظه الله قواعد ودلائل للتحرر من التعصب وأهمها :

١ - النظر إلى القول لا إلى قائله.

٢ - الاعتراف بالخطأ والرجوع عنه جهرة بشجاعة وصراحة..

٣ - ألا يضيق صدره بالنقد يوجهه إليه الآخرين .

٤ - النقد الذاتي : وهو مراجعة داعية قاصدة للذات .

٥ - طلب النصح والتقويم من الآخرين ، ولله در عمر حين قال على المنبر: رحم الله امرءا أهدى إلى عيوب نفسي، مرحبا بالناصح أبد الدهر، مرحبا بالناصح غدوا وعشيا.

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢١٧.

(٢، ٣) انظر : مجموعة الرسائل رسالة دعوتنا ص ٢٦٨ ، ٢٦٩.

٦ - التنازل عن بعض الآراء الجزئية لتجميع الكلمة .

٧ - الاستفادة مما لدى الآخرين من علم نافع أو عمل صالح أو تجربة مفيدة[١] .

واقع القرضاوي العملي والتعصب :

وقد امتاز الشيخ القرضاوي بعدم تعصبه لشيخ بعينه ، أو فرقة بعينها، أو مذهب بعينه، فهو يدور مع الحق حيثما دار ، إمامه الدليل ، وبغيته الحق ، ومن ثم فتراه يخالف من أحب ، وأعز من أحب . ومن ذلك :

القرضاوي و الأزهر :

والشيخ القرضاوي بالرغم من أنه أزهري النشأة ، وهو ممن يعتز بأزهريته، لكن حبه للأزهر لم يجعل منه متعصباً له ؛ بل وقف الشيخ ناقداً للأزهر كما بدا ذلك واضحاً في كتابه رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد[٢] .

القرضاوي والإخوان :

وكما أن الشيخ القرضاوي ابن الأزهر فهو ابن الإخوان ؛ نشأ وترعرع في هذه الجماعة، وأحبها واستفاد من منهجها، ودعا إليها، وعمل لها ، لكنه لم يتعصب لها ليجعلها جماعة معصومة ؛ بل انتقد الجماعة في أكثر من موضوع، وفي أكثر من كتاب، يقول الشيخ : ولا أنكر أن في حركة الإخوان في بعض الأحيان ، وفي بعض الأقطار ، ولدى بعض الأفراد والقيادات أحيانا ميلاً إلى التشدد ، تأثراً بالمدارس الأخرى التي لها وجود في الساحة الإسلامية ، ويظهر هذا في الإبقاء على القديم ، ومقاومة التجديد ، أو الميل إلى الآراء المتشددة ، التي تنظر إلى النصوص الجزئية ، وتغفل المقاصد الكلية ، أو التي تأخذ دائماً

---

(١) راجع هذه الدلائل بالتفصيل في كتاب : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص٢١٥-٢٤٠ .

(٢) انظر : الفصل الأول ما كتب تحت عنوان « القرضاوي مصلحاً في الأزهر » .

بالأحوط ، ولا تأخذ بالأيسر ، رغم حاجة الناس إليه ، ولكن هؤلاء لا يمثلون – اليوم – التيار الغالب في الحركة [١].

ومن مآخذ الشيخ القرضاوي على جماعة الإخوان : الجمود في بعض الأحيان على بعض المناهج أو الوسائل أو الأنظمة التي وضعها الإمام البنا رحمه الله، إذ أن الشيخ يرى أن هذه الوسائل والأنظمة ليست خالدة ولا ثابتة ومن ثم فإن التجديد فيها أمر وارد شرعاً وعرفاً ومقبول منطقاً وعقلاً ، يقول الشيخ : فهذه المناهج والوسائل والأنظمة ليست خالدة خلود الإسلام نفسه ، وليس لها ثبات المبادئ والأصول الإسلامية بل هي أدوات أثمرها الاجتهاد البشري لإحياء الإسلام وتجديده في الأنفس والحياة [٢].

ولذلك فإن الشيخ يرفض جمود بعض دعاة جماعة الإخوان على وسائل شيخهم البنا لأن الإمام البنا رحمه الله لم يكن كما يقول القرضاوي : رجلاً جامداً ، بل كان رجلاً متجدداً متطوراً ، وكان يستفيد من كل ما يستجد من حوله ، ويطور نفسه ، ويطور دعوته، وما يدرينا ـ لو امتد به الأجل ـ ماذا كان يصنع ؟ [٣].

ولهذا فإن القرضاوي ينادي إخوان البنا و أتباعه بالتجديد، فيهمس في آذانهم قائلاً : لا يجوز من إخوانه وأتباعه : الجمود على كل وسائله ومناهجه وجميع جزئيات أفكاره ، ولا سيما أن فقهاء الأمة مختلفون في جواز تقليد مذاهب الأموات من الأئمة ، وأكثرهم لا يجيز تقليد الميت ، إذ ما يدريك أنه لو كان حياً لربما غير اجتهاده ، كما غير الأئمة كثيراً من اجتهاداتهم ، وكما غير أصحابهم من بعدهم كثير من أقوالهم .

وكثير من الإخوان : يعز عليهم أن يخالفوا شيخهم وإمامهم ، ولو في جزئية من الجزئيات ، وكأنما يضفون على أفكاره شيئاً من القداسة والعصمة ، مع

(١) انظر : الإخوان المسلمون ص ٢٤٨ .
(٢) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٢٠٨ .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ٢٠٧ .

أنهم يحفظون من أصوله العشرين التي تركها لهم (وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك ، إلا المعصوم ﷺ) . ولكن ما يحفظ شيء ، وما يطبق ويمارس شيء آخر.

كما أغفل الإخوان شيئاً آخر مهماً ، وهو أن شيخهم مات في سن مبكرة نسبياً من عمره ، في الثانية والأربعين ، وقد شعر في أواخر حياته : أن إخوانه تنقصهم « الثقافة المعمقة »، فأنشأ مجلة « الشهاب » لتسد هذه الثغرة ، ولم يصدر منها إلا خمسة أعداد ، ثم جاءت المحنة واستشهد الشيخ الإمام[1] .

وإذا كان الإخوان بدا فيهم نوع من التطور كما يرى الشيخ القرضاوي ، فإنه ينقصهم أمور ينبغي عليهم أن يراعوها وهي :

١ - أن يقدموا الولاء للإسلام ، على الولاء للجماعة .

٢ - أن يقدموا العمل للدعوة ، على العمل للتنظيم .

٣ - الترحيب بالأفكار الجديدة ، وإن لم يكن للجماعة سابق عهد بها .

٤ - زيادة التفاهم مع التيارات الأخرى ، و إن كانت مخالفة .

٥ - أن يفكروا بجدية في تجديد الوسائل بحسب ظروف المرحلة.

٦ - ألا يتقوقعوا على أنفسهم ، وتستغرقهم الأفكار المحلية ، وقد أصبحوا حركة عالمية .

٧ - ألا يستهلكهم العمل السياسي ، ففي مجالات العمل الاجتماعي والثقافي والتربوي والاقتصادي وغيرها متسع للجهود والطاقات الموجودة ، والتي لا تكاد توظف فيما ينفعها وينفع أمتنا .

٨ - أن يضعوا من المناهج ما يعمق ثقافة أفراد الجماعة الشرعية والعامة ، ويقيمها على أصول راسخة ، ويغرس فيهم حب التجديد ، وروح المحاسبة والنقد للذات ، والحوار مع الآخر ، والتسامح مع المخالفين [2].

الشيخ والحركة الإسلامية :

والشيخ من أبرز دعاة الصحوة ورجالاتها ومع هذا فلم يمنعه حبه للحركة

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٢١٢ .

أن ينقدها ليس في كتاب واحد بل في عدة كتب ، ومن مآخذ الشيخ على الحركة الإسلامية :

١ ـ أن بعض المخلصين من أتباع الحركة الإسلامية يخافون من فتح باب النقد الذاتي أن يلجه من يحسنه ومن لا يحسنه ، فقد يفسد أكثر مما يصلح .

٢ ـ ويخافون كذلك أن يصور النقد لأفكار بعض قادة الحركات الإسلامية بصورة الاتهام لهم ، أو الوقوف مع خصومهم ضدهم ، فمن نقد رأياً لمثل « حسن البنا » أو « ابي الأعلى المودودي » أو « سيد قطب » أو « مصطفى السباعي » أو غيرهم من القادة الفكريين والحركيين . فكأنه يوجه اتهاماً إلى هؤلاء، أو يطعن في إمامتهم وبطولتهم .

القرضاوي والإمام الغزالي [١] :

وبالرغم من حب الشيخ للإمام الغزالي إلا أنه لم يكن متعصباً له ، بل أنكر عليه بعض المواقف ، وأظهر ملاحظاته على ما في كتب الغزالي فيقول عن كتاب « منهاج العابدين » : وقد وجدت متعة كبيرة في قراءة هذا الكتاب ، واستعنت به في دروسي ووعظي في تلك المرحلة ، وإن كان لي عليه مآخذ وملاحظات وخصوصاً في باب التوكل والزهد ، وما فيه من توجيهات حكايات تتسم بالمبالغة والإفراط [٢] .

ويقول عن الإحياء : كتاب الإحياء الذي أمسى غذاءنا وفاكهتنا عصر كل يوم في إجازات الصيف وخصوصاً ربع « المهلكات » وربع « المنجيات » منه، مع تحفظي شخصياً على بعض ما فيه من غلو لم يكن ملائماً لطبيعتي [٣] .

ويقول أيضاً مؤكداً إصابة الغزالي ببعض آثار الفلاسفة : ومع هذا لم يسلم الغزالي بعد خوض هذه اللجج العميقة ، ومصارعة هذه التيارات والأمواج المتلاطمة ، من أن يصيبه بعض الآثار ، أو بعض الجراحات ، وإن لم يعترف هو بشيء من ذلك ، ولكن شأن الإنسان أن يتأثر ويؤثر ، شعر أم لم يشعر ، وإن

---

(١) راجع ما ذكرناه في الفصل الأول عن شيوخ القرضاوي.
(٢ ، ٣) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ٨ .

لم يكن بطريقة مباشرة ، وهـذا مـا جعـل تلميـذه ابن العـربي يقول : شيخنا أبو حامد ابتلع الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع[1].

القرضاوي والبنا[2] :

وكذلك مع شيخه البنا خالفه ولم يدع له العصمة ، بل يقول الشيخ : وفي حركة الإخوان المسلمين أناس لهم وزنهم وقدرهم ، لا يقبلون من أحد مخالفة الإمام حسن البنا في أي جزئية من الجزئيات . . ومن فعل ذلك نظر إليه بعين غير عين الرضا، وإن كان من أخلص أبناء الحركة وأقدرهم على فهم روح حسن البنا.

وفي أحـد الدروس يوماً مع بعض الإخـوة ، وضـحت لهـم رأيي في جـواز تعـدد الأحـزاب في الدولة الإسلاميـة ، وذكـرت لهـم أدلتي على هذا الرأي من أصول الإسلام ، ومن التراث ، ومن الواقع .

ولكن بعضـهـم لم يعـجبـه ذلك ، لأنه مخـالف لرأي الإمام الشـهـيد الذي أعلن فيه أن لا حزبية في الإسلام .

وقلت لهؤلاء الإخوة ما قالـه أبو يوسف حينما خـالف شيخه أبا حنيفة : لو رأى صاحبي ما رأيت ، لقال بمثل ما قلت !

الشيخ والمذهبية :

وتعد المذهبيـة المطلقة نوع من العصبيـة المذمومة ، أو التـعـصب المقـيت ، هذا إن انتصر الإنسان لمذهبه وإن عدم الدليل ، والتحرر من المذهبية عند الشيخ يعني ألا يقيد الفقيه نفسه بغير ما قيده الله به ورسوله ، فيأخذ من أي مذهب كان ما يراه أقوى حجة ، وأرجح مـيـزاناً ، في ضوء المعايير الشرعية، وفي هذا توسعة للأمة ، وتيسيرا كبيرا عليها، وإعطاؤها مجالاً رحبا للانتقاء والترجيح ، وفق مقاصد الشرع ومصالح الخلق[3] .

لـذا فقـد بـدا الشيـخ متحـرراً من المذهبية ، غير متقيد بمذهب بعينه ، إلا ما صح دليله، ووافق الكتاب والسنة ، وقد عرف الشيخ بذلك في أول كتاب

---

(١) انظر : ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق ص ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) راجع ما ذكرناه في الفصل الأول عن شيوخ القرضاوي.
(٣) انظر : نحو فقه ميسر ص ٣١ .

من كتبه وهو « الحلال والحرام »، فيقول فيه : وغير لائق بعالم مسلم يملك وسائل الموازنة والترجيح أن يكون أسير مذهب واحد ، أو خاضعاً لرأي فقيه معين ، بل الواجب أن يكون أسير الحجة والدليل ، فما صح دليله وقويت حجته ، فهو أولى بالاتباع ، وما ضعف سنده ، ووهت حجته ، فهو مرفوض مهما يكن من قال به، وقديماً قال الإمام علي ﷺ : « لا تعرف الحق بالرجال ، بل اعرف الحق تعرف أهله »[1].

وإنكار الشيخ على دعاة المذهبية إنما لكونهم جعلوا من مذهبهم كله بما صح دليله أو ضعف ؛ جعلوه كأنه وحي يوحى أو قرآن يتلى ، وحين رفض الشيخ العصبية المذهبية رفضها للأسباب الآتية :

١ - أن التقيد بالمذاهب ، التزام بما لا يلزم ولا يجب ديناً وشرعاً ، إذ لا واجب - ديناً وشرعاً - إلا ما أوجبه الله ورسوله ، ولم يوجب الله ورسوله اتباع مذهب معين من مذاهب الأئمة .

٢ - أن الأئمة المتبوعين أنفسهم نهوا عن تقليدهم .

٣ - أن العلماء عامة - ومنهم المقلدون أنفسهم - قد رجحوا : أن العامي لا مذهب له ، وأن مذهبه مذهب من يفتيه من العلماء .

٤ - أننا مطالبون أن نقدم أحكام الإسلام للناس لنرغبهم في هذا الدين ، ونحبب إليهم أصوله وتعاليمه . فهل من المقبول أن نقدم لهؤلاء نماذج أربعة - أو سبعة أو ثمانية - تمثل المذاهب المتبوعة ، ونقول لهم : إن كل نموذج يمثل التعاليم الإسلامية في رأي مدرسة أو مذهب من مذاهب فقهائه ؟

٥ - ومثل ذلك ما يقال لمن دخلوا في الإسلام بالفعل ، وهم يكثرون ، والحمد لله ، ومثلهم الأقليات الإسلامية ، والجاليات الإسلامية في شتى أقطار الدنيا ، ما الذي ينبغي أن يقدم لهم ؟ وعلى أي مذهب ؟ وهل من الملائم أن نقول للمسلم الداخل حديثاً في الإسلام : إن أمامك عدداً من النماذج ، فاختر واحداً منها ؟[2].

---

(١) انظر : الحلال والحرام ص ١٢ .

(٢) انظر : نحو فقه ميسر معاصر ص ٣٢ ، ٣٣ .

وتحرر الشيخ من المذهبية ونبذه لها لا يعني أنه منكر لفضل الأئمة الكرام ، أو أنه ذام لهذه المذاهب أبداً ؛ بل الشيخ يكن لهؤلاء الأعلام كل فضل، ويوقن بأنهم كانوا كالعافية للأبدان وكالشمس للناس ؛ لذا يقول : وتحررنا من صرامة التقليد والعصبية لمذهب معين لا يعني أن نذم المذاهب، أو ننال من شأن الأئمة الكبار ﷺ ، فهذا لا يقوله مسلم شم رائحة العلم ، وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتاباً قيماً شهيراً سماه «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» بين فيه أعذار الأئمة في ترك ما تركوه من الحديث ، ووضح أن أحداً منهم لم يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ ، أو الإعراض عن سنة ثابتة عنه.

كما أن هذا التحرر لا يعني الاستغناء عن فقه المذاهب وكتبها ، وما حفلت به من تعليلات، وتخريجات، وتفصيلات ، ومناقشات ثرية ، لا يشك في قيمتها دارس ينشد الحق ويبحث عن الصواب بأدلته [1].

ويقول حفظه الله في موضع آخر: هذا مع التوقير الكامل لأئمتنا وفقهائنا ، فعدم تقليدهم ليس حطاً من شأنهم؛ بل سيراً على نهجهم [2].

* * *

(١) انظر : المرجع السابق ص ٣١ .
(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ١٠ .

المبحث السابع

الرجوع إلى الحق

تعد هذه السمة مكملة أو متممة للسمة السابقة وهي التحرر من التعصب والمذهبية، ومن دلالات التحرر من التعصب عدم الاعتداد بالرأي ، والرجوع إلى الحق ، وقد قعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاعدة رائعة في رسالته التى أرسلها لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل .

والشيخ القرضاوي عرف بانتصاره للحق لا لرأيه ، وللدليل لا للهوى ، ومن ثم فقد يتبنى الشيخ رأياً يراه هو الحق يوماً ، فإذا تبين له غيره ، وقوي عنده دليل غيره رجع الشيخ إلى الحق والتزم الدليل ، وهو في هذا يقتدي بالفقيه عبيد الله ابن الحسن العنبري يوم أن تبين له الخطأ في مسألة فقال : إذن أرجع وأنا صاغر ، ولأن أكون ذنباً في الحق خيراً من أن أكون رأساً في الباطل[١] .

والقارئ لتراث الشيخ يرى أن له بعض الاجتهادات التي ذهب إليها في الماضي ثم تراجع عنها ، أو بعض الآراء التي انتصر لها سابقا ثم عدل إلى غيرها ، والملاحظ لفتاوى وآراء الشيخ في بداية حياته يرى فيها حماسة الشباب ، بينما يرى في تقدم عمره حكمة الشيوخ ، وهذا ما أكده الشيخ حين قال في تقديمه لتغيير فتواه في شراء بيوت السكن في الغرب عن طريق البنوك الربوية فقال : لعل الإنسان في شيخوخته يكون أكثر إشفاقاً على خلق الله تعالى ، وأكثر رغبة في التيسير عليهم ، وإيجاد المخارج لهم من مأزق حياتهم .

أو لعل الإنسان بعد النضج يكون أكثر شجاعة في تبني الرخص

---

(١) انظر : تهذيب التهذيب ابن حجر ط مؤسسة الرسالة ج١ ص ٧ .

والتخفيفات ، والإعلان عنها ، ولا يخاف عواقبها ، بعد أن أصبح قريباً من لقاء الله تعالى[1] .

وللشيخ في تغيير الفتوى سلف ، ومن من الناس يجهل تغاير الفتوى عند الشافعي بعد ذهابه إلى مصر حتى غدا للشافعي رأيان : الأول وهو القديم بالعراق ، والثاني وهو الجديد بمصر .

وتغير الفتوى كما يقول الإمام ابن القيم : يكون بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد[2] .

أسباب تغير الفتوى عند القرضاوي :

و التغير في الفتوى عند الشيخ له أسباب منها :

* ترجح دليل .
* اتساع أفق .
* مراعاة مصلحة .
* رفع ضيق .

وهذا هو الملاحظ في تغير فتوى الشيخ القرضاوي في عدد من المسائل يقول الشيخ: ولكن دماغ العالم المسلم ، ليس قطعة من الفولاذ ، ولا من جلمود الصخر ، إن عقله يظل يتحرك ، ويبحث ويقارن ويوازن ، وهو لا يقف في العلم عند حد ، ولا يأتي وقت يقول فيه : قد بلغت غاية العلم ، ولا طمع في الزيادة، بل المسلم يطلب العلم من المهد إلى اللحد ، ولا يزال المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا علم أنه علم فقد جهل ، وقد قال الله تعالى لخاتم رسله وأفضل خلقه : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه: ١١٤] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥] .

وما دام العالم يطلب العلم ، فلا يستغرب منه أن يغير رأيه ، بناء على أدلة

---

(١) انظر : في فقه الأقليات المسلمة ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٢) انظر : أعلام الموقعين عن رب العالمين (ابن القيم تحقيق عبد الرحمن الوكيل) ط مكتبة ابن تيمية ج٣ ص٥ .

شرعية جديدة بدت له ، لم تظهر له من قبل ، من فقه النصوص ، أو فقه المقاصد ، أو فقه الواقع[1].

والشيخ في كلا الأمرين مأجور إما بأجرين أو بأجر واحد ؛ فهو إما مأجور وإما معذور ، وهذا ما دفع الشيخ ليجهر ببعض الفتاوى التي غير رأيه فيها دافعاً الحرج عن نفسه فيقول حفظه الله : وقد ظللت متحرجاً فترة من الزمن من إعلان هذا الرأي وكنت أفتي به لمن سألني خاصة ، ثم رأيت الإعلان عنه ، لأنني أصبحت أسأل على الملأ ، وفي المحاضرات واللقاءات العامة ، ثم في القنوات الفضائية بعد ذلك ، ولا يسعني أن أكتم ما انتهى إليه رأيي في المسألة ، والفقيه المسلم لا يجوز له أن يفتي الناس بغير ما اقتنع به عقله، وانتهى إليه اجتهاده وعلمه ، وإلا كان خائناً لأمانة العلم ، بل خائناً لله ولرسوله ولجماعة المسلمين .

وهب أن رأيه هذا كان خطأ ، فهو معذور كما علمنا الله تعالى أن نقول : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦]. وقد جاء في الصحيح أن الله تعالى قال : « قد فعلت » أي أنه استجاب الدعاء[2]،[3].

نماذج من رجوع الشيخ إلى الحق :

المسألة الأولى : إسلام المرأة دون زوجها [4]

هذه الفتوى كان للشيخ فيها رأي قديم وأصبح له فيها رأي جديد ، وكان رأي الشيخ القديم هو وجوب المفارقة بين الزوج والزوجة في الحال أو بعد انقضاء

---

(١) انظر : في فقه الأقليات المسلمة ص ١٥٥ .

(٢) رواه مسلم في الإيمان رقم (١٢٦) عن أبي هريرة .

(٣) انظر : في فقه الأقليات المسلمة ص ١٥٦ .

(٤) وأذكر أن الشيخ حين نشرت له هذه الفتوى ثارت عليه الثائرة ، وجاءني أحد الإخوة يقول لي : هل حقاً قال الشيخ بهذه الفتوى ؟ قلت له : نعم ، فقال لي : إن عدداً من إخواننا السلفيين يشنعون بالشيخ لهذا الرأي ، فقلت له فليشنعوا بالإمام ابن القيم وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية ؛ فإن الشيخ القرضاوي إنما هو ناقل عن الإمام ابن القيم تسعة آراء في هذه المسألة ولئن كان الإمام ابن القيم رحمه الله رجح أحد الآراء فإن الشيخ القرضاوي رجح آخر ، فما يضيره في هذا الترجيح إن كان يرى أن دليله أرجح ومصلحته أظهر ، والعمل به أوقع ؟!!

وقد أعطيت لهذا الأخ فتوى الشيخ، ونقله عن الإمام ابن القيم وشيخه شيخ الإسلام ، فلما رأى الإخوة السلفيون كلام شيخ الإسلام وتلميذه لانوا ، وتلك مصيبة أن يعرف الحق بالرجال بدلاً من أن يعرف الرجال بالحق .

العدة ، وقد ظل الشيخ على رأيه هذا أكثر من ربع قرن ، بل كان الشيخ ممن ثار على الدكتور حسن الترابي في مؤتمر اتحاد الطلبة المسلمين بأمريكا ، وكانت عمدة الشيخ القرضاوي ومن معه من الموجبين لمفارقة الزوجة زوجها أن هذا خروج عن الإجماع المقطوع به ، المتصل بعمل الأمة ، وأنه إذا كان لا يجوز للمرأة أن تتزوج غير المسلم ابتداء ، فكذلك لا يجوز لها الاستمرار معه بقاءً(١).

وبعد ما يزيد عن ربع قرن عدل الشيخ فتواه ، وغير رأيه لا عن هوًى ولكن عن دليل .

ولم يأنف الشيخ من أن يغير فتواه، فهو وإن طال عمره، وكبر سنه، فما يزال يطلب العلم ، يقول الشيخ : ثم إن المسلم يظل يطلب العلم من المهد إلى اللحد ، وليس هناك أحدٌ أحاط بالعلم كله ، وقد قال الله لرسوله: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً** ﴾ [طه: ١١٤] ، وقال: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٨٥] (٢).

لقد كان كلام ابن القيم في هذه المسألة في كتابه القيم «أحكام أهل الذمة» كان هذا الكلام بالنسبة للشيخ «فتحاً» في هذه المسألة . ومن هنا فقد أعاد الشيخ النظر في هذه المسألة فوجد أن ابن القيم قد ذكر فيها تسعة أقوال :

١ ـ انفساخ النكاح بمجرد الإسلام .

٢ ـ انفساخ النكاح إذا أبى الزوج الإسلام .

٣ ـ انفساخ النكاح عند انقضاء عدة المدخول بها .

٤ ـ عكس الثالث . وتقع الفرقة في الحين إن أسلمت قبله، وإن أسلم قبلها فأسلمت في العدة فهي امرأته وإلا وقعت الفرقة بانقضاء العدة .

(١ ، ٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٦٠٥ ، ٦٠٦ بتصرف ، وانظر : في فقه الأقليات المسلمة ص ١٠٥ ، ١٠٦ بتصرف .

٥ – اعتبار العدة لكل من الرجل والمرأة .

٦ – تنتظر المرأة وتتربص ولو مكثت سنين إن اختارت ذلك .

٧ – هو أحق بها ما لم تخرج من مصرها .

٨ – هما على نكاحهما ما لم يفرق بينهما سلطان .

٩ – تقر عنده ويمنع عن وطئها .

بين ابن القيم والقرضاوي في هذه الفتوى :

وقد رجح الإمام ابن القيم القول السادس وانتصر له وهو قول شيخه كذلك، لكن القرضاوي لام الإمام ابن القيم لأنه كما يقول الشيخ القرضاوي : وعد بأن ينظر في مآخذ هذه الأقوال ولم يف بوعده ، بل ركز على القول السادس وانتصر له [1].

ولكن الشيخ القرضاوي مع هذا يرى أن كلام الإمام ابن القيم وشيخه له وزنه ، ولكنه تظل فيه مشكلة عملية ، وهي : أن تبقى المرأة مع زوجها تنتظر إسلامه ، ولو مكثت سنين ولكن لا تمكنه من نفسها ، والمشكلة العملية هنا هي : هل يصبر كل منهما على هذه الحالة : أن يعيشا تحت سقف واحد سنين ولا يقرب أحدهما الآخر ؟[2]

وقد رأى الشيخ أن في المسألة ثلاثة آراء معتبرة يمكن الأخذ بها ، خصوصاً وأن هذه المسألة تتعلق بكثير ممن يدخلن في الإسلام ، وهذه الآراء المعتبرة هي :

١ – أن زوجها أحق بها ما لم تخرج من مصرها . وهو قول علي رضي الله عنه .

٢ – أن للإمام فسخ عقد النكاح أو تخيير المرأة وفق ما تكون المصلحة، وهو قول عمر رضي الله عنه .

٣ – أنهما على نكاحهما ما لم يفرق بينهما سلطان أي ما لم يصدر حكم قضائي بالتفريق[3].

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٦٠٦ ، وانظر : في فقه الأقليات ص ١٠٦ .

(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٦١٩، وانظر : في فقه الأقليات ص ١١٩ .

(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٦٢١، وانظر : في فقه الأقليات ص ١٢١ .

هذه هي المسألة الأولى التي غيّر الشيخ فيها رأيه ، متبنياً رأياً غير رأيه الأول ، غير آبه لرأي المخالف ما دام أن الدليل قد صح عنده، وترجح لديه .

وأكتفى هنا بهذه المسألة وأذكر عدداً من المسائل دون تفصيل مخافة الإطالة.

المسألة الثانية : جوائز السحب للمشتركين[١] .

المسألة الثالثة : شراء بيوت السكن في الغرب عن طريق البنوك الربوية[٢].

المسألة الرابعة : زكاة الأسهم [٣].

المسألة الخامسة : إباحة الشيخ للحائض دخول المسجد [٤].

* * *

---

(١) انظر : فتاوي معاصرة (٣٨٦٣) وما بعدها.
(٢) انظر : المرجع السابق (٦٢٥٣) وما بعدها. وانظر : في فقه الأقليات المسلمة ١٥٤ وما بعدها.
(٣) راجع زكاة الأسهم والسندات من كتاب «فقه الزكاة» في الطبعة الجديدة (مكتبة وهبة).
(٤) انظر : فقه الطهارة ص ٢٩١ .

المبحث الثامن

الدعوة إلى الأمل والعمل لا اليأس والكسل

اليأس والكسل أو القنوط والملل صفات سلبية ينبغي أن تمحى من قاموس الدعاة ، على أن يحل محلها الأمل والرجاء والجد والعمل ، ولله در ابن مسعود يوم أن قال : الهلاك في اثنتين القنوط والعجب .

إن شعاع الأمل ينبغي أن يضيء جنبات كل مسلم، وإن غيوم اليأس والقنوط والإحباط ينبغي أن تزول بعيداً عن قلب كل موحد ، وإن شعلة الأمل ينبغي أن لا تطفئ من قلب كل داعية . ولله در الشاعر حين قال :

واليأس يحدث في أعضاء صاحبه ضعفاً ويورث أهل العزم توهيناً

ولقد كان النبي ﷺ : وهو في أحلك الظروف والفترات ينبع قلبه بالأمل ، ويشع فؤاده بالرجاء ، وكيف لا وهو القائل ﷺ : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى »(١).

انظر إليه وهو في مكة يوم أن جاءه خباب بن الأرت وقد كوي ظهره بالحديد قائلا : ألا تدعو الله لنا ؟ فما كان من النبي ﷺ إلا أن أعطاه وأعطى الدعاة من بعده درساً في الأمل فقال : « والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون »(٢).

وانظر إليه في هجرته وقد خرج طريداً وحيداً فيلحق به سراقة بن مالك فيقول له : يا سراقة كيف بك إذا ألبسك الله سواري كسرى ؟ فيقول سراقة : كسرى بن هرمز ؟ فيقول : نعم (٣).

---

(١) رواه مسلم في الجنة ونعيمها رقم (٢٨٧٧) عن جابر بن عبد الله.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر الاستيعاب ابن عبد البر (٥٨١٢) وانظر الإصابة (٤٠٣).

وانظر إليه وهو يقول لعدي بن حاتم وقد رأى ﷺ التعجب على وجهه لضيق حال المسلمين فيقول له ﷺ باعثاً الأمل في قلبه : « يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت : لم أرها، وقد أنبئت عليها، قال : فإن طالت بك الحياة، لترين الظعينة ترتحل من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله - قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دعار[1] طيء الذين قد سعروا في البلاد - ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى. قلت : كسرى بن هرمز؟ قال : كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة، لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله فلا يجد أحدا يقبله منه »[2].

وانظر إليه وقد تألبت عليه قريش وأحلاس العرب ، ونقض يهود بني قريظة عهدهم، وصور الله حال أصحابه بقوله: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ [الأحزاب: ١٠- ١١][3].

ومع هذا كله حين تعترض الصخرة حفر أصحابه يبشرهم وقد ملأ الأمل قلبه بفتح مدائن كسرى وقيصر والنجاشي.

والشيخ القرضاوي من الدعاة الذين كتب الله لهم حظاً من الأمل والعمل ، وقد عرف الشيخ بكتاباته وكلماته الباعثة إلى الأمل والداعية إلى العمل ، ولذلك فإن الشيخ يرى بأن الأمل في الحياة ما هو إلا : قوة دافعة تشرح الصدر للعمل ، وتخلق دواعي الكفاح من أجل الواجب ، وتبعث النشاط في الروح والبدن ، تدفع الكسول إلى الجد ، والمجد إلى المداومة على جده ، والزيادة فيه . تدفع المخفق إلى تكرار المحاولة حتى ينجح ، وتحفز الناجح إلى مضاعفة الجهد ليزداد نجاحه .

الأمل إذن هو إكسير الحياة ، ودافع نشاطها ومخفف ويلاتها ، وباعث البهجة والسرور فيها :

---

(١) دعار : جمع داعر وهو الخبيث المفسد .

(٢) رواه البخاري في المناقب برقم (٣٥٩٥) عن عدي بن حاتم .

(٣) رواه أبو داود (٤٣٠٢)، والنسائي (٤٣٦) والبيهقي (١٧٦٩)، عن رجل من الصحابة، وذكره الألباني في صحيح النسائي برقم (٢٩٧٦).

والأمل - قبل ذلك كله - شيء حلو المذاق ، جميل المحيا في ذاته ، تحقق أو لم يتحقق [1].

وفي المقابل يرى الشيخ اليأس ما هو إلا : انطفاء جذوة الأمل في الصدر ، وانقطاع خيط الرجاء في القلب ، فهو العقبة الكؤود ، والمعوق القاهر الذي يحطم في النفس بواعث العمل ، ويوهي في الجسد دواعي القوة .

سم بطيء لروح الإنسان ، وإعصار مدمر لنشاط الإنسان ، وتلك حال اليائسين أبد الدهر : لا إنتاج للحياة ، ولا إحساس بمعنى الحياة .

وليس بعجيب أن تجد هذا الصنف من الناس بوفرة وغزارة بين الجاحدين بالله أو ضعاف الإيمان به ؛ لأنهم عاشوا بأنفسهم فحسب - زعموا - وقطعوا الصلة بالكون ورب الكون ، فلا غرو أن تجد هؤلاء الكافرين أيأس الناس ، كما تجد اليائسين أكفر الناس ، فهناك ارتباط بين اليأس والكفر، كلاهما سبب للآخر وثمرة له : اليأس يلد الكفر والكفر يلد اليأس ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧]. ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦] [2].

والشيخ لا يرى اليأس من لوازم الكفر فحسب ، بل من لوازم الشك أيضاً ، فكل من فقد اليقين الجازم بالله ولقائه ، وحكمته وعدله ، فقد حرم الأمل والنظرة المتفائلة للناس والكون والحياة ، وعاش ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود قاتم ، ويرى الأرض غابة والناس وحوشاً والعيش عبئاً لا يطاق .. على نحو ما قال أبو العلاء : هذا ما جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد . وقال :

لا تبك ميتاً ولا تفرح بمولود فالميت للدود والمولود للدود ! [3]

ومن ثم فقد وجب على المسلم أن يقطع اليأس من قلبه ويجتث جذور القنوط من فؤاده والسبب في ذلك كما يقول الشيخ هو : أن اليأس ليس من شيمة المؤمن أبداً ، وإن اكفهر الجو من حوله ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ،

---

(١) انظر : الإيمان والحياة ص ١٣٥ .

(٢ ، ٣) انظر : المرجع السابق ص ١٣٦ ، ١٣٧ بتصرف .

يقول تعالى على لسان يعقوب: ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]. وقال على لسان جده إبراهيم : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

فالمسلم الحق لا ييأس ولا يقنط ، وهو يعلم أن مع اليوم غدا ، وأن مع العسر يسرا، وأن بعد الليل فجرا ، وأن دوام الحال من المحال ، وأن كثيراً من حقائق اليوم كانت أحلام الأمس ، فلا غرور أن تصبح أحلام اليوم ، حقائق الغد .

لا تيأســن وإن طالــت مطالبــة ... إن استـعنت بصبـر أن ترى فرجاً
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا[1]

إن الدعوة إلى الأمل ينبغي أن تكون نصب عين كل داعية ، وكم كان هو موفقاً الشهيد سيد قطب يوم أن كتب عن الأمل ، وكم كان رائعاً يوم أن جعل أحد عناوين كتبه « المستقبل للإسلام » .

ولهذا كان مما أعجب به الشيخ القرضاوي في شيخه البنا أنه : لم تنطفئ شعلة الأمل في صدره في أشد الأوقات حرجاً ، وكم دبج من المقالات التي تحيي الأمل وتبعث الرجاء وكم كرر في رسائله : أن حقائق اليوم هي أحلام الأمس ، وأحلام اليوم هي حقائق الغد[2] .

ويقول عن شيخه أيضاً : وقد كان إمامنا الشهيد حسن من أقوى الناس أملاً في النصر، ورجاءً في المستقبل ؛ رغم ما يعلمه من الغام العقبات التي توضع في طريقه[3] .

ولهذا فإن الشيخ القرضاوي كثيراً ما يؤكد على الأمل في نصر الله وصدق موعود الله ، يقول حفظه الله : أريد أن أنبه في هذه الوقفات على أمرين :

الأول : أن كل الدعاة والمصلحين المجتهدين كانوا من ذوي القلوب الآملة في الله ، الواثقة بالنصر ، الراجية للغد ، المرتقبة لطلوع الفجر .

ولا يصلح داعية يغمره اليأس من نجاح دعوته ، وانتصار رسالته ، بل

(١) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٧١ .
(٢) انظر : المبشرات بانتصار الإسلام ص ٦ .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٠٣ .

الداعية الحق هو الذي يهزم الأمل فيه اليأس ، ويغلب الرجاء فيه عوامل الخوف والقلق ، ويطمئن إلى أنه مع الله ، فالله تعالى معه[1] .

إن واقع الإسلام المر الذي يعيشه الناس ينبغي ألا يقطع الناس أبصارهم عنده ويوقفوا أعينهم عليه ، مستسلمين لليأس أو القنوط ، بل ينبغي أن يؤمنوا بأن النصر قادم ، وأن الأيام دول ، وأن دوام الحال من المحال .

ويؤكد الشيخ هذا المعنى حين يقول : إني برغم الضغوط الهائلة التي تتعرض لها الصحوة الإسلامية ، والضربات الوحشية التي توجه للحركة الإسلامية، والمكايد الخفية التي تبيت للأمة الإسلامية ، وغفلة القائمين على أمر الأمة ، بل مساعدتهم لأعدائهم على شعوبهم، برغم هذا كله أنا متفائل بمستقبل الأمة والصحوة الإسلامية والدعوة .

ولطالما أعلنت في أكثر من مناسبة في محاضراتي ودروسي : أنه إذا كان القرن التاسع عشر قرن الرأسمالية، والقرن العشرون قرن الشيوعية، فإن القرن الحادي والعشرين هو قرن الإسلام .

ويمكن أن نقول : إذا كان القرن التاسع عشر قرن المسيحية والقرن العشرون هو قرن اليهودية ، وقيام دولة إسرائيل ، وانتصارها على بضع وعشرين دولة عربية، وبضع وأربعين دولة إسلامية ، فإن القرن الحادي والعشرين هو قرن الإسلام[2].

إن ظاهرة الأمل ينبغي أن تترآءى في الأفق لكل مسلم كما تترآءى النجوم لأهل الأرض ، ينبغي أن يدرك الناس أن الأمل للمؤمن كالشمس بالنسبة للدنيا، وإذا كانت الدنيا لا تقبل بغير شمس فإن الدين لا يقبل بغير أمل ، والسبب في ذلك أن هذه الأمة أمة كتب لها الخلود ، وصفة الخلود الموسومة بها هذه الأمة تقتضي أن يظل الأمل معقوداً في موعود الله مهما توالت النكبات ، أو ازدادت الأزمات ، أو ادلهمت الأمور ، بل هذه النكبات وتلك الأزمات لا تقطع الأمل بل تزيده ، ولا تزرع اليأس بل تقلعه .

---

(١) انظر : المبشرات بانتصار الإسلام ص ١٠٣ .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٠٠ ، ١٠١ .

ويؤكد الشيخ القرضاوي هذا المعنى في كثير من كتبه فيقول : ومن دلائل الخلود لهذه الأمة ، أن الكوارث والنكبات لا تحطمها ولا تقتلها، بل تبعث فيها روح المقاومة والتحدي ، فتراها إذا نزلت بها النوازل القاصمة ، أشد ما تكون قوة ، وأصلب ما تكون عوداً ، حتى إن الناس ليظنون بها الظنون ، ويحسبونها في عداد الهلكى ، فإذا هي في فترة وجيزة ، تتغلب على عوامل الضعف المحيطة بها ، بروح القوة المكنونة في داخلها ، وإذا بالذين يرقبونها من بعيد ، أو ينظرون إليها من قريب ، يرون انتصاراً بعد انكسار ، واجتماعاً بعد شتات ، وحياة بعد جمود أشبه بالموت .

١ - رأينا ذلك في فجر الإسلام ، في حروب الردة وقتال المتمردين على دفع الزكاة.

٢ - ورأيناه في عصور التمزق للدول الإسلامية ، في مقاومة غزوات التتار الوحشية ، الذين أقبلوا من الشرق كأنهم يأجوج ومأجوج ، أو كأنهم الريح العقيم ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات : ٤٢] .

٣ - وفي مقاومة الحروب الصليبية التي زحفت فيها أوربا على الشرق الإسلامي بقضها وقضيضها وثالوثها وصليبها ، فقتلت ودمرت وأفسدت ، ما يعلمه كل دارس لتلك المرحلة من التاريخ .

ولكن القوة الذاتية الكامنة في أمة الإسلام ، لم تلبث أن ظهرت في وقائع تاريخية حاسمة ، فحطمت أحلام الصليبيين في حطين .. وفتح « بيت المقدس » بعد أن بات أكثر من تسعين عاماً أسيراً في يد الغزاة ، وأسر « لويس التاسع » ملك فرنسا في « دار ابن لقمان » بالمنصورة ، وارتد التتار مدحورين في « عين جالوت » بعد أن كان الناس يعتبرونهم « القوة التي لا تقهر » حتى شاع بين الناس القول : إذا قيل : إن التتار انهزموا فلا تصدق .. ! [١]

وكما ترجم الشيخ هذه المعاني نثراً فقد أودعها قافية وشعراً ، ويظهر ذلك في ديوان الشيخ الثاني في عنوان الديوان ذاته حين أسماه الشيخ « المسلمون قادمون » وفي مقدمته يقول الشيخ : وهأنذا أقدم هذه المجموعة للقارئ المسلم،

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ١٤١ .

أو أقدم نفسي في هذه المجموعة ، عسى أن يعيش معي ما عشته من مشاعر ، أكثرها في جانب الألم والأسى ، ولكنه ألم ينشئ الأمل، وأسى يبعث الرجاء ، فمن رحم الظلام يولد الفجر . ومن هنا عشنا الصحوة ، كما عشنا المحنة ، وكان تطلعنا إلى غد الإسلام المشرق ، بل يقيننا به ، وهذا ما جعلني أختار لهذه المجموعة عنوان «المسلمون قادمون»[1].

ولقد رد الشيخ على بعض المعوقين للدعاة ، والمثبطين لهم حين زعموا بأنه لا فائدة من العمل ، ولا طائل من الدعوة ، فرد عليهم الشيخ بقوله :

عجبت لهم قالوا: تماديت في المنى — وفي المثل العليا، وفي المرتقى الصعب
فاقصر ولا تجهد يراعك ، إنما — ستبذر حباً في ثرى ليس بالخصب
فقلت لهم: مهلاً فما اليأس شيمتي — سأبذر حبي ، والثمار من الرب
إذا أنا أبلغت الرسالة جاهدا — ولم أجد السمع المجيب، فما ذنبي ؟[2]

بل كان الشيخ مملوء القلب بالأمل في أحلك الظروف وأشدها ، حتى في أيام العذاب والزنازين ، كان يُصبر إخوانه في المحنة ويدعوهم إلى الأمل ويحذرهم من اليأس فيقول الشيخ :

صبراً أخي في محنتي وعقيدتي — ولا بد بعد الصبر من تمكين
ولنا بيوسف أسوة في صبره — وقد ارتمى في السجن بضع سنين
هون عليك الأمر لا تعبأ به — إن الصعاب تهون بالتهوين
أمس مضى واليوم يسهل بالرضا — وغد ببطن الغيب شبه جنين
لا تيأسن من الزمان وأهله — وتقل مقالة قانط وحزين
شاة أسمنها لذئب غادر — يا ضيعة الإعداد والتسمين
فعليك بذر الحب لا قطف الجنى — والله للساعين خير معين[3]

والشيخ تراه واقعياً في كتاباته فهو وإن كان يدعو إلى الأمل والعمل، ويؤمن بنصر الإسلام ، وصدق موعود الله ، إلا أنه يقر بالواقع المر الذي نعيش فيه ،

---

(١) انظر : المسلمون قادمون ص ٧ .
(٢) انظر : نفحات ولفحات، ص ٥١ .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ٦٩ .

ولهذا فهو يقر بالواقع البائس فيخيل للبعض أنه ربما يائس ولكن سرعان ما يصرف الشيخ هذا الوهم؛ وفي كتابه «الناس والحق» والذي هو عبارة عن رسالة أسلوبها الحوار بين طالب وشيخه، يقول الشيخ في هذه الرسالة : غير أن المسلمين - واأسفاه - غافلون عن الحق الذي شرفهم الله به وحملهم أمانة تبليغه ونصرته ، ونشر نوره في العالمين .

فكيف يهدي الناس إلى الحق من عمي عنه أو تعامى ، ومن نسيه أو تناساه، وفاقد الشيء لا يعطيه ؟!

قال الطالب : هل أفهم من كلامك أنك يائس من غلبة الحق على الباطل .

قال الشيخ : لا . . لا ينبغي أن يتسرب إلى فؤاده اليأس : ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] .

ويقيني أن الحق لا بد أن تقوم له دولة ، وأن ترفع رايته في الأرض ، ولا بد أن ينهزم الباطل ويلوذ بالفرار .

وقد بدت بشائر انهزام الباطل في الغرب ، بشائر كثيرة تبعث على الأمل وتبدد ظلام اليأس .

إن مما يبعث على الأمل أن الاستعمار الذي أغلق كثيراً من النوافذ التي تهب منها نسمات الحرية الفكرية على الشعوب ، قد حمل عصاه ، ورحل عن أقطار كثيرة ، فأتاح فرصة للأفكار أن تتحرر ، وللعقول أن تبحث .

ويبعث على الأمل أن الإلحاد أخذ يتضاءل ويخفي رأسه ، ويخفت صوته، ولم يعد له حجة ولا سلطان ، وكلما تقدم العلم ازداد عدد المؤمنين بالله ، وتناقص عدد المنكرين .

ويبعث على الأمل أن كثيراً من المفكرين المنصفين أخذوا يشكون من طغيان المادية على الحياة ، وطفقوا يبينون مثالب الحضارة المادية ، وخطرها على خصائص الإنسان وتهديدها للقيم الأصيلة والمثل العليا في الحياة [١] .

ويقول في كتابه الموسوم بـ« جيل النصر المنشود » وهو يرد على محاور له طوته الحيرة ونشرته ، وأقامه الهمّ وأقعده؛ من مآسي المسلمين المرة ، وقد أوشك

---

(١) انظر : الناس والحق ص ٨٩ - ٩١ بتصرف.

اليأس أن يحطم قلبه . هنا يدفع الشيخ اليأس عن محاوره وأمثاله بقوله : قلت له : لا تيأس يا صاحبي ، فسنة الله أن يعقب الليل الغاسق بفجر صادق ، وأشد ساعات الليل حلكة وسواداً هي السويعات التي تسبق بزوغ الفجر ، ولكن لله في خلقه قوانين صارمة لا تحابي ، وسنناً ثابتة لا تتبدل ، ولا بد لنا أن نعيها ، ونتعامل على بصيرة معها [١].

إن كثرة المآسي ، وقلة السالكين للحق لم تكن وينبغي ألا تكون مثبطاً للهمم أو دافعاً إلى اليأس أبداً . وفي هذا يقول الشيخ : وهب أن الناس كلهم قد انطمست بصائرهم ، وختم على سمعهم وأبصارهم ، وغشى الباطل على قلوبهم ، فلم يعودوا يستجيبون لصيحة الحق ولا لدعوة الخير ، فلا يفتت ذلك في عضدك ، ولا يقعدنك عن واجبك ، فإنما عليك البلاغ وعلى الله الحساب ، عليك الدعوة وعلى الله الهداية ، عليك أن تبذر الحب ، وأن ترجو الثمار من الرب .

إن أحلك ساعات الليل سواداً هي التي تسبق الفجر ، وإن أشد الأيام قسوة هي التي تسبق تباشير النصر ، وما أكثر الأمثلة على ذلك ، وما أكثر الأدلة ![٢]

وإذا كان الأمل قد ملأ قلب الشيخ القرضاوي كما رأينا؛ فإن هذا الأمل لم يكن عنده مدعاة للكسل بل حافزاً للعمل داعياً للعطاء آمراً بالبذل .

وقد حرص الشيخ على أن يكون العطاء والعمل ديدن كل داعية ، بل جعل الشيخ قلة العمل مع مجرد التغني بأمجاد الماضي مظهراً من مظاهر المراهقة لدى الصحوة الإسلامية، يقول الشيخ : من مظاهر المراهقة في الصحوة : التشدق بالكلام وكثرة القيل والقال فيما لا يبني ولا يجدي ، على حساب العمل المنتج البناء [٣].

والحق أن العمل صفة ملازمة لكل مسلم وهي أشد ملازمة له في وقت الأزمات والشدائد ؛ وحينئذ يضاعف له الأجر حتى يصل إلى أجر خمسين رجلاً

---

(١) انظر : جيل النصر المنشود ص ٥ .
(٢) انظر : الناس والحق ص ٩٤ ، ٩٥ .
(٣) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٥٣ .

من الصحابة وفي الحديث قال ﷺ : « إن من ورائكم أيام الصبر فيهن مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله » وفي رواية « قالوا منا أو منهم ؟ قال : بل منكم[١] ».

ومن هنا فقد حرص الشيخ على إلزام جيل النصر المنشود بالعمل؛ بل العمل الجاد، والكف عن التغني بأمجاد الماضي فقال واصفاً هذا الجيل : جيل لا يقف عند التغني بأمجاد الماضي ، ولا عند النواح على هزائم الحاضر ، ولا عند التمني لانتصارات المستقبل .. إنما يؤمنون بأن المجد بالعطاء لا بالمفاخرة ، وبالإنتاج لا بالثرثرة ، وأن الفتى من يقول : هاأنذا، وليس الفتى من يقول : كان أبي .. وأن الانتصار على مآسي اليوم ، وتحقيق آمال الغد، إنما يتحقق بالجد لا بالهزل ، وبالبناء لا بالهدم ، وبالعمل الهادئ لا بالصراخ المدوي[٢] .

بل طالب الشيخ الصحوة الإسلامية ورجالها بالعمل الجاد لمواجهة المكائد التي تكاد للأمة ؛ فقال حفظه الله : على الحركة الإسلامية أن تضاعف الجهد ، وتكثف العطاء، حتى تحقق الآمال المنوطة بها .

على الحركة أن تنتقل من مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل ، وأن تتحرر من تلك الآفة التي غدت تعوق خطانا عن السير ، وهي كثرة النواح على الماضي ، وقلة العمل للحاضر ، والنواح لا يحيي ما مات ، ولا يرد ما فات .

إن آفتنا كثرة الشاكين المتوجعين ، وقلة المداوين ، وكثرة من يسبون الظلام، وقلة من يوقدون الشموع .

أجل ، كثرت الشكوى وتكررت من الأدواء والمآسي ، حتى لم يعد هناك أحد إلا يشكو ، فمن المشكو منه إذن ؟ كلنا شاك وكلنا مشكو منه[٣].

وقد عاب الشيخ على صحوتنا المباركة أن تأخذ جانب الانتظار سواء على المستوى السياسي أو المستوى الديني ، وسماهم الشيخ بالمهدويين الذين يوقفون كل سائر ويجمدون كل متحرك ، وقد أمر الشيخ هذا النوع بالعمل بدل الانتظار وبالتحرك بدل التوقف يقول حفظه الله : لقد آن للتفكير عندنا أن يتغير من

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤١) عن أبي ثعلبة الخشني وابن ماجه (٤٠١٤) ، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٤٩٤).

(٢) انظر : جيل النصر المنشود ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) انظر : أين الخلل ص ٧٦ ، ٧٧.

انتظار عبقري فذ موهوب يصنع المعجزات ، ويتخطى المستحيلات للتوجه إلى حركة شعبية جماعية ، تقوم بقيادة سفينة التغيير والإصلاح .

لقد كنا ننتظر دائماً هذا المنقذ الفرد ، سواء على المستوى السياسي، أم على المستوى الديني .

وعلى المستوى السياسي نجد الجماهير معلقة أبدا بزعيم ملهم ، يقود مسيرتها في معركة التحرير أو معركة البناء .

وعلى المستوى الديني ننتظر دائماً « مهدياً » أو « مجدداً » واحداً ، تبعثه العناية الإلهية، ليقوم عن الناس بإصلاح ما أفسد الدهر [1] .

والعمل الذي يريده الشيخ ليس عملاً وقتياً إنما عمل مستمر دائم ، وليس عملاً جزئياً ولكنه عمل كامل شامل ، يقول الشيخ : والحق أنه لا بديل عن العمل والعمل الدائب، والعمل المستطاع ، لخدمة الإسلام ، وإعلاء كلمته ، ونصرة شريعته ، وتوحيد أمته ، وتحريرها وتطويرها .

وهو عمل في جملة ميادين ، كل منها يستغرق جهوداً وجهوداً . إنه العمل مع النفس، والعمل مع الأسرة ، والعمل مع المجتمع .

العمل مع المسلمين ، والعمل مع غير المسلمين .

إنه العمل بالإسلام ، والعمل للإسلام .

العمل باللسان ، والعمل بالقلم ، والعمل باليد ، والعمل بالفكر ، والعمل بالبذل .

العمل في الدعوة ، والعمل في التربية ، والعمل في الثقافة ، والعمل في الاقتصاد ، والعمل في خدمة المجتمع .

إنه العطاء المتجدد من كل حسب طاقته ، ولا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، عطاء بالمعروف حقاً على المؤمنين [2] .

* * *

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ٧٦ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٨٠ ، ٨١ .

المبحث التاسع
العدل والإنصاف مع مخالفيه

من معاول الهدم التي ابتليت بها الصحوة الإسلامية في عصرها المبارك هذا؛ غمط الخصوم ، وقد وقع في ذلك كثير من ناشئة العلم ، بل وقع فيه كبار من الدعاة والعلماء في القديم وفي الحديث، وغالباً ما يكون الغمط إما كبراً أو حسداً أو ظلماً، أو أنه طبع أصيل في صاحبه فلم يستطع الإفلات منه .

وغني عن البيان أن دين الله سبحانه نهى عن الإجحاف ودعا إلى الإنصاف، بل ركز على إنصاف الأعداء والمخالفين، مخافة أن يحمل بغض قوم على ظلمهم فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٨] .

وحين تحدث القرآن عن أهل الكتاب أنصف المحسنين منهم ، فذكر ما ذكر من مساويهم ومخازيهم ثم قال سبحانه : ﴿ لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣] .

وإن من أروع دلائل الإنصاف ما نزلت به الآيات في سورة النساء حيث اهتزت السماء لأمر يهودي اتهم ظلماً في جريمة لم يكن له علاقة بها ؛ وكاد النبي ﷺ أن يصدق من وشى باليهودي من المسلمين فعاتب الله نبيه ﷺ وأنزل براءة اليهودي فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً * وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء: ١٠٥ ، ١٠٦].

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله : في الوقت الذي كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة ، التي تحويها جعبتهم اللئيمة ، على

الإسلام والمسلمين ؛ في الوقت الذي كانوا فيه ينشرون الأكاذيب ؛ ويؤلبون المشركين ؛ ويشجعون المنافقين ، ويرسمون لهم الطريق ؛ ويطلقون الإشاعات ؛ ويضللون العقول ؛ ويطعنون في القيادة النبوية ، ويشككون في الوحي والرسالة؛ ويحاولون تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل ، في الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج .. والإسلام ناشئ في المدينة ، ورواسب الجاهلية ما يزال لها آثارها في النفوس ؛ ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم ، تمثل خطرا حقيقيا على تماسك الصف المسلم وتناسقه ..

في هذا الوقت الحرج ، الخطر ، الشديد الخطورة .. كانت هذه الآيات كلها تتنزل، على رسول الله وعلى الجماعة المسلمة ، لتنصف رجلا يهوديا ، اتهم ظلما بسرقة ؛ ولتدين الذين تآمروا على اتهامه ، وهم بيت من الأنصار في المدينة. والأنصار يومئذ هم عدة الرسول وجنده ، في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله ، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة ... !

أي مستوى هذا من النظافة والعدالة والتسامي ! ثم أي كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى ؟ وكل كلام ، وكل تعليق ، وكل تعقيب ، يتهاوى دون هذه القمة السامقة ؛ التي لا يبلغها البشر وحدهم . بل لا يعرفها البشر وحدهم. إلا أن يقادوا بمنهج الله ، إلى هذا الأفق العلوي الكريم الوضيء ؟! (١)

وعلى هذا الخلق الراقي تربى الصالحون والمخلصون ، والعلماء الربانيون ، هذا شيخ الإسلام ابن تيمية والذي تتمسح به جل فصائل الحركة الإسلامية وليتهم يتعلموا منه كيف يكون الإنصاف ؟ يقول رحمه الله : وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر ، وفجور وتقى، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع

---

(١) انظر في ظلال القرآن ج ٢ ص ٧٥١ وما بعدها بتصرف .

له من هذا وهذا ؛ كاللص الفقير تقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته[1].

ومن كلام الذهبي الرائع رحمه الله عن تفسير أبي بكر القفال وما فيه من اعتزال يقول : الكمال عزيز وإنما يمدح العالم بكثرة ماله من الفضائل ، فلا تدفن المحاسن لورطة، ولعله رجع عنها، وقد يغفر له باستفراغه الوسع في طلب الحق ، ولا قوة إلا بالله[2].

ولقد من الله عز وجل على الشيخ القرضاوي بنعمة العدل والإنصاف ، فإنه إذا أحب لا يقدس ، وإذا كره لا ينقص ، لكنه مقسط في هذا وذاك ، يقول حفظه الله : وهذا مما أحمد الله تعالى عليه : العدل والاعتدال مع الناس ، وخصوصاً مع العلماء فلا أغلو في حب بعضهم إلى درجة التقديس ، ولا أتطاول على كبرائهم لمجرد أنه أخطأ فكل بني آدم خطاء ، ولكل عالم هفوة ، ولكل جواد كبوة ، ثم ما يدريني لعل ما أظنه صواباً هو الخطأ بعينه ، ولا سيما في الأمور الاجتهادية [3].

وقد عاب الشيخ القرضاوي عدم الإنصاف في شعره ؛ لأنه يرى أن عدم الإنصاف هضم للحقوق فقال :

سلام على الدنيا سلام على الورى … إذا ارتفع العصفور وانخفض النسر !
أيعطى لزيد ما يشاء من المنى … ويحرم حتى من ضروراته عمرو
أيعطي لنا يا قومنا القشر والنوى … ومن دوننا يعطى له اللب والتمر
إذا العدل والإنصاف في الأرض لم يقم … فمن أين يأتي أهلها العز والنصر ؟[4]

ولذلك ترى الشيخ القرضاوي يغضب من عدم إنصاف الناس أفراداً وجماعات ، ومن ذلك أن الشيخ لا يرضى أن تكون الدولة العثمانية مشجباً

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ابن تيمية ٢٨ ص ٢٠٩ .
(٢) سير أعلام النبلاء ج١٦ ص ٢٨٣ وما بعدها .
(٣) انظر : ابن القرية والكتاب ج٢ ص ٢٠٢.
(٤) انظر : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٠ ، وانظر : رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد ص ٤ ، ٥.

يعلق عليه الناس كل خطأ، ويجعل الناس عليه كل عثرة فيقول حفظه الله : أصبحت الدولة العثمانية مشجباً يعلق عليه الكثيرون كل الأخطاء والعثرات في شتى المجالات .. فالواقع أن سيطرة التقليد والتعصب المذهبي وذبول شجرة الاجتهاد المطلق ، أمور سبقت الدولة العثمانية ، واستشرت في أقطار العالم الإسلامي بنسب متفاوته ، وإن لم يخل عصر من العصور من مجتهدين .

على أنه من الإنصاف للواقع وللتاريخ أن نقول : إن الدولة العثمانية اهتمت بالجهاد أكثر من اهتمامها بالاجتهاد ، مع أن القيادة الإسلامية تحتاج إلى كلا الأمرين: الاجتهاد لمعرفة الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ ، والجهاد لحمايته والذود عنه[1] .

وحين يرى الشيخ التطاول المزري على كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ورشيد رضا ، من الأغمار من الناس ، فينبري حفظه الله ليؤكد ما كان للرجال من خير ويعتذر عما كان منهم من زلات فيقول : لقد كان الشيخ محمد عبده أقرب إلى الانضباط بمحكمات الشرع من شيخه الأفغاني بحكم ثقافته الأزهرية المتعمقة .. والسيد محمد رشيد رضا كان أقرب إلى الانضباط بمحكمات الشرع من شيخه الإمام ، بما له من سعة اطلاع على كتب السنة والآثار ، وإنتاج المدرسة السلفية ، التي يمثلها الإمام ابن تيميه وتلميذه ابن القيم، وهو الذي شن حملاته القوية من مجلته العتيدة « المنار » على الجمود والتقليد ، وكتب المقالات الإصلاحية ، والفتاوى العلمية التجديدية ، خلال ثلث قرن من الزمان أو يزيد ، وذاعت اجتهادات الشيخ رشيد ، وفتاواه التجديدية في العالم الإسلامي كله ، ولقيت من القبول أكثر مما لقيته اجتهادات شيخه على قلتها .. أما اجتهادات السيد جمال الدين فلا نكاد نعرف له اجتهاداً معيناً ، وقد كانت شخصيته شخصية الزعيم « الثائر » الموقظ للعقول، المحرك للمشاعر ، المثير للهمم والعزائم ، لا شخصية الفقيه المنضبط بأصول وقواعد ، وكل ميسر لما خلق له .

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٤١ ، ٤٢ .

وقد أخذ على الشيخ محمد عبده بعض آرائه في تأويل القرآن ، كقوله في قصة آدم، وكلامه عن الطير الأبابيل ، ونحو ذلك ، وعذره أن الحضارة الغربية كانت في أوجها ، وكان الانبهار بها على أشده ؛ لذا غلبت عليه النزعة العقلية، ومحاولة إخضاع النص حتى يوافق المفاهيم الجديدة ، وتقريب تعاليم الدين من المثقفين بالثقافة الغربية ، ولو بالتكلف .

ومن الإنصاف لمن يريد تقويم شخص ما ، وتقدير فكره وعمله ، أن يضعه في إطاره التاريخي الخاص ، لا يعدو به زمانه ومكانه إلى زماننا نحن ومكاننا ، فبعض ما يبدو لنا اليوم واضحاً مسلماً ، لم يكن كذلك في زمنه ، فرحم الله امرءاً أنصف من نفسه ، وأعطى كل عامل ما يستحقه ، وأقام الشهادة لله .[1]

وفي تعقيبه حفظه الله على مقال لأحد مخالفيه في مسألة رؤية الهلال لإثبات شهر رمضان، يعقب بكل أدب واحترام فيقول: وقد قرأت مقالاً مطولاً في شهر رمضان لهذا العام ١٤٠٩ هـ لأحد المشايخ الفضلاء، وهو سماحة الشيخ صالح بن محمد اللحيدان . . . إلخ »[2]

وقد كان الشيخ وما يزال مثالاً رائعاً في العدل والإنصاف مع مخالفيه وهذا ظاهر في كتاباته وكلامه ، ولقد عد الشيخ القرضاوي إحدى ركائز الاختلاف : إنصاف المخالف وفي هذه الركيزة يقول الشيخ : ومن الركائز المهمة هنا : إنصاف الخصوم وإعطائهم حقهم من الناحية الأدبية، كما يعطون حقهم من الناحية العلمية فلا يجوز أن أهضم حقك وأغفل عمداً ذكر حسناتك، والتنويه بفضائلك، لمجرد خلافي معك في قضية أو أكثر، كما يفعل كثيرون، يجورون على خصومهم، فلا يكادون يعترفون لهم بحسنة، وإن عرفوا لهم سيئة أذاعوها ونشروها، بل ربما ضخموها ، وجعلوا من الحبة قبة، ومن الفأر جملاً، فهم كما قال الشاعر قديماً :

---

(١) انظر : صحوة راشدة ص ٤٢ ، ٤٣ ، وانظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ٧٥ .

(٢) انظر : المدخل لدراسة السنة ص ١٧٧ .

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً ... وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به ... وإذا ذكرت بسوء عندهم أذنوا
جهلاً علينا وجبناً عن عدوهمو ... لبئست الخلتان الجهل والجبن [1]

والقرضاوي لا يعتبر الإنصاف واجباً مع المخالف المسلم فحسب ؛ لا إنما هو مع كل الناس ، لذا فإنه يقول : والمسلم الحق هو الذي يقضي بالعدل ويعمل بالإنصاف، مع الناس جميعاً ، برهم وفاجرهم ، مسلمهم وكافرهم ، قريبهم وبعيدهم ، صديقهم وعدوهم ، فالعدل لا يعرف عواطف الحب والبغض ، بل هو عدل الله لكل عباد الله[2] .

هذا وسوف أذكر شيئاً من إنصاف الشيخ من خلال أمرين :

أولاً : إنصافه للمخالفين من الأفراد .

ثانياً : إنصافه للمخالفين من الجماعات .

* * *

أولاً : إنصافه للمخالفين من الأفراد

١ - الشيخ ابن باز :

اختلف الشيخ القرضاوي حفظه الله مع الشيخ ابن باز رحمه الله لكن الاختلاف بين الرجلين لم يخرج عن كونه خلاف في الرأي أو استنباط الدليل ، غير أن الإمامين لم يتعد أحدهما أدب الخلاف ، أو احترام العلماء ، وكان ذلك إثر فتوى نشرتها الصحف لفضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله حول السلام مع إسرائيل ، وسوف أقتبس من رد الشيخ القرضاوي ما يؤيد ما نحن بصدده من إنصاف المخالف ، أما أي الفتوايين أصلح فله موضوع آخر .

جاء في صدر كلام الشيخ القرضاوي في الرد على الشيخ ابن باز : سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز واحد من كبار علماء المسلمين المرموقين في هذا العصر

(١ ، ٢) انظر : كيف نتعامل مع التراث ص ١٦٦ .

وفتاواه معتبرة في الأوساط العلمية والدينية ، وهو رجل يوثق بعلمه ودينه نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله تعالى[1].

ويقول : فتوى الشيخ ابن باز التي نشرت حول السلام مع إسرائيل يخالفه فيها الكثير من علماء المسلمين وأنا منهم على الرغم من مودتي وتقديري الكبير له ، ولكن كما قال الحافظ الذهبي عن شيخه الإمام ابن تيمية : شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه[2].

وفي رد الشيخ القرضاوي على تعقيب ابن باز رد يقول : فقد اطلعت على ما كتبه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، ويؤسفني أن أخالف سماحته في تعقيبه كما خالفته في أصل الفتوى وليس في العلم كبير ، والحق أحق أن يتبع[3].

ويختم الشيخ هذا الرد بقوله : هذا وإن خلافي مع الشيخ عبد العزيز لا ينفي ما أكنه له من ود واحترم [4].

ثم يقول : وإني لأرجو من الشيخ أن يمعن النظر فيما أوردت من أدلة واعتبارات ، عسى أن يراجع رأيه ، فهو - فيما علمت - رجّاع إلى الحق.

هذا و الشيخ القرضاوي في أرجوزته التي بعنوان « الأصوليون » والتي تحدث فيها الشيخ على لسان العلمانيين وأجهزة الاستخبارات ، قد عد الشيخ القرضاوي كتب الشيخ ابن باز ورسائله في جملة الكتب التي يتهم بها الشاب المسلم عند اقتنائه لها فيقول الشيخ :

بيوتهم تحفل بالدلائل	على انتمائهم بدون حائل
ستجد السواك والمصاحفا	والكتب فيها تالداً وطارفا

إلى أن يقول :

(١ ، ٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٤٦٥ .
(٣) انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٤٧٢ .
(٤) انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ .

وكتب القطبين كالظلال والقرضاوي بعد والغزالي
ومثلها رسائل ابن باز وعلماء الشام والحجاز(١)

٢ ـ الدكتور محمد سيد طنطاوي :

للدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر ومفتي مصر الأسبق آراء شذَّ بها عن إجماع العلماء ، ولعل أشهر ما عرف به الشيخ طنطاوي فتواه المتعلقة بشهادات الاستثمار وإباحته للمعاملات التي تجريها البنوك الربوية ، وإباحته للفوائد المتعلقة بهذه الأموال ، وقد أثارت هذه الفتوى القيل والقال على الشيخ الطنطاوي ، وكان ممن اعترض على هذه الفتوى الشيخ القرضاوي. غير أن الشيخ كان في رده على الشيخ طنطاوي منصفاً كل الإنصاف ، بعيداً عن إلقاء التهم ، أو إلصاق العيوب بالشيخ الطنطاوي .

وقد أصدر الشيخ القرضاوي كتابه « فوائد البنوك هي الربا الحرام » وقد ضم هذا الكتاب مناقشة علمية مفصلة رد فيها على فضيلة المفتي في فتواه المتعلقة بشهادات الاستثمار، وقد جاء في هذا الكتاب من كلام الشيخ القرضاوي أيضا إنصافاً للشيخ الطنطاوي فيقول : فضيلة الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي أخ عزيز ، وصديق قديم ، عرفته منذ سنين طويلة ،فلم أجد فيه إلا الغيرة على الدين ، والأدب الجم ، ودماثة الأخلاق ، والمودة لإخوانه، ومعرفته الفضل لذويه(٢).

ويقول: ونقدي لفتواه أو لبيانه أو لكلمته لا يقل من مودتي له وإعزازي إياه، بل كما قال الحافظ الذهبي عن شيخه الإمام ابن تيمية: شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه(٣).

وقد حاول الشيخ القرضاوي أن يقدم حلولاً للشيخ الطنطاوي ليتهرب من الوقوع في ما تريده الدولة فيقول : وكنت أظن أن المفتي ـ وقد استفتته الدولة في

(١) انظر : المسلمون قادمون ص ١١٨ .
(٢، ٣) انظر : فوائد البنوك هي الربا المحرم ص ٧١ .

الموضوع - أن يحيلها على مؤسسة رسمية أنشأتها الدولة بقانون وجعلت من اختصاصها البحث في القضايا الجديدة ، والمسائل المهمة ، وهذه المؤسسة هي « مجمع البحوث الإسلامية » إحدى الهيئات الأساسية الثلاث ، التي تكون الأزهر الشريف ، وهو مجمع عالمي يفترض فيه أن يتكون من كبار علماء الأزهر، وعدد آخر من كبار علماء العالم الإسلامي .

كان بوسعه أن يعتذر بأنكم - معشر الحكام - حصرتم مهمة المفتي من سنين طويلة في الإجابة عن فتاوى الميراث وغيرها ، من المسائل الشخصية ، والتصديق على حكم الإعدام ، وإعلان ثبوت هلال رمضان وشوال وذي الحجة !! ولم تسالوه عن تطبيق أحكام الشريعة في الاقتصاد والمعاملات والسياسة والعقوبات . . ونحوها !

وكان يمكنه أن يعتذر بوجود فتاوى لمفتين سابقين قد يكونون أعرق منه في علم الفتوى ، ولا يحب أن يخالفهم .

كان بوسعه أن يفعل ذلك ولن يلومه أحد [١] .

ويؤكد الشيخ القرضاوي على أخلاق الشيخ الطنطاوي من تواضع وأدب فيقول بعد أن زاره الشيخ طنطاوي في بيته بالقاهرة في عام ١٩٨٩ م وكان من الحضور الدكتور علي السالوس ، والدكتور عبد الحميد الغزالي ، وفي نهاية الجلسة وعد الشيخ طنطاوي الجلوس أنه لن يصدر شيئاً إلا إذا عرضه على أعضاء هذه الجلسة ؛ يقول الشيخ القرضاوي معقباً على ذلك : وهذا من أدبه وتواضعه المعروف ولا شك[٢] .

كما أن الشيخ القرضاوي خالف الشيخ الطنطاوي أيضا في مقابلته لأحد الحاخامات اليهود ، لكن الشيخ رغم مخالفته لشيخ الأزهر في هذا الاجتماع إلا أنه لم يرض أن ينال من عرض الشيخ أو يمس شخصه ، أو ينتقص من قدره بكلمة نابية فضلاً عن صورة « كاريكاتيرية »، وكانت إحدى الصحف القطرية قد

(١ ، ٢) انظر : فوائد البنوك هي الربا المحرم ص ٧٣ ، ٧٥ .

نشرت صورة « كاريكاتيرية » تبدو فيها السخرية من شيخ الأزهر ، فاعترض الشيخ على ذلك وكان اعتراضه على الملأ حيث أعلن ذلك في خطبة الجمعة والتي تذاع على الهواء مباشرة .

وضمن الشيخ القرضاوي ذلك في فتاويه فقال : وأود أن أنبه أن بيني وبين الإمام الأكبر الشيخ طنطاوي مودة قديمة يعرفها ، وليس بيني وبينه من الناحية الشخصية أي شيء ، إنما هو خلاف في الرأي والمنهج والأسلوب ، وقد رددت عليه من قبل في موقفه من الربا وفوائد البنوك .

ورغم أني أخالف الشيخ هنا ، وقد خالفته من قبل في قضية الربا ، فإني لا أقبل أن يمس شخصه، أو ينال من قدره، بكلمة نابية، أو صورة « كاريكاتيرية » خارجة عن الأدب الشرعي الواجب في حق علمائنا ، ولا سيما أنه يتبوأ أكبر وأعرق منصب علمي ديني في العالم الإسلامي(١)،(٢) .

٣ ـ الشيخ الألباني :

الشيخ الألباني من الدعاة الذين تركوا بصمة واضحة في العصر الحديث وتراث الشيخ يدل على ذلك ، وللشيخ الألباني جهود مشكورة في خدمة السنة النبوية استفاد منها القاصي والداني .

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

(٢) بيد أن الشيخ القرضاوي في أرجوزته « الأصوليون» ص ١١٧ من ديوانه «المسلمون قادمون » تناول شيخ الأزهر بأسلوب قد يؤخذ على الشيخ حيث يقول :

وأنكروا فوائد البنوك ... كأننا في الزمن المملوكي !
ناسين ما حتمه التغير ... والدين مثل غيره يطور
وخالفوا مفتينا الطنطاوي ... مجدد الزمان في الفتاوي
والشرع في يديه كالعجينة ... لا كالأولى عقولهم سجينة
وما علينا من مخالفيه ... وقوفنا بجنبه يكفيه
وكلما رد عليه العلما ... زادوه شهرة كنجم السينما
فهو بنا شيخ شيوخ العصر ... من مثله من نجباء مصر ؟

ولما سألت الشيخ عن ذلك ضحك و قال لي : إنما أتحدث في الأرجوزة على لسان المخابرات و رجال الأمن وهذا لسان حالهم .

والشيخ القرضاوي ممن استفاد من هذا التراث الهائل ، وكثيراً ما يعتمد الشيخ القرضاوي على تخريجات الشيخ الألباني للأحاديث وخصوصاً في السلسلتين الصحيحة والضعيفة ، وعلاقة الشيخين بدأت مبكراً حين خرج الشيخ الألباني أحاديث كتاب «الحلال والحرام» في كتابه «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام» كما خرج أحاديث كتاب « مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام» .

وتخريج الشيخ الألباني لأحاديث «الحلال والحرام» و «مشكلة الفقر» هو في حد ذاته نوع من أنواع التقدير من الألباني للقرضاوي ، وهذا ما أقر به القرضاوي حيث قال : لا شك أن تخريج العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - حفظه الله - لأحاديث كتابي : «الحلال والحرام» هو نوع من التكريم للكتاب وصاحبه، فعلماء الحديث من قديم لا يخرجون أحاديث الكتب التافهة أو المغمورة، إنما يخرجون الكتب التي لها قيمة ووزن علمي ، وشهرة عند أهل العلم وجماهير الناس [1].

والحق أن الشيخ الألباني كان موسوماً بأدب العلماء حين خرج أحاديث كتاب « الحلال والحرام» فهو وإن اعترض على بعض آراء الشيخ القرضاوي إلا أنه لم يحجر على الشيخ رأيه ، ولم يدع لرأيه العصمة وفي هذا يقول الشيخ القرضاوي : الشيخ الألباني ليس مجرد محدث محايد، يكتفي بتخريج الحديث، والحكم عليه،تصحيحاً أو تضعيفاً، وينتهي دوره، ولكنه رجل له آراؤه وفقهه الخاص، وهذا يتضح على تخريجه شاء أم أبى، كما أنه يتدخل أحياناً، معلقاً على رأي المؤلف وترجيحاته، بما يتفق ورأيه هو وترجيحه، كما فعل في موضوع الغناء بآلة وبغير آلة. وهذا التدخل منه أوصل بعمل الفقيه منه بعمل المحدث، ولو أردت التعقيب على تعقيبه أو الرد عليه، لاقتضاني ذلك أن أؤلف كتاباً كاملاً في الموضوع، مناقشاً أدلة المبيحين والمحرمين، ومرجحاً ما أراه أقوى دليلا، وأقوم قيلا [2].

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ١٠٠ .
(٢) انظر : المرجع السابق ج٢ ص ١٠٧ .

وقد يختلف الشيخان في الحكم على حديث فيرى القرضاوي رأياً غير الذي ارتآه الألباني لكنه لا يحمل عليه ولا ينال منه كما في حديث « ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله عز وجل عنها » ضعفه الشيخ الألباني في تخريج «الحلال والحرام» حديث رقم (٤٧) ، وقد خالفه القرضاوي في تعليقه على كتاب المنتقى من الترغيب والترهيب[١] .

وقد كان للشيخ القرضاوي قولاً واضحاً ودفاعاً صادقاً عن الشيخ الألباني حين اتهم الأحباش الشيخ القرضاوي بأنه يمتدح الشيخ الألباني ، فكان رد الشيخ القرضاوي قمة في الإنصاف فقال : وأنا أشهد أن الشيخ الألباني محدث كبير ولا شك ، يشهد له إنتاجه الغزير ، في تحقيق مصادر السنة ، وفي تمييز صحيحها من سقيمها ، وله في ذلك جهود مقدرة ، مثل تحقيقه لمشكاة المصابيح ومختصر صحيح مسلم للمنذري ، وللسنة لابن أبي عاصم وغيرها، وفي التخريج له سلسلة الأحاديث الصحيحة ، وسلسلة الأحاديث الضعيفة، وإرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ، وصحيح أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وصحيح الجامع الصغير وزيادته ، وإن كنت قد أخالفه في إطلاق التصحيح بكثرة الطرق ، وفي عدم الاهتمام بالنظر إلى المتون والمضامين في بعض الأحيان .

ومع هذا أنا أخالف الشيخ الألباني في كثير من استنباطاته الفقهية، وأرد عليه وخصوصا فيما ينفرد به، وفيما ينزع النزعة الظاهرية[٢]،[٣].

بل إن الشيخ القرضاوي يؤكد بأن الشيخ الألباني من أبرز علماء العصر

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، وانظر : المنتقى من الترغيب والترهيب ج ١ ص ٣٦٢ حديث رقم (٥٧٦) و رقم (٥٧٧) وانظر : غاية المرام الألباني حديث رقم (٤٧) .

(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٧٠٣ .

(٣) كنت أحب ألا يصف شيخنا القرضاوي الشيخ الألباني بهذا الوصف، وألا يجعله ضمن الظاهرية الجدد، فالشيخ الألباني وإن كانت له اجتهادات يخالف فيها الشيخ، وينحو فيها منحى الظاهرية القدامى، إلا إنه لا يوضع في صف واحد مع الظاهرية الجدد في خندق واحد.

الحديث فيقول : إن الشيخ الألباني في رأيي هو أشهر علماء الحديث في عصرنا وخصوصاً في فن التخريج والتوثيق والتضعيف [١].

لكــن الشيخ القرضاوي مع هذا الاعتـراف لا يعطي الكلمة النهائية في كل حديث للشيخ الألباني تضعيفاً أو تصحيحاً، خصوصاً أنه قد يخالفه آخرون من علماء الحديث في عصرنا من أمثال : الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ، والشيخ شعيب الأرناءوط ، والشيخ عبد الفتاح أبي غدة وغيرهم[٢] .

* * *

ثانياً : إنصافه للمخالفين من الجماعات

عرف الشيخ القرضاوي بين العامة والخاصة ، والقاصي والداني أنه إخواني المشرب والفكر والتوجه ، بيد أن نشأته الإخوانية لـم تجعلـه متعصباً للجماعـة أو معادياً لغيرها ، ولم يعرف الشيخ بأنه نسب الحق وحده لجماعته دون غيرها ، ولا دعا الشيخ يوماً للعمل تحت لواء هـذه الجماعـة دون سـواها ، بل الحق الذي لا مراء فيه أن الشيخ يرى تعدد الجماعات ظاهرة صحية ، شريطة أن يكون ذلك، تعدد وتنوع واختلاف، لا تفرق وتضاد، أو يكون تنوع وتخصص، لا صـراع وتناقص، فتعتني كل جماعة بأمر وتدع غيرها في أمر آخر .

وهذا ما جعل الشيخ لا ينتقص من شأن جماعة أو ينتقص من شأن أخرى؛ قد يوجه الشيخ نقداً لرؤية فكرية، أو رأي دعـوي، لكنه لا ينتقص من شـأن جماعة أبداً؛ ولهذا يقول الشيخ في معرض حديثه عن الجماعات الإسلامية : ومن المملكة العربية السعودية انطلقت الحركة السلفية داعية إلى التوحيد بعناصره الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، مركزة على تحرير التوحيد من الخرافة والشرك والقبوريات والتأويل ، مشددة النكير على كل من يؤول صفات الله الخبرية من الأشاعرة والماتريدية

(١ ، ٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ١٠٣ .

وغيرهم ، متخذة من تراث شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، رصيداً للدعوة والمجادلة ، وكذلك تراث مجدد الجزيرة العربية الشيخ محمد ابن عبد الوهاب.

وكان لها امتداد في مصر على يد الشيخ محمد حامد الفقي وجماعة أنصار السنة وفي بلاد الشام على يد المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، وفي الهند وباكستان على يد جماعة أهل الحديث .

ومنهم السلفيون الجدد ، الذين يسميهم بعض الناس «السروريين» وهم الذين اهتموا بالجانب السياسي مع الجانب العقدي ، ونقد الأوضاع العامة ، المحلية والدولية ، وكان لهم موقفهم من دخول الأمريكان إلى المنطقة في حرب الخليج ، وفيهم علماء ودعاة لهم وزنهم مثل المشايخ سلمان فهد العودة ، وسفر الحوالي ، وعايض القرني .

منهم الذين يعتزون بالشيخ ابن باز رحمه الله والشيخ ابن عثيمين وعلماء المملكة ويعتبرونهم مراجع فذة لهم ، ولا يقبلون العلم من أحد سواهم .

ومنهم من يتبعون الشيخ الألباني ويقلدون مذهبه، في حين أنه ينكر المذاهب جميعاً، ومع ذلك جعلوه مذهباً خامساً[1].

ويقول في موضع آخر: ولا ننسى جماعات وحركات كان لها أثرها ومساهمتها في مجال الصحوة ، على اختلاف اتجاهاتها ومشاربها ، بالإضافة إلى أم الجماعات ، وكبرى الحركات الإسلامية حركة الإخوان المسلمين .

منها : جماعة التبليغ والدعوة ، التي تاب على أيدي أتباعها كثير من العصاة في بلاد العجم والعرب ، وعرفوا الطريق إلى المسجد والصلاة والتوبة ، بعد شرور المعصية، وشرور الغفلة . وقد بدأت في الهند وباكستان ، ثم انتشرت في العالم ، ومن مؤسسيها وروادها : الشيخ محمد إلياس ، والشيخ محمد يوسف ، وخلفاؤهما .

---

(١) انظر : أمتنا بين قرنين ص ٧٣ ، ٧٤ .

ومنها الحركة السلفية ، التي عنيت بتصحيح العقيدة ، وتصحيح العبادة ، وتحريرها من الشركيات والمبتدعات ، والدعوة إلى الاعتماد على الكتاب والسنة، لا على تقليد المذاهب أو اتباع الطرق ، ومن روادها : الشيخ محمد حامد الفقي في مصر ، والشيخ عبد العزيز بن باز في المملكة العربية السعودية ، والشيخ محمد ناصر الألباني في بلاد الشام، والشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في الكويت.

ومنها الجمعية الشرعية ، للعاملين بالكتاب والسنة ، في مصر خاصة ، التي كان لها دورها في إقامة السنة ، ومحاربة البدع ، وإنشاء المساجد الملتزمة بإقامة الصلاة على الوجه الأكمل ، ومؤسسها الشيخ محمود خطاب السبكي ، وخلفه ابنه الشيخ أمين ، وبعدهما الشيخ عبد اللطيف مشتهري ، والشيخ محمود عبد الوهاب فايد .

ومنها : جماعة الجهاد التي ربت أتباعها على معاني القوة والصلابة ، والخشونة إلى حد العنف ، وحب البذل والتضحية ، والاستشهاد في سبيل الله ، ومن أشهر رجالها : العالم الأزهري الكفيف الشيخ عمر عبد الرحمن ، والسيد عبود الزمر .

ومنها حزب التحرير الإسلامي ، الذي وقف جهده على الدعوة لإقامة الدولة الإسلامية ، وإعادة الخلافة الإسلامية ، والذي أسسه الشيخ تقي الدين النبهاني[1] .

وبعد هذا العرض المجمل للشيخ وإنصافه للجماعات أذكر بالتفصيل إنصاف الشيخ مع كل من:

١ ـ الصوفية.

٢ ـ والسلفية .

* * *

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ١١٠ ، ١١١ .

١ ـ القرضاوي والصوفيون [١]

من الأمور التي يقف منها الناس موقفاً متبايناً « التصوف[٢] » ، والناس فيه ما بين مادح بإسراف ، أو ذام بإسفاف ، والحق أن التوسط خير ، والاعتدال مطلوب .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كلام طيب في التصوف والمتصوفة، لم يخرج فيه عن حد الاعتدال والإنصاف ؛ بل أعطى للقوم حقهم دون وكص أو شطط ، كما أن لتلميذه ابن القيم كلاماً تبدو عليه رائحة شيخه ، فهو وإن لم يكن كلام شيخه فإن أثر شيخه يبدو ظاهراً عليه ، يقول ابن القيم موضحاً منزلة أكابر الصوفية وشيوخهم في مستهل حديثه عن منزلة العلم في كتابه « مدارج السالكين » : وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه على غير طريق ، وهو مقطوع عليه طريق الوصول ، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح ، مغلقة عنه أبوابها ، وهذا إجماع من الشيوخ العارفين ، ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق منهم ، ونواب إبليس وشرطه [٣].

---

(١) كنت قد جعلت الحديث عن القرضاوي والمتصوفة في فصل « القرضاوي وجبهاته الدعوية » ولكنني عدلت عن ذلك ولم أشأ أن يكون المتصوفة في جنب واحد مع كل من العلمانيين والقوميين وأهل الكتاب ، ذلك أنه على الرغم من شطحات الصوفية ، فإن لهم أثراً لا ينسى ، وفضلاً لا يمحى ، وبصمات خالدة في نشر الإسلام .

(٢) التصوف حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعات فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة كرد فعل للانغماس في الترف الحضاري ، ثم تطورت بعد ذلك حتى صارت طرق مميزة معروفة باسم الصوفية . انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ج ١ ص٢٥٣ ط دار الندوة العالمية ط. الثالثة ١٤١٨ هـ .

(٣) انظر : مدارج السالكين ابن القيم ج٢ ٤٦٩ .

ويذكر ابن القيم من كلام أعلام المتصوفة مايؤكد ارتباطهم بالعلم فيقول :
قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول .

وقال : من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر ؛ لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة .

وقال أبو حفص رحمه الله : من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال .

وقال أبو حمزة البغدادي من أكابر الشيوخ ـ وكان أحمد بن حنبل يقول له في المسائل ـ ما تقول يا صوفي من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول في أحواله وأقواله وأفعاله .

ومر الشيخ أبو بكر محمد بن موسى الواسطي يوم الجمعة إلى الجامع فانقطع شسع نعله فأصلحه له رجل صيدلاني فقال : تدري لم انقطع شسع نعلي؟ فقلت : لا فقال : لأني ما اغتسلت للجمعة . فقال : ههنا حمام تدخله؟ فقال : نعم . فدخل واغتسل.

وقال أبو يعقوب النهرجوري : أفضل الأحوال ما قارن العلم .

وقال أبو عمرو بن نجيد : كل حال لا يكون عن نتيجة علم فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه(١) .

وبالإنصاف الذي عرف به ابن القيم قال معلقاً على ما ينسب إلى بعض الصوفية من عدم الاهتمام بالعلم : وأما الكلمات التي تروى عن بعضهم من التزهيد في العلم والاستغناء عنه كقول من قال : نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت وأنتم تأخذونه من حي يموت .

وقول الآخر وقد قيل له : ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق ؟ فقال : ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الخلاق ؟

وقول الآخر: العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل .

---

(١) انظر : مدارج السالكين ابن القيم ج٢ ٤٦٤ وما بعدها بتصرف .

وقول الآخر : إذا رأيت الصوفي يشتغل بأخبرنا و حدثنا فاغسل يدك منه .
وقول الآخر: لنا علم الحرق ولكم علم الورق .

ونحو هذا من الكلمات التي أحسن أحوال قائلها : أن يكون جاهلا يعذر بجهله ، أو شاطحا معترفا بشطحه ، وإلا فلولا عبد الرزاق وأمثاله، ولولا أخبرنا وحدثنا لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام ، ومن أحالك على غير أخبرنا وحدثنا فقد أحالك إما على خيال صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي ؛ فليس بعد القرآن و أخبرنا و حدثنا إلا شبهات المتكلمين ، وآراء المنحـــرفين ، وخيالات المتصوفين ، وقياس المتفلسفين ، ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل ، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة ، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم والشيطان الرجيم [١].

وفي معرض حديث ابن القيم عن شطحات شيخ الإسلام « الهروي » قال :

هذا ونحوه من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق وصحة المعاملة وقوة الإخلاص وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ .

وهذه الشطحات أوجبت فتنة على بعض الطوائف من الناس :

إحداهما : حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساءوا الظن بهم مطلقاً، وهذا عدوان وإسراف، فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها .

والطائفة الثانية : حجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن ، وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها ، واستظهروا بها في سلوكهم ، وهؤلاء أيضا معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة : وهم أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته ؛ فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم

---

(١) انظر : مدارج السالكين ابن القيم ج٢ ٤٦٩ وما بعدها .

المعلول ، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح ؛ بل قبلوا ما يقبل وردوا ما يرد ، وهذه الشطحات ونحوها هي التي حذر منها سادات القوم وذموا عاقبتها وتبرؤا منها [1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى عند معرض حديثه عن الصوفية والتصوف : ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس في طريقهم؛ فطائفة ذمت الصوفية والتصوف ، وقالوا بأنهم مبتدعون خارجون عن السنة .

ونقل عن طائفة من الائمة في ذلك من الكلام ما هو معروف ، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام .

وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم .

والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله :

* ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده .
* وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين وفى كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ .
* وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب .
* ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه .
* وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة .

ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلا ؛ فإن أكثر مشائخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره ، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى في طبقات الصوفية ، وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد . فهذا أصل التصوف ، ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف :

(١) انظر : المرجع السابق ج٢ ٣٨ - ٤٠ .

١ – صوفية الحقائق .
٢ – وصوفية الأرزاق .
٣ – وصوفية الرسم [١].

والشيخ القرضاوي كان في تعامله مع التصوف والمتصوفة منصفاً كل الإنصاف ، فلم يهدم ما لهم من آثار ، ولم ينسف ما لهم من أعمال ؛ كما أنه لم يهمل ما عندهم من شطحات وأي شطحات .

ولله در القائل :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه	ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب	ولا اضطراب كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر	وتتبع الحق والقرآن والدينا
وأن تُرى خاشعاً لله مكتئباً	على ذنوبك طول الدهر محزونا

ولهذا أنكر الشيخ القرضاوي على الدعاة حملتهم على التصوف جملة دون تفريق بين الحق منه والباطل، يقول الشيخ: نرى هؤلاء الدعاة الطيبين يبدأون بحملة على التصوف كله، واتهامه بأنه دخيل على الإسلام، لا يفرقون بين سني ومبتدع، بين مستقيم ومنحرف.

هذا مع أن الأمة عامة، وهذه الشعوب خاصة: في حاجة إلى تربية ربانية تخرجها من جحيم المادية المعاصرة، التي شغلت الناس بالدنيا عن الآخرة، وبالخلق عن الخالق، وبالمادة عن الروح. تربية إيمانية أخلاقية هي جوهر التصوف الصحيح الذي عبر عنه بعضهم بكلمة موجزة بأنه: الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخَلْق. وبعبارة أخرى: التقوى مع الله، والإحسان مع الناس. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] [٢].

وأغرب ما في الأمر أن الشيخ القرضاوي ودعاة الإخوان عموماً يرمون بالتصوف من قبل إخواننا السلفيين ، ثم إنهم كذلك لا يسلمون من المتصوفة فيقولون : إنهم وهابيون.

---

(١) مجموع الفتاوى ابن تيمية ١١ ص ١٧ – ١٩ .
(٢) انظر: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ص ٣٧ .

علاقة القرضاوي بالتصوف قديمة :

نشأ الشيخ القرضاوي في قريته «صفط تراب» وكانت القرية كغيرها من قرى مصر ومدنها تعج بالطرق الصوفية وكانت « الطريقة الخليلية» هي السائدة في قرية الشيخ القرضاوي ، ثم انبثق منها طريقة أخرى هي طريقة الشيخ «محمد أبو شادي» وقد تعرف الشيخ القرضاوي على أتباع هذه الطريقة عن طريق أحد جيرانه وهو الشيخ «بيومي العزوني» وكانت هذه الطريقة قوامها الذكر والدعاء والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ وقراءة قصص من كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وقد استفاد الشيخ القرضاوي من هذه الطريقة بمعرفته بالإمام الغزالي وكتابه «الإحياء »، وإن كان الشيخ القرضاوي قد أبدى كثيراً من اعتراضاته على ما في «الإحياء» ولكن هذا لم يوغر صدر الشيخ بيومي عليه بل أهداه كتاب « الإحياء».

كتابات القرضاوي عن التصوف :

كتب الشيخ القرضاوي عن التصوف كثيراً في ثنايا كتبه ولعل من أهم الكتب التي تناول فيها الشيخ التصوف بالحديث ما يلي :

١ ـ موقف الإسلام من الإلهام والكشف .

٢ ـ الحياة الربانية والعلم .

٣ ـ الإخوان المسلمون .

٤ ـ ابن القرية والكتاب «مذكرات الشيخ».

٥ ـ فتاوى معاصرة / ج١ .

ومن خلال هذه الكتب وغيرها نستطيع أن نحدد آراء الشيخ القرضاوي في التصوف والمتصوفة .

رأي القرضاوي في التصوف والمتصوفة :

يرى الشيخ القرضاوي أن «التصوف باعتباره تراثاً في التربية الأخلاقية والسلوك الإيماني لا يمكن الاستغناء عنه ، كما لا يمكن الاستغناء عن تراث الفقه في معرفة الأحكام الظاهرة[١] .

(١) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ١٥ .

ويتحدث الشيخ عن جذور التصوف وأصوله فيقول : إن التصوف له جذور إسلامية أصيلة لا تجحد ، وفيه عناصر إسلامية أساسية لا تخفى . نرى ذلك في القرآن والسنة وسيرة الرسول الكريم ، وأصحابه الزاهدين مثل: عمر، وعلي، وأبي الدرداء، وسلمان، وأبي ذر وغيرهم . ومن يقرأ القرآن والحديث يجد فيهما تحذيراً متكرراً من فتنة الحياة الدنيا ومتاعها وتوجيه الهمم إلى الله وإلى الدار الآخرة ، وتحريك القلوب بالتشويق إلى الجنة وما فيها من رضوان الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم ، والتخويف من النار وما فيها من عذاب مادي ومعنوي كما يجد الحديث عن حب الله تعالى لعباده وحبهم له سبحانه في مثل قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨] إلخ . كما جاء حديث القرآن والأحاديث على نصوص غزيرة في الزهد والتوكل والتوبة والشكر والصبر واليقين والتقوى والمراقبة وغيرها من مقامات الدين، ولم يعطها العناية اللائقة بها ـ من التفسير والتعليل، والتقسيم والتفضيل ـ غير الصوفية [1].

كما أنه يرى أن الصوفية الحقيقية: هي التي يعمل أصحابها على أساس التزكية وطهارة النفس ، ونقاء القلب ، والمواظبة على العمل ، والإعراض عن الخلق ،، والحب في الله ، والارتباط على الخير [2].

إنها كما يقول الشيخ: ليست الموالد والعوائد ، وليست الشركيات في العقيدة ، ولا البدعيات في العبادة ، ولا السلبيات في التربية ، التي تجعل المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل[3] .

ويرجع الشيخ القرضاوي نشأة التصوف في بلاد الإسلام إلى أمرين :

الأول : تغليب الجانب المادي على الجانب المعنوي .

الثاني : تغليب الجانب العقلي على الجانب الروحي .

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٧٤١ .

(٢، ٣) انظر : الإخوان المسلمون ص ٣٤٥ .

يقول الشيخ : ولكن الصوفية ظهروا في وقت غلب على المسلمين فيه الجانب المادي والجانب العقلي .

الجانب المادي ، نتج عن الترف الذي أغرق بعض الطبقات ، بعد اتساع الفتوحات، وكثرة الأموال ، وازدهار الحياة الاقتصادية ، مما أورثت غلواً في الجانب المادي . مصحوباً بغلو آخر في الجانب العقلي ، أصبح الإيمان عبارة عن « فلسفة » و« علم كلام » و« جدل » لا يشبع للإنسان نهماً روحياً ، حتى الفقه أصبح إنما يعني بظاهر الدين لا بباطنه ، وبأعمال الجوارح، لا بأعمال القلوب، وبمادة العبادات لا بروحها .

ومن هنا ظهر هؤلاء الصوفية ليسدوا الفراغ ، الذي لم يستطع أن يشغله المتكلمون ، ولا يملاه الفقهاء ، وصار كثير من الناس إلى جوع روحي ، فلم يشبع الجوع إلا الصوفية الذين عنوا بتطهير الباطن قبل الظاهر ، وبعلاج أمراض النفوس ، وإعطاء الأولية لأعمال القلوب وشغلوا أنفسهم بالتربية الروحية والأخلاقية ، وصرفوا إليها جل تفكيرهم واهتمامهم ونشاطهم . حتى قال بعضهم : التصوف هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف [١].

ويقول في موضع آخر : كان المسلمون في عصر الصحابة ومن تتلمذ على أيديهم يتعلمون ويعلمون الإسلام كله ، في شموله وتوازنه وإيجابيته وعمقه ، ولم يكونوا يبرزون جانباً على حساب آخر ولم يغفلوا ظاهراً لباطن ، ولا باطناً لظاهر ، بل اهتموا بالعقل والروح والجسد جميعاً ، وعنوا بالفرد والمجتمع معاً، ورعوا مصالح الدنيا والآخرة ، وكما يقول الفقهاء : مصالح العباد : المعاش والمعاد . فلما تعقدت الحياة وتطورت - لعوامل كثيرة داخلية وخارجية - وجد في المجتمع الإسلامي من قصر همه على الجانب العقلي كالمتكلمين ، ومن جعل أكبر همه الجانب العملي الظاهري كالمشتغلين بالفقه ، وبجوار هؤلاء وأولئك من شغله متاع الحياة الأدنى ، وأغرقه ترف المعيشة المادي ، كالأمراء والأغنياء ومن سار في ركابهم من طلاب الدنيا . في هذا الوقت ظهر المتصوفة ليعنوا بجانب

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٧٣٥ - ٧٣٦ .

هام أيضاً هو الجانب الروحي والنفسي في الحياة الإسلامية ، ويملأوا الفراغ الذي لم يسده أهل الفقه ولا أهل الكلام ، وليستنقذوا الناس من الاستغراق في متاع الدنيا وزخرفها[١] .

ومن ثم فإن الشيخ يرى تجريد الصوفية من كل فضيلة واتهامهم بكل نقيصة ظلماً وإجحافاً وفي هذا يقول: وهذا في الواقع ليس من الإنصاف ، فكل الفئات من المتكلمين والمتفقهين والمحدثين كالمتصوفين. لهم وعليهم . ولا تخلو فئة من هؤلاء من غلو أو تقصير في بعض الأمور. والمتقدمون خير من المتأخرين في الجملة ، فالقرون الأولى هي خير قرون هذه الأمة ، وكل من كان قريباً من هذه القرون فهو أقرب إلى هدي الرسول وأصحابه، وإلى منهج الإسلام القويم[٢] .

ويظهر الشيخ القرضاوي التزام المتصوفة الأوائل فيقول :

وكان أوائل الصوفية ملتزمين بالكتاب والسنة ، قائمين عند حدود الشرع مطاردين للبدع والانحرافات في الفكر والسلوك [٣] .

كما يظهر الشيخ فضلهم في نشر الإسلام ودعوة الناس فيقول : ولقد دخل على أيدي الصوفية المتبعين كثير من الناس في الإسلام ، وتاب على أيديهم أعداد لا تحصى من العصاة ، وخلفوا ورائهم ثروة من المعارف والتجارب الروحية لا ينكرها إلا مكابر أو متعصب [٤] .

هذا وإن الشيخ القرضاوي يرى أن الأمة الإسلامية في حاجة إلى جوهرالتصوف الصحيح، وهو ما يعرف بالتربية الربانية، يقول الشيخ : هذا مع أن الأمة عامة، وهذه الشعوب خاصة: في حاجة إلى تربية ربانية تخرجها من جحيم المادية المعاصرة، التي شغلت الناس بالدنيا عن الآخرة، وبالخلق عن الخالق، وبالمادة عن الروح. تربية إيمانية أخلاقية هي جوهر التصوف الصحيح الذي عبر عنه بعضهم بكلمة موجزة بأنه: الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخَلْق. وبعبارة

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ٧٣٩ .
(٢) انظر : كيف نتعامل مع التراث ص ٥٠ .
(٣ ، ٤) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٧٣٦ .

أخرى: التقوى مع الله، والإحسان مع الناس. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨][١].

مآخذ القرضاوي على المتصوفة:

ولئن مدح الشيخ القرضاوي المتصوفة فيما قدموه للإسلام، وما أسدوه للدعوة الإسلامية؛ فلقد كان للشيخ بعض المآخذ عليهم أعلنها صريحة دون تعد أو إسفاف يقول الشيخ: ولهذا فإن من المكابرة إنكار المؤثرات الأجنبية في التصوف مما خرج به في كثير من الأحيان عن «وسطية» الإسلام واعتداله، إلى تشدد كتشدد الرهبانية، أو غلو كغلو البوذية. ومن مظاهر الانحراف عند الصوفية هذه الأفكار.

١ - اعتبار الذوق أو الوجدان الشخصي أو الإلهام مقياساً في معرفة الحسن والقبيح، وتمييز الصواب من الخطأ، حتى غلا بعضهم في ذلك فقال: حدثني قلبي عن ربي في مقابلة ما يقوله علماء السنة: حدثنا فلان عن فلان.. عن رسول الله[٢].

٢ - تفريقهم بين الشريعة والحقيقة، وقولهم: من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم، فهذا يترتب عليه ألا يحارب كافراً ولا ينكر على منكر[٣].

٣ - تحقيرهم لأمر هذه الحياة، على خلاف نهج القرآن ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١]، والسنة «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي»[٤] ونهج الصحابة من مثل قولتهم المأثورة «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً[٥]»[٦].

٤ - غلبة النزعة الجبرية والسلبية على أكثرهم، مما أثر في تفكير عامة

---

(١) انظر: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ص ٣٧.

(٢، ٣) انظر: فتاوى معاصرة ج١ ص ٧٤١.

(٤) رواه مسلم في الذكر والدعاء برقم (٢٧٢٠) عن أبي هريرة.

(٥) من كلام عبد الله بن عمر.

(٦) انظر: فتاوى معاصرة ج١ ص ٧٤٢.

المسلمين وجعلهم يعتقدون أن الإنسان مسير لا مخير ، وأن لا فائدة من مقاومة الفساد ومحاربة الباطل ، لأن الله أقام العباد فيما أراد وشاع بينهم هذا القول : دع الملك للمالك ، واترك الخلق للخالق وهذا أدى إلى تغليب الروح الانهزامية أو الانسحابية في حياة جمهور المسلمين[1] .

٥ - إلغاء شخصية المريد في تربيتهم السلوكية والفكرية ، بحيث يفنى في شيخه ولا يناقش فضلاً عن أن يعترض ، أو يقول : « لم » فضلاً عن « لا » ومن كلماتهم : « المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل » و « من قال لشيخه : لم ؟ لا يفلح »[2].

٦ - قبول الإسرائيليات التي جاء بها من أسلم من أهل الكتاب ، وكثير منها لا يوجد له أصل[3] .

٧ - أخذ ما يروى من الأحاديث النبوية مأخذ التسليم ، دون تمييز بين ما يقبل وما يرد ، بناء على ما قيل من أن الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال، حتى إنهم رووا الأحاديث الضعيفة جداً ، والتي لا أصل لها بالمرة ، والموضوعة المكذوبة ، وهذا شائع بينهم ومعروف .

٨ - الثقة المطلقة بشيوخهم ، فما قاله الشيخ هو حق ، وما أمر به فهو مطاع، دون أن يعرض ذلك على الشرع .

٩ - عدم الوقوف عند ما جاء به الشرع في العبادات والأذكار والسلوكيات، ووضع أوراد من عند المشايخ بدل الأوراد المأثورة ، واختراع عبادات أو قبول عبادات لم يأمر بها قرآن ولا سنة[4] .

ماذا يريد القرضاوي من التصوف والمتصوفة ؟

والشيخ لا يريد من المتصوفة أن تعتني بالجانب الروحي مهملة جانب العلم، إنما يريد أن يطعم الصوفية بالسلفية والسلفية بالصوفية، حتى ينشأ من هذا التطعيم مخاض يتولد منه وليد جديد يجمع الخير في كلا الطرفين ، وهو

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج١ ص ٧٤٢ .
(٢) انظر : المرجع السابق ج١ ص ٧٤١ ، ٧٤٢ .
(٣ ، ٤) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ٢٣ .

ما عبر عنه الداعية المسلم الأستاذ محمد المبارك رحمه الله : نسلف الصوفية ونصوف السلفية .

وبمعنى أدق إنما يريد القرضاوي من التصوف والصوفية :

١ - أن يرد التصوف إلى جذوره الإسلامية ، فيستمد أدلته من محكمات القرآن وصحيح السنة .

٢ - أن ينقى التصوف مما علق به من شوائب كدرت صفاءه وشابت جوهره .

٣ - أن ينقى التصوف مما تأثر به من مصادر أجنبية غريبة عن طبيعة الإسلام ووسطيته .

٤ - أن ينقى التصوف مما دخل عليه من أوهام البشر وأهوائهم [١] .

ومن الأمور التي أطال الشيخ فيها النفس مع المتصوفة موقفهم من الإلهام، وقد تحدث الشيخ عن موقفهم من الإلهام، وفند كل مزاعمهم في هذا الموضوع فتحدث فيه إيجازاً في كتابه « الحياة الربانية والعلم » ، وتحدث تفصيلاً في كتابه « موقف الإسلام من الإلهام » حتى استغرق ٦٦ صفحة من « ٣٨ - ١٠٤ »، وكان مجمل ما أخذه الشيخ القرضاوي على المتصوفة في هذه القضية ، ومنهم إمامه الغزالي ستة أمور هي :

١ - القول بأن الإلهام دليل شرعي .

٢ - إضافة العصمة والقداسة إلى الإلهامات والكشوف .

٣ - تحقيرهم للعلم الشرعي ، واكتفائهم بالعلم الغيبي الذي يقولون فيه حدثني قلبي عن ربي .

٤ - تفريقهم بين « الشريعة » و« الحقيقة » واعتبار أن « الشريعة » وطريقها « العلم » تصيب العوام أما « الحقيقة » وطريقها الكشف تصيب الخواص .

٥ - اعتبارهم الكشف هو غاية الغايات التي يسعون إليها .

٦ - اتخاذهم في الكشف طرقاً مبتدعة لم يأت بها من الكتاب ولا السنة [٢] .

---

(١) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ٢٢ ، ٢٣ بتصرف .

(٢) انظر : الرد على هذه الأمور بالتفصيل في كتاب « موقف الإسلام من الإلهام » ص ٣٨ - ١٠٤ .

٢ ـ القرضاوي والسلفية

من الصعب على الإنسان أن يتهم زوراً بما هو بريء منه ، وينسب إليه ما لم يقله، والشيخ القرضاوي وشيخه الغزالي وشيخ شيخه البنا ثلاثتهم ومن آمنوا بفكرهم وتبنوا آراءهم ، لم يسلموا من ألسنة البعض ممن ينتسبون إلى السلفية(١).

وهذه الفئة التي آلت على نفسها ألا تترك عالماً إلا نالت منه ، ولا مصلحاً إلا حطت من قدره ، ولا هرماً إلا حاولت قصف هامته ، همهم التفريق لا التجميع ، والهدم لا البناء ، والوحدة لا التوحد .

وأعجب ما في الأمر أن الشيخ القرضاوي وقع بين « فكي كماشة » كما يقولون؛ بعض إخواننا السلفيين يهاجمونه هجوماً شرساً ويوزعون منشورات ضد الشيخ في مدن المملكة السعودية بل وخارجها بأنه أشعري ماتردي متصوف! وغير السلفيين يقولون : إن الشيخ القرضاوي وهابي متعصب لأئمة الوهابية ، ويمتدح ابن تيمية وابن القيم والألباني وغيرهم ! (٢)

والحق أن السلفية ليست حكراً على أحد ، وليس في مقدور إنسان كائن من كان أن « يسلف » من شاء حسب ما شاء ، ولقد أساء بعض من الناس فهم السلفية وهذه النوعية ـ وهي قلة من إخواننا السلفيين ـ أطلق الشيخ الغزالي عليهم سوط قلمه، وعنفهم بسياط كلامه فقال – رحمه الله – في كتابه « دستور الوحدة الثقافية » :

إن السلفية نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون ، وتعمق ولاءها

---

(١) السلفية المعاصرة ليست، جماعة واحدة ، ولا فكراً واحداً ، فهناك جماعات متعددة تنسب نفسها إلى السلفية ، وهي فيما بينها وبين بعضها تختلف في كثير من الأشياء ، فهناك السلفية العلمية ، وهناك السلفية الحركية ، وسلفية المدينة غير سلفية مكة ، وسلفية القاهرة غير سلفية الإسكندرية ، وأتباع الشيخ ابن عثيمين يختلفون عن أتباع الشيخ الألباني .

والشيخ تربطه بكثير من دعاة السلفية علاقة وطيدة ، وإن اختلف معهم في بعض الأمور ، أما الحديث هنا فعن من شمروا عن سواعدهم ، وأطلقوا العنان لألسنتهم تنهش في جسد الشيخ ، وتنقص من قدره ، فنسأل الله لنا ولهم الهداية والمغفرة .

(٢) هؤلاء جماعة تسمى الأحباش ، وقد رد عليهم الشيخ في كتابه فتاوى معاصرة ج ٣ ص ٦٨٥، تحت عنوان : جماعة الأحباش جدال بلا علم وتطاول بلا أدب .

لكتاب الله وسنة رسوله ، وتحشد جهود المسلمين المادية والأدبية لإعلاء كلمة الله دون نظر إلى عرق أو لون .

وفهمها للإسلام وعملها له يرتفع إلى مستوى عمومه وخلوده وتجاوبه مع الفطرة وقيامه على العقل .

وقد رأيت أناساً يفهمون السلفية على أنها فقه أحمد بن حنبل ﷺ ، وهـذا خطأ، ففقه أحمد الخطوط الفكرية في الثقافة الإسلامية التي تسع أئمة الأمصار وغيرهم مهما كثروا .

ورأيت أناساً يفهمون السلفية على أنها مدرسة النص ، وهذا خطأ ، فإن مدرسة الرأي كمدرسة الأثر في أخذها من الإسلام واعتمادها عليه .

ورأيت أناساً تغلب عليهم البداوة أو البدائية ، يكرهون المكتشفات العلمية الحديثة ، لا يحسنون الانتفاع بها في دعم الرسالة الإسلامية وحماية تعاليمها ، يرفضون الحديث في التلفزيون مثلاً ، لأن الظهور على الشاشة حرام! ويتناولون المقررات الفلكية والجغرافية وغيرها بالهزء والإنكار ! ! وهؤلاء في الحقيقة لا سلف ولا خلف ، وأدمغتهم تحتاج إلى تشكيل جديد .

ورأيت أناساً يتبعون الأعنت الأعنت ، والأغلظ الأغلظ ، من كل رأي قيل، فما يفتون الناس إلا بما يشق عليهم ، وينغص معايشهم ، ويؤخر مسيرة المؤمنين في الدنيا ، ويأوي بهم إلى كهوفها المظلمة ![1] .

وهذا ما حدا أيضا بالدكتور : البوطي أن ينكر حصر السلفية في طائفة بعينها أو مجموعة بذاتها فيقول : إن من الخطأ بمكان أن نعمد إلى كلمة « السلف » فنصوغ منها مصطلحاً جديداً ، طارئاً على تاريخ الشريعة الإسلامية والفكر الإسلامي ، ألا وهو « السلفية » فنجعله عنواناً مميزاً تندرج تحته فئة معينة من المسلمين ، تتخذ لنفسها من معنى هذا العنوان وحده مفهوماً معيناً ، وتعتمد فيه على فلسفة متميزة ، بحيث تغدو هذه الفئة بموجب ذلك جماعة إسلامية جديدة ، في قائمة جماعات المسلمين المتكاثرة والمتعارضة بشكل مؤسف في هذا العصر ، تمتاز عن بقية المسلمين بأفكارها وميولاتها ، بل تختلف

(١) انظر : دستور الوحدة الثقافية محمد الغزالي ط دار الأنصار بالقاهرة ص ١٢٠ ، ١٢١ .

عنهم حتى بمزاجها النفسي ومقاييسها الأخلاقية ، كما هو الواقع اليوم فعلاً .

بل إنا لا نعدو الحقيقة إن قلنا : إن اختراع هذا المصطلح بمضامينه الجديدة التي أشرنا إليها ، بدعة طارئة في الدين ، لم يعرفها السلف الصالح لهذه الأمة ولا الخلف الملتزم بنهجه[1] .

السلفية في نظر القرضاوي:

الشيخ القرضاوي، رجل سلفي، وهو يرى أن هدي السلف خير هدي ، كما إنه يردد دائماً قول القائل :

وكل خير في اتباع السلف وكل شر في ابتداع ما خلف

ويعني الشيخ بالمنهج السلفي أنه «المنهج الفكري الذي يتمثل فهم خير قرون الأمة من الصحابة ومن تبعهم بإحسان لهداية القرآن وهدي النبوة »[2] .

وهذا المنهج بهذا التعريف لا يختلف فيه أحد مع الشيخ ، ولكن يرى الاختلاف في التطبيق ، ومن ثم فإن الشيخ يضع لهذا المنهج السلفي أصولاً ومبادئ تجتمع في عشرة نقاط هي :

١ ـ الاحتكام إلى النصوص المعصومة لا أقوال الرجال .

٢ ـ رد المتشابهات إلى المحكمات والظنيات إلى القطعيات .

٣ ـ فهم الفروع والجزئيات في ضوء الأصول والكليات .

٤ ـ الدعوة إلى الاجتهاد والتجديد ، وذم الجمود والتقليد .

٥ ـ الدعوة إلى الالتزام لا التسيب في مجال الأخلاق .

٦ ـ الدعوة إلى التيسير لا التعسير في مجال الفقه .

٧ ـ الدعوة إلى التبشير لا التنفير في مجال التوجيه .

٨ ـ العناية بغرس اليقين لا بالجدل في مجال العقيدة .

٩ ـ العناية بالروح لا بالشكل في مجال العبادة .

---

(١) انظر : السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي د: محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٣، ١٤ دار الفكر دمشق ط الأولى ١٩٩٨م .

(٢) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٩٦ .

١٠ - العناية بالاتباع في أمور الدين والاختراع في أمور الدنيا [١].

وإذا كان دعاة السلفية اليوم أو بعض منهم أعلنوا حرباً على الشيخ في مساجدهم ومنتدياتهم ، بأقلامهم وألسنتهم ، زاعمين أن هذه هي السلفية ، وأن هذا طريق شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، وأن الشيخ القرضاوي بعيد كل البعد عن منهج السلف ؛ إن زعموا ذلك فقد ظلموا السلفية وظلموا شيخ الإسلام وتلميذه ، إن السلفية الحقة هي اتباع الأقوال لا الرجال، وكلام شيخ الإسلام وشيوخه ليس وحياً معصوماً، إنما هي أقوال فما صح منها أخذناه، وما خالف روح الشريعة ونصوصها تركناه ، دون أن يمس جانب ابن تيمية بشيء، فهو إن أصاب مأجور ، وإن أخطأ فذنبه مغفور، ولهذا يؤكد الشيخ القرضاوي بأن أدعياء السلفية ظلموا السلفية وظلموا ابن تيمية وابن القيم حين يقتصر على جانب واحد فقط من جوانب حياتهم المتعددة ، أو الالتزام بأقوالهم مطلقاً ، يقول الشيخ القرضاوي : والذي يهمني تأكيد التنبيه عليه هنا ، هو اتباع منهج السلف ، لا مجرد أقوال السلف في المسائل الجزئية ، فقد تأخذ بأقوالهم الجزئية وأنت بمعزل عن منهجهم الكلي المتوازن .

وقد تلتزم بهذا المنهج بروحه ومقاصده ، وإن خالفت بعضهم في بعض ما ذهبوا إليه من آراء واجتهادات .

وهذا هو موقفي من الإمامين ابن تيمية وابن القيم ، فأنا أحترم منهجهما الكلي، وأتفهمه تماماً ، ولكن هذا لا يجعلني آخذ بكل ما ذهبا إليه من أقوال .

ولو فعلت ذلك لكنت مقلداً تابعاً لهما في كل شيء ، ولخالفت منهجهما الذي دعوا إليه ، وأوذيا في سبيله ، وهو منهج النظر واتباع الدليل، والنظر إلى القول لا إلى قائله .

وأي معنى للإنكار على من قلد أبا حنيفة أو مالكاً إذا قلدت أنت ابن تيمية أو ابن القيم؟[٢]

ومع تطاول بعض أدعياء السلفية على الشيخ إلا أنه أنصفهم كل الإنصاف

---

(١) انظر : أوليات الحركة الإسلامية ص٩٦ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٩٨ ، ٩٩ .

وأنصف دعاتهم ، وقد ذكرت فيما سبق موقف الشيخ القرضاوي وإنصاف الشيخين ابن باز والألباني رحمهما الله، وأذكر هنا كلمة رائعة نعى فيها الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فكتب[1] تحت عنوان «وهوى نجم آخر» : رحل عن عالمنا العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، وقد شيعت جنازته مع الوفد الذي أوفدته دولة قطر، وكان رحمه الله من كبار علماء المملكة العربية السعودية، وكان له دوره في الإفتاء والتعليم والدعوة والإرشاد، وكان منهجه ـ رحمه الله ـ اتباع الدليل من الكتاب والسنة، وفقا لمنهج السلف الصالح، سواء في أمور العقيدة، أم في أمور الشريعة، ولم يكن يبال أوافق رأيه أهواء الناس أم خالفهم، ولمن يكن يعبأ بمخالفة أحد من العلماء، إذا لاح له دليل على صحة رأيه.

إن وفاة الشيخ العثيمين تمثل خسارة كبيرة للعلم والعلماء في هذه المرحلة التي فقدت فيها الأمة عددا من الأعلام، ابتداء بالعلامة الشيخ عبد العزيز بن باز، وقد ختمت اليوم بالشيخ محمد بن صالح عثيمين، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يعوض هذه الأمة الإسلامية عامة والمملكة العربية السعودية خاصة عن هذا العالم الكبير الذي نسأل الله له المغفرة والرحمة والرضوان، وأن يجزيه عن العلم والإسلام والمسلمين خير ما يجزي به العلماء العاملين، والدعاة الصادقين[2].

في معرض حديثه عن الجماعات والأفراد الذين أسهموا في الصحوة الإسلامية : ومن المملكة العربية السعودية انطلقت الحركة السلفية داعية إلى التوحيد بعناصره الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، مركزة على تحرير التوحيد من الخرافة والشرك والقبوريات والتأويل ، مشددة النكير على كل من يؤول صفات الله الخبرية من الأشاعرة والماتريدية وغيرهم ، متخذة من تراث شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، رصيداً للدعوة والمجادلة ، وكذلك تراث مجدد الجزيرة العربية الشيخ محمد بن عبد الوهاب[3].

---

(١) كان الشيخ القرضاوي قد نعى الشيخ ابن عثيمين في خطبة الجمعة التي يلقيها في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة وسجلها الشيخ في كتابه «في وداع الأعلام».

(٢) انظر : في وداع الأعلام ص٢٣ ، ٢٤ بتصرف.

(٣) انظر : أمتنا بين قرنين ص ٧٣ ، ٧٤ .

لماذا الحدّة أحياناً في لغة الشيخ مع بعض السلفيين ؟

لغة الخطاب عند الشيخ القرضاوي لا يختلف اثنان في كونها تشع أدباً، وتبتعد كل البعد عن التجريح، كما أنها تبتعد كل البعد عن الحدة والغلظة .

والملاحظ أن الشيخ لا يخرج عن هذا إلا في القليل النادر، والنادر جداً، وقد لاحظت من خلال دراستي لكتابات الشيخ أنه أشد ما يكون حين يكتب عن بعض المنتسبين إلى السلفية، وهذا يجعلني أطرح هنا سؤالاً وهو :

لماذا كا ن الشيخ قاسياً أحياناً في الحكم على بعض السلفيين ؟ وأنا في هذا لا أتجنى على الشيخ؛ ولكنني أستنتج هذا من خلال كتابات الشيخ، ومن ذلك :

١ ـ حين تحدث الشيخ عن فصائل العمل الإسلامي قسمها إلى أربعة تيارات :

الأول : التيار الخرافي، ويعني به التيار الصوفي .

الثاني : التيارالحرفي، ويعني به التيار السلفي .

الثالث : تيار الرفض والعنف، ويعني به التيار التكفيري .

الرابع : التيار الوسطي، ويعني به تيار الإخوان المسلمون، والجماعة الإسلامية في الهند، والقريبين منهم .

والحق أن الشيخ حين تحدث عن التيار الحرفى والذي يعني به « التيار السلفي » وصفه الشيخ قائلاً : وهذا له ـ رغم تشدده في أمر الدين ودفاعه عنه ـ خصائص غلبت على أكثر أتباعه تميزه أيضاً منها :

* الجدلية في العقيدة .
* الشكلية في العبادة .
* الظاهرية في الفقه .
* الجزئية في الاهتمام .
* الجفاف في الروح .
* الخشونة في الدعوة .
* الضيق بالخلاف (١).

(١) انظر : في فقه الأولويات ص ١٨٩ .

والحق أن هذا التيار إن وجدت هذه الصفات في بعض أفراده فهي ليست في جميعهم، وإن وجدت في بعض فصائله فهي ليست صفة ملازمة، ولا خصيصة ثابتة، وقد عودنا الشيخ في منهجه على عدم التعميم، ومن ثم فأرى أن وصف الأكثرية لهذا التيار بتلك الصفات وبما فيه نوع من الظلم، أو ضرب من التجني عليهم.

٢ ـ أن الشيخ دائماً ما ينعت هذا التيار بالظاهرية الجدد، وأنهم يقفون عند الظواهر، ولا يلتفتون إلى المقاصد[١].

أقول: إن الشيخ كان قاسياً على هذا التيار على الرغم من لينه مع التيار الصوفي، بل والتيار القومي، وهو مع هذين التيارين وغيرهما كان إلى اللين أقرب منه إلى الشدة، وإلى التجميع أقرب منه إلى التفريق .

والذي يبدو لي أن الذي دفع الشيخ إلى هذه الحدة مع هذا التيار أو بعض فصائله عدة أمور:

١ ـ أن هذا التيار منه من أطلق للسانه العنان، فلم يدع أحداً من السابقين ولا المعاصرين إلا ونال منه .

٢ ـ أن هذا التيار ضاق بالخلاف ذرعاً، فرفض كل المخالفين له في الرأي .

٣ ـ أن هذا التيار في نظر الشيخ وفي نظر غيره من المراقبين للصحوة والمشتغلين بها كان سبباً في تحميل الإسلام ما لا يتحمله، وأنه كان سبباً في تأخير مسيرة الدعوة خطوات وخطوات .

٤ ـ أن هذا التيار وقف للشيخ وللتيار الوسطي بالمرصاد وأعلنوها عليه خصوصاً حرباً شعواء فأصدروا البيانات، ودبجوا المقالات، وكتبوا الكتب، وفي كثير من هذه الكتب زعموا ضلال الشيخ، وقالوا : إنه مبتدع ومنهم من فسقه، ومنهم من كفره، ومنهم من قال : إنه ماسوني، إلى آخر هذه التهم .

* * *

---

(١) انظر: أمتنا بين قرنين ص ٧٣ ، وانظر: في فقه الأولويات، وانظر: المرجعية العليا، وغيرها من كتب الشيخ .

المبحث العاشر

التجديد لا الجمود

من القضايا الشائكة والتهم المكالة للصحوة الإسلامية ودعاتها أنهم جامدون، متمسكون بكل قديم، رافضون لكل جديد، والكلام إذا كان هكذا بصفة التعميم هو كلام عارٍ من الصحة لأنه دعوى تحتاج إلى برهان .

قد يكون هناك من أبناء الصحوة ودعاتها من يرفض التجديد، لكن ليس كل أبناء الصحوة من هذا الطراز أو على هذه الشاكلة، بل هناك أناس من دعاة الصحوة ومفكريها ممن دعوا إلى التجديد ونادوا به، وحاربوا الجمود بكل أشكاله سواء كان جموداً في :

* الفكر والدعوة .
* أو الوسائل و الأساليب .
* أو العرض والتقديم .

ومن هؤلاء ولا شك شيخنا القرضاوي. يقول الشيخ : ومن خصائص الفكر الذي ننشده : أنه فكر مجدد، لا يرضى أن يحبس في قفص القديم، ولا يتعبد بالأشكال الموروثة، ولا يجمد عند الوسائل المعهودة، بل هو فكر يؤمن بالاجتهاد ويتبنى التجديد، ويرفض التقليد والتبعية، ويرى أن الجمود هو الموت، فهو يجدد في الفقه وفي التربية وفي السياسة، وفي شتى المجالات[1] .

وشيخنا أطال الله في عمره من دعاة التجديد ليس على مستوى الصحوة الإسلامية فحسب؛ بل من دعاة التجديد في الدين، وهو لم يدع إلى هذا التجديد من فراغ ولكن استلهاماً من قوله ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »[2].

---

(١) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ١٠١ .

(٢) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٧٠) والحاكم (٥٢٢٤) والبيهقي في السنن والآثار (٥٢٠)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٥٩٩)، وعزاه إلى أبي عمرو الداني في الفتن.

لقد وقف الشيخ القرضاوي موقفاً وسطاً بين دعاة التجديد المطلق ، الذين سخر منهم أديب العربية مصطفى صادق الرافعي حين قال بأنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر !! وقال لهم إقبال : إن الكعبة لا تجدد بجلب حجارة لها من أوربا ، وقال عنهم شوقي :

لا تحذ حذو عصابة مفتونة يجدون كل قديم أمراً منكراً
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا من مات من آبائهم أو عمرا
من كل ساع في القديم وهدمه وإذا تقدم للبناية قصرا

إنهم الذين يريدون أن يحذفوا « أمس » من الزمن ، والفعل الماضي من التاريخ ، ويحذفوا علم التاريخ من علوم الإنسان ؛ وبين دعاة الجمود الذين حرصوا على كل قديم وعكفوا على ماض وقال قائلهم :

ما أرانا إلا نقول معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً

وحكمتهم المأثورة : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، وشعارهم المأثور : ليس في الإمكان أبدع مما كان[1] .

ومن شعر الشيخ في ذلك :

قالوا: قديم، فقلنا: الشمس قد قدمت فغيروها بأخرى أيها البسطا !
وغيروا الكعبة البيت العتيق، فلم تعد ملائمة شكلاً ولا نمطا !
نعم القديم قديم يستضاء به بئس الجديد إذا ما ورث السقطا ![2]

هذا الموقف الوسط عبر الشيخ عنه بقوله: هو الموقف الوسط، موقف التميز والاعتدال بين المتزمتين والمتحللين ، بين الذين يجمدون الحياة ، ويقفون في سبيل نموها وتقدمها ، والذين يريدون أن يجعلوها فوضى ، لا تحكمها قيم ولا عقائد ، ولا تضبطها فضائل ولا شرائع . إنه موقف يواجه التطور بالحكمة ، بل يوجهه بالحق ، بل يدفع إلى التطور النافع ، ويخلفه ويغذيه بالوقود .

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٥١ وما بعدها بتصرف، و بينات الحل الإسلامي فصل «إسلام متطور أم تطور مسلم» .

(٢) انظر : المسلمون قادمون ص ٣٣ .

إنه موقف الإسلام الصحيح ، الذي يجمع بين الثبات والمرونة في أحكامه وتعاليمه .

الثبات على الأهداف والغايات ، والمرونة في الوسائل والآلات .

الثبات على الأصول والكليات ، والمرونة في الفروع والجزئيات .

الثبات على الأخلاقيات والدينيات، والمرونة في الماديات والدنيويات .

نجد هذا الثبات في العقائد الرئيسية ، والفرائض الأساسية ، وأمهات الفضائل وأصول المحرمات ، وكليات الشريعة ، ونحو ذلك مما لا يختلف باختلاف الأزمان والبيئات والأحوال ، كما نجد المرونة في الأحكام الفرعية الجزئية التي تتسع لأكثر من نظرة ، وأكثر من اجتهاد ، ولم يضيق الله فيها على عباده ، فمن اجتهد فيها فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فله أجر ، وهي التي قال فيها فقهاؤنا : إن الفتوى فيها تتغير بتغير المكان والزمان والحال والعرف[1] .

التجديد الذي يعنيه القرضاوي :

وإذا كان موقف الشيخ القرضاوي موقفاً وسطاً فيعلم من ذلك أنه لا يدعو إلى تجديد مطلق يشمل كل شيء كما يقول أعداء كل قديم ، ولا يقول كذلك بالجمود على كل شيء كما يقول أعداء كل جديد ، ولكن التجديد الذي يعنيه الشيخ : هو محاولة العودة بالشيء إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر ، بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد ، وذلك بتقوية ما وهى منه ، وترميم ما بلى ، ورتق ما انفتق[2] .

وإذا كان الشيخ يؤمن بتجديد الدين فيعني بذلك : أن نحافظ على جوهره ومعالمه وخصائصه ، ومقوماته ، ونعود به إلى ما كان يوم ظهوره وبزوغ فجره على عهد رسول الله ﷺ ، وخلفائه الراشدين .

التجديد الحق يعني العودة إلى (الإسلام الأول) قبل أن تشوبه بدع المبتدعين ، وتضييقات المتشددين ، وتحريفات الغالين ، وانتحالات المبطلين ، وتأويلات الجاهلين، وعدوى التشويه التي أصابت الملل والنحل من قبل[3] .

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٦٢ .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ٣٠ .
(٣) انظر : الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي ص ٤٨ .

إنه يعني بالتجديد : معايشة العصر ومواكبة التطور والتحرر من إسار الجمود والتقليد[1] .

إنه كما يقول : تجديد قادر على أن يعيد عرض الإسلام بلغة العصر ، مخاطباً كل قوم بلسانهم ، واعياً لخصائص العصر ، وخصائص الإسلام ، وخصائص الأقوام ، مدركاً المفهوم الأوسع والأعمق لقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : ٤] .

فليس معنى الآية أن نكلم الإنجليز بالإنجليزية ، والصينيين بالصينية فحسب ، بل أن نعرف كيف ندخل إلى عقل الإنجليزي وقلبه ، وكيف ندخل إلى عقل الصيني وقلبه، ولكل منهما مدخل قد يصلح له، ولا يصلح للآخر[2] .

والشيخ لا يرى هذا التجديد قاصراً على العلوم الشرعية فحسب لكنه كذلك تجديد في العلوم الإنسانية والاجتماعية، يقول الشيخ : تجديد يعيد النظر في العلوم الإنسانية والاجتماعية من خلال منظور إسلامي صحيح ، مستمد من فلسفة الإسلام الكلية ، ونظرته إلى الدين والحياة والإنسان والمجتمع والتاريخ ، ومستفيد من كل المدارس القائمة، ومن نتائج بحوثها وتحليلاتها ، دون أن يكون أسيراً لفلسفة واحدة منها ، أو لفلسفاتها جميعاً[3] .

ويرى الشيخ كذلك أنه : تجديد يتيح لأمة الإسلام التفوق في « فروض الكفايات » من العلوم الكونية والرياضة ، وتطبيقاتها « التكنولوجية » في المجالات المدنية والعسكرية، ويجعل أمة « سورة الحديد » قادرة على تصنيع الحديد، وعلى استغلال ثرواتها المطمورة والمنشورة، بحيث لا تكون عالة على غيرها في القوت الذي يحيها، وفي السلاح الذي يحميها، وهذا يقتضي تطوير مناهج التعليم وأجهزته وغاياته وأساليبه، وفقاً لما يتطلبه العصر ويفرضه الإسلام ، ويحتمه التطور[4] .

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ص ٤٣ .
(٢ ، ٣ ، ٤) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٣٢ ، ٣٣ .

التجديد والسلفية عند القرضاوي :

وقد يتوهم البعض أن التجديد يعادي السلفية ، أو يخالفها ، ولكن الشيخ القرضاوي يرى علاقة قوية بين التجديد والسلفية ؛ بل لا بد من الجمع بينهما لصلاح حال الأمة ، يقول الشيخ : وقد يحسب بعض الناس أن هناك تعارضاً حتميـاً بين السلفية والتجديد ؛ فالسلفية رجوع إلى الماضي ، والتجديد انطلاق إلى المستقبل .

ورأيي عكس ذلك تماماً ، أي أن هناك تلازماً بين السلفية الحقيقية والتجديد الحقيقي، فالسلفية الحقيقية لا تكون إلا مجددة ، والتجديد الحقيقي لا يكون إلا سلفيا . فروح السلفية هو التجديد . وقد تجلى هذا المعنى بوضوح في المدرسة السلفية التجديدية الكبرى التي أسسها شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ، وكان لها أثرها العميق في العقائد والفقه والفكر والأخلاق والسلوك إلى اليوم [1].

وقد يعبر الشيخ أحياناً عن السلفية بالأصالة ، على أساس أن السلف هم أصل هذا الدين ، ومن ثم فإنه ينفي تماماً أن يكون هناك أدنى تعارض بين التجديد والأصالة، يقول حفظه الله: وأبادر فأقول: لا تنافي أبداً بين الأصالة والتجديد ، إذا حدد مفهوم كل منهما، ووضع موضعه الصحيح، فإن أكثر ما يضر بثقافتنا ويشيع البلبلة بيننا هو اختلاط المفاهيم، واضطراب الدلالات، بترك بعض الألفاظ المهمة التي لها قوة المصطلحات، مائعة رجراجة، دون ضبط ولا تحديد لمدلولاتها، ليفسرها من يشاء كما يشاء .

إن الأصالة في لغتنا المتداولة ليست ضد الجدة والحدوث . . وإنما هي ضد الزيف والدخيل والغش ، فالأصيل في القبيلة غير الزنيم الدعي ، اللصيق بهم وليس منهم ، وكلمة « الأصيل » إذا وصف بها الأشخاص أو الألفاظ تذكر عادة في مقابل كلمة « الدخيل » أو« الأجنبي » . إذا وصفت بها الأشياء تذكر في مقابل « الزائف » أو « المغشوش » أو « البراني » . وفي اللغة الدارجة تستعمل كلمة « أصلي » مقابل كلمة « تقليد » ويراد بكلمة « تقليد » ما كان في صورة « الأصلي » ومظهره ، وهو زائف في حقيقته وجوهره .

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية وهموم الوطن ص ٤٥ ، ٤٦ .

فالأصالة عندنا إذن لا تنافي إلا الزائف المغشوش أو الدخيل الذي يراد أن يلصق بنا، وينسب إلينا ، وهو غريب عنا .

وبناءً على هذا يمكننا أن نكون أصلاء ، ومجددين في الوقت ذاته نبقي على الأصيل، ونأتي بالجديد [1].

أين يكون التجديد ؟

وميدان التجديد ينبغي ألا يكون كلأً مباحاً يرتع فيه من شاء وقتما شاء كيفما شاء، ولكن ينبغي أن يعلم أن هناك ثوابت لا تتغير، وحدوداً لا تتعدى ، وخطوطاً لا تتجاوز ، وهنا يحدد الشيخ القرضاوي الثوابت التي لا تجديد فيها وهي :

١ - ثوابت خالدة في العقائد : كالإيمان بالله واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله والقدر .

٢ - ثوابت خالدة في العبادات : وذلك في الشعائر الركنية الأربعة : الصلاة والزكاة والصيام والحج وما يكملها من نوافل تقرب المرء من ربه .

٣ - ثوابت خالدة في القيم الأخلاقية : كالنظافة والعفة والحياء والرجاء والصبر والشجاعة والعزة ومحاسن النفس ، فهذه قيم لا تقبل التجديد [2].

ويجمل الشيخ ذلك فيقول : المنهج الإلهي الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه ، من العقائد والعبادات والأخلاق والشرائع ؛ لينظم بها علاقة الإنسان بربه ، وعلاقة الناس بعضهم ببعض ، وهو ما عبر عنه العلامة ابن خلدون بأنه : « وضع إلهي سابق للبشر باختيارهم إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم » .

وهذا المعنى - بالنظر إلى أسسه وأصوله - ثابت لا يقبل التغيير ولا التجديد من حيث هو حقيقة خارجية [3] .

---

(١) انظر : الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) انظر : الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي ص ٥٥ وما بعدها باختصار ، والخصائص العامة للإسلام ص ٢٠٠ وما بعدها .

(٣) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٢٨ .

ولذلك كان الشيخ صارماً في رده على من وصف الإسلام بالجمود على هذه الأصول والثوابت فقال :

وإن كنتم تريدون بالجمود مجرد الثبات أو الاستمساك بقيم وأهداف وعقائد وأصول، لا يجوز المروق منها ، ولا الخروج عليها ، لأنها ثابتة لا تحول ، خالدة لا تزول ، باقية ما بقيت الحياة والأحياء ، فهذا حق ودعاة الحل الإسلامي يصرون على هذا الثبات الذي تسمونه «الجمود» ولا يحيدون عنه قيد شعرة . وقد قال الله تعالى لرسوله : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٤٣] .

وتسميتكم لهذا الثبات أو الاستمساك ، «جموداً» لا يخيفهم ، فلا عبرة بالأسماء إذا وضحت المسميات[١] .

كما يؤكد الشيخ ثبات الأخلاق نافياً زعم من قال بنسبية الأخلاق فيقول : وجاءنا محمد ﷺ بقيم وأخلاق «جامدة» لا تلين لمطارق الحضارة وضرباتها العنيفة المتكررة ، فالزنا حرام ، والربا حرام ، والشذوذ الجنسي حرام ، والظلم حرام ، وغير ذلك من الرذائل حرام ، حرمها الله ورسوله ، فهي حرام إلى يوم القيامة ، كما أن الحياء فضيلة ، والعفاف فضيلة ، والصبر فضيلة ، والرحمة فضيلة ، والسخاء فضيلة ، وخشية الله فضيلة ، والتوكل على الله فضيلة ، وغير ذلك مما جاء به الرسول ﷺ من شعب الإيمان ، وأخلاق الإسلام.

وستظل هذه الفضائل فضائل ، كما ستظل تلك المحرمات محرمات ، سواء أكان الإنسان في القرن السابع للميلاد أم في القرن العشرين أو في القرن الثلاثين أو المائة[٢] .

كما ردّ الشيخ أيضاً على من يريدون أن يدخلوا التجديد والتطور في كل شيء، فقال حفظه الله : أن يخضع للتطور والتغير ما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار ، كما نرى ونسمع في عصرنا الحديث من أبناء المسلمين فئة يريدون خلع الأمة من دينها ، وعزلها عن تراثها كله باسم التطور . ويريدون أن يفتحوا

(١ ، ٢) انظر : بينات الحل الإسلامي ص ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ بتصرف .

الباب للإلحاد في العقيدة، والانسلاخ من الشريعة، والتحلل من الفضيلة، كل ذلك باسم هذا الصنم الجديد «التطور».

إنهم يريدون أن يطوروا الدين نفسه ، لكي يلائم ما يريدون استيراده من الشرق أو الغرب من عقائد وأفكار ، وقيم وموازين ، وأنظمة وتقاليد ، ومثل وأخـلاق ، وما جعل الله الدين إلا ليمسك البشرية أن تتدحرج وتنقلب على عقبيها ؛ لهذا أوجب أن يكون الدين هو الميزان الثابت ، الذي يحتكم إليه الناس إذا اختلفوا ، ويرجعون إليه إذا انحرفوا ، أما أن يصبح الدين خاضعاً لتقلبات الحياة وظروفها ، يستقيم إذا استقامت ، ويعوج إذا اعوجت، فإنه بذلك يفقد وظيفته في حياة الإنسان : أن يوجهها ويحكمها لا أن توجهه وتحكمه، وأن يخضعها لمثله وهداه ، لا أن تخضعه لواقعها وهبوطها .

ومن هنا نقول للذين يطالبون الإسلام أن يتطور: لماذا لا تطالبون التطور أن يسلم؟!! فالإسلام حاكم ، والتطور محكوم عليه [1].

أما ما سوى ذلك فهو يدخل في منطقة التجديد، يقول الشيخ : وفيما عدا هذه الثوابت الراسيات ، نجد جل أحكام الشريعة قابلة للاجتهاد وتعدد الأفهام . والاجتهاد علاقة ثلاثية بين المجتهد وبين الواقعية والدليل ، ومهما يحاول المجتهد أن يتحرر من ذاتيته ، وينظر إلى الدليل بتجرد وموضوعية ، فالواقع أن المجتهد ابن زمانه وبيئته ، ولابد أن يتركا « بصماتهما » على تفكيره ، شاء أم أبى . كما أن الواقعية نفسها حدث متأثر بزمانه ومكانه، من حيث وقعها على الأنفس وتأثيرها في الناس .

ولا عجب أن تغيير هذه الأحكام الثابتة بالاجتهاد ، بتغير الزمان والمكان والعرف والحال، وهي الموجبات التي تؤثر في اجتهاد المجتهد وفتوى المفتي ، وقضاء القاضي[2].

ويقول أيضاً حفظه الله موضحاً مكان التجديد ومنطقته: الحالة التي يكون عليها الإنسان في علاقته بالمعنى الأول فكراً وشعوراً ، وعملاً وخلقاً ، وفي هذا المعنى يقال: فلان ضعيف الدين أو قويه ، حسن الإسلام أو رديء الإسلام .

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٦٤ ، ٦٥ ، و بينات الحل الإسلامي ص ٩٩ .

(٢) انظر : الصحوة الإسلامية وهموم الوطن ص ٥٩-٦٠ .

والدين هنا متغير متحرك ، فهو يزيد وينقص ، ويضعف ويقوى ، ويصفو ويكدر ، ويستقيم وينحرف ، بحسب فهم الإنسان له ، وإيمانه به ، والتزامه بتعاليمه .

وهذا المعنى هو الذي يقبل التجديد[1] .

من المجدد ؟

يجدر بنا أن نعرف من هو المجدد ؛ وقد نقل الشيخ القرضاوي كلاماً رائعاً للعلامة المناوي في تعريف المجدد حيث قال : وإنما يكون المجدد ـ كما قال العلامة المناوي ـ إذا كان مجتهداً قائماً بالحجة ، ناصراً للسنة ، له ملكة رد المتشابهات إلى المحكمات، وقوة استنباط الحقائق والدقائق والنظريات من نصوص الفرقان وإشاراته ودلالاته واقتضاءاته ، من قلب حاضر وفؤاد يقظان[2] .

كانت كلمة « من » التي جاءت في قوله ﷺ « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »[3] كانت كلمة « من » هي محور الكلام في تحديد المجدد ومن هو ؟

فمن قائل : إن المجدد فرد كما قال السيوطي وغيره .

ومن قائل : إن المجدد جماعة كما قال الذهبي وغيره [4].

وقد ذهب الشيخ القرضاوي إلى ترجيح كون المجدد جماعة لا فرداً ، فيقول الشيخ حفظه الله : والذي أختاره هنا ما ذهب إليه ابن الأثير والذهبي وغيرهما : أن « من » في الحديث المذكور ، تصلح للجمع كما تصلح للمفرد .

وذلك أن « من » في أصل وضعها صالحة لهذا وذاك ، وفي القرآن الكريم ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ [النساء : ١٢٤].

إذا عرفنا هذا ، فقد يكون المجدد فرداً ، يهيئه الله ليقوم بمهمة الإحياء

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) انظر : الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر : جامع الأصول ابن الأثير ج ١١ ص ٣٢٠ وما بعدها .

والتجديد كعمر بن عبد العزيز ، وقد قيل : فرد ذو همة يحيي أمة ! وقال الشاعر :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد !

وقد يقوم بالتجديد والإحياء جماعة أو مدرسة أو حركة : فكرية ، أو تربوية ، أو جهادية ، يتواصى أهلها بالحق والصبر ، ويتعاونون على البر والتقوى.

وقد يقوم بمهمة التجديد أفراد أو مجموعات متناثرة ، كل في موقعه ، ومجال اهتمامه واختصاصه . هذا في مجال العلم والفكر ، وذاك في مجال السلوك والتربية ، وثالث في مجال خدمة المجتمع ، ورابع في مجال الحكم والسياسة ، وآخرون في مجال الجهاد والمقاومة ، وكل على ثغرة من ثغر الإسلام ، اتحدت أهدافهم ، ومبادئهم، وإن اختلفت مواقعهم وطرائقهم [1].

وينكر الشيخ حصر المجدد في فرد واحد لما له من بعض السلبيات أهمها انتظار هذا المجدد ، بينما كون المجدد جماعة لا فرداً يجعل كل فرد يقول: ما هو دوري في التجديد؟ لا متى يظهر المجدد ؟ يقول الشيخ : إن ربط التجديد بفرد واحد فذ ، يجعل الناس يعيشون على أمل ظهوره ، وكل ما عليهم انتظاره حتى تنشق الأرض عنه ليجدد ما عجزوا عنه .

والذي أراه أن يربط التجديد بجماعة أو مدرسة أو حركة ، يقوم كل مسلم غيور فيها بنصيبه في موكب التجديد ، ويسهم على قدر طاقته في مسيرته ، ولا يصبح السؤال : متى يظهر المجدد للدين ؟ بل يكون : ماذا أعمل لتجديد الدين؟ [2]

وإذا كان الشيخ ينكر حصر المجدد في شخص بعينه ، فإنه أشد إنكاراً للتجديد إذا صدر من غير أهله ، ومن ثم فإن الشيخ يصف هؤلاء: بأنهم مبددون لا مجددون ، ويشبه الشيخ هؤلاء بمن يريد أن يهدم « جامعاً» قديماً

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ٨٨ .

ليقيم على أنقاضه «كنيسة» حديثة بكل مقوماتها وخصائصها إلا أنه كتب عليها اسم «جامع»[1].

ويعلق الشيخ على هؤلاء المبددين بقوله: والذي سمى هؤلاء «مجددين» إنما هو الاستعمار وتلاميذه وعملاؤه من المستشرقين والمنصرين، وتسميتهم الحقيقية «عبيد الفكر الغربي» فهم لا يرقون ليكونوا تلاميذ الفكر الغربي، فإن التلميذ يناقش أستاذه، وقد يخالفه ويرد عليه، ولكن موقف هؤلاء من الفكر الغربي هو التبعية والعبودية، التي ترى أن كل ما يؤمن به الغرب هو الحق، وكل ما يقوله فهو صدق، وكل ما يفعله فهو جميل!

ويستوي في هذا عبيد اليمين وعبيد اليسار، فمنبع الجميع واحد، كلهم فرع من الشجرة الملعونة في القرآن والتوراة والإنجيل: شجرة المادية الخبيثة التي تفرغ الإنسان من الروح، والحياة من الإيمان، والمجتمع من هداية الله[2].

ويقول في موضع آخر: تجديد الدين لابد أن يكون من داخله، وبأدواته الشرعية، وعن طريق أهله وعلمائه، لا بالإغارة عليه، ولا بالافتيات على أهله، ولا بإدخال عناصر غريبة عنه، وفرضها عنوة[3].

الحركة الإسلامية بين التجديد والجمود في نظر القرضاوي:

وإذا كان الشيخ القرضاوي ينكر الجمود على المستوى العام للأمة الإسلامية فهو أشد إنكاراً للجمود في داخل الحركة الإسلامية، لأن الحركة الإسلامية هي بمثابة القبطان الذي يقود السفينة للأمة الإسلامية ليصل بها إلى شاطئ الأمن والسلامة، وهي التي تحمل «البوصلة» التي تهدي الأمة الحائرة في دياجير الظلام، فكيف إذا جمد «القبطان» أو تعطلت «البوصلة»؟!

ولهذا انتقد الشيخ على الحركة الإسلامية خوفها من التجديد، وجمودها على بعض أفكار دعاتها كأنها «وحي يوحى» أو كلام بشر معصوم، يقول

---

(١) انظر: لقاءات ومحاورات ج١ ص ٨٩، ومن أجل صحوة راشدة ص ٥٦، وفقه الدعوة ملامح وآفاق أ: عمر عبيد حسنة كتاب الأمة نشر وزارة الأوقاف القطرية.

(٢) انظر: من أجل صحوة راشدة ٥٦.

(٣) انظر: ثقافتنا بين الانغلاق والانفتاح ص ٥٤.

الشيخ : وهذه نقطة من نقاط الضعف في الحركة الإسلامية : إنها تخاف من الاجتهاد، ولا ترحب كثيراً بالتجديد، ولا تميل إلى الانفتاح ومواكبة التطور .

ورغم أنها تدعو - من الناحية النظرية على الأقل - إلى الاجتهاد في المجال الفقهي، فهي تميل إلى التقليد في المجال الفكري ، والمجال الحركي وتؤثر أن يبقى كل قديم على قدمه .

وليس هذا مقصوراً على الحركات التي عرفت بنزعتها الظاهرية في فهم الإسلام، والحرفية في تفسيره ، بل يكاد ذلك يعم الحركات الإسلامية المعاصرة ، حتى التي اشتهرت منها بالمرونة وسعة الأفق ، وخاضت من التجارب ما يجعل لها الحق في التجديد والتغيير .

فهي تتمسك أحياناً ببعض الوسائل والأشكال ، ولو وقفت حجر عثرة في سبيل انتشارها ، أو جلبت عليها متاعب هي في غنى عنها . وتنفر من الأفكار الحرة ، والنزعات التجديدية ، التي تخالف المألوف والمستقر من الأفكار والأعمال، وتضيق بالمفكرين من هذا النوع الذي يصعب صبه في قالب حجري لا يفارقه ، أو حبسه في قمقم فكري لا يخرج منه ، وربما تصدر في شأنهم قرارات أشبه بـ « قرار الحرمان » بحيث لا تقرأ كتبهم ، ولا تشهد حلقاتهم [1] .

وقد عد الشيخ جمود الحركة الإسلامية أحد معوقاتها الداخلية كما ذكر ذلك في كتابه « أين الخلل » وأكده في كتابه « الحل الإسلامي فريضة وضرورة » فقال الشيخ : وأعني بالجمود : تحجر الحركة الإسلامية على أسلوب معين في الدعوة ، أو طريقة معينة في العمل ، أو شكل معين في التنظيم ، لا ترضى عنه بدلاً ، ولا تبغي عنه حولاً ، وإن ظهر ضعف أثره ، أو ثبت فشله ، أو حالت الحوائل القاهرة دون الانتفاع به [2] .

بل إن الشيخ يرى أن جمود الحركة الإسلامية علامة من علامات الموت فيقول : إن الجمود أبرز دلالات الموت ، والحركة من أظهر علامات الحياة ، هذا واضح في الكائنات الحية عموماً ، وفي الإنسان خصوصاً .

---

(١) انظر : أين الخلل ص ٦٠ ، ٦١ .

(٢) انظر : الحل الإسلامي فريضة وضرورة ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

والجماعة الحية كالفرد الحي ، لا تستطيع أن تثبت حيويتها إلا بقدرتها على الحركة والتجدد أمام الأحداث ، فإذا سد عليها طريق شقت لنفسها طريقاً آخر أو طرقاً ، وإذا أغلق في وجهها باب فتحت لنفسها باباً آخر أو أبواباً [١] .

خطورة الجمود على الحركة الإسلامية في نظر القرضاوي:

والشيخ حفظه الله حين نادى بالتجديد وحارب الجمود فإن ذلك كان نابعاً من خوفه على مستقبل الحركة الإسلامية من أن يتفلت منها أبناؤها ، أو يتركها دعاتها ، ولهذا يقول الشيخ : إن أخشى ما أخشاه على الحركة الإسلامية أن تضيق بالمفكرين الأحرار من أبنائها ، وأن تغلق النوافذ في وجه التجديد والاجتهاد ، وتقف عند لون واحد من التفكير لا يقبل وجهة نظر أخرى، تحتمل رأياً مخالفاً في ترتيب الأهداف ، أو في تحديد الوسائل ، أو في تعيين المراحل، أو في تقويم الأحداث والمواقف ، أو في تقدير الرجال والأشخاص، أو في غير ذلك ، مما يدخل في دائرة الاجتهاد البشري ، الذي من شأنه أن يتطور ويتغير بتغير العوامل والمؤثرات . وقديماً قال فقهاؤنا : يجب أن تتغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد .

وعندئذ تتسرب الكفايات العقلية القادرة على التجديد والابتكار . من بين صفوف الحركة ، كما يتسرب الماء من بين الأصابع ، ولا يبقى في النهاية إلا المحافظون المقلدون ، الذين يحبون أن يبقى كل قديم على قدمه ، وأن ما نعرفه خير مما لا نعرفه، ما جربته أفضل مما لم تجربه .

ونتيجة هذا أن تحرم الحركة من ثمرات العقول الكبيرة من أبنائها ، وأن تصاب في النهاية بالجمود ، أو العقم الذي أصاب الفقه والأدب في عصور التقليد، وأن يتقوقع هؤلاء على ذواتهم يأساً من أي عمل مثمر للإسلام ، أو يعملوا فرادى نافضين أيديهم من جدوى أي عمل جماعي، أو يحاولون مع آخرين خوض تجربة جماعية أخرى لا تدرى عواقبها .

إن من أهم ما أضر بالعقل المسلم قديماً ، وأضر به حديثاً ، شيوع تلك المقولة التي تقول : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، وليس في الإمكان أبدع مما كان .

---

(١) انظر : الحل الإسلامي فريضة وضرورة ص ٢١٩ .

ولا ينفع العقل المسلم شيء مثل شيوع الفكرة المضادة التي تقول أبداً : كم ترك الأول للآخر، وكم في الإمكان أبدع مما كان[1] .

ولذلك فإن الشيخ لم يستثن من فصائل الحركة كلها بل نقد الجميع ، وعد الشيخ ذلك من صفات المراهقة التي ينبغي للحركة أن تتخلى عنها لتصل إلى مرحلة الرشد فقال الشيخ حفظه الله : وكل هذه الجماعات متساوية في التعصب لرؤسائها ومؤسسيها وموروثاتها الفكرية وإن تفاوتت النسبة بينهم تفاوتاً غير قليل [2].

وفي معرض حديثه عن « حزب التحرير» يقول الشيخ : حزب التحرير: متعصب لكل ما قاله مؤسسه الفاضل تقي الدين النبهاني - رحمه الله - ويكاد كل أعضاء الحزب يحفظون كلماته عن ظهر قلب ، ويرددونها ، كأنها « كليشهات » مطبوعة ، أو نصوص معصومة[3] .

وعند حديثه عن « جماعة التبليغ» يقول الشيخ : لا يوجد عندهم كتب تقرأ إلا كتاباً واحداً ، كما علمت : رياض الصالحين ، وقد يضاف إليه : حياة الصحابة .

ولقد سمعت بعضهم يقول : إن وسائلنا هي وسائل الأنبياء ، وهي الكلمة الشفهية المباشرة ، ونسي هؤلاء أن الأنبياء كانت معهم كتب ، تخاطب الناس بالكلمة المكتوبة[4].

وفي معرض حديثه عن « السلفية » يقول الشيخ : والمطلوب من الجماعات السلفية على اختلافها أن تتحرر من الجمود على موروثاتها ، والنظر إلى تفاصيلها نظرة ناقدة ، متطورة .

وذلك بأن تتحرر من الانشغال بالفروع والجزئيات ، على حساب الأصول والكليات، ومن النظر إلى رأيها على أنه هو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ ، وإلى رأي الآخرين على أنه الخطأ الذي لا يحتمل الصواب .

---

(١) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٢ ، ٣) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ١٩٤ .
(٤) انظر : المرجع السابق ص ١٩٧ .

ومن التمسك بحرفية النص وظاهريته ، إلى النظر إلى مقاصد النصوص وسعة آفاقها .

ومن تأثيم المخالفين وتبديعهم وتكفيرهم ، وهم لا يزالون ينطقون بالشهادتين[1] .

وأما جماعة « الإخوان المسلمين » فإن الشيخ طالما وجه النقد إلى الجماعة لجمودها أحياناً في بعض المسائل ، أو بعض الوسائل والأساليب وفي هذا يقول الشيخ : ولا أنكر أن في حركة « الإخوان » في بعض الأحيان ، وفي بعض الأقطار ، ولدى بعض الأفراد والقيادات أحيانا ميلاً إلى التشدد ، تأثراً بالمدارس الأخرى التي لها وجود في الساحة الإسلامية ، ويظهر هذا في الإبقاء على القديم ، ومقاومة التجديد ، أو الميل إلى الآراء المتشددة ، التي تنظر إلى النصوص الجزئية ، وتغفل المقاصد الكلية ، أو التي تأخذ دائماً بالأحوط ، ولا تأخذ بالأيسر ، رغم حاجة الناس إليه ، ولكن هؤلاء لا يمثلون - اليوم - التيار الغالب في الحركة[2] .

ويرى الشيخ أن جمود « الإخوان المسلمين » في بعض المواقف لا يتماشى مع مبادئ مؤسسها رحمه الله لأنه كما يقول القرضاوي : لم يكن رجلاً جامداً ، بل كان رجلاً متجدداً متطوراً ، وكان يستفيد من كل ما يستجد من حوله ، ويطور نفسه ، ويطور دعوته ،، وما يدرينا - لو امتد به الأجل - ماذا كان يصنع ؟ [3] .

ويذكر الشيخ إخوانه من أتباع البنا بوفاة إمامهم مبكراً فيقول : كما أغفل الإخوان شيئاً آخر مهماً ، وهو أن شيخهم مات في سن مبكرة نسبياً من عمره ، في الثانية والأربعين ، وقد شعر في أواخر حياته : أن إخوانه تنقصهم « الثقافة المعمقة » ، فانشأ مجلة « الشهاب » لتسد هذه الثغرة ، ولم يصدر منها إلا خمسة أعداد ، ثم جاءت المحنة واستشهد الشيخ الإمام[4] .

* * *

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(٢) انظر : الإخوان المسلمون ص ٢٤٨ .

(٣ ، ٤) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص٢٠٧ ، ٢٠٨ .

المبحث الحادي عشر

الاجتهاد لا التقليد

هذه الخصيصة متممة كذلك للخصيصة السابقة ؛ وإذا كان التجديد يشمل كل جوانب الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية وغيرها ، فإن الاجتهاد إنما يعنى أكثر ما يعنى بالناحية الفقهية .

ومن نافلة القول أن نقرر أن الاجتهاد أصل أصيل في الشريعة الإسلامية وجوهر ثمين من جواهرها الغالية ، وضرورة شرعية لدوام هذه الشريعة المباركة ، وللشيخ وهبة الزحيلي كلمات رائعة تؤكد ضرورة الاجتهاد فيقول : لا يمكن لأي تشريع سماوي أو وضعي أن يبقى محترماً معمولاً به نافذ المفعول إلا بالاجتهاد الذي تمليه ضرورات الواقع وتطورات الحياة، وما تقذفه من قضايا ومستجدات تتطلب حلاً سريعاً، وفكراً حراً طليقاً، وحيوية علمية، تتجاوب مع المقتضيات، وتواكب تقدم الحياة، بل وترسي دعائم المستقبل على أسس متينة في الاقتصاد والاجتماع والعلوم المختلفة.

ولا تستغني أمة تحترم نفسها وتنبع إرادتها من ذاتها عن التجديد والاجتهاد في كل مرافق الحياة ، حتى يدوم لها مجدها، وتحمي عزتها وكيانها، وتفرض هيبتها بين العالمين . وهذا ما جعل الأمة الإسلامية في الماضي في عصر الخلافة الأولى تسارع إلى بناء حضارة عريقة وباهرة في شتى الميادين ، وكان من أبرز نتاجها الخصب ما قدمه أئمة الاجتهاد والمذاهب المختلفة من عطاء ثرّ ، وحلول نافعة لما تموج به لجة الحياة ، من أمواج متلاطمة من مسائل وقضايا تصادم الإنسان ، يفرزها الواقع أو القرآن الكريم ، وشريعة الإسلام المجيدة .

لذا كان الاجتهاد ضرورة تشريعية وفرضاً كفائياً، وقد يصبح عينياً إذا

خيف فوات الحادثة على غير الوجه الشرعي ، أو لم يكن مجتهد آخر أمام الحادثة سوى ذلك المجتهد الذي عرضت عليه القضية (١).

الفقه الإسلامي على مر التاريخ :

واستقراء لتاريخ الفقه الإسلامي نرى أنه قد مر بست مراحل أو ستة عصور:

العصر الأول : عصر النبي ﷺ ولا شك أن هذا العصر كان مليئاً بالاجتهاد سواء كان ذلك من النبي ﷺ أو من أصحابه ، علماً بأن اجتهاد النبي ﷺ على أمرين:

١ - إما أن يكون إلهاماً فيكون وحياً من الله تعالى .

٢ - وإما أن يكون بدون وحي فإن كان صواباً أقره الله تعالى عليه وإلا فلا؛ كما في عتابه سبحانه لنبيه في أسرى بدر .

وأما اجتهاد أصحابه فإن أقره النبي ﷺ كان تشريعاً ، وإلا فلا .

العصر الثاني : عصر الخلفاء الراشدين، ويعد هذا العصر أيضاً عصراً مليئاً بالاجتهاد، وكان السبب في ذلك أن الصحابة واجهوا وقائع وأحداثاً لم تكن في عهد النبي ﷺ .

العصر الثالث : من نهاية عصر الخلفاء الراشدين حتى أوائل القرن الثالث الهجري، ويعد هذا العصر شبيهاً بالعصر السابق ، غير أن المسائل المستجدة كثرت ، وتعددت آراء الفقهاء فيها ، وأدى ذلك إلى ظهور مدرستين :

الأولى : مدرسة الحديث .

الثانية : مدرسة الرأي .

العصر الرابع : ويبدأ من أوائل القرن الثالث الهجري ويمتد حتى منتصف القرن الرابع ، ويعد هذا العصر عصراً ذهبياً للفقه حيث ازدهر ازدهاراً عظيماً ونضج نضجاً كاملاً وظهر نوابغ الفقهاء وظهر المجددون العظام .

العصر الخامس : ويبدأ هذا العصر من نهاية العصر الماضي ويستمر حتى

---

(١) انظر : الاجتهاد الفقهي أي دور وأي جديد؟ منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة : ندوات ومناظرات رقم ٥٣ مطبعة النجاح الحديثة الدار البيضاء ط ١٩٩٦م ص ٢٣ .

سقوط بغداد عام ٦٥٦ م ، وفي هذا العصر ظهر التقليد والمناداة بغلق باب الاجتهاد .

العصر السادس : ويبدأ من سقوط بغداد ويستمر حتى وقتنا الحاضر ، ويلاحظ أن الفقه لم ينهض من كبوته ، ولم يغير الفقهاء نهجهم ، غير أن هذا لم يمنع من ظهور مجتهدين مجددين على مر العصور نادوا بالاجتهاد المطلق ، ومن هؤلاء ابن تيمية وابن القيم والشوكاني وغيرهم [١].

ومن أكبر القواصم التي ضربت ظهر العالم الإسلامي جنوح علمائه وفقهائه إلى التقليد ، وعزوفهم عن الاجتهاد ؛ إما عجزاً أو خوفاً، حتى غدا العالم الإسلامي يتحرك بخطى وئيدة لا تتجاوز خطوات السلحفاة ، بينما غدا العالم من حوله ينطلق بسرعة الصاروخ ، فخسر العالم الإسلامي بذلك أموراً لا تقدر ، وانعكست هذه الخسارة على العالم كله خسارة لا تقاس ، عبّر عنها الشيخ العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه القيم الذي أسماه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » بقوله : لم يكن انحطاط المسلمين أولاً ، وفشلهم وانعزالهم عن قيادة الأمم بعد ، وانسحابهم من ميدان الحياة والعمل أخيراً ، حادثاً من نوع ما وقع وتكرر في التاريخ من انحطاط الشعوب والأمم ، وانقراض الحكومات والدول ، وانكسار الملوك والفاتحين ، وانهزام الغزاة والمنتصرين ، وتقلص ظل المدنيات . والجزر السياسي بعد المد . فما أكثر ما وقع مثل هذا في تاريخ كل أمة . وما أكثر أمثاله في تاريخ الإنسان العام ! ولكن هذا الحادث كان غريباً لا مثيل له في التاريخ . مع أن في التاريخ مثلاً وأمثلة لكل حادث غريب .

لم يكن هذا الحادث يخص العرب وحدهم . ولا يخص الشعوب والأمم التي دانت بالإسلام . فضلاً عن الأسر والبيوتات التي خسرت دولتها وبلادها . بل هي مأساة إنسانية عامة لم يشهد التاريخ أتعس منها ولا أعم منها . فلو عرف العالم حقيقة هذه الكارثة ، ولو عرف مقدار خسارته ورزيته ، وانكشف عنه غطاء العصبية ، لا تخذ هذا اليوم النحس - الذي وقعت فيه - يوم عزاء ورثاء ،

---

(١) انظر : المدخل لدراسة الشريعة د : عبد الكريم زيدان مؤسسة الرسالة ط الحادية عشر ١٩٩٠م ص ٨٩ وما بعدها باختصار .

ونياحة وبكاء . ولتبادلت شعوب العالم وأممه التعازي . ولبست الدنيا ثوب الحداد . ولكن ذلك لم يتم في يوم . وإنما وقع تدريجياً في عقود من السنين . والعالم لم يحسب إلى الآن الحساب الصحيح لهذا الحادث . ولم يقدره قدره ، وليس عنده المقياس الصحيح لشقائه وحرمانه(١) .

ويقول الأستاذ محمد قطب حفظه الله : فلم تكن الخسارة التي نتجت من انحطاط المسلمين مقصورة عليهم وحدهم ، إنما كانت خسارة شاملة ، شملت العالم كله .

ذلك أن الله منذ أخرج هذه الأمة إلى الوجود وحملها رسالة الرسول الخاتم ﷺ جعل مقادير البشرية كلها مرتبطة بأحوال هذه الأمة ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر، وذلك من مقتضى كون هذه الأمة أخرجت لتكون شاهدة على كل البشرية : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة:١٤٣] .

وحين نفصل مقدار الشر الذي أصاب البشرية من جراء غياب الأمة الإسلامية عن الساحة ، سيتبين لنا مجدداً مدى المسئولية الملقاة على عاتق هذه الأمة ، ومدى الوزر الذي ارتكبته في حق نفسها ، وحق البشر جميعاً ، حين فرطت في مسئوليتها (٢).

وهذا أيضا ما عبر عنه الدكتور طه جابر العلواني بقوله : واستمر الانحدار واشتد الخلاف وتعمق، ونشأت بعد ذلك قرون على التقليد المحض، فركدت حركة الفكر، وذوت شجرة الاجتهاد، وانتشرت الفتن وعم الجهل.

وقد نزل الحال عن هذا الدرك الهابط إلى ما هو أشد هبوطاً منه ، كأن شمس العلوم غابت عن دنيا المسلمين وعقم الفكر، فراجت سوق البدع ونفقت بضاعة الانحراف، وشاعت الخرافات فاتخذت أشكالاً مختلفة .

فالعقيدة خاملة، وإيمان الكثيرون مزعزع، واليقين لم يعد يقيناً، والسلوك

---

(١) انظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين أبو الحسن الندوي المركز العالمي للكتاب الإسلامي ص ٢٧ .

(٢) انظر : رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر محمد قطب مكتبة السنة ط الأولى ١٩٩١م ص ١٨٦ .

منحرف، والاستقامة معدومة، والفكر جامد، والاجتهاد معطل، والفقه مفقود، والبدع قائمة، والسنة نائمة، والوعي غائب، حتى لكأن الأمة ليست هي، وحالة كهذه قد أغرت الذين كانوا يتربصون بالأمة، فاهتبل الغربيون هذه الفرصة واحتلوا البلاد وامتلكوا أزمة العباد، وقضوا على البقية الباقية من مقومات شخصية الأمة حتى وصل الحال إلى ما نحن فيه اليوم، من هوان واستكانة[١].

وقد عبر الشيخ القرضاوي عن هذا الواقع المر بقوله: كانت جامعاتنا موئل الطلاب من أنحاء العالم، وكان علماؤنا في كل التخصصات أشهر العلماء، في دنيا العلم، وكانت كتبهم هي المراجع العالمية المعترف بها، والمغترف منها، وكانت لغتنا العربية هي لغة العلم المتفوقة على كل اللغات.

ثم بدأ التراجع شيئاً فشيئاً، حتى انتهى إلى التخلف والانحطاط، وأخذت شمسنا في الأفول، ونجمنا في الهبوط، وسيرنا في التباطؤ حتى توقفنا. في الوقت الذي كان غيرنا قد طفق ينهض من عثرته، ويصحو من سكرته، ويستيقظ من سباته، ذلك الغرب المسيحي الذي مسته نفخة من الشرق المسلم، عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية وغيرها، فتعلم من جهل، وقوي من ضعف، واستنار من ظلمة، وشرع يستثمر المنهج العلمي الاستقرائي التجريبي الذي اقتبسه من حضارتنا، وتعلمه على أيدي علمائنا، فإذا هو ينهض ويرقى ويتقدم ويطور حياته يوماً بعد يوم، حتى وصل إلى ما نراه اليوم.

أما نحن فإن حياتنا في العصور الأخيرة قد أصيبت بالعفن، وأصبح ماؤها آسناً، وبحيرتها راكدة، ولا يجري ماؤها، ولا يتجدد هواؤها، ولا تفتح نوافذها، فتدخل منها أشعة الشمس، وهبات النسيم.

لقد أصيب الفقه بالجمود والتقليد، فغلبت العصبية المذهبية، واشتهر بين طلبة العلم أن باب الاجتهاد قد سد منذ زمن بعيد، ولم يعد في الناس من يقدر على الاجتهاد المطلق، بل ولا الاجتهاد الجزئي، والواجب على الجميع تقليد أحد المذاهب المعروفة، كما قال الناظم عن أئمة المذاهب:

فواجب تقليد حبر منهمو كما حكى القوم بلفظ يفهم!

---

(١) انظر: أدب الاختلاف في الإسلام ص ١٤٧، ١٤٨.

واصبح المقلدون ودعاة التقليد هم المهيمنين على جل مؤسسات التعليم الديني في البلاد الإسلامية ، وغدا دعاة الاجتهاد والتجديد الحقيقيون ينظر إليهم بعين الريبة والشك[1].

والمتعقب لأقوال الأئمة المجتهدين يرى أنهم ما أمروا أحداً بتقليدهم ، أو التزام أقوالهم ، إنما كان حرصهم على اتباع الدليل الصحيح ، ولهذا شاع من أقوالهم ما قاله مالك : إنما أنا بشر أصيب وأخطئ فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة .

وقال الشافعي : إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط .

وقال أحمد : لا تقلدوني ولا تقلدوا مالكاً ولا الشافعي ولا الثوري ، وتعلموا كما تعلمنا.

القول بغلق باب الاجتهاد :

لقد راجت هذه المقولة منذ فترة طويلة ، ونادى بذلك عدد من الفقهاء ، كما نادى كذلك عدد من الأصوليين، وكان ممن نادى بذلك إمام الحرمين والقفال والغزالي والرازي، غير أن هؤلاء الفقهاء والأصوليين وجدوا كثيراً ممن خالفهم الرأي من أمثال أبي إسحق الإسفراييني والشهرستاني وابن القيم ومن قبله ابن تيمية وأخيراً الشوكاني ، وكان ممن تصدى لهم بقوة الإمام السيوطي في كتابه الذي أسماه «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» وكذلك الإمام الشوكاني في كتابه «إرشاد الفحول » ، وابن تيمية في مجموع الفتاوى ، وابن القيم في أعلام الموقعين[2] .

ومن كلام ابن القيم رحمه الله في الرد على هؤلاء : أن المقلدين حكموا على الله قدراً وشرعاً بالحكم الباطل جهاراً ، المخالف لما أخبر به رسوله فأخلوا الأرض من القائمين لله بحججه ، وقالوا: لم يبق في الأرض عالم منذ الأعصار

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ١٧٨ - ١٨٨ .

(٢) انظر : الرد على من أخلد إلى الأرض الإمام السيوطي ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣ هـ ص ٩٧ وما بعدها ، وانظر مجموع الفتاوى ابن تيمية ج٢٠ ص ٢٠٠ وما بعدها ، وانظر : أعلام الموقعين ج٢ ص ٢٧٠ وما بعدها ، وانظر إرشاد الفحول ص ٣٠٧ وما بعدها .

المتقدمة. فقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد أبي حنيفة وأبي يوسف وزفر ابن الهذيل ومحمد بن الحسن والحسن بن زياد اللؤلؤي وهذا قول كثير من الحنفية، وقال بكر بن العلاء القشيري المالكي: ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة، وقال آخرون ليس لأحد أن يختار بعد الأوزاعي وسفيان الثوري ووكيع بن الجراح وعبد الله بن المبارك، وقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي، واختلف المقلدون من أتباعه فيمن يؤخذ بقوله من المنتسبين إليه ويكون له وجه يفتي ويحكم به، وجعلوهم ثلاث مراتب:

* طائفة أصحاب وجوه كابن سريج والقفال وأبي حامد.
* وطائفة أصحاب احتمالات لا أصحاب وجوه كأبي المعالي.
* وطائفة ليسوا أصحاب وجوه ولا احتمالات كأبي حامد وغيره.

واختلفوا متى انسد باب الاجتهاد على أقوال كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان، وعند هؤلاء أن الأرض قد خلت من قائم لله بحجة، ولم يبق فيها من يتكلم بالعلم، ولم يحل لأحد بعد أن ينظر في كتاب الله ولا سنة رسوله لأخذ الأحكام منهما، ولا يفتي بما فيهما حتى يعرضه على قول مقلده ومتبوعه؛ فإن وافقه حكم به وأفتى به، وإلا رده ولم يقبله.

وهذه أقوال كما ترى قد بلغت من الفساد والبطلان والتناقض، والقول على الله بلا علم، وإبطال حججه، والزهد في كتابه وسنة رسوله، وتلقي الأحكام منهما مبلغها، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ويصدق قول رسوله: «أنه لا يزال يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها»[1].

ويكفي في فساد هذه الأقوال أن يقال لأربابها: فإذا لم يكن لأحد أن يختار بعد من ذكرتم، فمن أين وقع لكم اختيار تقليدهم دون غيرهم؟ وكيف حرمتم على الرجل أن يختار ما يؤديه إليه اجتهاده من القول الموافق لكتاب الله وسنة رسوله، وأبحتم لأنفسكم اختيار قول من قلدتموه، وأوجبتم على الأمة تقليده، وحرمتم تقليد من سواه، ورجحتموه على تقليد من سواه؟ فما الذي

---

(١) سبق تخريجه.

سوغ لكم هذا الاختيار الذي لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس ولا قول صاحب ؟

ويقال لكم : فإذا كان لا يجوز الاختيار بعد المائتين عندك ولا عند غيرك؛ فمن أين ساغ لك وأنت لم تولد إلا بعد المائتين بنحو ستين سنة أن تختار قول مالك دون من هو أفضل منه من الصحابة والتابعين، أو من هو مثله من فقهاء الأمصار، أو ممن جاء بعده؟ وموجب هذا القول: أن أشهب وابن الماجشون ومطرف بن عبد الله، وأصبغ بن الفرج، وسحنون بن سعيد، وأحمد بن المعدل، ومن في طبقتهم من الفقهاء، كان لهم أن يختاروا إلى انسلاخ ذي الحجة من سنة مائتين ، فلما استهل هلال المحرم من سنة إحدى ومائتين وغابت الشمس من تلك الليلة حرم عليهم الوقت بلا مهلة !

ويقال للآخرين : أليس من المصائب وعجائب الدنيا تجويزكم الاختيار والاجتهاد، والقول في دين الله بالرأي والقياس لمن ذكرتم من أئمتكم ، ثم لا تجيزون الاختيار والاجتهاد لحفاظ الإسلام ، وأعلم الأمة بكتاب الله وسنة رسوله، وأقوال الصحابة وفتاواهم ، كأحمد بن حنبل، والشافعي، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وداود بن علي ، ونظرائهم على سعة علمهم بالسنن ووقوفهم على الصحيح منها والسقيم، وتحريهم في معرفة أقوال الصحابة والتابعين ودقة نظرهم ولطف استخراجهم للدلائل ، ومن قال منهم بالقياس فقياسه من أقرب القياس إلى الصواب، وأبعده عن الفساد، وأقربه إلى النصوص، مع شدة ورعهم وما منحهم الله من محبة المؤمنين لهم، وتعظيم المسلمين علمائهم وعامتهم لهم [1].

كما أن للشوكاني رحمه الله كلاماً قوياً لا تنقصه الحجة، ولا ينقصه البرهان في إرشاد الفحول نقتبس منه ما يلي :

قول هؤلاء القائلين بخلو العصر من مجتهد مما يقضي منه العجب . فإنهم إن قالوا ذلك باعتبار المعاصرين لهم فقد عاصر القفال والغزالي والرازي والرافعي - من الأئمة القائمين بعلوم الاجتهاد على الوفاء والكمال - جماعة منهم .

---

(١) انظر : أعلام الموقعين ابن القيم ج ٢ ص ٢٧٥ وما بعدها بتصرف .

ومن كان له إلمام بعلم التاريخ والاطلاع على أحوال علماء الإسلام في كل عصر لا يخفى عليه مثل هذا . بل قد جاء بعدهم من أهل العلم من جمع الله له من العلوم فوق ما اعتده أهل العلم من الاجتهاد .

وإن قالوا ذلك لا بهذا الاعتبار ، بل باعتبار أن الله عز وجل رفع ما تفضل به على من قبل هؤلاء من هذه الأمة ، من كمال الفهم ، وقوة الإدراك، والاستعداد للمعارف؛ فهذه دعوى من أبطل الباطلات ، بل هي جهالة من الجهالات .

وإن كان ذلك باعتبار تيسر العلم لمن قبل هؤلاء المنكرين . وصعوبته عليهم. وعلى أهل عصورهم فهذه أيضاً دعوى باطلة ، فإنه لا يخفى على من له أدنى فهم أن الاجتهاد قد يسره الله للمتأخرين تيسيراً ، لم يكن للسابقين ، لأن التفاسير للكتاب العزيز قد دونت، وصارت في الكثرة إلى حد لا يمكن حصره ، والسنة المطهرة قد دونت . وتكلم الأئمة على التعديل والتجريح والتصحيح والترجيح بما هو زيادة على ما يحتاج إليه المجتهد .

وقد كان السلف الصالح ـ من قبل هؤلاء المنكرين ـ يرحل للحديث الواحد من قطر إلى قطر . فالاجتهاد على المتأخرين أيسر وأسهل من الاجتهاد على المتقدمين، ولا يخالف في هذا من له فهم صحيح وعقل سليم ، وإذا أمعنت النظر وجدت هؤلاء المنكرين إنما أتوا من قبل أنفسهم ، فإنهم لما عكفوا على التقليد ، واشتغلوا بغير الكتاب والسنة حكموا على غيرهم بما وقعوا فيه، واستصعبوا ما سهله الله على من رزقه الله العلم والفهم ، وأفاض على قلبه أنواع علوم الكتاب والسنة .

ولما كان هؤلاء الذين صرحوا بعدم وجود المجتهدين شافعية ، فها نحن نوضح لك من وجد من الشافعية بعد عصرهم ، ممن لا يخالف مخالف في أنه جمع أضعاف علوم الاجتهاد ، فمنهم : ابن عبد السلام ، وتلميذه ابن دقيق العيد ، ثم تلميذه ابن سيد الناس، ثم تلميذه زين العابدين العراقي ، ثم تلميذه ابن حجر العسقلاني ، ثم تلميذه السيوطي[1].

---

(١) انظر إرشاد الفحول الشوكاني ج٢ ص ٣٠٧ وما بعدها .

ولله در ابن الجوزي حين قال في ذم التقليد : اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد فيه، وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه خلق للتأمل والتدبر، وقبيح بمن أعطى شمعة يستضيء أن يطفئها ويمشي في الظلمة [١].

ورحم الله ابن المنير يوم أن قال : المقلد أعمى ، والمخصوم أعشى ، والمجتهد هو الذي يستبصر إن شاء الله[٢] .

هذا وقد مال الشيخ القرضاوي إلى التشنيع بالتقليد ودعاته ، مفنداً أقوالهم ، ومبطلاً حججهم ، وفي معرض رده على دعاة التقليد يقول الشيخ : ومن عيوب دعاة التقليد الذين يوجبونه على كل الناس أنهم يحجرون على العقول أن تفكر ، وعلى المواهب أن تبدع ، ويفرضون على العلماء - وإن بلغوا من النبوغ ما بلغوا - أن يفكروا برؤوس غيرهم ، وبعبارة أخرى برؤوس الموتى من اثني عشر قرناً أو تزيد .

وهم بهذا يحجرون ما وسع الله ، ويتالون على الله ما ليس لهم ، ويدّعون أن فضل الله قد ضاق ، أو توقف قبل منتصف القرن الثالث الهجري ، فلم يمنح أحداً من عباده القدرة على الاجتهاد ، وسيظل هذا الحَجْر مستمراً في المستقبل ، فلن يمن الله بهذا الفضل على أحد من خلقه . وهذا ضرب من اقتحام الغيب والجسارة على أمور لا يجرؤ مسلم أن يدخلها إثباتاً أو نفياً ، فالغيب لا يعلمه إلا الله .

ومن شبهات أنصار التقليد المتعصب ، قولهم : إننا لا نستطيع أن نفهم النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وحدنا بدون واسطة من الأئمة السابقين. ولهذا نعتمد على من هو أقدر على هذه المهمة منا ، أما نحن فعاجزون عنها[٣].

ويسأل الشيخ هذا الصنف قائلاً : من أين جاءكم العجز ، عن فهم النصوص الشرعية وصعوبة الاستنباط منها ؟

---

(١) انظر : تلبيس إبليس ابن الجوزي ص ٩٣ ط دار المغني للنشر والتوزيع ط الثانية ٢٠٠٠م .

(٢) انظر : حسن المحاضرة ج١ ص ٣١٧ . نقلاً عن كيف نتعامل مع التراث ص ١٢١ .

(٣) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ١٧٩ .

أهذا راجع إلى النصوص نفسها ؟

أم هو راجع إلى عقولكم أنتم ؟[1]

وينفي الشيخ صعوبة النصوص فيقول : أما النصوص ، فلا يقول عاقل أنها ألغاز عسيرة الفهم ، بعيدة عن إدراك العقول ، كيف وقد سمى الله قرآنه: «الكتاب المبين» في أكثر من موضع ، وأكثر من سورة . وسماه ﴿ نُوراً ﴾ [النساء: ١٧٤]. و ﴿ الْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٤] . و ﴿ بُرْهَانٌ ﴾ [النساء: ١٧٤] . لوضوحه وبيانه ، وتمييزه بين الحق والباطل، والهدى والضلال، كما أعلن أنه « ميسر » للذكر والفهم : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧] . ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان: ٥٨] .

ومثل ذلك : السنة ، فهي البيان والتفصيل للقرآن ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤] . [2]

كما ينزه الشيخ العقول عن العجز فيقول : أما عقولكم - وعقول أهل العصر عامة - فلا يقول عاقل ، مسلم أو كافر : إن الله سلبها القدرة على الفهم والإدراك والاستنباط. كيف وهذه العقول نفسها ، هي التي استطاع الإنسان بها أن يغزو الفضاء، ويحطم الذرة، ويصنع الكمبيوتر، والثورة البيولوجية، وثورة الاتصالات ، وثورة المعلومات، فهل يستطيع العقل الإنساني المعاصر أن يصنع هذه الأشياء التي تشبه المعجزات، ولا يستطيع فهم نص من « كتاب مبين » ؟

أم يقول هؤلاء : تلك عقول الغربيين « الكفار » ، أما عقولنا نحن المسلمين فليس لها مثل ذلك النجاح في علوم الكون ، والرياضيات ؟

وكأن الإسلام هو الذي يجمد العقول أن تتحرك وتتجدد ، ويحجر عليها أن تبدع وتبتكر . ولا أحسب مسلماً عاقلاً يقول ذلك .

إن الله خلق العقول - كل العقول - قادرة على أن تفكر ، وتبحث ، وتستنتج ، وتصل إلى الحقائق ، والمشركون هم الذين زعموا أنهم محجوبون عن

---

(١) انظر : المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) انظر : المرجع السابق ١٨٠ ، ١٨١ .

فهم كلام الله ، لما في آذانهم من وقر ، وما في قلوبهم من أكنة ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾[فصلت : ٥]. [١]

ويشبه الشيخ قول القائلين بعجز العقول بزعم اليهود بغلف القلوب فيقول : وكذلك اليهود زعموا - مكابرة - أن قلوبهم خلقت غلفاً مقفلة ، لا تقبل شيئاً من العلم والهدى، ورد عليهم القرآن بقوله : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء :١٥٥] .

ولا شك أن مما يرد على هؤلاء دعواهم عجز عقولهم عن الفهم والاستنباط، كما استنبط الفقهاء الأولون : أن هذه العقول نفسها ، هي التي أبدعت وابتكرت في علوم الطبيعة والرياضيات .

أترى هذه العقول قادرة في علوم الدنيا ، عاجزة في علوم الدين ؟[٢]

وفي بيان الشيخ حقوق العلم على أصحابه يؤكد ضرورة الترقي عن التقليد ويحمل الشيخ على دعاة التقليد مبيناً خطورة التقليد على العقل فيقول : إن أشد شيء على العقل خطراً - بعد اتباع الهوى - هو التقليد الأعمى ، الذي لا نزال نراه في حياتنا في صور شتى .

فهناك من باعوا عقولهم - أو تنازلوا عنها بغير ثمن - لغيرهم ممن يعظمونهم من القدماء أو المحدثين .

هناك من المشتغلين بالفقه من باعوا عقولهم أو تنازلوا عنها ، لأئمتهم المتقدمين ، أو شيوخهم من المتأخرين من الفقهاء .

هناك من المشتغلين بالكلام والعقائد من باعوا عقولهم أو تنازلوا عنها ، لأئمتهم المتقدمين ، أو شيوخهم من السلف أو الخلف .

وهناك من المشتغلين بالسلوك والتصوف من باعوا عقولهم لأئمتهم أو شيوخهم ، وتركوا أنفسهم بين أيديهم كالميت بين يدي الغاسل[٣] .

(١ ، ٢) انظر : المرجع السابق ص ١٨١ .

(٣) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

وقد وجه الشيخ عتاباً للمسلمين عامة ولعلماء الأمة خاصة لجنوحهم إلى التقليد فقال: إننا نعتب على كثير من المسلمين أنهم وضعوا عقولهم في (ثلاجة) فجمدوها حتى لا تفكر، أو كأنما منحوها إجازة من عناء التفكير، ولذلك راجت في ساحتهم الخزعبلات، وغاب عنهم (فقه السنن)، فقبلوا من الخوارق وما سموه (الكرامات) ما لا يصدقه عقل، ولا ينتظم به حال مجتمع، مثل ما يذكره الشعراني في (طبقات الصوفية) عن خوارق الذين اعتبرهم أولياء، كأن الكون يمضي بغير نظام، ولا ميزان ولا حسبان!.

فلا غرو إن تخلفوا وتقدم غيرهم، وجمدوا وتحرك غيرهم، وناموا واستيقظ غيرهم.

هذا والقرآن يخاطبهم بأولي الألباب، ويدعوهم ليقوموا لله مثنى وفرادى ثم يتفكروا، ويبين لهم الآيات لعلهم يتفكرون، ويبين لهم أن في كونه (آيات لقوم يعقلون) أو (لقوم يتفكرون) أو (لقوم يفقهون) وينكر بشدة على الذين ألغوا عقولهم ليفكروا برؤوس غيرهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

بل نرى كثيرا من علمائهم الذين تعلموا علم الدين، وظلوا سنوات طوالا يتلقون هذا العلم، لا يجترؤون أن يفكروا برؤوسهم لمطالب عصرهم وبيئتهم، فلا بد أن يرجعوا إلى الموتى ليفتوهم فيما وقع لهم، وربما لم يجدوا عند هؤلاء الموتى خبرا بهذه النوازل الجديدة التي لم يشهدها في عصرهم. ومن هنا لا يستطيع هؤلاء أن يفكروا لأنفسهم، وإذا وجد عالم فكر بنفسه، واستقل بعلمه، ووصل إلى اجتهاد مصيب أو مخطئ: أوسعوه ذما وتجريحا، وصبوا عليه جام غضبهم، ورموه بمسموم سهامهم، وربما سقط جريحا أو قتيلا[١].

دعاة التغريب مقلدون:

وكما عاب الشيخ تقليد السلف في غير محله؛ عاب كذلك التقليد على

---

(١) انظر: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ص ٧٤، ٧٥.

مقلدي دعاة الغرب فيقول: وفي مقابل هؤلاء نجد آخرين من المتغربين، باعــوا عقولهم أيضاً أو تنازلوا عنها بغير ثمن لأئمتهم وشيوخهم في الغرب !

دعاة «الليبرالية» باعوا عقولهم لأئمة الليبراليين ! طالبين منا أن نتبعهم في الخير والشر، والحلو والمر، وما يحُمد وما يُعاب .

ودعاة «الماركسية» - التي هُزمت في عقر دارها - باعوا عقولهم لشيوخ الماركسية وأئمتها، وطالبونا أن نتخذ فلسفتها مصدراً للهداية والتشريع .

وكل دعاة الأيديولوجيات والفلسفات الوضعية المختلفة باعوا لها عقولهم، ودعونا أن نلغي عقولنا معهم، لنتبع مناهجهم وأهدافهم شبراً بشبر، ولــم يحاول هؤلاء ولا أولئك أن يحرروا عقولهم من التبعية، وأن يمتحنوا مذاهب أئمتهم، وأفكار سادتهم وكبرائهم، ويعرضونها على قواطع العقل، وثوابت الوحي، ليعرف صحيحها من زيفها، وجيدها من رديئها، وحقها من باطلها، فيهتدوا بالحق، ويعرضوا عن الضلال .. «فماذا بعد الحق إلا الضلال»؟

ولا يجوز للغرباء أن يتحكموا في أهل الدار، ولا ينبغي للأموات أن يحكموا الأحياء، وأن يفتوا في أخص أمورهم، وهم في بطون قبورهم ! [(1)]

الاجتهاد الذي يريده القرضاوي في العصر الحديث :

والاجتهاد الذي ينادي به الشيخ في عصرنا الحاضر ليس معناه أن يبدأ الناس من الصفر طارحين وراءهم جهد السابقين، وعلم المتقدمين، فهذا يعد هدماً لا اجتهاداً وتبديداً لا تجديداً، وهؤلاء رد عليهم الشيخ بقوله : بعض الناس المغالين يكادون ينادون بإطراح الفقه الذي أنتجته العقول الإسلامية خلال العصور، ويطالبون بالعودة إلى الشريعة نفسها ويشبهون الفقه التاريخي في مختلف المذاهب بأثواب فصلت وخيطت وأخذت أشكالاً محددة؛ في حين أن الشريعة هي القماش الطويل العريض الذي يصلح لكل لابس بأن يأخذ منه ويفصل على قده . بدل عملية التصليح والتعديل في القديم، وهذا الرأي في الواقع غير عملي وغير ممكن وغير مفيد .

---

(1) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ١٢٦ .

فالعلم إنما ينمو ويتكامل بإضافة اللاحقين إلى ما بناه السابقون، لا بهدمه أو بتركه جملة، وهذه الإضافة قد تتخذ شكل التهذيب والتنقيح ، أو الانتقاء والترجيح، أو التجديد والتكميل، أو التصحيح والتعديل، وهذا صادق في كل العلوم الكونية والإنسانية والدينية[١].

وإذا كنا نرى تأكيد الشيخ على الموروث الفقهي ، وإعلاء قيمته ، بل والتشدد على إظهار محاسنه ، فإن الشيخ يقصد من الاجتهاد ثلاثة أمور ، ذكرها في كثير من كتاباته ويجملها بقوله :

أولاً : إعادة النظر في تراثنا الفقهي العظيم بمختلف مذاهبه ومدارسه وأقواله المعتبرة في شتى الأعصار ، لاختيار أرجح الأقوال فيه وأليقها بتحقيق مقاصد الشريعة، وإقامة مصالح الأمة في عصرنا، في ضوء ما وجد من ظروف وأوضاع .

ثانياً : العودة إلى المنابع : أعني إلى النصوص الثابتة، والتفقه فيها على ضوء المقاصد العامة للشريعة .

ثالثاً : الاجتهاد في المسائل والأوضاع الجديدة التي لم يعرفها فقهاؤنا الماضون، ولم يصدروا في مثلها حكماً؛ وذلك لاستنباط حكم مناسب لها في ضوء الأدلة الشرعية[٢].

صور من الاجتهاد في عصرنا الحاضر كما يراها القرضاوي :

وأمام ضغوط الحضارة الوافدة على شعوبنا العربية والإسلامية ، يوجب الشيخ على أهل الفقه أن يجتهدوا للناس في هذا العصر بما يلائم ضرورات العصر وحاجاته، مما يدفع الفقيه المجتهد إلى التيسير والتخفيف في الأحكام الفرعية العملية ، دون المساس بالثوابت من العقائد والعبادات والأخلاق[٣] .

ومن هنا فقد حدد الشيخ صور الاجتهاد في العصر الحاضر في ثلاث صور هي :

(١ ، ٢) انظر : شريعة الإسلام ص ١٠٨ ، ومدخل لدراسة الشريعة ص ٢٧٥ .
(٣) انظر : خصيصة « التيسير لا التعسير » من هذا الكتاب.

١ ـ صورة التقنين . وهذا النوع من الاجتهاد لا يعدو أن يكون اجتهاداً انتقائياً، لكنه يوضع في صورة مقننة، وكانت بداية التقنيين في العصر الحديث فيما عرف بمجلة «الأحكام العدلية» والتي التزمت بالمذهب الحنفي، لكنها خرجت منه إلى غيره في بعض الأقوال[١] .

٢ ـ صورة الفتوى . ويقصد بهذا النوع من إصدار الفتوى في المسائل المعروضة على ذوي التخصص، سواء كان ذلك من جهات رسمية كما هو الحال في دار الإفتاء بمصر، ولجنة الفتوى بالأزهر، ورئاسة الإفتاء بالمملكة العربية السعودية، أو كانت الفتاوى لبعض المجلات الإسلامية كمجلة « المنار»، أو فتاوى مجلة «الأزهر» و«الوعي الإسلامي» وغيرها، أو كانت الفتاوى لبعض العلماء المرموقين كفتاوى الشيخ شلتوت، والشيخ حسنين مخلوف[٢] .

٣ ـ صورة البحث . وهو مجال البحث والدراسة، وهو يشمل ما يؤلف من كتب علمية أصيلة لذوي الاختصاص والقدرة من العلماء، وما يقدم من بحوث ودراسات جادة في المؤتمرات العلمية المتخصصة، وما يقدم من رسائل واطروحات في أقسام الدراسات العليا، بالجامعات للحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراة، وما يقدمه أساتذة الجامعات من إنتاج علمي للترقي في سلم الدرجات العلمية[٣] .

مزالق الاجتهاد المعاصر كما يراها القرضاوي :

وإذا كان الشيخ من دعاة الاجتهاد فإنه كان وما زال يدق ناقوس الخطر على كل اجتهاد لا يقع من أهله ، أو يقع من أهله في غير محله ، ومن ثم فقد أوضح الشيخ المزالق التي يقع فيها المجتهد المعاصر حين يخطأ المجتهد أولا يستفرغ طاقته وجهده في استنباط الحكم المقصود ، أو يقع فيها من تصدي للاجتهاد دون أن يكون من أهله، وأهم هذه المزالق كما يراها الشيخ :

١ ـ الغفلة عن النصوص : ويعني الشيخ بذلك أن يغفل المجتهد أو مدعي

---

(١) انظر : الاجتهاد المعاصر ص٤١ .
(٢، ٣) انظر : المرجع السابق ص٤٤ ، ٤٥ .

الاجتهاد عما ورد في المسألة من نص قرآني أو نص نبوي ، أو أن يترك النص المعصوم إلى رأي راءٍ أو قول قائل .

وقد ضرب الشيخ مثلاً على الغفلة عن النصوص بما صدر من المحكمة الشرعية العليا في البحرين بجواز التبني للقطاء قياساً على جواز الاستلحاق ، غافلين عن النص القاطع في سورة الأحزاب ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥] ، وكفى أصحاب الفتوى أن يقيسوا التبني على جواز الاستلحاق لما كان من زواج سري أو نكاح فيه خلاف أو وطء بشبهة ، أو ولد زنا، أو غير ذلك [١].

٢ - سوء فهم النصوص أو تحريفها عن موضعها : ويعني الشيخ بذلك إنزال النصوص في غير موضعها كأن يخصص ما حقه التعميم ، أو يقيد ما حقه الإطلاق ، أو يقطع الدليل عن سابقه ، وقد ضرب الشيخ مثلاً لذلك بمحاولة البعض الاجتهاد في صرف آيات الحدود إلى الإباحة لا الوجوب فيكون الأمر في قوله تعالى « فاجلدوا » و« فاقطعوا » المتعلقان بالزنا والسرقة يكون الأمر فيهما للإباحة لا للوجوب [٢].

٣ - الإعراض عن الإجماع المتيقن : ويؤكد الشيخ لفظة « الإجماع » بالمتيقن خروجاً من دواعي الإجماع التي يظهر فيها الخلاف ، ومن مظاهر الإعراض عن الإجماع المتيقن دعوى البعض بجواز زواج المسلمة من الكتابي [٣].

٤ - القياس في غير موضعه : ويعني به الشيخ القياس الفاسد ، والذي يقيس فيه صاحبه النص الفقهي على الظني ، وقياس الأمور التعبدية المحضة على العادات ، وقد ضرب الشيخ لذلك مثلاً بمحاولة إباحة الربا بين الحكومة والشعب استدلالاً بالقياس على انه « لا ربا بين الوالد وولده » [٤].

٥ - الغفلة عن واقع العصر : ويعني الشيخ بذلك أن يغفل مدعي الاجتهاد

---

(١) لمراجعة هذه المسألة ورد الشيخ عليها انظر : الاجتهاد المعاصر ص ٤٧ - ٥٠ .
(٢) لمراجعة هذه المسألة ورد الشيخ عليها انظر : الاجتهاد المعاصر ص ٥٣ - ٥٧ .
(٣) انظر : الاجتهاد المعاصر ص ٥٨ وما بعدها .
(٤) انظر : المرجع السابق ص ٦٢ ، ٦٣ .

عن واقع عصره الذي يعيش فيه ، أو عدم إلمامه بثقافة عصرهم ، أو لكونهم يعيشون في معزل عن حياة الناس وضرب الشيخ مثلاً لذلك بمن حرموا المجازر الآلية وأوجبوا أن يكون الذبح باليد والسكين[١] .

٦ ـ الغلو في اعتبار المصلحة ولو على حساب النص : وهذا المزلق من أكثر المزالق التي يقع فيها مدعو الاجتهاد قبل أن ترسخ أقدامهم في العلم ، فيدعون المصلحة في كل شيء ، حتى ولو عارضت المصلحة نصاً واضحاً ، كمن أباحوا الربا من أجل المصلحة ، ومن أراد نقل صلاة الجمعة إلى يوم الأحد من أجل المصلحة ، ومن منع الصيام من أجل المصلحة ، وتحريم التعدد من أجل المصلحة[٢] .

الضوابط الأساسية للاجتهاد المعاصر كما يراها القرضاوي :

وخوفاً من أن يقع المجتهد المعاصر في مزلق من المزالق التي بيناها سابقاً فقد وضع الشيخ عدداً من المعالم والضوابط التي تسهم بشكل فعال في ضبط ما يعرض للناس من مسائل تحتاج إلى بذل الجهد وإعمال العقل للخروج بما يناسب من اجتهاد سليم وأهم هذه الضوابط :

١ ـ لا اجتهاد بغير استفراغ الوسع ، وهذا معناه : بذل أقصى الجهد في تتبع الأدلة والبحث عنها في مظانها وبيان منزلتها إذا تعارضت ، وهذا يقطع الباب على المتسرعين في الفتوى .

٢ ـ لا محل للاجتهاد في المسائل القطعية ، وهذا يعني غلق الباب في المسائل التي ثبتت بدلالة القرآن القاطعة كفريضة الصيام وحرمة الخمر والزنا .

٣ ـ لا يجوز جعل الظنيات قطعيات ، وهذا الضابط مكمل للسابق ، فكما لا يجوز اختراق القطعيات فلا يجوز تحويل الظني إلى قطعي .

٤ ـ الوصل بين الفقه والحديث ، وذلك حتى تزول الفجوة بين المدرستين الفقهية والحديثية .

٥ ـ الحذر من الوقوع تحت ضغط الواقع ، لأن هذا الواقع لم يصنعه

(١ ، ٢) انظر : المرجع السابق ص ٦٣ ـ ٨٦ .

المسلمون بإرادتهم وعقولهم وأيديهم ، إنما هو صنع لهم وفرض عليهم ، فليس معنى الاجتهاد أن تحاول تبرير الواقع على ما به، وجر النصوص لتأييده .

٦ - الترحيب بالجديد النافع ، مع التفريق بين ما يحسن اقتباسه وما لا يحسن ، والتمييز بين ما يلزم فيه الثبات والتشدد، وما تقبل فيه المرونة والتطور.

٧ - ألا نغفل روح العصر وحاجاته ، لأننا نعيش في القرن الخامس عشر لا العاشر، ولنا حاجتنا ومشكلاتنا التي لم تعرض لمن قبلنا من سلف الأمة ، وأننا مطالبون بأن نجتهد لأنفسنا ، لا أن يجتهد لنا قوم ماتوا قبلنا بعدة قرون .

٨ - الانتقال إلى الاجتهاد الجماعي ، وهذا يعني إنشاء مجمع علمي إسلامي عالمي يضم الكفاءات العليا من الفقهاء المسلمين دون نظر إلى إقليمية أو مذهبية ، أو جنسية وإنما يرشح الشخص لعضوية هذا المجمع فقهه وورعه ؛ لا ولاؤه لهذه الحكومة أو ذاك النظام ، وهذا لا يلغي الاجتهاد الفردي أيضاً بل يظل قائماً .

٩ - أن نفسح صدورنا لخطأ المجتهد إذ لا عصمة لغير نبي ، لأن التشنيع بالخطأ يقتل روح الاجتهاد(١) .

هل وصل الشيخ القرضاوي إلى درجة الاجتهاد :

خلود هذا الدين يحتم تحتيماً واجباً عدم خلو أي عصر من مجتهد تقوم به الحجة على خلق الله ، موضحاً لهم ما يجد لهم من أقضيات في أمور الدين ، وقد ذكرت سابقاً قول الأثبات من العلماء والمحققين من الفقهاء والأصوليين؛ الذين قالوا بعدم جواز خلو أي عصر من مجتهد، ليسقط فرض الكفاية عن الأمة في استنباط أحكام الشرع في الطارئ الجديد من أحداث الناس .

وقد ذكر الشيخ القرضاوي بأن منطق التاريخ يثبت عدم خلو أي عصر من مجتهد أو أكثر ، وأكد الشيخ بأن هذه حقيقة واضحة كالشمس في ضحى

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٩٢ - ١٠٠ باختصار ، ومدخل لدراسة الشريعة ص ٢٧٨ وما بعدها باختصار .

النهار لكل دارس لتراث الأمة، مطلع على تاريخ فقهائها من مختلف الأقطار بعد الأئمة الأربعة، وقد نقل الشيخ عن الإمام السيوطي من هؤلاء: المزني، وأبو ثور، وأبو بكر بن المنذر، وعبدان المروزي ، وأبو بكر بن خزيمة، وابن جرير الطبري ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وقاسم بن محمد ، والبغوي ، وأبو الوفاء بن عقيل ، والجويني ، وابن خويز منداد ، وأبو بكر بن العربي ، والعز بن عبد السلام ، والنووي ، وابن المنير ، وابن دقيق العيد ، ونجم الدين بن الرفعة ، والكمال بن الزملكاني ، وابن تيمية ، وتقي الدين السبكي ، وجمال الدين الأسنوي ، وشمس الدين محمد بن يوسف القونوي ، وسراج الدين البلقيني ، ومجد الدين الشيرازي .

ثم أضاف الشيخ القرضاوي إلى السابقين أئمة مجتهدين منهم : أبو جعفر الطحاوي، والكمال بن الهمام ، ومحمد بن حزم ، وشهاب الدين القرافي ، والشاطبي، وابن قيم الجوزية ، والسيوطي ، والدهلوي ، والصنعاني ، والشوكاني (١).

هذا وقد وقف الشيخ القرضاوي في تعداد المجتهدين عند الإمام الشوكاني، المتوفى عام ١٢٥٠ هـ ، ولم يذكر أحداً بعده ، ولست أدري لماذا وقف الشيخ عند هذا الحد ، فهل خلا القرنين الماضيين من المجتهدين أم ماذا ؟

والحق أن هذه الفترة لم تخل من أهل الاجتهاد وذوي التجديد ، بل كانت فترة عامرة بالأئمة المجتهدين والمجددين ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن هل وصل الشيخ القرضاوي إلى مرتبة الاجتهاد ؟

إن كثيراً من دعاة الصحوة ورجالاتها يعدون الشيخ فقيهاً مؤثراً ، حتى عداة الشيخ ومخالفيه يقرون له بذلك ، ومن أقوال مشاهير الدعاة التي تشهد له بالملكة الفقهية ، والتجديد في الفكر ، والاجتهاد في الفقه ما قاله الغزالي : القرضاوي من أئمة العصر .

وهذا ما يؤكده الدكتور علي القرة داغي من خلال دراسته لكتاب فقه الزكاة ، ومن خلال هذه الدراسة يؤكد القرة داغي وصول الشيخ القرضاوي إلى

---

(١) انظر : كيف نتعامل مع التراث ص ١١٠ وما بعدها .

منزلة الاجتهاد قائلاً: من خلال دراستي لكتاب فقه الزكاة ، وكتب الشيخ الأخرى نستطيع القول بأن الشيخ قد وصل إلى مرتبة الاجتهاد ولا سيما الاجتهاد الجزئي[1] .

ويقول : وعلى ضوء ذلك فباب الاجتهاد مفتوح بهذا المعنى لأهله المتصفين بشروطه وأحسب الشيخ القرضاوي منهم[2] .

اجتهادات القرضاوي :

وإذا أقررنا بأن الشيخ القرضاوي فقيه مجتهد ، فإننا نؤكد بأن اجتهادات الشيخ كانت على نوعين :

١ - اجتهاد ترجيحي انتقائي .

٢ - اجتهاد إبداعي إنشائي .

(١) الاجتهاد الترجيحي الانتقائي عند القرضاوي :

هذا النوع من الاجتهاد ليس لمسائل جدَّت ، أو أقضيات استُحْدِثَت ، ولكنه اجتهاد في مسائل قديمة متجددة ، تعددت فيها الأقوال ، وتباينت فيها الآراء ، وجدت فيها ظروف وأحوال ، وأزمان وأعراف ، وأماكن وأشخاص ، وهذا النوع من الاجتهاد يقول عنه الشيخ القرضاوي : هو اختيار أرجح الأقوال من تراثنا الفقهي العظيم مما نراه أقرب إلى تحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق ، وأليق بظروف العصر[3].

ويقول حفظه الله موضحاً هذا النوع من الاجتهاد : إنما الذي ندعو إليه أن نوازن بين الأقوال بعضها وبعض ، ونراجع ما استندت إليه من أدلة نصية أو اجتهادية ، لنختار في النهاية ما نراه :

١ - أقوى حجة   ٢ - وأرجح دليلاً .

وفق معايير الترجيح وهي كثير ومنها أن يكون القول :

١ - أليق بأهل زماننا .   ٢ - أرفق بالناس .

---

(١) انظر : فقه القرضاوي في الزكاة د:علي القرة داغي ص ٣٩ .

(٢) انظر : المرجع السابق د: علي القرة داغي ص ٤١ .

(٣) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٤٩ .

٣ - أقرب إلى يسر الشريعة .

٤ - أولى بتحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق ودرء المفاسد[١] .

ويؤكد الشيخ ضرورة هذا الاجتهاد قائلاً : ولا بد للفقيه أن يختار من هذه الآراء المذكورة رأياً يرجحه ولا يدع الناس في حيرة بين الرأي وضده[٢] .

والشيخ حين يرى ضرورة هذا النوع من الاجتهاد - الانتقائي الترجيحي - فإنه لا يقصر أمر الترجيح والانتقاء على المذاهب الأربعة ، يقول الشيخ : وفي دائرة الانتقاء يجوز لنا الخروج على المذاهب الأربعة ، لاختيار رأي قال به أحد فقهاء الصحابة أو التابعين ، أو من بعدهم من أئمة السلف .

ومن الخطأ الظن بأن رأي أمثال عمر وعلي وعائشة وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت ومعاذ وغيرهم من علماء الصحابة ، أو رأي مثل ابن المسيب والفقهاء السبعة وابن جبير ، وطاوس وعطاء والحسن وابن سيرين والزهري والنخعي أو مثل الليث بن سعد والأوزاعي والثوري والطبري وغيرهم دون رأي الأئمة المتبوعين[٣] .

الأسباب المؤثرة في الاجتهاد الترجيحي الانتقائي عند القرضاوي :

وقد وضع الشيخ القرضاوي عدة أسباب تؤثر في الاختيار والانتقاء والترجيح ينبغي أن تراعى في هذا النوع من الاجتهاد وهي :

١ - التغيرات الاجتماعية والسياسية والمحلية .

٢ - معارف العصر وعلومه .

٣ - ضرورات العصر وحاجاته[٤] .

مثال من اجتهادات الشيخ الترجيحية :

ومن اجتهادات الشيخ الترجيحية نسوق هذه الفتوى « بنوك اللبن » :

السـؤال : الطفل الوليد الخديج الذي ولد قبل أوانه .. قد يدعو الأمر

(١، ٢) انظر : الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ١٤٣ بتصرف ، والاجتهاد المعاصر ص٢٠٤ بتصرف .

(٣، ٤) انظر : الاجتهاد المعاصر ص ٢٣ وما بعدها .

لعزله تمامًا في حاضنة صناعية لفترة قد تطول حتى يفيض حليب أمه من ثديها.

ثم يتقدم رويداً لدرجة لم تزل حرجة ولكن تسمح له بتلقي الحليب، ومعروف أن أنسب الحليب وأرفقه به هو الحليب البشرى ..

وقد درجت بعض المؤسسات على أن تستوعب الوالدات المرضعات بعضًا من حليبهن .. «تسخو كل بما تشاء، ويجمع ذلك ويعقم، ثم يكون في خدمة هؤلاء المواليد المبتسرين في هذا الدور الحرج الذي قد تضرهم فيه أنواع الحليب الأخرى».

فالذي يحدث أنه يستعمل خليط من حليب عشرات الأمهات بل مئاتهن .. وعليه يتغذى غير مواليدهن عشرات بل مئات من المواليد الخدج ذكرانًا وإناثًا .. على غير معرفة في الحال والاستقبال . ولكن يتم ذلك دون لقاء مباشر أي دون مص الثدي.

فهل هذه أخوة شرعية من الرضاع ؟ وهل يحرم حليب البنوك رغم مساهمته في إحياء النفوس؟

فإن كان مباحًا حلالاً فما مسوغات الإباحة؟ تُرى هل هي عدم مص الثدي؟ أم عدم إمكان التعرف على أخوات الرضاع؛ وهن في مجتمع بذاته يمثلن القلة بين الكثرة ؟

القلة التي تذوب ولا يمكن تتبعها أو الاستدلال عليها ؟

وقد استفاض الشيخ فى الإجابة عن هذا السؤال ثم قال:

والخلاصة: أننا لا نجد هنا ما يمنع من إقامة هذا النوع من «بنوك الحليب»، ما دام يحقق مصلحة شرعية معتبرة، ويدفع حاجة يجب دفعها. آخذين بقول من ذكرنا من الفقهاء، مؤيداً بما ذكرنا من أدلة وترجيحات.

وقد يقول بعض الناس: ولماذا لا نأخذ بالأحوط، ونخرج عن الخلاف، والآخذ بالأحوط هو الأورع والأبعد عن الشبهات.

وأقول: عندما يعمل المرء في خاصة نفسه، فلا بأس أن يأخذ بالأحوط والأورع، بل قد يرتقي فيدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس.

ولكن عندما يتعلق الأمر بالعموم، وبمصلحة اجتماعية معتبرة، فالأولى بأهل الفتوى أن ييسروا ولا يعسروا، دون تجاوز للنصوص المحكمة، أو القواعد الثابتة.

ولهذا جعل الفقهاء من موجبات التخفيف: عموم البلوى بالشيء مراعاة لحال الناس ورفقًا بهم، هذا بالإضافة إلى أن عصرنا الحاضر خاصة أحوج ما يكون إلى التيسير والرفق بأهله[1].

(٢) الاجتهاد الإنشائي عند القرضاوي :

وأما الاجتهاد الإنشائي فهو: إنشاء حكم لمسائل جديدة جدت، وأقضيات استحدثت، ووقائع لم تكن من قبل، أو هو كما يقول الشيخ: استنباط حكم جديد في مسألة من المسائل لم يقل بها أحد من السابقين، سواء كانت المسألة قديمة أو جديدة[2].

مثال من اجتهاد الشيخ الإنشائي برأي جديد في مسألة قديمة :

زكاة الأرض المستأجرة : ذكر الشيخ آراء الفقهاء في المسألة وحصرها في قولين:

الأول : وهو قول أبي حنيفة وروي عن إبراهيم النخعي : وفيه وجوب العشر على المالك لأن العشر حق الأرض لا حق الزرع .

الثاني: وهو قول الجمهور: وفيه وجوب العشر على المستأجر ، لأن العشر حق الزرع لا حق الأرض .

وبعد مراجعة للأدلة وتمحيص للآراء ، ونظر في القولين أنشأ الشيخ رأياً ثالثاً لم يسبق إليه ؛ وهو اشتراك الطرفين في الزكاة ، فيزكي المستأجر الزرع والثمر الذي يحصل عليه من الأرض، شريطة أن يبلغ النصاب وبعد خصم أجرة الأرض، ويزكي المالك ما قبض من الأجرة شريطة أن يبلغ النصاب أيضاً .

وبهذه المساهمة العادلة من المالك والمستأجر نكون قد أخذنا بأحسن ما قال أبو حنيفة، وأحسن ما قال الجمهور ، وأوجبنا على كل من الطرفين - المالك والزارع - ما هو أحق به وما هو مالك له ، مع تفادي ازدواج الزكاة الواجبة ،

---

(١) انظر: فتاوى معاصرة ج٢ص ٥٥٠ - ٥٥٦.
(٢) انظر: الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ١٥٦ ، وانظر: الاجتهاد المعاصر ص ٣٢، ٣٣.

وتكررها في مال واحد ، فإن القدر الذي زكى عنه المالك قد طرح ما يعادله من نصيب المستأجر[1].

مثال من اجتهاد الشيخ الإنشائي في مسألة جديدة :

من هذا النوع الاجتهادي الإنشائي ما أفتى به الشيخ في ما يسمى بزرع الأعضاء وهو سؤال مركب من عدة أسئلة وهذا نص السؤال .

السـؤال : هل يجوز للمسلم أن يتبرع بعضو أو جزء من بدنه لغيره في حياته لزرعه في بدن شخص آخر؟

وإذا كان الجواب بالإيجاب، فهل هو جواز مطلق أو هو مقيد بشروط؟ وما هي تلك الشروط؟

وإذا جاز التبرع فلمن يتبرع؟ القريب فقط؟ أم للمسلم فحسب؟ أم لأي إنسان؟

وإذا جاز التبرع فهل يجوز البيع؟

وهل يجوز التبرع بعضو بعد الموت؟ أو يتنافى ذلك مع حرمة الميت؟

وهل ذلك من حق الإنسان وحده؟ أو يحق لأهله التبرع بعضو من بدنه؟

وهل يجوز للدولة أن تأخذ بعض الأعضاء من المصابين في الحوادث مثلا لإنقاذ غيرهم؟

وهل يجوز زرع جزء من غير مسلم في جسد إنسان مسلم؟

وهل يجوز زرع عضو أو جزء من حيوان ولو كان محكومًا بنجاسته كالخنزير مثلا في جسم شخص مسلم؟

تساؤلات جمة أصبحت تفرض نفسها على الفقه الإسلامي ورجاله ومجامعه في الوقت الحاضر.

ولابد من الإجابة بالإجازة بإطلاق أو المنع بإطلاق، أو التفصيل .

فلنحاول الإجابة وبالله التوفيق، وقد أطال الشيخ النفس فى إجابة هذه الفتوى[2].

---

(١) انظر : فقه الزكاة ج١ ص ٤٢٩ ، ٤٣١ ، والاجتهاد المعاصر ص ٣٣ .

(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج ٢ ص ٥٣٠ - ٥٤٠ .

المبحث الثاني عشر
الواقعية

قالوا قديماً : من سعادة جدك وقوفك عند حدك ؛ وهذه هي الواقعية بعينها، وهذه اللفظة بهذا المبنى من الألفاظ المحدثة ، وقد شاع في الآونة الأخيرة مذهب في الفلسفة يحمل هذا الاسم ، يعتمد فيه أصحابه على الأشياء المادية ، منكرين كل ما لم يقع عليه الحس .

واقعية الإسلام :

بيد أن هذه اللفظة استخدمت كذلك في مصطلح الإسلاميين ، لأنها في حد ذاتها تمثل خصيصة من أهم خصائص الإسلام ، ويقصد بها كما يقول القرضاوي : مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعية ، ووجود مشاهد ، ولكنه يدل على حقيقة أكبر منه ، ووجود أسبق وأبقى من وجوده هو ، وهو وجود الواجب لذاته ، وهو وجود الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً [١] .

هذه الواقعية هي الواقعية الوسط التي سلمت من إفراط غلاة المثاليين ، ومن تفريط غلاة الواقعيين[٢] .

والحق أن القرضاوي حين كتب عن الواقعية ، ومارس حياته الدعوية بواقعية، إنما كان يقتبس من واقعية الإسلام .

واقعية الإسلام في عقيدته التي تؤمن بإله واحد ، ورسول خاتم ، وكتاب مصون ، ويوم موعود يحكم فيه إله عادل ، فيجازي المحسن بإحسانه جنة ونعيماً، والمسيىء بإساءته ناراً وجحيماً [٣] .

(١ ، ٢) انظر : الخصائص العامة للإسلام ص ١٤٤ ، ١٤٥ .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٤٨ - ١٥٠ بتصرف .

كما أنه – أي الإسلام – واقعي في عبادته التي تروي ظمأ الإنسان الروحي وتشبع نهمه ، بدون تكلف أو عنت ، لأن هذه العبادات راعت :

١ – واقع الحياة وظروفها الأسرية والاجتماعية والاقتصادية .

٢ – الملل الذي يطرأ على الإنسان فتنوعت العبادات وتلونت .

٣ – الظروف الطارئة كالسفر والمرض فشرعت الرخص والتخفيفات(١) .

كما أنها واقعية في الأخلاق حيث اعترفت :

١ – بالضعف البشري .

٢ – بالدوافع البشرية .

٣ – بالحاجات البشرية المادية والنفسية .

ولذلك رفضت واقعية الإسلام إدارة الخد الأيسر بعد ضرب الخد الأيمن كما قالت النصرانية ؛ وإنما جاء في القرآن ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] ، وهذا هو الموافق للفطرة والواقعية ، وقد عبر عنه الشاعر بقوله :

لئن كنت محتاجاً إلى الحلم إنني ... إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ... ولي فرس للجهل بالجهل مسرج

فمن رام تقويمي فإنني مقوم ... ومن رام تعويجي فإن معوج

وما كنت أرضى بالجهل خدنا وصاحباً ... ولكنني أوصي به حين أحرج(٢)

كما أنها واقعية في الشريعة حيث إنها :

١ – لم تحرم شيئاً يحتاج إليه الإنسان في واقع حياته .

٢ – أنها قدرت الضرورات التي تعرض للإنسان .

٣ – أنها راعت قوة الدوافع الجنسية فشرعت إشباع الدافع الجنسي بطريقة نظيفة وذلك بشرعية الزواج ، ومن ثم شرعت تعدد الزوجات .

٤ – أنها أباحت الطلاق عند تعذر الوفاق بين الزوجين (٣).

(١ ، ٢) انظر : المرجع السابق ص ١٥٠-١٥٣ بتصرف .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٥٦-١٦٢ بتصرف .

والحق أن الواقعية يكون معناها : تقديم ما حقه التقديم ، وتأخير ما حقه التأخير، وإظهار ما حقه الظهور ، وإخفاء ما حقه الخفاء ، إنها شغل الناس بما يعود عليهم بالنفع، ويدرء عنهم الضر ، إنها الانشغال بالواقع الحاصل بعيداً عن المفترض المستحيل، إنها الوقوف على أرض الواقع بعيداً عن الوهم والخيال .

إنها كما يقول القرضاوي : أن نوازن بين طموحاتنا وإمكاناتنا ، بين ما نصبوا إليه وما نقدر عليه ، فلا نورط أنفسنا في أمور لم نعد لها العدة ولم نهيئ لها الوسائل اللازمة[١].

أدلة الواقعية من الكتاب والسنة :

والمتامل لآيات القرآن وأحاديث المصطفى ﷺ يرى أن كليهما قد أخذ بيد المسلمين وقت التنزيل ليعيشوا بالواقعية بعيداً عن الخيال، والانشغال بما لا فائدة منه؛ ومن ذلك :

١ ـ قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ﴾ ذكر الإمام القرطبي في سبب نزولها : قال معاذ : يا رسول الله إن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلة، فما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يستوي ويستدير ثم ينتقص حتى يعود كما كان ؟ فانزل الله هذه الآية .

وقيل إن سبب نزولها سؤال قوم من المسلمين النبي ﷺ عن الهلال وما سبب محاقه، وكماله، ومخالفته لحال الشمس. قاله ابن عباس وقتادة والربيع وغيرهم[٢] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١] . جاء في سبب نزولها: عن أنس بن مالك قال : بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيئاً فخطب فقال : عرضت علي الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. قال : فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه . قال : غطوا رؤوسهم ولهم خنين . قال : فقام عمر فقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً.

---

(١) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٩١ .

(٢) انظر : أحكام القرآن القرطبي ج ٢ ص٣٤١ .

قال: فقام ذاك الرجل فقال: من أبي؟ قال: «أبوك فلان» فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ ﴾ [المائدة: ١٠١][(١)].

٣ - قوله ﷺ لسراقة بن مالك بن جعشم حين قال: يا رسول الله أرأيت عمرتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد؟ فقال ﷺ: «لا بل للأبد». فقال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأنما خلقنا الآن أرأيت العمل الذي نعمل به؛ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم مما نستقبل؟ فقال ﷺ: «لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير. فقال رسول الله ﷺ: اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[(٢)].

٤ - قوله ﷺ للسائل عن الساعة «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[(٣)].

٥ - حديث ابن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فسار ليلاً فمروا على رجل جالس عند مقراة له. فقال له عمر: يا صاحب المقراة أولغت السباع الليلة في مقراتك؟ فقال له النبي ﷺ: «يا صاحب المقراة لا تخبره، هذا متكلف، لها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب طهور»[(٤)].

٦ - حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الناس يسألونكم عن العلم حتى يقولوا: هذا الله خلقنا فمن خلق الله؟ قال: وهو آخذ بيد رجل فقال: صدق الله ورسوله قد سألني اثنان وهذا الثالث، أو قال: سألني واحد وهذا الثاني»[(٥)].

ويعلق الشيخ القرضاوي على الأسئلة التي سجلها القرآن للمسلمين قائلاً: وسائر الأسئلة التي سجلها القرآن للمسلمين في عصر النبوة كانت أسئلة واقعية تتصل بصميم حياتهم، لا بأخيلة وافتراضات وأغلوطات يدفع إليها حب التسلية وتزجية الفراغ، أو التعالم الأجوف، أو التعنت وتعجيز الغير، أو نحو ذلك من البواعث الرخيصة التي لا وزن لها في دين ولا أخلاق[(٦)].

---

(١) متفق عليه. رواه البخاري في الفتن برقم (٧٠٨٩) ومسلم في الفضائل برقم (٢٣٥٩) عن أنس.
(٢) رواه مسلم في القدر (٧٠٨٩) عن سراقة بن مالك
(٣) رواه مسلم في الإيمان رقم (١٠) عن عمر.
(٤) رواه الدارقطني في السنن (٢٦١)، وضعفه الألباني في تمام المنة رقم (٤٨).
(٥) رواه مسلم في الإيمان (١٣٥) عن أبي هريرة.
(٦) انظر: الفتوى بين الانضباط والتسيب ص ٤٦.

الواقعية عند الصحابة و التابعين :

والواقعية التي اعتنى بها الشيخ القرضاوي وظهرت سمة من سمات منهجه؛ هي هي الواقعية التي تعامل بها الصحابة المكرمون والتابعون الربانيون مع الناس فيما سألوا عنه لمجرد السؤال لا للعلم ، وللتعنت لا للتفقه ، ومن هذه المواقف :

١ ـ عن أنس بن مالك ﷺ : أن عمر بن الخطاب ﷺ قرأ على المنبر: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ﴾ [عبس: ٣١]. فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : لعمرك إن هذا لهو التكلف يا عمر[١].

٢ ـ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب : أن عمر بن الخطاب ﷺ خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص ﷺ حتى وردوا حوضاً فقال عمرو بن العاص ﷺ : يا صاحب الحوض هل ترد حوضك السباع ؟ فقال عمر ﷺ : يا صاحب الحوض لا تخبرنا فإنا نرد وترد علينا[٢].

٣ ـ لما قدم صبيغ بن عسل المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فبلغ ذلك عمر ﷺ ، فبعث إليه فأحضره ؛ وقد أعد له عراجين من عراجين النخل ، فلما حضر قال له عمر ﷺ : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ . فقال عمر ﷺ : وأنا عبد الله عمر ، ثم قام إليه فضرب رأسه بعرجون فشجه ، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه . فقال : حسبك يا أمير المؤمنين ، فقد والله ذهب ما كنت أجد في رأسي[٣].

٤ ـ سأل ابن الكواء علي بن أبي طالب عن ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالْحَامِلاتِ وِقْراً ﴾ [الذاريات: ١، ٢] . فقال علي : ويلك سل تفقهاً ولا تسل تعنتاً[٤].

ويؤكد هذا الإمام ابن رجب فيقول رحمه الله في كتابه « جامع العلوم والحكم » : ولهذا المعنى كان كثير من الصحابة والتابعين يكرهون السؤال عن الحوادث قبل وقوعها ، ولا يجيبون عن ذلك ، قال عمرو بن مرة : خرج عمر

---

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه (١٨١١) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٣٦٦) ، وانظر : تفسير ابن كثير (٤٧٤٤) .

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢٣١) وقال الألباني في مشكاة المصابيح إسناده صحيح رقم (٤٦٥) .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن القرطبي ج٤ ص ١٤ .

(٤) انظر : المرجع السابق القرطبي ج١٧ ص ٢٩ .

على الناس فقال : أُحرِّج عليكم أن تسألونا عما لم يكن ، فإن لنا فيما كان شغلاً[١] .

وعن ابن عمر قال : لا تسألوا عما لم يكن ، فإني سمعت عمر لعن السائل عما لم يكن[٢] .

وكان زيد بن ثابت إذا سئل عن الشيء يقول : كان هذا ؟ فإن قالوا : لا ، قال : دعوه حتى يكون[٣] .

وقال مسروق : سألت أبيّ بن كعب عن شيء ، فقال : أكان بعد ؟ فقلت : لا ، فقال : أجمنا - يعني : أرحنا - حتى يكون ، فإذا كان اجتهدنا لك رأينا[٤] .

وقال الشعبي : سئل عمار عن مسألة فقال : هل كان هذا بعد ؟ قالوا : لا ، قال : فدعونا حتى يكون ، فإذا كان تجشمناه لكم[٥] .

وعن الصلت بن راشد ، قال : سألت طاووساً عن شيء ، فانتهرني وقال : أكان هذا؟ قلت : نعم ، قال : آلله ؟ قلت : آلله . قال : إن أصحابنا أخبرونا عن معاذ بن جبل أنه قال : أيها الناس ، لا تعجلوا بالبلاء قبل نزوله ، لم ينفك المسلمون أن يكون فيهم من إذا سئل سدد، أو قال وفق[٦]، [٧] .

الواقعية عند الفقهاء المجددين والعلماء الربانيين :

١ - حين سئل عمر بن عبد العزيز عن قتال الصحابة قال : تلك دماء طهر الله يدي منها، فلا أحب أن أخضب بها لساني[٨]

٢ - وقال المحاسبي : فأما الدماء فقد أشكل علينا القول فيها باختلافهم ؛

---

(١) رواه الدارمي (١/ ٥٠) ورواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله» (٢ / ١٤١) .

(٢) رواه ابن عبد البر (٢/ ١٣٩ ، ١٤٢) .

(٣) رواه الدارمي (١/ ٥٠) وابن عبد البر (٢/ ١٤٢) .

(٤) رواه الدارمي (١/ ٥٦) وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٤٢) .

(٥) رواه الدارمي (١/ ٥٠) وذكره ابن حجر في «المطالب العالية» (٣/ ١٠٦) .

(٦) رواه الدارمي (١/ ٥٦) والآجري في « أخلاق العلماء » ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٧) انظر جامع العلوم والحكم ابن رجب ج ١ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ طبعة مؤسسة الرسالة الرابعة ١٩٩٣ م .

(٨) انظر : حلية الأولياء أبونعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ج ٩ ص ١١٤ دار الكتاب العربي بيروت ط الرابعة ١٤٠٥ هـ .

وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال : شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا ، قال المحاسبي : فنحن نقول كما قال الحسن ، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عند ما اختلفوا فيه ، ولا نبتدع رأياً منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل[1] .

٣ ـ سأل رجل أحمد بن حنبل عما جرى بين علي ومعاوية فأعرض عنه ، فقيل له : يا أبا عبد الله هو رجل من بني هاشم . فأقبل عليه فقال : اقرأ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٢٤][2].

٤ ـ وهذا ما جعل الإمام الشاطبي يعدد أنواعاً عشرة يذم فيها السؤال وهي :

أحدها : السؤال عما لا ينفع في الدين : كسؤال عبد الله بن حذافة : من أبي ؟[3] .

والثاني : أن يسأل بعد ما بلغ من العلم حاجته : كما سأل الرجل عن الحج أكل عام؟ مع أن قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ [آل عمران : ٩٧] . قاض بظاهره أنه للأبد .

والثالث : السؤال من غير احتياج إليه في الوقت : وكان هذا والله أعلم خاص بما لم ينزل فيه حكم وعليه يدل قوله ﷺ : « ذروني ما تركتكم »[4] .

والرابع : أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها : كما جاء في النهي عن الأغلوطات[5] .

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن القرطبي ج١٦ ص ٣٢٢ .

(٢) انظر : تاريخ بغداد أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي ج ٦ ص ٤٤ دار الكتب العلمية بيروت بدون .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) رواه مسلم في الحج برقم (١٣٣٧) عن أبي هريرة .

(٥) قال الأوزاعي : هي شداد المسائل .

والخامس : أن يسأل عن علة الحكم وهو من قبيل التعبدات التي لا يعقل لها معنى .

والسادس : أن يبلغ بالسؤال إلى حد التكلف والتعمق : ولما سأل الرجل يا صاحب الحوض هل ترد حوضك السباع ؟ قال عمر بن الخطاب : يا صاحب الحوض لا تخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا[1] .

والسابع : أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي : ولذلك قيل لمالك بن أنس : الرجل يكون عالما بالسنة أيجادل عنها ؟ قال : لا . ولكن يخبر بالسنة فإن قبلت منه وإلا سكت .

والثامن : السؤال عن المتشابهات : ومن ذلك سؤال من سأل مالكاً عن الاستواء . فقال : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والسؤال عنه بدعة .

والتاسع : السؤال عما شجر بين السلف الصالح : وقد سئل عمر بن عبد العزيز عن قتال أهل صفين فقال : تلك دماء كف الله عنها يدي ، فلا أحب أن يطلخ بها لساني .

والعاشر : سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام : وفي القرآن ذم نحو هذا ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ** ﴾ [البقرة: ٢٠٤] . [2]

٥ - وهذا ما جعل الإمام القرافي يهمس في أذن الدعاة والمفتين قائلاً : ينبغي للمفتي إذا جاءته فتيا في شأن رسول الله ﷺ ، أو فيما يتعلق بالربوبية ، يُسأل فيها عن أمور لا تصلح لذلك لكونه من العوام الجلف ، أو يسأل عن المعضلات ، ودقائق الديانات ، ومتشابه الآيات ، والأمور التي لا يخوض فيها إلا كبار العلماء ، ويعلم أن الباعث له على ذلك إنما هو الفراغ ، والفضول ، والتصدي لما لا يصلح له ، فلا يجيبه أصلاً . ويظهر له الإنكار على مثل هذا ، ويقول له : اشتغل بما يعنيك من السؤال عن صلاتك وأمور معاملاتك ، ولا تخض فيما عساه يهلكك ، لعدم استعدادك له .

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢٣١) ، وقال الألباني في مشكاة المصابيح إسناده صحيح رقم (٤٦٥) .
(٢) انظر : الموافقات ج٤ ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

وإن كان الباعث له شبهة عرضت له : فينبغي أن يقبل عليه ، ويتلطف به في إزالتها عنه بما يصل إليه عقله . فهداية الخلق فرض على من سئل .

والأحسن أن يكون البيان له باللفظ دون الكتابة ، فإن اللسان يفهم ما لا يُفهم القلم ، لأنه حي ، والقلم موات . فإن الخلق عباد الله ، وأقربهم إليه أنفعهم لعباده ، ولا سيما في أمر الدين وما يرجع إلى العقائد[1] .

٦ ـ ذكر القاضي عياض في (ترتيب المدارك) أن رجلاً من العراق سأل الإمام مالكاً ﷺ عن رجل وطئ دجاجة ميتة ، فخرجت منها بيضة فافقست البيضة عنده عن فرخ : أيأكله ؟ .. فقال مالك : سل عما يكون لا ما لا يكون !

وسأل آخر نحو هذا ، فلم يجبه ، فقال له : لم لا تجيبني يا أبا عبد الله ؟ فقال له : لو سألت عما تنتفع به أجبتك !!!

وقال ابن وهب : قال لي مالك وهو ينكر كثرة الجواب للمسائل : يا عبد الله ، ما علمته فقل به ودل عليه ، و ما لم تعلم فاسكت عنه ، وإياك أن تتقلد للناس قلادة سوء .

وقال الأوزاعي : إذا أراد الله أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه الأغاليط .

وعن الحسن قال : إن شرار عباد الله الذين يجيئون بشرار المسائل يعنتون بها عباد الله .

وقال الشعبي : والله لقد بغض هؤلاء القوم إلي المسجد حتى لهو أبغض إلي من كناسة داري ! قلت : من هم يا أبا عمر ؟ قال الأرأيتيون ! قال : ما كلمة أبغض إلي من « أرأيت » . وقد قال أيضاً لداود ألا تحفظ عني ثلاثاً : إذا سئلت عن مسألة فأجبت فيها فلا تتبع مسألتك أرأيت ، فإن الله قال في كتابه ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الفرقان : ٤٣] . حتى فرغ من الآية .

---

(١) نقلاً عن فتاوى معاصرة ج١ ص ١٨ ، ١٩ .

والثانية : إذا سئلت عن مسألة فلا تقس شيئاً بشيء ، فربما حرمت حلالاً أو حللت حراماً. والثالثة : إذا سئلت عما لا تعلم فقل : لا أعلم ، وأنا شريكك.

وقال يحيى بن أيوب : بلغني أن أهل العلم كانوا يقولون : إذا أراد الله أن لا يعلم عبده شغله بالأغاليط[1] .

٧ – وهذا ما جعل الإمام البنا يقول في أصوله العشرين : وكل مسألة لا ينبني عليها عمل ، فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعاً ، ومن ذلك : كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع ، والخوض في معاني الآيات القرآنية التي لم يصل إليها العلم بعد ، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف ، ولكل منهم صحبته، وجزاء نيته ، وفي التأول مندوحة[2].

الواقعية عند القرضاوي :

تأصلت الواقعية في دعوة الشيخ القرضاوي وبدا ذلك في كتاباته وفتاويه ، وحين حدد الشيخ صفات « جيل النصر المنشود » عد من أهم هذه الصفات : الإيمان بالواقعية والعلمية ، وفي هذا يقول: جيل يتجاوز العشوائية ، ويكفر بالغوغائية ، ويحتكم إلى الحقائق لا إلى الأوهام ، ولا ينسى وهو يتطلع إلى السماء أنه واقف على الأرض ، فلا يجري وراء خيال كاذب أو حلم فارغ ، أو أماني موهومة ، فيسبح في غير ماء ، ويطير بغير جناح !

جيل كبير الآمال ، لكنه واقعي التفكير ، يرنو إلى شاطئ الأحلام ، ولكنه يتوقع هياج البحر ، وغضب الموج ، ومفاجآت الأعاصير ، يعلم أن الدهر قلب ، وأن الدنيا دول، وأن الأيام سجال ، وأن دوام الحال من المحال : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠].

---

(١) انظر : كيف نتعامل مع التراث ص ٢٨٦ .
(٢) انظر : مجموع الرسائل الإمام البنا ص ٣٥٧ .

جيل واقعي لا يسبح في البر ، ولا يحرث في البحر ، ولا يبذر في الصخر ، ولا ينسج خيوطاً من الخيال ، ولا يبني قصوراً على الرمال !

ولا ييأس من روح الله ، ولا يقنط من رحمة ربه ، ولكنه يعرف حدود قدرته ، ودائرة إمكاناته ، فلا يبتغي الثمرة قبل أوانها ، ولا يستعجل الأشياء قبل إبانها ، ولا يورط نفسه فيما لا يستطيع ، ولا يدخل نفسه في مأزق لا يعرف الخروج منه ، متمثلاً قول الشاعر:

وأحزم الناس من لو مات من ظمأ لا يقرب الوِرْدَ حتى يعرف الصدرا !

جيل يراعي قوانين الله في كونه كما يراعي أحكامه في شرعه ، يتبنى سياسة النفس الطويل ، والصبر الجميل ، فهو يصبر على البذرة حتى تنبت ، وعلى النبتة حتى تورق ، وعلى الورقة حتى تزهر ، وعلى الزهرة حتى تثمر ، وعلى الثمرة حتى تنضج ، وتؤتي أكلها بإذن ربها ![1]

وقد كان الشيخ واقعياً كل الواقعية وهو يؤكد على ضرورة تبصير دعاة الحركة الإسلامية الشعوب والجماهير بالحقائق دون السباحة بهم في بحور التخدير والأحلام ؛ يقول الشيخ : وإيماننا بالشعوب وقوة الجماهير لا يعني أن نضللها عن الحقائق المرّة، وأن نخدّرها بالأماني الفارغة .

إن على دعاة الحركة ومفكريها أن يصارحوا الأمة بأمراضها، ولا يكتموها عنها، كما يفعل الناس في مجتمعاتنا مع ذوي الأمراض الخطرة، وأن يبصروا الشعوب بالحقائق وإن كانت مرّة، لا أن يخدروها بالأحلام الوردية، دون أن يسلكوا لتحقيقها أي سبيل[2].

ولهذا فقد كان الشيخ من أشد المنكرين لما شاع في الآونة الأخيرة من أمر العلاج بالقرآن ، أو بالأحرى بلبس الجن للإنسان ، وقد كان الشيخ في هذا الرأي موافقاً شيخه الغزالي ؛ ولكنهما خالفا شيخهما البنا في مثل هذه المسألة ،

---

(١) انظر : جيل النصر المنشود ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٥٢ .

والشيخ يرى - من وجهة نظره - أن ما يسمى بلبس الجن هو نوع من الهروب من الواقع وكيفية مقاومته ، لذا يقول: أما أن يدعي أحدهم أنه يعالج بالقرآن ويمسك واحداً فيضربه حتى يخرج منه الجن والشيطان ، فهذا ما أنزل الله به من سلطان ، ولم نر أحداً من الصحابة الأجلاء مثل: ابن عباس أو ابن مسعود فتح عيادات لذلك . فإن ابن عباس كان اسمه ترجمان القرآن . ولكننا ما عرفنا أن أحداً جاء له وقال : يا ابن عم رسول الله عالجني بالقرآن . ولو حدث ذلك ، لقال له : «أعيذك بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» أو قرأ عليه سورة الفلق أو الناس[1] .

ويقول في موضع آخر : صحيح أن الإسلام قد شرع لنا الأدوية الروحية ، مثل الاستعاذة بالله والرقى والدعاء ، فالإنسان يرقي نفسه أو يرقي مريضه كما كان ﷺ يرقي الأطفال الصغار مثل الحسن والحسين . فالرقى والتعاويذ والأذكار والأدعية مشروعة ، ولكن بجوار الأسباب المادية التي تكملها وتقويها الأسباب الروحية .

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض الأغذية فيها شفاء ودواء ، مثل عسل النحل ، بقوله تعالى : ﴿ **يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ** ﴾ [النحل :٦٩]. أما هؤلاء الذين فتحوا عيادات ، كما سمعنا في القاهرة مثلاً ، أن فلان الفلاني يعالج بالقرآن ويذهب المغفلون والذين يصدقون كل ما يقال ولا يمتحنون الأمور بعقولهم ، أرى هؤلاء يذهبون إليهم زرافات ووحدانا ، ويدفعون النقود للشيخ ، وبركة الشيخ الذي يزعم علاج هؤلاء بالقرآن ، أو بإخراج الجن من أجسادهم ، وأحياناً رأيت مناظر فظيعة ، مثل شخص يضرب ضرباً مبرحاً ، أو أشياء من هذا النوع ، وقد نشرت الصحف ووكالات الأنباء أن بعضهم مات من الضرب في يد واحد من هؤلاء، وقُدِّم

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات، ج٢ ص ٩٧ .

للمحاكمة ، كل هذا لا أعتبر أنه من الإسلام الصحيح في شيء، إنما يمكن إذا سحر الإنسان أو نحو ذلك أن نعالجه بالاستعاذة والأذكار والرقى(١) .

وحين خاطب الشيخ القرضاوي الحركة الإسلامية بما هو مطلوب منها في مجال التربية والتكوين طالب الشيخ الحركة بإعداد قادة على قدر العمل المنوط بهم ، وكان من أهم خصائص هؤلاء القادة أن يلتزموا بفكر إسلامي منشود أهم صفاته أنه فكر واقعي ، وحين يتحدث الشيخ عن هذا الفكر الواقعي دلل عليه بإباحة الإسلام للمقاتل أن يفر من الزحف إن كان « متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة » وبوجوب الرخصة بالانسحاب من المعركة إذا كان جيش العدو أكثر من ضعف جيش المسلمين ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ﴾ [الأنفال: ٦٦]

كما استدل الشيخ بعبقرية خالد حين فر بجيش مؤتة وهو (٣٠٠٠) في مقابل (١٥٠٠٠٠) ولما قال الصحابة لخالد وجيشه: يا فرار . قال النبي ﷺ : « بل هم الكرار إن شاء »(٢)،(٣).

ولا يقف الشيخ عند التدليل فحسب على مشروعية الواقعية، ولكنه يحذر من جر الناس عامهم وخاصهم إلى الأمور التي لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، وللتدليل على ما ذكرناه نسوق هذه الأمثلة :

١ ـ إعراض الشيخ في فتاويه عما لا ينفع الناس :

حين شرع الشيخ في التعرض للفتوى كان له منهج واضح وضع الشيخ معالمه في مقدمة فتاويه ، وكان من قواعد هذا المنهج : الإعراض عما لا ينفع الناس ، ولهذا يقول الشيخ: ومن القواعد التي التزمتها : ألا أشغل نفسي ولا جمهوري إلا بما ينفع الناس ويحتاجون إليه في واقع حياتهم .

أما الأسئلة التي يريد بها أصحابها المراء والجدل ، أو التعالم والتفاصح ،

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج ٣ ص ٥٩ ، ٦٠ .
(٢) انظر : الروض الأنف (٣٧٤١).
(٣) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٩١ .

أو امتحان المفتي وتعجيزه ، أو الخوض فيما لا يحسنونه ، أو إثارة الأحقاد والفتن بين الناس، أو نحو ذلك فكنت أضرب عنها صفحاً ، ولا ألقي لها بالاً ، لأنها تضر ولا تنفع ، وتهدم ولا تبني ، وتفرق ولا تجمع .

كان بعض الناس يبعثون بأسئلة تتضمن ألغازاً شرعية يريدون حلها من مثل: « نوى ولا صلى، وصلى ولا نوى » و « قوم كذبوا ودخلوا الجنة، وقوم صدقوا ودخلوا النار » وأشباه ذلك ، فكان ردي عليها الإلقاء في سلة المهملات، لأن الاشتغال بمثل هذه المسائل من عمل الفارغين .

ومثل ذلك الأسئلة التي تتعلق بالأمور الغيبية ، مما لا يجيء بتحديده نص معصوم. ومثل ذلك غوامض المسائل الدينية والعقائدية التي لا تحتملها الطاقة العقلية المعتادة لجمهور الناس ، ويخشى من الخوض فيها التشويش على الكثيرين .

فهذا أيضاً مما لا أعتني بالإجابة عنه إلا لإزالة لشبهة ، أو رداً لفرية ، أو تنبيهاً على قاعدة ، أو تصحيحاً لفهم . أو نحو ذلك .

ومن الأسئلة التي لم أكن أعبأ بها : ما يتعلق بالمفاضلة بين آل البيت والصحابة ﷺ وما شجر بينهم من خلاف .

ومثل ذلك : أيهما أفضل عند الله : أبو بكر أم عليّ ؟

أيهما أفضل : فاطمة الزهراء بنت رسول الله أم عائشة أم المؤمنين .

ومثل ذلك أيضاً : المفاضلة بين الأنبياء ، مثل إسماعيل وإسحق ، أو موسى وعيسى .

أسئلة لا يترتب على العلم بها ، قوة في دين ، ولا نهضة في دنيا ، ومن جهل الجواب عنها فلا إثم عليه ، ومن كون في كل منها رأياً فهيهات أن يتنازل عنه .

ومن الأسئلة التي أعرضت عنها : ما يتعلق بتفسير الرؤى والأحلام .

وقد أعلنت غير مرة : أن مهمتي بيان الأحكام ، لا تفسير الأحلام [1].

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ص ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

لذا فإن الشيخ يرى بأن الأسئلة التي لا تنفع الناس غير واقعية ، وأنها من نتائج التخلف الحضاري والفكري يقول الشيخ : ولما تخلف المسلمون ـ حضارياً وفكرياً ـ أكثروا من الأسئلة التي لا يصلح بها دين، ولا ترتقي بها دنيا ، ولا يزكو عليها فرد ، ولا تنهض بها جماعة ، وشغل عوام المسلمين بمسائل وتفصيلات لم تخطر ببال أحد من سلف الأمة .

وكان للمتأخرين من علمائهم المقلدين دور كبير في إذكاء هذه الروح ، ودعم هذا الاتجاه ، لأنهم ضيعوا اللباب ، وشغلوا بالقشور ، وشغلوا الناس معهم بها ، حتى أن تدريس الوضوء والطهارة ليستغرق دروس شهر كامل كشهر رمضان .

ولقد بقي من رواسب عصور الانحطاط بقية من الناس ، رأيت من أسئلتهم العجب العجاب ، وقرأت في رسائلهم إلى ما يثير الدهشة ، ويستفرغ الضحك ، وشر البلايا ما يضحك كما قيل .

ما لون كلب أهل الكهف ؟ وهل كان ذكراً أم أنثى ، وأين كانوا ومتى كانوا ؟ مع أن الله تعالى لم ينص على شيء من ذلك ، ولو علم فيه خيراً لنا لذكره .

ومن هذا اللون من الأسئلة ما يثيره بعض المتفقهين حول الأمور الغيبية : بأي لغة يتكلم الناس في القبر ؟ بالسريانية ؟ أم بالعربية ؟ أم بغير هذه وتلك؟[1] .

٢ ـ إعطاء الحركة الإسلامية نفسها قدراً أكبر من قدرها :

وهذا أمر أخذه الشيخ على الحركة الإسلامية ، حين تعجب بكثرة أتباعها، فتستجيب لعواطفها وتستعرض عضلاتها ، دون أن تحسب لعواقب الأمور قليلاً أو كثيراً ، ولهذا عاتب الشيخ الحركة الإسلامية قائلاً : ومن الخطأ الذي يمكن أن

---

(١) انظر : الفتوى بين الانضباط والتسيب ص ٤٦ ، ٤٧ .

تقع فيه الحركة الإسلامية : استجابتها لعواطف العامة في اتخاذ القرارات المصيرية والهامة .

ففي بعض البلاد قد يدفع الشارع المسلم بعض قادة الحركة إلى خوض المعركة السياسية بكل قوتهم وطاقتهم ، قبل أن تنضج قدرتهم الفكرية والسياسية والفنية لمثل هذه المرحلة [١].

٣ - البعد عن الانشغال بالمشكلات التاريخية :

كما حذر الشيخ من الانشغال بالمشكلات التاريخية التي أخذت حيزاً من الفكر الإسلامي في وقت من الأوقات ، لكن أصبح الوقت غير وقتها ، والزمان غير زمانها ، والقوم غير قومها ، والمكان غير مكانها ، فليس من الواقعية أن يزاح ما عليها من تراب، بل الواقعية أن يهال على مثل هذه الأشياء أكواماً عظيمة من التراب ، يقول الشيخ: نريد من الفكر الجديد أن يهيل التراب على المشكلات التاريخية التي شغلت الفكر الإسلامي في وقت من الأوقات ، وبددت طاقته في غير طائل ، مشكلة الذات والصفات ، هل الصفات عين الذات أم غيرها ؟ أو هي لا عين ولا غير ؟ مشكلة خلق القرآن - وما يترتب عليه من محنة لأئمة الإسلام ، والمبالغة في الكلام حول التأويل وعدمه بين السلف والخلف ، والطعن على الأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم على نهجهم من رجال الجماعات الدينية في العالم الإسلامي : الأزهر والزيتونة والقرويين وديوبند وغيرها .

كل هذا لا ينبغي أن يكون مشغلة الفكر الذي نعده للمرحلة القادمة ، ليواجه الصهيونية والصليبية والماركسية والفلسفات الهدامة القادمة من الغرب والشرق[٢] .

(١ ، ٢) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٩٢ ، ٩٣.

٤ ـ هل الجهاد في الإسلام هجومي أم دفاعي ؟

وهذا أمر آخر شغل الفكر الإسلامي مدة من الزمن ، حتى صار هناك فريقان؛ كل ينفر لرأيه وربما غمز أصحاب الرأي الآخر بالهزيمة النفسية ، أو الرضوخ للأمر الواقع إلى غير ذلك ، وواقعية منهج القرضاوي جعلته يدعو إلى وقف هذه المعركة الجدلية بين الفريقين وذلك لعدة أسباب :

الأول : أننا ـ نحن المسلمين ـ لم نقم بالجهاد المفروض علينا فرضاً عينياً في كثير من بلاد الإسلام لتحرير أرض المسلمين من الغاصبين ، والمعتدين مثل فلسطين واريتريا وأفغانستان . مما لا يجادل مسلم في وجوب استنقاذه من أيدي القوى المعادية للإسلام .

ولم تقم الأمة المسلمة بهذا الجهاد الدفاعي المفروض عليها ، فكيف تتحدث عن جهاد هجومي ؟؟

الثاني : أن المقصود من الجهاد الهجومي ـ عند من يقول به ـ هو : إزاحة القوى المتسلطة على خلق الله ، والتي تقف حاجزاً أمام المسلمين حتى لا يبلغوا كلمة الله إلى الناس.

واليوم لا تستطيع قوة أن تقف أمامنا إذا صدقت نيتنا ، واتجهت قدرتنا إلى تبليغ دعوتنا إلى العالم ، فالكلمة المسموعة ، والمقروءة والمرئية يمكن توصيلها إلى الدنيا كلها بكل اللغات .

ومع هذا نحن أكثر الناس تقصيراً في هذه الناحية إذا قيس جهدنا بجهود رجال التنصير .

الثالث : أننا عالة على غيرنا في القوة العسكرية ، وإن الذين نريد أن نجاهدهم جهاداً هجومياً هم الذين يصنعون السلاح بكل أنواعه ، ويبيعونه لنا ، ولولاهم لكنا عزلاً لا نقدر على شيء .

فما معنى أن نتحدث عن الهجوم لإخضاع العالم لرسالتنا ، ونحن لا نملك من السلاح إلا ما ملكوه لنا ، وسمحوا ببيعه إيانا ؟[1]

٥ ـ البعد عن الانشغال بالألغاز في المسائل الفقهية وغيرها :

هناك أناس مولعون بإثارة الألغاز شاغلين أنفسهم وغيرهم بها ، ومثل هذه الألغاز ينبغي الإعراض عنها إلا بقدرها وفي مكانها اللائق بها ولهذا اعترض .

وقد استنكر الشيخ على بعض العلماء انشغالهم بما لا فائدة منه فيقول : ومن الغريب : أني وجدت بعض العلماء الكبار من المتأخرين ـ وخصوصاً في علم الفقه ـ معنيين بهذه الألغاز ، حتى وجدت العلامة ابن نجيم المصري الحنفي (ت ٩٧٠ هـ) صاحب كتاب (البحر الرائق) وغيره ، فقد خصص قسماً من كتابه القيم (الأشباه والنظائر) على مذهب أبي حنيفة في (الألغاز) وجعله (الفن الرابع) في الكتاب .

ووضع ابن نجيم الألغاز في صورة أسئلة ، وأجاب عنها .

ومن ذلك : الاشتغال بإعراب القرآن كله ، كما فعل ذلك بعضهم ، إذ أعرب القرآن من أوله إلى آخره ، وقد نشرته (إدارة إحياء التراث الإسلامي) في دولة قطر في بضعة عشر مجلداً ![2]

* * *

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٩٤ ، ٩٥ بتصرف .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

المبحث الثالث عشر

الشمـــول

ذكرت فيما ذكرته آنفاً أن الشيخ القرضاوي إخواني المنشأ والمنبت ، وأن فكر جماعة «الإخوان المسلمون» نضح على الشيخ فتأثر به أيما تأثر ، وكـــان لكلمات الإمام الشهيد حسن البنا وقع بليغ في منهج القرضاوي الدعوي ، ومن هذا التأثر اهتمام الشيخ القرضاوي بشمولية الإسلام ، بعد أن حفظ من كلام شيخه أن : الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً ، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة، وقانون ، أو علم قضاء ، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبارة صحية سواء بسواء[1] .

وكان من أروع ما قاله الإمام الشهيد عن شمولية الإسلام : إنها الرسالة التي امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن . وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم . وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة[2] .

والحق أن البنا والقرضاوي وغيرهما من دعاة الشمولية لم يكونوا بدعاً من الأمر ، ولم يأتوا بجديد ، لكنهم أظهروا للناس أمراً كاد أن يندثر ، وحقائق كادت أن تخفى ، وثوابت كادت أن يغير عليها الأعداء فيبدلوهـا أو يهملوها أو يهمشوها . ويأبى الله ورسوله والمؤمنون .

لقد ابتليت الأمة الإسلامية في عصرها المنصرم بفرية جديدة لم تكن معهودة من ذي قبل ، وهي قضية «فصل الدين عن الدولة »، ومحاولة جعل الإسلام مجرد دين لا علاقة له بالدنيا ، حاولوا أن يجعلوا منه نصرانية جديدة بجعل ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فكان واجب الدعاة أن يقفوا في وجه هذه

(١ ، ٢) انظر : مجموع الرسائل ص ٣٥٦ .

الفرية الجديدة ، موضحين حقيقة الإسلام ، وقد كان الشيخ القرضاوي واحداً من هؤلاء .

أدلة الشمول :

لقد امتلأت سور القرآن بآيات تدل على شمولية الإسلام إما بالتصريح وإما بالتلميح، إما بالإشارة وإما بالعبارة، وكذلك سنة المصطفى ﷺ ومن ذلك :

١ - قوله تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ... ﴾ [البقرة : ٨٥]

٢ - قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة : ٢٠٨]

٣ - قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] .

٤ - في عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل ومنهم بني شيبان ، وقد عرض النبي ﷺ نفسه عليهم ليحموه ويحملوا دعوته ، فوافقوا على حمايته من جهة العرب لا من جهة كسرى ، فقال لهم النبي ﷺ : « ما أسأتم في الرد، إذا أفصحتم بالصدق وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه »[١] .

الشمول عند القرضاوي :

والشيخ القرضاوي من دعاة الشمولية لأنه يرى أن الإسلام : يستوعب الزمن كله ، ويستوعب الحياة كلها ، ويستوعب كيان الإنسان كله .

و أنه رسالته لكل الأزمنة والأجيال ، رسالة تخاطب كل الأمم وكل الأجناس وكل الطبقات وكل الشعوب .

رسالة لعقل الإنسان وروحه ، وجسمه وضميره ، وإرادته ووجدانه ، رسالة للإنسان في كل أطوار حياته ، تصحبه طفلاً وشاباً وكهلاً وشيخاً[٢] .

وشمولية الإسلام التي تربى عليها القرضاوي يرى أنه لا حياد عنها لأسباب ثلاثة هي :

---

(١) انظر : البداية والنهاية ج٣ ص ١٤٥ .

(٢) انظر : الخصائص العامة للإسلام ص ٩٥ وما بعدها .

١ ـ أن الإسلام الذي شرعه الله لم يدع جانباً من الحياة دون آخر ، فهو بطبيعته شامل لكل نواحي الحياة ، مادية وروحية ، فردية واجتماعية .

٢ ـ أن الإسلام نفسه يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ.... ﴾ [البقرة: ٨٥].

٣ ـ أن الحياة نفسها وحدة لا تنقسم ، وكل لا يتجزأ ، ولا يمكن أن تصلح الحياة إذا تولى الإسلام جزءاً منها كالمساجد وتركت جوانب الحياة الأخرى لمذاهب وضعية وأفكار بشرية وفلسفات أرضية توجهها وتقودها [١].

وقد كانت كتابات الشيخ قوية في رفض كل دعوة تحاول تجزئة الإسلام أو تقطيعه، وكل فكرة تنقص من الإسلام شيئاً ولو قل .

فحين يتوهم البعض أن الإسلام مجرد تشريعات فقط . يرفض الشيخ ذلك الفهم ويعلن أن الإسلام : عقيدة تلائم الفطرة ، وعبادة تغذي الروح ، وخلق تزكو به النفس وأدب تجمل به الحياة ، وعمل ينفع به الناس ، ودعوة لهداية العالم ، وجهاد في سبيل الحق والخير ، وتواصي بالصبر والمرحمة ، كما أنه في الوقت نفسه تشريع يضبط سير الحياة وينظم علاقة الإنسان بربه وأسرته ومجتمعه ودولته[٢] .

وحين يحاول العلمانيون أن يقنعوا الإسلام بركن أو زاوية في جوانب الحياة لا يتجاوزها ولا يتعداها ، يرفض الشيخ هذا التقوقع لأنه يؤمن : بأن الإسلام يأبى إلا أن يوجه الحياة كلها بأحكامه ووصاياه ، وأن يصبغها بصبغته [٣].

وإذا حاول البعض أن يكون الإسلام فضلة ، أعلن القرضاوي أنه ينبغي أن يكون عمدة ، وإذا أرادوا أن يكون في الهامش ، أبى القرضاوي إلا أن يكون في الصلب ، وإذا شاءوا أن يكون الإسلام تابعاً ومقوداً ، رفض إلا أن يكون قائداً ومتبوعاً .

---

(١) انظر : شمول الإسلام ص ٤٣ ـ ٤٧ بتصرف.
(٢) انظر : بينات الحل الإسلامي ص ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٣) انظر : الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه ص ١٠٣ .

إنه يدرك تماماً أن طبيعة الإسلام أن يكون قائداً لا مقوداً، وسيداً لا مسوداً، لأنه كلمة الله وكلمة الله هي العليا ، ولهذا فهو « يعلو ولا يعلى »[1].

ولهذا فإن الشمولية عند القرضاوي نستطيع أن نقسمها إلى قسمين :

القسم الأول : الشمول الفكري :

القسم الثاني : الشمول في ميدان الدعوة :

* * *

القسم الأول : الشمول الفكري

وهذا واضح في كتابات الشيخ ومحاضراته حيث لم يترك الشيخ باباً من أبواب الفكر إلا وكتب فيه ومن ذلك[2] .

١ - في العقيدة .

٢ - في العبادة .

٣ - في علوم القرآن .

٤ - في علوم السنة .

٥ - في الأخلاق .

٦ - في الاقتصاد .

٧ - في التربية والسلوك .

٨ - في السياسة الشرعية .

٩ - في الإسلاميات العامة .

١٠ - في رد الشبهات عن الإسلام .

هذا الشمول الفكري عرف به كثير من الدعاة والمصلحين على مر العصور وكر الدهور ، وسوف ألقي الضوء على جانب أساسي يعد أهم عناصر الشمول ألا وهو « السياسة الشرعية » .

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ١٠٣ .
(٢) انظر : الفصل الخاص بمؤهلات القرضاوي الدعوية من هذا الكتاب .

السياسة الشرعية عند القرضاوي :

ظل المسلمون فترة طويلة وقروناً عديدة يؤمنون بأن الإسلام دين ودولة ، دين لا ينفصل عن الدولة ، ودولة لا تقوم بغير دين ، ولم يكن هناك أدنى فصل لأحدهما عن الآخر ، ولم يكن هناك أدنى غضاضة في استخدام لفظة سياسة أو انتشارها بين الناس[١] ، ولقد رأينا إماماً كحجة الإسلام الغزالي يؤكد على ارتباط الدين بالدنيا فيقول : إن الدنيا مزرعة للآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا ، والملك والدين توأمان ، فالدين أصل ، والسلطان حارس ، ومالا أصل له فمهدوم، ومالا حارس له فضائع[٢] .

لقد ظل العالم كله يدرك ارتباط الإسلام بالسياسة والسياسة بالإسلام، حتى أقر أساطين الغرب بهذا كله ، وينقل الدكتور ضياء الدين الريس أقوال المستشرقين في هذا الصدد لأنه يدرك أن من بني جلدتنا من هم عبيد كل أجنبي، لا يؤمنون إلا بما قاله سادتهم وكبراؤهم ، ومن أقوال هؤلاء المستشرقين:

١ ـ يقول الدكتور « فتزجرالد » « Dr.v.fitzgerald » :

« ليس الإسلام ديناً فحسب ، ولكنه نظام سياسي . وعلى الرغم من أنه قد ظهر في العهد الأخير بعض أفراد من المسلمين ، ممن يصفون أنفسهم بأنهم « عصريون » يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين، فإن صرح التفكير الإسلامي كله قد بني على أساس أن الجانبين متلازمان، لا يمكن أن نفصل أحدهما عن الآخر » .

٢ ـ ويقول الأستاذ « نللينو » « C. A. nallino » :

« لقد أسس » محمد « في وقت واحد ديناً ودولة وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته » .

---

(١) هناك كتب عديدة كتبها فقهاؤنا الأقدمون ومن هذه الكتب : الأحكام السلطانية للماوردي ، الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء ، غياث الأمم للجويني ، والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية ، الحسبة لابن تيمية ، والطرق الحكمية لابن القيم ، والخراج لأبي يوسف ، والأموال لأبي عبيد ابن سلام وغيرها كثير .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين الغزالي ط دار المعرفة بيروت ج١ ص ١٧ .

٣ ـ ويقول الدكتور « شاخت » « Dr. schacht » :

« على أن الإسلام يعني أكثر من دين : إنه يمثل أيضاً نظريات قانونية وسياسية ، وجملة القول : إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معاً » .

٤ ـ ويقول الأستاذ « ستروثمان » « Dr. strothmann » :

« الإسلام ظاهرة دينية . سياسية » ، إذ أن مؤسسه كان نبياً . وكان سياسياً حكيماً ، أو « رجل دولة » .

٥ ـ ويقول الأستاذ « ماكدونالد » « d.b. macdonald » :

« هنا ـ أي المدينة ـ تكونت الدولة الإسلامية الأولى ، ووضعت المبادئ الأساسية للقانون الإسلامي » .

٦ ـ ويقول السير « توماس أرنولد » « sir. T. arnold » :

« كان النبي . في نفس الوقت ، رئيساً للدولة » .

٧ ـ ويقول الأستاذ « جب » :

عندئذ صار واضحاً أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية ، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل ، له أسلوبه المعين في الحكم ، وله قوانينه وأنظمته الخاصة به[١] .

لكنه بعد رضوخ الدول الإسلامية تحت وطأة الاحتلال الأجنبي الغاشم والكافر ، استطاع الغرب أن يجعل من السياسة عدواً للإسلام ، فإما أن يكون المرء مسلماً وإما أن يكون سياسياً ، إما أن يكون ملتزماً، أما الجمع بينهما فلا، وألف لا، حتى رأينا بعضهم يردد كلمة الشيخ محمد عبده : أعوذ بالله من السياسة ، ومن ساس، ويسوس وسائس ومسوس .

وأصبح انشغال الدعاة بالسياسة أمراً محظوراً ، وخروجاً عن المألوف والمشروع ، وخصوصاً بعد أن حاول الغرب إقناعنا بأن الإسلام دين روحي، أو دين كهنوتي، وكانت الطامة الكبرى على يد القاضي الشرعي « علي عبدالرازق » في كتابه « الإسلام وأصول الحكم » الذي ادعى فيه أن الإسلام مجرد

---

(١) انظر : النظرات السياسية الإسلامية ضياء الدين الريس ص ٢٨ ، ٢٩ .

رسالة روحية ، وأن الإسلام دين لا دولة ، وأن محمداً ﷺ لم يكن سوى رسول لدعوة لا ملكاً لدولة .

وكانت خطورة هذا الكتاب أن يصدر من عالم أزهري فهللت له دول الغرب ، وانبرى لتمجيد الكتاب وصاحبه دهاقنة الاستشراق الذين هم مخالب الاحتلال وأنيابه ، وكان للأزهر ورجاله وقفة مشهورة ، فاجتمعت هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف وأصدرت حكماً بالإجماع بأن الكتاب بما فيه من آراء مخالفة للدين ، وقررت إخراج علي عبد الرازق من زمرة العلماء ومحوا اسمه من سجلات الجامع الأزهر ، وفصله من وظيفته [1] .

كما انبرى العلماء والدعاة ينقضون كتاب « علي عبد الرازق » وكان من أشهر هذه الردود « حقيقة الإسلام وأصول الحكم » للشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي مصر ، و « نقض الإسلام وأصول الحكم » لمحمد الخضر حسين .

وتوالت فيما بعد كتابات الدعاة والمصلحين والمفكرين في الفقه السياسي ، والسياسة الشرعية [2] .

وحين خاض الشيخ القرضاوي حفظه الله غمار السياسة الشرعية لم يدخلها الشيخ من باب السياسة ، ولكنه خاضها تديناً وعبادة .

وقد أثرى الشيخ المكتبة الإسلامية بعديد من الكتب في هذا المجال منها :

١ — من فقه الدولة في الإسلام .

---

(١) حدثني فضيلة العلامة الدكتور عبد العظيم الديب ـ حفظه الله ـ بأن الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ أخبره بأنه لما كان خطيباً للجامع الأزهر جاءه رجل مسن وأثنى على خطبته وحديثه وقال له : أنا علي عبد الرازق صاحب «الإسلام وأصول الحكم » يقول الشيخ الغزالي رحمه الله : فلما توطدت العلاقة بيني وبينه سألته عن كتابه فقال : لقد أرادوا طبع الكتاب فرفضت ، و أخبرني أنه تراجع عما جاء في هذا الكتاب ، ولكن كان من الواجب على الشيخ على عبد الرازق أن يذكر مراجعته كتابة حتى يعلم الناس كلهم هذه المراجعة.

(٢) من هذه الكتب : السياسة الشرعية / للشيخ عبد الوهاب خلاف ، ونظام الحكم في الإسلام للدكتور / محمد يوسف موسى ، قواعد نظام الحكم في الإسلام / محمد فاروق البنهان ، النظام السياسي في الإسلام / د : محمد أبو فارس، في النظام السياسي الإسلامي / د : محمد سليم العوا ، النظريات السياسية الإسلامية / د : ضياء الدين الريس ، الإسلام أوضاعنا السياسية / للشهيد عبد القادر عودة ، الإسلام والاستبداد السياسي / للشيخ محمد الغزالي ، الدين و الدولة في الإسلام / د : مصطفى السباعي ، معالم الدولة الإسلامية / د : محمد سلام مدكور .

٢ – السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشرعية ومقاصدها .

٣ – الإسلام والعلمانية .

٤ – غير المسلمين في المجتمع الإسلامي .

٥ – الأقليات الدينية والحل الإسلامي .

٦ – الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم .

٧ – المسلمون والعولمة .

هذا غير فتاوى الشيخ العديدة في كتابه فتاوى معاصرة ، وخصوصاً المجلد الثاني والثالث ، وقد أفرد الشيخ فيهما فصلاً خاصاً عنون له بـ « في السياسة والحكم » ، فضلاً عن خطب الشيخ التي لا تخلو خطبة من ناحية سياسية ربما تكون محوراً أساسياً للخطبة أو عنصراً من عناصرها[١] .

والسياسة الشرعية وفقهها ليس بدعة جديدة لكنها أمر ثابت في هذا الدين ؛ ولما كانت كلمة « السياسة » تصيب أعداء الدين بالهم والغم فضلاً عن الوصب والنصب ، فقد أنكروا سياسة الدين أو تدين السياسة ، ولهذا حين تحدث القرضاوي عن السياسة الشرعية قال : هي السياسة التي تتخذ من الشرع منطلقاً لها ترجع إليه ، وتستمد منه ، كما تتخذ تحقيقه في الأرض ، وتمكين تعاليمه ، ومبادئه بين الناس هدفاً لها و غاية ، كما تتخذه غاية تتخذه منهجاً وطريقاً ، فغاياتها شرعية ومناهجها شرعية [٢] .

---

(١) خطب الشيخ ليست من الخطب النمطية المعروفة لكنها خطب إن شئت سمها خطباً سياسية اجتماعية اقتصادية أخلاقية عبادية عقدية تاريخية ، لكنها خطب تجمع بين الدين والدنيا ، وتربط الدنيا بالآخرة ، لكن الرائحة السياسية لا شك تفوح من هذه الخطب لأن الشيخ إنما فهم الدين كذلك : شريعة وعقيدة ودنيا ودولة ، وانظر عناوين هذه الخطب لتدرك المعنى : زلزال مصر - مرض الإيدز - توحيد العرب تحت راية الإسلام - القمر الصناعي الإسرائيلي - الذكرى السنوية للانتفاضة - قضية المرتد سلمان رشدي - العدوان على الكويت - اتفاقية غزة وأريحا - حقائق حول أزمة الخليج - مأساة المسلمين في البوسنة - الصحوة الإسلامية بين المتشائمين والمتفائلين - الاستنساخ في البشر وأضراره - توضيح الحق في فوائد البنوك - حقوق الإنسان في الإسلام - معركة الحجاب في فرنسا - مؤتمر السكان في القاهرة - هدم المسجد البابري - القنبلة النووية الباكستانية - أمتنا لن تموت - واقدساه - رسالة إلى المؤتمر الإسلامي التاسع - مشروع الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية - التنصير في منطقة الخليج - المسلمون في أمريكا الجنوبية ، وغيرها من خطبه النافعة الجامعة .

(٢) انظر : السياسة الشرعية ص ٢٧ .

ولقد أكد الشيخ أن الإسلام لا يكون إسلاماً حقيقياً إلا إن كان سياسياً، يقول الشيخ: ولكن ما حيلتنا إذا كان الإسلام - كما شرعه الله - لا بد أن يكون سياسياً ما حيلتنا إذا كان الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ لا يقبل أن نقسم الحياة والإنسان بين الله تعالى وقيصر وكسرى وفرعون وكل ملوك الأرض عباداً لله وحده[1].

والحق أن الإسلام السياسي كما يسميه البعض ليس إلا الإسلام الذي أراده الله عز وجل إنه الإسلام الفعال، الإسلام المحرك، الإسلام القائد، الإسلام الموجه، إنه الإسلام الذي يرفض الخضوع، ويأبى الذل، ويتمرد على الطغيان، ويثور على الظالم، ويحارب المعتدي، لا إسلام الدروشة والتمتمة، والرقى والتمائم، يقول الشيخ حفظه الله في ديوانه الأول:

فقل لمن ظن أن الدين منفصل	عن السياسة خذ يا غر برهانا
هل كان أحمد يوماً حلس صومعة؟	أو كان أصحابه في الدير رهبانا؟
هل كان غير كتاب الله مرجعهم؟	أو كان غير رسول الله سلطانا؟
لا بل مضى الدين دستوراً لدولتهم	وأصبح الدين للأشخاص ميزانا
يرضى النبي أبا بكر لدينهمو	فيعلن الجمع: نرضاه لدنيانا[2]

وهذا ما جعل الدكتور حسان حتحوت يقول ساخرا من هذا الصنف:

هذا الكتاب وإن فيه سياسة	أتراه أمرا في الكتاب غريباً؟
إن كانت تؤذيكم سياسته دعو	ه ونقبوا عن غيره تنقيبا
أو اعرضوه على الرقيب فربما	أفتى فغادر نصفه مشطوبا
يا قوم سحقا للرقيب وأمره	فكفى برب العالمين رقيبا

ولما أراد المتغربون والعلمانيون من عبيد الفكر الغربي أن يشوهوا صورة الإسلام الحقيقي وأخذوا يقسمون الإسلام حسب أمزجتهم وأهوائهم فزعموا أن هناك إسلاماً سياسياً، وآخر لاهوتياً وثالث راديكالياً، وكلاسيكياً، ويمينياً، ويسارياً؛ هنا انبرى الشيخ ليعلنها صريحة مدوية، ليلجم بها كل منافق،

(١) انظر: شمول الإسلام ص ٦٧.
(٢) انظر: نفحات ولفحات ص ٤٣.

وليخرص بها كل أفاق ، ويسكت بها كل دعي ، ويفحم بها كل مجادل ، يقول الشيخ : يجب أن أعلنها صريحة مدوية : إن الإسلام الحق ـ كما شرعه الله ـ لا يمكن إلا أن يكون سياسياً ، وإذا جردت الإسلام من السياسة ، فقد جعلته ديناً آخر يمكن أن يكون بوذية أو نصرانية ، أو غير ذلك ، أما أن يكون هو الإسلام فلا [(١)].

ويؤكد الشيخ بأن الإسلام يرفض إلا أن يكون سياسياً لسببين :

السبب الأول : أن للإسلام موقفاً واضحاً ، وحكماً صريحاً في كثير من الأمور التي تعتبر من صلب السياسة .

فالإسلام ليس عقدة لاهوتية ، أو شعائر تعبدية فحسب ، وأعني أنه ليس مجرد علاقة بين الإنسان وربه ، ولا صلة له بتنظيم الحياة ، وتوجيه المجتمع والدولة .

كلا . .إنه عقيدة وعبادة، وخلق وشريعة متكاملة، وبعبارة أخرى: هو منهاج كامل للحياة، بما وضع من مبادئ ، وما أصل من قواعد، وما سن من تشريعات وما بين من توجيهات، تتصل بحياة الفرد ، وشئون الأسرة وأوضاع المجتمع ، وأسس الدولة، وعلاقات العالم.

ومن قرأ القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وكتب الفقه الإسلامي بمختلف مذاهبه ، وجد هذا واضحاً كل الوضوح [(٢)].

ويوضح الشيخ أن قسم العبادات ذاته لا ينفك عن السياسة أبداً فيقول : حتى قسم العبادات من الفقه ليس بعيداً عن السياسة ، فالمسلمون مجمعون على أن ترك الصلاة ، ومنع الزكاة ، والمجاهرة بالفطر في رمضان ، وإهمال فريضة الحج مما يوجب العقوبة ، والتعزير ، وقد يقتضي القتال إذا تظاهرت عليه فئة ذات شوكة ، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه مع مانعي الزكاة .

السبب الثاني : أن شخصية المسلم ـ كما كونها الإسلام وصنعتها عقيدته

(١ ، ٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٦٢٥ ، وما بعدها بتصرف.

وشرعيته وعبادته وتربيته - لا يمكن إلا أن تكون سياسية ، إلا إذا ساء فهمها للإسلام ، أو ساء تطبيقها له .

فالإسلام يضع في عنق كل مسلم فريضة اسمها : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد يعبر عنها بعنوان : النصيحة لأئمة المسلمين ، وعامتهم ، وهي التي صح في الحديث اعتبارها الدين كله ، وقد يعبر عنها بالتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، وهما من الشروط الأساسية للنجاة من خسر الدنيا والآخرة ، كما وضحت ذلك سورة العصر .

ويحرض الرسول المسلم على مقاومة الفساد في الداخل ويعتبره أفضل من مقاومة الغزو من الخارج ، فيقول حين سئل عن أفضل الجهاد : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[1] وذلك لأن فساد الداخل هو الذي يمهد السبيل لعدوان الخارج .

ويعتبر الشهادة هنا من أعلى أنواع الشهادة في سبيل الله « سيد الشهداء حمزة ، ثم رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله »[2] .

ويغرس في نفس المسلم رفض الظلم ، والتمرد على الظالمين حتى إنه ليقول في دعاء القنوت المروي عن ابن مسعود ، وهو المعمول به في المذهب الحنفي وغيره « نشكرك اللهم ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك »[3] .

ويرغب في القتال لإنقاذ المضطهدين ، والمستضعفين في الأرض ، بأبلغ عبارات الحث والتحريض ، فيقول: ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ .. ﴾ [النساء: ٧٥] .

ويصب جام غضبه ، وشديد إنكاره على الذين يقبلون الضيم ، ويرضون

---

(١) رواه النسائي في كتاب البيعة (٧١٦١) وصححه المنذري في الترغيب والترهيب انظر : المنتقى في الترغيب (١٣٦٤) وصححه أيضا النووي في رياض الصالحين. الحديث ١٩٥ طبعة الرسالة وذكره الألباني في صحيح أبي داود برقم (٣٦٥٠) .

(٢)رواه الحاكم (٣١٩٥) وقال : صحيح الإسناد ، وتعقبه الذهبي بأن في إسناده الصفار، لا يدرى : من هو ؟ ولكن الشيخ الألباني صححه من طريق رواها الخطيب في تاريخه. انظر : الصحيحة حديث (٣٧٤) كما عزاه في الجامع الصغير إلى الضياء عن جابر والطبراني عن علي. وحسنه الألباني أيضا في صحيح الجامع (٣٦٧٥،٣٦٧٦) .

(٣) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١١٠٣) وابن أبي شيبة في مصنفه (٩٥٢) .

بالإقامة في أرض يهانون فيها ويظلمون ، ولديهم القدرة على الهجرة منها والفرار إلى أرض سواها ، فيقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ... ﴾ [النساء: ٩٧] .

وهكذا نجد دائرة المنكرات تتسع لتشمل كثيراً مما يعده الناس في صلب السياسة[١] .

ويؤكد الشيخ أن ما يعتقده البعض من العبادات أنها عبادة بين العبد وربه، أو كونها عبادة محضة قد ينظر إليها بمنظور آخر على أنها درب من دروب السياسة، ويعني الشيخ بذلك عبادة الصلاة وما فيها من تلاوة قرآن، أو دعاء قنوت فيقول :

ثم إن المسلم قد يكون في قلب الصلاة ، ومع هذا يخوض في بحر السياسة حتى يتلو من كتاب الله الكريم وآيات تتعلق بأمور تدخل في صلب ما يسميه الناس « سياسة » .

فمن يقرأ في سورة المائدة : الآيات التي تأمرنا بالحكم بما أنزل الله . وتدمغ من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر والظلم والفسوق : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧] . يكون قد دخل في السياسة ، وربما اعتبر من المعارضة المتطرفة ، لأن بتلاوة هذه الآيات يوجه الاتهام إلى النظام الحاكم ، ويحرض عليه ، لأنه موصوف بالكفر أو الظلم أو الفسق أو بها كلها .

ومثل ذلك من يقرأ الآيات التي تحذر من موالاة غير المؤمنين .

ومن قنت « قنوت النوازل » المقرر في الفقه ، وهو الدعاء الذي يدعى به في الصلوات بعد الرفع من الركعة الأخيرة وخصوصاً في الصلاة الجهرية ، وهو مشروع عندما تنزل بالمسلمين نازلة ، كغزو عدو ، أو وقوع زلزال ، أو فيضان، أو مجاعة عامة، أو نحو ذلك .. [٢]

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٦٢٥ وما بعدها بتصرف .

(٢) انظر : المرجع السابق ج٢ ص ٦٢٨ بتصرف .

والغريب أن من ينكرون على دعاة الإسلام تدخلهم في السياسة إنما ينكرون عليهم ما أباحوه لأنفسهم ، فهم يسيسون الدين ويدينون السياسة وقت الحاجة ، وحسب أمزجتهم ، يقول الشيخ : وإذا كان هؤلاء المتطاولون ينكرون إدخال الدين في السياسة والسياسة في الدين ، فإنهم يقعون فيما أنكروه على دعاة الإسلام من إدخال السياسة في الدين والدين في السياسة[١] .

ويفضح الشيخ أفعال هؤلاء فيقول : والذين زعموا أن الدين لا علاقة له بالسياسة من قبل ، والذين اخترعوا أكذوبة « لا دين في السياسة ، ولا سياسة في الدين » من بعد ، أول من كذبوها بأقوالهم وأفعالهم .

لا زلت أذكر كيف صدرت الفتاوى في معتقل الطور سنة ١٩٤٨م ، ١٩٤٩م ، بأننا - نحن الدعاة إلى تحكيم القرآن وتطبيق الإسلام - نحارب الله ورسوله ونسعى في الأرض فساداً فحقنا أن نقتل أو نصلب ، أو تقطع أيدينا وأرجلنا من خلاف ، أو ننفى من الأرض ![٢]

السياسة التي عني بها الشيخ :

والسياسة التي عني بها الشيخ لم تكن هي السياسة المحلية التي تعنى بالشؤون المحلية الداخلية للبلد الذي يقطنه ، أو القطر الذي يعيش فيه ، بل كانت السياسة عند الشيخ سياسة عالمية ، يعي الشيخ من خلالها ما يبيت لأمته الإسلامية بالليل ، وما يكال لها بالنهار . نعم لم تكن سياسة الشيخ سياسة محدودة أو سياسة محلية ، لكنها كانت سياسة عالمية .

وحين تحدث الشيخ عما يسمى بظاهرة « العولمة » كان الشيخ مدركاً لخطورة هذه الظاهرة الأخطبوطية ، التي تريد أمركة العالم سياسياً واقتصادياً وفكرياً وثقافياً ودينياً .

وفي كتابه « المسلمون والعولمة » أوضح الشيخ الرؤية الإسلامية لهذه

(١ ، ٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٦٣٣ وما بعدها بتصرف .

الظاهرة المبتكرة، أو المصطلح المصطنع ، ويعد الكتاب كتاباً سياسياً أكثر منه كتاباً دينياً ، وقلّ أن يكتب في هذا المجال شيخ « معمم » أو فقيه « مشيخ » .

والمطالع لآراء الشيخ في هذا الكتاب يرى بعمق مدى اضطلاع الشيخ في الشؤون السياسية العالمية ، لذا فإن الشيخ يقرر في الكتاب بأن العولمة : إنما تصب في النهاية لصالح الأقوياء ضد الضعفاء ، ولكسب الأغنياء ضد الفقراء ، ولمصلحة الشمال الغني ضد الجنوب الفقير .

وهذا طبيعي ، لأن التكافؤ مفقود في حلبة المصارعة أو الملاكمة ، بين الأوزان الثقيلة والأوزان الخفيفة ، بل بين المصارع المدرب الممارس ، وبين خصمه الضعيف ، الذي سيسقط لا محالة في بداية اللقاء من أول ضربة .

وماذا يمكن أن نتصور من نتائج سباق يفتح ميدانه لمن يريد المشاركة فيه؟ كيف يكون مصير من يركب الجمل أو الحمار إذا سابق من يركب السيارة؟

إنه الاستعمار القديم بوجه جديد ، واسم جديد ، إن الاستعمار يغير لونه كالحرباء ، يغير جلده كالثعبان ، ويغير وجهه كالممثل ، ويغير اسمه كالمحتال ، ولكنه هو هو ، وإن غير شكله ، وبدل اسمه [١].

وحين يتحدث الشيخ عن عولمة السياسة فيؤكد بأن عولمة السياسة: هي إخضاع الجميع لسياسة القوة العظمى ، والقطب الأوحد في العالم وهو الولايات المتحدة الأمريكية[٢].

ويوضح الشيخ خطورة هذه العولمة للقطب الأوحد فيقول : بيد أن الخطر الحقيقي يتجلى للعيان ، حين يغيب أحد القطبين عن الساحة ، وينفرد القطب الآخر بها ، فيتاله في الأرض ، ويقول ما قال فرعون: أنا ربكم الأعلى، أو ما قال نمروذ لإبراهيم : أنا أحيي وأميت[٣] .

---

(١) انظر : المسلمون والعولمة ص ١٦ ، ١٧ .
(٢ ، ٣) انظر : المرجع السابق ص ٢١ .

ويضرب الشيخ مثلاً للعولمة السياسية بالغطرسة الأمريكية في حرب الخليج الثانية فيقول : وهذا الذي رأيناه في أزمة الخليج الشهيرة ، حين اعتدى صدام حسين - بإغراء من الغرب وإيعاز خفي من أمريكا نفسها - بغزو الكويت .

هنا انتهزت أمريكا الفرصة - التي هيأتها هي - لإثبات قدرة العولمة أو النظام العالمي الجديد بحشد قوى العالم ، وتجميع آليات هائلة على أرض الخليج لتأديب صدام ، وتحجيم العراق .

ويفضح الشيخ العولمة السياسية أو السياسة العالمية متمثلة في القطب الأوحد أمريكا، وعدم نزاهتها، وكيلها بمكيالين، ورضوخ الكل لها لأنها انفردت بقيادة العالم ففعلت ما شاءت بمن شاءت وقتما شاءت فيقول : وأثبت النظام العالمي « العولمي » الجديد قدرته مرة أخرى في الحروب الأهلية بين شعوب يوغسلافيا، في حرب البوسنة والهرسك مع الصرب، وحرب كوسوفو مع الصرب، فهو يتدخل في الوقت الذي يريد ، بالقدر الذي يريد ، لتحقيق الهدف الذي يريد .

فهو لا يتحرك عادة في أول الأمر، بل بعد أن يترك القوى المعادية للمسلمين تمارس إجرامها ، وتقتل الآمنين والمدنيين، وتدمر المنشآت والمساجد والمدارس ، وتحرق المصانع والمزارع ، ولا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم .. وبعد ذلك يتدخل النظام العالمي .

على حين نرى أمريكا والغرب ضغطوا على أندونيسيا من أجل استقلال « تيمور الشرقية » وهي جزء من أندونيسيا ، وأهلها أندونيسيون ، ولغتهم الأندونيسية ، ولكن عمل « التنصير » فيهم عمله ، حتى كسب أغلبية فيهم[1] .

ويؤكد الشيخ على خطورة العولمة السياسية على عالمنا الإسلامي الذي يراد له أن تستأصل شأفته ، وأن يمسح من على الخارطة ، أو يمحى من الوجود ، خدمة لإسرائيل فيقول : إن العولمة السياسية تسكت عن حقوق المسلمين

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢٣ بتصرف .

المضطهدين في كثير من بلاد العالم : في كشمير، وفي الفلبين ، وفي روسيا ، وفي الجمهوريات الإسلامية في آسيا ، وفي أثيوبيا، وفي أرتيريا، وفي عدد من بلاد أوربا ، وفي بعض الدول العربية . في حين تزعم أن هناك اضطهاداً للأقليات غير المسلمة في مصر وفي السودان، بل تزعم أن الشريعة الإسلامية تظلم الأقليات، وتجور على حقوق المرأة، ولا تعترف بحقوق الإنسان، وتندد بالمملكة العربية السعودية في ذلك، وهذا كله من الحيف والجور عن الحق ، والميل عن الصراط المستقيم .

ومن المهم أن نذكر هنا أن العولمة السياسية إن نسيت شيئاً فلن تنسى أمراً مركزياً مهماً هو خدمة إسرائيل [1].

لقد أطلت الاقتباس من كلام الشيخ في هذه النقطة ، ولكنها إطالة عن عمد لتتضح الرؤية السياسية لدى الشيخ حفظه الله .

* * *

---

(١) انظر : المسلمون والعولمة ص ٢٥ .

القسم الثاني : الشمول في ميدان الدعوة

لم يهتم الشيخ القرضاوي في دعوته بنوع واحد من المدعوين؛ بل كانت دعوته : دعوة شمولية ، حيث وجه الشيخ دعوته إلى كل من :

١ - الأفراد .

٢ - شباب الصحوة الإسلامية .

٣ - المرأة .

٤ - الدعاة المصلحين .

٥ - الأقليات الإسلامية .

٦ - عموم المسلمين .

٧ - الحكام .

٨ - قضايا الأمة .

٩ - أهل الكتاب .

وسوف نتحدث عن كل نوع من هذه الأنواع بشيء من التفصيل .

أولاً : شمول دعوته للأفراد :

اهتم الشيخ القرضاوي بدعوته للفرد المسلم على أساس أن المجتمع المسلم لا يتكون إلا من مجموعة أسر مسلمة ، وهذه الأسر المسلمة ، لا تتكون إلا من أفراد مسلمين ، ولهذا تعالت صيحات الشيخ لإصلاح الفرد أينما كان وكيفما كان .

يقول الشيخ : وهل المجتمع إلا مجموعة من الأفراد ربطت بينهم روابط معينة ، فكان صلاح الفرد لازماً لصلاح المجتمع فالفرد أشبه باللبنة في البنيان ، ولا صلاح للبنيان إذا كانت لبناته ضعيفة (١).

وتبدأ دعوة الشيخ القرضاوي للفرد من حيث توضيح النظرة إليه ، ولهذا عارض الشيخ نظرة الماديين للإنسان والتي تصور الإنسان بأنه كتلة من اللحم والدم والعظام والأعصاب والأجهزة والغدد والخلايا ، كما تصوره بأنه جنس من

---

(١) انظر ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ص ٥ .

الهوام والحشرات والزواحف والقرود غير أنه ترقى أو تطور في سلسلة من حلقات التطور .

هذه هي النظرة المادية للإنسان فهو حيوان ترقَّى ، أو حشرة تطورت ، ولكن الشيخ القرضاوي ينظر للإنسان نظرة مغايرة ينظرها بعين الإسلام وروح الإسلام ولذلك فهو يرى أن الإنسان : مخلوق كريم على الله ، خلقه ربه في أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته ، خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وميزه بالعلم والإرادة ، وجعله خليفته في الأرض ، ومحور النشاط في الكون ، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، فكل ما في الكون له ولخدمته ، أما هو فجعله تعالى لنفسه .

حقاً إن الإنسان شيء ضئيل بالنسبة لسعة الكون من حيث حجمه وحياة جسمه ، ولكنه من حيث روحه وكيانه المعنوي شيء كبير ، وهل الإنسان إلا ذلك الروح وذلك الكيان المعنوي ؟ (١)

ويقارن الشيخ القرضاوي بين النظرة المادية للإنسان وبين النظرة الإسلامية فيظهر الفرق الواضح بين النظرة المادية؛ التي تشعر الإنسان إما بالتفاهة والضياع وإما بالغرور والكبر ، وبين النظرة الإسلامية التي تشعر الإنسان بالكرامة والرفعة ، يقول الشيخ : إن اعتقاد الإنسان بكرامته على الله ، ومكانه في الملأ الأعلى ، ومركزه القيادي في هذا الكون ، يجعله يشعر بذاته ، ويغالي بقيمة نفسه لأنه يعتز بانتسابه إلى الله ، وارتباطه بكل ما في الوجود ، فيحيا عزيز النفس ، عالي الرأس ، أبياً للضيم ، عصياً على الذل والهوان، بعيداً عن الشعور بالتفاهة والضياع والعدم والفراغ .. وهذا الإحساس الذي يعيش به المؤمن ليس شيئاً هيناً ولا بضاعة مزجاة ، إنه كسب كبير ، ومغنم للإنسان .. كسب له في عالم الشعور والتصور وفي عالم الواقع والسلوك .. (٢)

ثم يصل الشيخ إلى أعظم الفروق بين الفرد المسلم وغيره فيقول : وما أعظم الفرق بين رجلين : يشعر أحدهما وهو يعتقد في نفسه أنه مجرد حيوان من

---

(١) انظر : الإيمان والحياة ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٥٩ ومابعدها .

فصيلة راقية ليس له قبل حياته جذور ، وليس له بعد موته امتداد ، وليس له في حياته صلة بالوجود الكبير أكثر من صلة القرود به .. ويعيش الآخر وهو يعتقد أنه خليفة الله في الأرض ونائبه في إقامة الحق وإفاضة الخير وإشاعة الجمال في هذا الكون ! ويشعر بأن الكون كله في خدمته ، والملائكة الكرام في حراسته ، وأن رب الوجود في معيته ، وأنه من فصيلة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وأن وجوده لا ينتهي بالموت ، وداره لا تنتهي بالقبر ؛ فإنما خلق للخلود وللأبد الذي لا ينقطع ولا يزول .

إن المغايرة بين النظرتين تتمثل في أمور جوهرية ثلاثة :

١ – في منزلة الإنسان في هذا الكون .

٢ – وفي طبيعته التي فطر عليها .

٣ – وفي غايته ووظيفته في هذه الحياة [١] .

وفي مقال للشيخ تحت عنوان «الإنسان في الإسلام»[٢] رد الشيخ على المستشرق النمساوي الأصل «فون جرونيباوم» الذي يزعم بأن الإسلام لم يعترف للإنسان إلا بقليل من التقدير ، وأن القرآن ينزع إلى إقناع الإنسان بمهانة أصله الجسدي ، ويستشهد المستشرق لكلامه بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون :١٢] .

ولكن الشيخ يرد على المستشرق موضحاً إعلاء القرآن لقدر الإنسان فيقول : لقد عنى القرآن بالحديث عن الإنسان في عشرات من آياته ، وعشرات من سوره، وحسبنا أن أول فوج من آيات الوحي الإلهي استقبله قلب رسول الله ﷺ - وهي خمس آيات - لم تغفل شأن الإنسان ، وعلاقته بربه : علاقة الخلق والإيجاد، وعلاقة التعليم والهداية ، واختارت الآيات لفظ «الرب» لما يشعر به من التربية والرعاية والترقية في مدارج الكمال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١-٥] .

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٦٠ .

(٢) نشره الشيخ في كتابه : من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا .

(٣) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٧١ .

بهذه النظرة المعتدلة وجه الشيخ القرضاوي دعوته إلى الأفراد ، لأنه عاش محنة الفرد المسلم في المجتمعات المعاصرة وعبر عنها بقوله : وقد لمسنا في عصرنا محنة الفرد المسلم في المجتمعات التي تلتزم بالإسلام منهاجاً لحياتها ، ناهيك بالمجتمعات التي تعادي شريعته ، وتطارد دعوته . وكيف يعيش هذا الفرد في توتر وقلق وحيرة ، نتيجة لما يحس به من تناقض صارخ بين ما يؤمن به من أوامر دينه ونواهيه ، من جهة ، وما يعايشه ويضغط عليه من أفكار المجتمع ومشاعره وتقاليده وأنظمته وقوانينه ، التي يراها مخالفة لتوجيهات عقيدته ، وأحكام شريعته ، ومواريث ثقافته ، من جهة أخرى [1].

من هنا كانت توجيهات الشيخ للفرد أينما كان ، وتعد كتب الشيخ جلها موجهة للفرد المسلم ، ودعوة له ، وقد يكون من أخص كتب الشيخ لتكوين الفرد المسلم ما كتبه الشيخ في سلسلته القيمة « في فقه السلوك في ضوء الكتاب والسنة » والتي صدر منها أربعة أجزاء.

وكذلك سلسلة عقائد الإسلام والتي صدر منها أربعة أجزاء.

ومن كلمات الشيخ القرضاوي في دعوته للفرد المسلم قوله : ومن معاني الإيجابية في تربية الأخ المسلم : ألا يكون همه التلذذ بالعبادة الشخصية والانحصار في الأنس بالذكر ، والمتعة بالفكر ، من غير التفات إلى أمراض المجتمع ومشكلات الناس ، وما فشا بينهم من انحراف في العقيدة ، وابتداع في العبادة، وانحلال في الخلق ، وانهيار في التماسك ، فيقف من هذا كله موقف المتفرج المستسلم ، أو المتحسر المتندم ، أو القانط اليائس ، أو النائح المولول ، دون أن يقوم بخطوة إيجابية لإصلاح الفساد ، وتقويم العوج ، ودعوة الشرار إلى الخير ، والمبتدعين إلى الاتباع ، والمنحرفين إلى الاستقامة ، والمتكاسلين إلى العمل ، والفاترين إلى الحماس .

ويبدو أن الشيخ في دعوته للأفراد إنما يريد بناء رجال لا أشباه رجال ، ولا أنصاف رجال ، إنه لا يريد رجالاً ممن قال فيهم الشاعر :

يثقلون الأرض من كثرتهم ثم لا يغنون في أمر جلل

---

(1) انظر : ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ص ٥ .

ولا ممن عناهم الشاعر بقوله :

إني لأفتح عيني حين أفتحها . على كثير ولكن لا أرى أحداً

لكنه يريد أن يربي رجالاً ممن عناهم الشاعر بقوله :

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنى

ويقول الشيخ حفظه الله في وصف هذا الفرد المرجو : إن الأمم والرسالات تحتاج إلى المعادن المزخورة ، والثروات المنشورة ، ولكنها تحتاج قبل ذلك إلى الرؤوس المفكرة التي تستغلها ، والقلوب الكبيرة التي ترعاها ، والعزائم القوية التي تنفذها : إنها تحتاج إلى الرجال.

الرجل أعز من كل معدن نفيس، وأغلى من كل جوهر ثمين؛ ولذلك كان وجوده عزيزاً في دنيا الناس .

الرجل الكفء الصالح هو إكسير الحياة، وروح النهضات، وعماد الرسالات، ومحور الإصلاح .

أعد ما شئت من معامل السلاح والذخيرة ، فلن تقاتل الأسلحة إلا بالرجل المحارب، وصغ ما شئت من القوانين واللوائح ، فستظل حبراً على ورق ما لم تجد الرجل الذي ينفذها، وضع ما شئت من مناهج للتعليم والتربية ، فلن يغني المنهج إلا بالرجل الذي يقوم بتدريسه ، وأنشئ ما شئت من لجان ، فلن تنجز مشروعاً إذا حرمت الرجل الغيور !! [١]

ولم ينس الشيخ أن يولي اهتمامه البالغ بالأفراد المسنين؛ الذين هم في مرحلة الشيخوخة، وقد أفرد الشيخ لهذه الفترة العمرية كتيبا صغيرا، أسماه : « حقوق الشيوخ و المسنين في ضوء الشريعة الإسلامية ، صدر تحت سلسلة محاضرات القرضاوي »[٢] .

ثانياً : شمول دعوته للمرأة : [٣]

أشاع دعاة إنصاف المرأة - زعموا - بأن المرأة نصف المجتمع ، وأن من حق هذا

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ١٤٧ - ١٤٨ بتصرف .

(٢) أصل هذا الكتيب : محاضرة ألقاها الشيخ في الكويت، بطلب من المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية .

(٣) تقوم إحدى الباحثات في الجامعة الأردنية بإعداد رسالة عن : المنهج التربوي للمرأة في فكر القرضاوي.

النصف ألا يهمش أو يظلم ، أو يهضم حقه ، ولكن الإسلاميين ودعاة الصحوة الإسلامية رفضوا هذا القول ، فلم يرضوا بأن تكون المرأة نصف المجتمع، ولكنها المجتمع كله؛ لأنها وإن كانت النصف من جهة العدد فهي الكل من جهة التأثير ، لأنها تربي النصف الآخر .

ولذلك لم يغفل الشيخ القرضاوي عن المرأة في منهجه الدعوي بل شملها بكثير من العناية والاهتمام، وقد خصها الشيخ ببعض كتبه إما كلياً وإما ضمنياً، ومن الكتب التي تناول فيها الشيخ قضايا المرأة :

١ – مركز المرأة في الحياة الإسلامية[١] .

٢ – النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه[٢] .

٣ – فتاوى للمرأة المسلمة [٣].

هذا فضلاً عما تضمنته كتب الشيخ الأخرى كالحلال والحرام، وزواج المسيار وغيرها .

ويعد الشيخ من انصار المرأة ومن منصفيها ، ومن أبرز الدعاة الذين أنصفوا المرأة ودعوا إلى تحريرها من الظلم الاجتماعي البين الذي نسب أحياناً إلى الدين ، ولكن دعوة الشيخ إلى تحرير المرأة لم يكن من منطلق قاسم أمين ، أو نوال السعداوي ومن على شاكلتهم ، بل إنصاف نابع من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ .

وقد عد الشيخ من أهم إخفاقات الأمة في القرن العشرين إخفاقها في مجال المرأة ويوضح الشيخ ذلك فيقول : ومن المجالات التي أخفقنا فيها إلى حد كبير : قضية المرأة التي ضاعت بين طرفي التفريط والإفراط أو بين جاهليتين ، كما قال الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رحمه الله : جاهلية القرن الرابع عشر - ويعني بها : التي ورثت عن عصور الانحطاط في تاريخنا الإسلامي تقاليد التضييق على

---

(١) هذا الكتاب في الأصل : أحد فصول كتاب ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده .

(٢) هذا الكتاب في الأصل : سؤالان أجاب الشيخ عنهما في كتابه فتاوى معاصرة .

(٣) هذا الكتاب في الأصل : مجموعة أسئلة أجاب عنها الشيخ في كتابه فتاوى معاصرة .

المرأة ـ وجاهلية القرن العشرين . ويعني بها : التي نقلت عن الحضارة الغربية تقاليد التحلل للمرأة من فضائل العفة والإحصان والحياء والاحتشام (١).

وتبرز ملامح منهج الشيخ في دعوته إلى المرأة في عدة جوانب أهمها :

١ ـ تكريم المرأة إنساناً ، ويؤكد الشيخ بأن الإسلام كرم إنسانية المرأة فلم ينكر إنسانيتها كما زعم البعض ، ولم يعتبرها مخلوقاً خلق لخدمة الرجل كما زعم آخرون ، وإنما جعلها مع الرجل كجناحي طائر ، أو رئتي إنسان ، فكما أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه ، وأن الإنسان لا يجيد الحياة إلا برئتيه ، فكذلك المجتمع لا يصلح إلا بنوعيه الرجل والمرأة ، لأنهما ليسا ندين ولا متنافسين ، ولا متخاصمين ، بل متحابين متعاونين متعاطفين(٢) .

٢ ـ تكريم المرأة أنثى ، حيث اعترف الإسلام بأنوثة المرأة (٣).

٣ ـ تكريم المرأة باعتبارها أماً : فلا يعرف التاريخ ديناً ولا نظاماً كرم المرأة باعتبارها أماً، وأعلى من مكانتها مثل الإسلام، وهذا ظاهر في آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ (٤).

٤ ـ تكريم المرأة بنتاً : ويؤكد الشيخ أيضاً بأن الإسلام حين جاء كرم المرأة بنتاً (٥).

٥ ـ تكريم المرأة باعتبارها زوجة : لقد أوضح الشيخ القرضاوي نظرة الإسلام للمرأة الزوجة فليست رجساً من عمل الشيطان كما يظنها البعض ، وليست آلة متاع للرجل ، أو طاهية لطعامه كما يظنها الآخرون (٦).

٦ ـ تكريم المرأة باعتبارها عضواً في المجتمع : كما أكد الشيخ القرضاوي

---

(١) انظر : أمتنا بين قرنين ص ١٥٥ .

(٢) انظر : ملامح المجتمع المسلم ص ٣٢١ وما بعدها بتصرف ، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ٩ وما بعدها باختصار .

(٣) انظر : ملامح المجتمع المسلم ص ٣٦٤ وما بعدها بتصرف ، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ٣١ وما بعدها بتصرف.

(٤) انظر : ملامح المجتمع المسلم ص ٣٢٨ وما بعدها بتصرف ، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ٦١ وما بعدها باختصار .

(٥) ملامح المجتمع المسلم ص ٣٣٢ وما بعدها بتصرف ، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ٦٨وما بعدها باختصار .

(٦) انظر : ملامح المجتمع المسلم ص ٣٣٧ ، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ١٣٠ .

على اهتمام الإسلام بالمرأة كعضو من أعضاء المجتمع له أهميته وله قيمته ، فليست المرأة كما يزعم البعض كماً مهملاً أو عضواً زائداً ، لا بل هي أصل أصيل في المجتمع(١) .

موقف القرضاوي من الشبهات والقضايا المثارة حول المرأة :

منذ زمن والشبهات تثار حول المرأة ، تارة من أعداء الإسلام ، وأخرى من بني جلدتنا؛ ممن تزيوا بزينا وتسموا بأسمائنا ، لكنهم جعلوا قبلتهم إلى باريس أو موسكو أو واشنطن أو لندن ، واستبدلوا بالبيت الحرام البيت الأبيض ، وزعموا أنهم أنصار للمرأة ودعاة لتحريرها .

وقد أثار هؤلاء الشبه ، وألقوا التهم ، وكان في المقابل لهم نفر يدعون إلى الإسلام بإخلاص ، ويدافعون عن المرأة بغيرة وحمية ، دفعتهم هذه الغيرة أو تلك الحمية إلى إجحاف المرأة أحياناً باسم الدين ، وأخرى باسم العرف ، وثالثة باسم المصلحة .

وكان للشيخ القرضاوي موقفاً وسطاً كعادته من هذه القضايا .ومن أهم هذه القضايا :

القضية الأولى : عمل المرأة (٢) :

تعد قضية عمل المرأة من القضايا الشائكة بين الإسلاميين وغيرهم ، فبينما نرى من الناس من يبيح للمرأة العلم بدون قيد ولا شرط (٣) ، نرى في المقابل من يحرم عمل المرأة بالإطلاق(٤) ، ومن باب سد الذريعة ، وغلق باب الفتنة .

---

(١) انظر : المرجعين السابقين ص ٣٨٢، ص ١٣٠ .

(٢) ضربت صفحاً عن قضية تعليم المرأة لأنه وإن كان من الإسلاميين من يرى عدم ذهابها إلى الجامعة ويكتفي بالثانوية وأحياناً بالإعدادية بل وأحياناً بالابتدائية وتعلم القراءة والكتابة، لكن هذا أمر غير ذي بال، والداعون إليه قلة لا تذكر ، وعلى كل فإن رأي الشيخ في تعليم المرأة واضح وبين؛ ولعله يظهر ضمنياً إذا علم رأي الشيخ في عمل المرأة .

(٣) هؤلاء أباحوا للمرأة أن تعمل مضيفة وراقصة وخادمة أو سكرتيرة لرجل عزب ، وأقنعوا المرأة بأحقيتها في ذلك ، حتى اقتنعت هي بهذا العمل الرخيص ، وقد سمعنا «راقصة» تعقب على فوزها بإحدى جوائز أهل العفن الفني قائلة : (إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً) .

(٤) وقد سمعت أحد أنصار هذا الرأي يؤكد على حرمة عمل المرأة، ولكنه ناقض نفسه بأن زوجته حين تمرض فإنه لا يطببها عند طبيب ولكن عند طبيبة ، فيا للعجب !! وكان هذا في قناة قطر الفضائية .

وكعادة الشيخ القرضاوي وقف موقفاً وسطاً ، فلم يذهب إلى الإباحة مطلقاً ، ولا إلى التحريم مطلقاً ، لكنه حدد وظيفة المرأة الكبرى، وعملها الأول والأعظم الذي لا ينازعها فيه منازع ، ولا ينافسها فيه منافس ، ألا وهو تربية الأجيال[1] ، تلك الوظيفة الرئيسية التي هيئت لها المرأة ، وجبلت عليها .

أما عمل المرأة خارج بيتها فيرى الشيخ بأنه :

١ – ليس محرماً شرعاً .

٢ – وأنه في ذاته جائز .

٣ – وقد يكون مطلوباً إذا احتاجت إليه المرأة ، إذا كانت مطلقة أو أرملة وليس لها مورد ولا عائل .

٤ – وقد يكون مطلوباً إذا احتاجت الأسرة إلى عملها كأن تعاون زوجها ، كما في مساعدة أسماء بنت الصديق لزوجها الزبير .

٥– أو مطلوباً إذا احتاج المجتمع إلى ذلك كما في تطبيب المرأة وتعليم المرأة[2].

وحين ذهب الشيخ إلى إباحة العمل فقد قيده الشيخ بضوابط ثلاثة :

١ – أن يكون العمل في ذاته مشروعاً .

٢ – أن تلتزم المرأة العاملة إذا خرجت أدب المرأة المسلمة في الزي والمشي والكلام والحركة .

٣ – ألا يكون عملها على حساب واجبات أخرى لا يجوز لها إهمالها ، كواجبها نحو زوجها وأولادها[3].

القضية الثانية : ترشيح المرأة للمجالس النيابية :

وهذه القضية تلحق بالقضية الأولى؛ وقد كان للشيخ القرضاوي رأي وسط بين المانعين بإطلاق والمجيزين بإطلاق، وكان دافع الشيخ للإباحة أموراً ثلاثة :

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ١٧٧ .

(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ باختصار ، ولقاءات ومحاورات ج١ ص ١٧٧ ، وملامح المجتمع ص ٣٩١ وما بعدها ، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ١٤٥ .

(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ باختصار ، ولقاءات ومحاورات ج١ ص ١٧٨ ، ملامح المجتمع ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

١ ـ أن المانعين لترشيح المرأة للمجالس النيابية ليس عندهم دليل صريح ثابت يلزم بالمنع .

٢ ـ أن كثيراً من الأحكام والفتاوى ينبغي ألا تنفصل عن عصرها وبيئتها؛ وهذا معناه أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال والعرف .

٣ ـ أن العلمانيين يتبارون بقضية المرأة ، ويحاولون أن يلصقوا بالإسلام ما هو منه براء ، وفي الموافقة على منع ترشيح المرأة احتجاج للعلمانيين فيما ذهبوا إليه .

وقد رد الشيخ على أدلة المانعين ، وذهب إلى أن ما ذهبوا إليه من أدلة للتحريم لا يعد نصاً صريحاً صحيحاً في القضية ، وتتمحور أدلة المانعين في أمور أهمها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب : ٣٣] : وقد رفض الشيخ الاستدلال بهذه الآية لأنه استدلال في غير موضعه ، إذ أن الآية خاصة بنساء النبي ﷺ ، وعليهن من التغليظ ما ليس على غيرهن ، وأن عائشة خرجت من بيتها كما في « معركة الجمل »، وأن المرأة الآن خرجت بالفعل إلى المدرسة والجامعة وغيرها ، وأن الحاجة تقتضي من « المسلمات الملتزمات » أن يخضن هذا المضمار .

٢ ـ سد الذرائع : وقد رد الشيخ على هذا الدليل وقال : إن سد الذرائع مطلوب؛ ولكن المبالغة في سد الذرائع كالمبالغة في فتح الذرائع .

٣ ـ منع ولاية المرأة على الرجل : وقد أجاب الشيخ على ذلك بأن المقصود من ولاية الرجل وقوامته أن تكون في بيته ، أما خارج البيت فليست له قوامة على سائر النساء .

٤ ـ حديث « لن يفلح قوم ولوا أمرهم المرأة »[1] : وقد رد الشيخ أيضاً الاستدلال بهذا الحديث لأن المقصود من الحديث الولاية العامة أما الولاية الخاصة فليست مقصودة ، ودليل ذلك أن سبب ورود الحديث : هو أن الفرس بعد وفاة إمبراطورهم ولّوا عليهم ابنته فقال النبي ﷺ حديثه المتقدم [2] .

---

(١) رواه البخاري في المغازي برقم (٤٤٢٥) عن أبي بكرة .

(٢) فتاوى معاصرة ج٢ ص ٣٧٢ وما بعدها بتصرف .

وقد سبق الشيخ في مثل هذه القضية أئمة أعلام، حكموا للمرأة بتولي المناصب القضائية والسياسية؛ فقد أجاز أبو حنيفة للمرأة أن تتولى القضاء فيما تجوز شهادتها فيه أي في غير الأمور الجنائية، وزاد الطبري وابن حزم جواز توليتها القضاء في الجنايات وغيرها[1].

ومما ينبغي التأكيد عليه أن الشيخ لا يعد ذلك واجباً أو لازم الحدوث، ولكن ينظر إليه في ضوء مصلحة المرأة، ومصلحة الأسرة، ومصلحة المجتمع، ومصلحة الإسلام[2].

القضية الثالثة : الاختلاط :

هذه قضية أخرى ظهر فيها رأيان :

١ ـ رأي للمستغربين من عبيد الفكر الغربي، ودعاة تقليد الغرب في كل شيء، وهؤلاء هم دعاة الاختلاط المفتوح أو الاختلاط المطلق، اختلاط في الزمان وفي المكان، في الحدائق والمنتديات، كما في المدارس والجامعات؛ فضلاً عن كونه اختلاطًا في الأسرة وفي البيوتات.

٢ ـ رأي غلّق الباب وأحكم غلقه، وأوصد « قفله » وألقى المفتاح في اليم مخافة أن يفتح الباب، أو يكسر القفل.

وكان للشيخ رأي لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ لكنه رأي وسط؛ لم تكن وسطيته من الهوى أو ضغط المجتمع؛ لكنها وسطية تنطلق من وسطية الدين.

وقد أوضح الشيخ في بداية رأيه في الاختلاط بأن الكلمة نفسها كلمة دخيلة على المعجم الإسلامي لم يعرفها تراثنا الطويل العريض طوال القرون الماضية؛ وربما كان أولى منها كلمة « لقاء » أو « مقابلة » أو مشاركة[3].

وبعيداً عن الأسماء والعناوين فقد كان الشيخ وما يزال يرى بأن المرأة في خير القرون لم تكن حبيسة بيتها أو قعيدة دارها.

بل يؤكد الشيخ : أن المرأة كانت مشاركة للرجل في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين وأيام السلف، ويستدل الشيخ لما ذهب إليه مما أسماه

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص٣٢٧، ومركز المرأة في الحياة الإسلامية ص ٢٩ .
(٢، ٣) انظر : المرجعين السابقين نفس الصفحات وما بعدها.

« الاختلاط المشروع » بحضور المرأة الجماعة والجمعة ، ووقوفهم خلف الرجال في مسجد واحد ومكان واحد، ولا أدل على ذلك من قول النبي ﷺ لأصحابه « لو أنكم جعلتم هذا الباب للنساء »[١] فأصبح لهن، وصار يعرف باسم « باب النساء » إلى يومنا هذا[٢] .

ويؤكد هذا حفظ أم سلمة لسورة « ق »[٣] من فم النبي ﷺ في المسجد .

وخروج وحضور النساء لمجالس العلم حتى مدحتهن عائشة رضي الله عنها .

وطلب النساء تخصيص يوم لهن دون الرجال كما في صحيح البخاري وقد وافقهن النبي ﷺ على ذلك .

بل طمحت المرأة إلى الغزو فغزت في البر كما هو الحال في أم سلمة وعائشة وأم سليم وأم عطية ، بل طمحت بأن تكون غازية في البحر فبشرها النبي ﷺ بذلك وأخبرها بالشهادة كما هو الحال في أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها ، وقد عين عمر رضي الله عنه الشفاء بنت عبد الله العدوية محتسبة على السوق[٤] ، وفي هذا كله ما فيه من الاختلاط المشروع دون إبداء العورة أو إظهار السوءة ، أو تميع في مشية ، أو خضوع في كلمة .

ولهذا حين سئل الشيخ عن عيادة المرأة المسلمة للرجل المريض كانت إجابة الشيخ بمشروعية الزيارة ، ولم يكن استدلال الشيخ على مشروعية الزيارة لمجرد مجيء أحاديث الزيارة بألفاظ عامة تشمل الرجل والمرأة ، كما في قوله ﷺ « عودوا المريض »[٥]، لم يكتف الشيخ بعموم مثل هذا الحديث وغيره ، ولكنه اعتمد على ما عنون له الإمام البخاري في صحيحه تحت عنوان : « باب عيادة النساء للرجال »[٦] وفيه روى البخاري : « عادت أم الدرداء رجلاً من أهل المسجد من الأنصار »[٧].

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة برقم (٤٦٣) عن ابن عمر وذكره الألباني في صحيح أبي داود رقم (٥٣٤) .

(٢) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٢٨٠ .

(٣) الحديث رواه مسلم في الجمعة (٨٧٢) عن عمرة بنت عبد الرحمن عن أخت لعمرة قالت : «أخذت سورة (ق) والقرآن المجيد من في رسول الله ﷺ يوم الجمعة» .

(٤) انظر : المرجع السابق ص ٢٧٧ وما بعدها بتصرف .

(٥) رواه البخاري في المرضى رقم (٥٦٤٩) عن أبي موسى .

(٦) انظر : فتح الباري ج ١٠ ص ١١٤ .

(٧) رواه البخاري في كتاب المرضى ، باب عيادة النساء للرجال .

ولكن الشيخ قيّد هذه الزيارات بعدة شروط :

١ ـ أن تكون الزيارة في صورة جماعية لا فردية .

٢ ـ أن تلتزم المرأة بالقواعد الشرعية، والآداب المرعية؛ فلا خلوة، ولا تبرج، ولا تعطر، ولا خضوع بالقول[١] .

وكذلك كان موقف الشيخ من إلقاء السلام على النساء ؛ فقد تعجب الشيخ من امتناع بعض أساتذة الجامعة من إلقاء السلام على الفتيات بحجة أن السلام على النساء غير جائز، وقد رأى الشيخ أن هذا القول يخالف النصوص الصريحة الصحيحة؛ حيث جاءت الأحاديث بجواز إلقاء السلام مطلقاً من الرجال على النساء أو العكس ، بل بوب البخاري في صحيحه لذلك وقال : « باب تسليم الرجال على النساء والنساء على الرجال » وقد ذكر البخاري في الباب حديثين .

وقد أشار الشيخ القرضاوي إلى تقييد بعض العلماء جواز إلقاء السلام بأمن الفتنة ، وذكر الشيخ أقوال العلماء ناقلاً إياها عن ابن حجر رحمه الله [٢].

وذهاب الشيخ إلى جواز إلقاء السلام على المرأة إذا كان الرجل زائراً أو معلماً أو معالجاً، بخلاف المرأة التي تلقى الرجل في الطريق العام ، فقال الشيخ : فهنا لا يحسن السلام عليها؛ ما لم يكن بينه وبينها صلة وثيقة من نسب، أو رحم، أو مصاهرة، أو نحو ذلك[٣] .

وقد سخر الشيخ من دعاة الاختلاط المفتوح في شعره وسنذكره قريباً.

القضية الرابعة : المرأة والعمل النسوي في الحركة الإسلامية :

اهتم الإسلام بالمرأة عضواً عاملاً في المجتمع ، وقدمت المرأة المسلمة على مر العصور وكر الدهور دوراً بالغ الأهمية ، وكان لها في وقت الأزمات دور فعال،

---

(١) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٢٨٧ وما بعدها بتصرف .
(٢) انظر : فتح الباري ج١٢ ص ٢٢١ .
(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص ٢٧٠ وما بعدها بتصرف .

ولم تكن في يوم من الأيام بعيدة عن مشاكل أمتها ، أو ما يدور حولها من أزمات ونكبات .

وقد أشار الشيخ القرضاوي إلى ظاهرة سلبية في الحركة الإسلامية، وهى عدم إفراز أخوات على قدر المسئولية ويرجع الشيخ ذلك إلى أن رجال الحركة الإسلامية يحاولون دائماً أن يسيطروا على توجيه النساء، ولا يدعون لهن الفرصة الكافية للتعبير عن أنفسهن لبروز المواهب والقدرات النسائية الخاصة ، لتقود العمل بمعزل عن تحكم الرجال [1].

ولهذا فإن الشيخ يؤكد على ضرورة رفع الحجر عن النساء ، ورفع الوصاية عنهن؛ فليس من المعقول أن يفكر الرجال للنساء ، وأن يخطط الرجال للنساء في كل كبيرة وصغيرة ، ولا يمنع أن يكون هناك مشاورة ومناصحة ، ولكن لا تصل هذه المشاركة إلى حد التفكير المطلق أو وضع الخطط بأكملها ، دون مراعاة لظروف النساء ومشاعرهن الخاصة [2].

وكما أوقع الشيخ باللائمة على الرجال الذين أوقفوا الزهرات من التفتح ، والقيادات النسائية من البروز ، والنوابغ النسائية من العمل ، والطاقات (الحوائية) من التنفيس ، فإن الشيخ أوقع باللائمة كذلك على النساء لأنهن كما يقول الشيخ: استسلمن لهذا الوضع، ورضين بحياة الدعة والسكون، وأن يفكر لهن الرجال بدل أن يفكرن لأنفسهن[3].

القضية الخامسة : دية المرأة :

وفي هذه القضية أيضا وقف القرضاوي بجانب المرأة حيث إن الشيخ رأى القول بأن دية المرأة على النصف من دية الرجل قد اشتهر في تراثنا الفقهي، وأنه شاع بين المسلمين، كما أخذت به مذاهب المسلمين المتبوعة كلها : المذاهب الأربعة الشهيرة، والمذهب الظاهري والمذهب الزيدي ، والمذهب الجعفري، والمذهب الإباضي .

---

(١) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٦٤ .

(٢) راجع ما كتبه الشيخ في كتابه أولويات الحركة الإسلامية تحت عنوان « الحركة والعمل النسوي».

(٣) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ٦٧ .

لكن الشيخ رأى أن هذا الرأي الذي ادعى البعض فيه الإجماع : لا يسنده نص صحيح الثبوت ، صريح الدلالة ، من كتاب ولا سنة ، كما لا يسنده إجماع ولا قياس ، ولا مصلحة معتبرة ، ولا قول صحابي ثابت[1] .

المرأة في شعر القرضاوي :

وكما اهتم القرضاوي بالمرأة في نثره ؛ نرى له اهتماماً بالغاً بها في شعره، والقارئ لشعر القرضاوي يرى أنه يعالج فيه قضايا المرأة ، ويبث ذلك في شعره بثاً، وكان هذا الاهتمام مبكراً، ويظهر ذلك من قصيدة كتبها الشيخ وألقاها في دار الإخوان؛ تعليقاً على ما نشر في الصحف من أن بعض الجمعيات النسائية اجتمع أعضاؤها، وكان لهن مطالب منها : ضرورة حذف « نون النسوة » من لغة الخطاب ، إذ كان مما جاء في هذه القصيدة :

ما الذي طالب النساء به اليو	**م : أطالبن انجلترا بالجلاء**
طلب الغيد حذف نون إناث	**يا لها من مطالب شماء !**
وغداً يطلبن (الذين) و(هذا)	**معرضات عن (هذه) و(اللائي)**
وغداً يلتمسن بكراً وعمرا	**بدلاً من سعاد أو أسماء**
لا تقولوا : هذا بعيد وناء	**ليس شيء على أولاء بناء[2]**

وفي ديوان الشيخ الثاني « المسلمون قادمون » سجل الشيخ قصيدتين عن المرأة :

القصيدة الأولى : بعنوان « أم زائرة ولا مزور » وفيها سجل الشيخ قصة أم ترملت، وترك لها زوجها طفلاً وحيداً ، فوهبت شبابها لطفلها، ونذرت حياتها لوحيدها ، ثم شاء الله أن يكون رجلاً من رجال الدعوة ، فساقه زبانية العذاب

---

(١) انظر : دية المرأة في الشريعة الإسلامية نظرات في ضوء النصوص والمقاصد تحت الطبع .

(٢) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٣٠٨ .

إلى سجونهم ، وأذاقوه العذاب الهون حتى مات، ولم تعلم أمه بموته، فلما سمح لها بالزيارة ذهبت لتجد مفاجأة لم تكن في الحسبان، فقد مات وحيدها منذ زمن، فكانت هذه القصيدة والتي بلغت (١٣٨) بيتاً .

القصيدة الثانية : وهي بعنوان «إليك يا ابنة الإسلام» وهي رسالة صادقة ودعوة مخلصة من أب مشفق ، ووالد حنون؛ كما أنها دعوة إيمانية برؤية واقعية من داعية بصير ومرب خبير ؛ يوجه فيها لابنة الإسلام النصيحة الصادقة ، والدعوة الواضحة ، ويحذرها من الدعوات الباطلة، والادعاءات المزيفة ، كما يرسم لها طريقها الواضح، ورسالتها العظمى ، وهدفها الأسمى من خلال آيات القرآن الخالدة وأحاديث المصطفى، وقد بلغت هذه القصيدة (٩٧) بيتاً، ملئت بالحكم والمواعظ والتوجيهات. وأهم أهداف القصيدة:

١- تذكير المرأة بمكانتها ومنزلتها :

بدأ الشيخ قصيدته بتعريف المرأة منزلتها ومكانتها فيقول الشيخ :

رسالتي يا ابنة الإسلام والحسب ... إليك من عقل أستاذ وقلب أب
يا من هديت إلى الإسلام راضية ... وما ارتضيت سوى منهاج خير نبي
يا درة حفظت بالأمس غالية ... واليوم يبغونها للهو واللعب[١]

ويظهر هذا كذلك في أبيات أخرى يقول فيها:

أختاه لست بنبت لا جذور له ... ولست مقطوعة مجهولة النسب
أنت ابنة العرب والإسلام عشت به ... في حضن أطهر أم من أعز أب
فلا تبالي بما يلقون من شبه ... وعندك العقل إن تدعيه يستجب
سليه: من أنا؟ من أهلي؟ لمن نسبي؟ ... للغرب أم أنا للإسلام أنتسب؟
لمن ولائي؟ لمن حبي؟لمن عملي؟ ... لله أم لدعاة الإثم والكذب؟
وما مكانتي في دنيا تموج بنا؟ ... في موضع الرأس أم في موضع الذنب؟[٢]

---

(١) انظر : المسلمون قادمون ص ٣٩ .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ٤٢ .

٢ ـ تحذير المرأة من الغرب وأباطيله :

حيث فند الشيخ مزاعم الغرب ، وأوضح خراب فكره، وعفن مبادئه، وخبث نواياه فقال :

يا حرة قد أرادوا جعلها أمة ... غربية العقل،لكن اسمها عربي
عهد السجود لفكر الغرب قد ذهبت ... أيامه ، فاسجدي لله واقتربي
من كان للغرب عبد الفكر خاضعه ... فليس منا ولسنا منه في نسب
هل يستوي من رسول الله قائده ... دوماً وآخر هاديه أبو لهب
وأين من كانت الزهراء أسوتها ... ممن تقفت خطا حمالة الحطب ؟ !
فلتحذري من دعاة لا ضمير لهم ... من كل مستغرب في فكره خرب
أسموا دعارتهم حرية كذباً ... باعوا الخلاعة باسم الفن والطرب
هم الذئاب وأنت الشاة، فاحترسي ... من كل مفترس للعرض مستلب !
هم يبتغونك لحماً فيه مأربهم ... ويطرحونك عظماً غير ذي أرب ![1]

٣ ـ بيان خطورة الاختلاط :

حيث بين الشيخ خطورة الاختلاط الذي يدعو إليه الغرب وأذنابه فقال :

قالوا :اختلاط، وهل في الاختلاط سوى ... وضع الثقاب قريباً من شفا اللهب ؟
فالاختلاط الذي يدعو له نفر ... هو انفتاح بلا قيد ، بلا حجب
فلينظروا ما جناه الغرب قبلهمو ... في النفس،في العقل،في الأجسام،في العصب
ظنوا التحلل فيه حل عقدتهم ... هل تطفأ النار بالبترول والخشب ؟[2]

٤ ـ تذكير المرأة باختيار سبيل الله وإلا فسبيل الشيطان :

حيث أوضح الشيخ أن المرأة ليس لها إلا سبيل الله وفيه النور والخير، أو سبيل الشيطان وفيه الخسارة في الدنيا والآخرة ، فقال :

(١ ، ٢) انظر : المسلمون قادمون ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١.

هما سبيلان يا أختاه مالهما من ثالث، فاكسبي خيراً أو اكتسبي
سبيل ربك ، والقرن منهجه نورمن الله لم يحجب ولم يغب
في ركبه شرف الدنيا وعزتها ويوم نبعث فيه خير منقلب
فإن أبيت سبيل الله فاتخذي سبيل إبليس رأس الشر والحرب ![1]

٥ ـ دعوة المرأة إلى الالتزام بالحجاب :

حيث يوصي الشيخ أخته وابنته بالحجاب الذي أمر به الله ، ذاك الحجاب الذي يزين المرأة بالعفة والأدب فيقول الشيخ :

إن الحجاب الذي نبغيه مكرمة لكل حواء ما عابت ولم تعب
نريد منها احتشاماً، عفة، أدبا وهم يريدون منها قلة الأدب
هذا الحجاب الذي جاء الرسول به وليس سجناً من الفولاذ والخشب

٦ ـ الرد على من زعم بأن الدين قيد المرأة وألغى دورها في المجتمع :

حيث أوضح الشيخ أن الالتزام بالدين لم يكن ـ ولن يكون ـ مانعاً للمرأة من القيام بدورها في المجتمع وضرب لها أمثلة فقال :

لم يمنع الدين أن يدعى النساء إلى مجامع الخير والعرفان والقرب
فكم شهدن جماعات، وكم جُمَعٍ وما منعن شهود العيد والخطب
وكم شهدت مع الأبطال معركة لخدمة الجيش في اللأواء والنصب
وكم لأم سليم ، أو نسيبة من مواقف، فاسألوا تاريخكم يجب[2]

٧ ـ رفض قضية المساواة فيما لم يجعله الله من باب المساواة :

حيث أبان الشيخ أن المرأة ستظل امرأة وأن ذلك ليس عيباً لها ، وأن دعوة المساواة بينها وبين الرجل في غير مجال المساواة أمر مرفوض تماماً . يقول الشيخ :

لا تحسبي أن الاسترجال مفخرة فهو الهزيمة أو لون من الهرب

(١ ، ٢) انظر : المرجع السابق ص ٤٢ – ٤٥ .

مـــا بـالأنوثة من عـــار لتنسلخـي منها، وتسعي وراء الوهم في سرب
ولسـت قـادرة أن تصـبـحي رجـلاً فـفطرة الله أولـى منـك بـالغلـب
وربما لم تعـــودي في الغـــد امـرأة من عـانـد الله لم يفلـح ولـم يصب
الله ســواك أنثـى، تلك حكمتــه وليس من عبث في الخلق أو لعب
لـكل جنـس بدنيــانا رســالتــه وللأمـومـة فـضـل الصبـر والتعب
هـل كــان آدم لـولا زوجـــه خلقـاً أن ينسل الناس من عجم ومن عرب؟[1]

٨ – ضرورة اختيار صاحب الخلق والدين :

حيث وضح الشيخ ضرورة الحرص على صاحب الخلق ، ووجـوب العض عليه بالنواجذ . يقول الشيخ :

تخيـري الزوج ذا دين، وذا خلـق ولا يغـرك ســحـر المـال واللـقب
من اتقى الله صـدقـاً فـهـو أجدر أن يرعى حقوقك من ذي المال والحسب
فارعيـه في النفس،في مال،وفي ولد وارعيه في العرض إن يشهد، وإن يغب
وسـاعديه على الطاعـات واستبقـا وحــذري من حـرام منه مـرتكـب
كوني له في الرضـا عـونـاً ومؤنسـة وإن بدا شـرر للخلـف فانسحبي

٩ ـ دور المرأة في تربية النشئ :

حيث أبان الشيخ للمرأة دورها في تربية النشئ ، فهي المعلم الأول للأبناء ، وهي الحاضن الأساسي لهم ، يقول الشيخ :

والبـيت مـدرسـة للطفـل جـامعـة والأم أول أســتـاذ لـكـل صـبـي
والطفـل مـزرعـة للأم، مـا غـرست تجني، ولـن تجتني شوكـاً من العنب
فلتـغرسي فيـه حب الله، فـهـو له كنز، إذا خاب حب الناس لم يخب
صليـه بالله، في الســراء يحـمـده وفي الشدائد يدعو كاشف الكرب
وذكـريه بـيــوم الدين حـيـن نـرى أعمـالنا فيـه إن نخطئ ، وإن نصب
مـريه بالصلوات الخمس في صغـر فالغصن أقرب تقويماً من الخشب[2]

(١) انظر : المرجع السابق ص٤٥، ٤٦، ٤٧.

ثالثاً: شمول دعوته للدعاة والمصلحين :

لم تكن دعوة الشيخ قاصرة عن هذا الجانب المهم، ذلك أن الشيخ يعي جيداً أن صلاح الأمة بصلاح دعاتها وعلمائها ، وأن الدعاة و العلماء والمصلحين هم قلب الأمة ونبضها الحي ، وصوتها العالي وأملها المرجو ، ودفتها الموجهة ، فكيف إذا فسد القلب ؟ ووقف النبض ؟ وسكت الصوت ؟ وضاع الأمل ؟ وتاه الربان ؟

هنا يكون الأمر كما قال القائل :

يا أيها العلماء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

وكما قال ابن المبارك رحمه الله :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

لقد رتع القوم فــي جيفــة يبين لذي اللب إنتانها

لهذا فقد كان الشيخ حريصاً على أن يوجه دعوته إلى الدعاة والمصلحين ، وتمثلت دعوة الشيخ للدعاة والعلماء المصلحين في محاور أهمها :

١ – تقوى الله سبحانه والتحلي بأخلاق العلماء .

٢ – الاهتمام بواقع المسلمين .

٣ – سد الفجوة التي بينهم وبين الشباب .

٤ – تجميع كلمتهم .

١ – تقوى الله تعالى والتحلي بأخلاق العلماء :

وهذا ضروري لكل عالم ، ملازم لكل داعية ، مصاحب لكل مصلح ، فإن العالم الذي خلا قلبه من تقوى الله تعالى لن تقوم له قائمة ، ولن تقوم به قائمة ، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : قسم ظهري رجلان ، جاهل مستنسك ، وعالم متهتك؛ ذاك يغرهم بتنسكه ، وهذا يضلهم بتهتكه .

وهذا هو النوع الذي حذر منه رسول الله ﷺ حين قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان »[1] .

---

(١) رواه أحمد (١٤٣) عن عمر، وقال محققو السند، إسناده قوي، ورواه البزار (٣٠٥)، والبيهقي في الشعب (١٧٧٧)، وذكره الألباني صحيح الترغيب برقم (٢٣٣٠).

وأشنع ما في العالم أو الداعي المصلح الخالي من تقوى الله تعالى أنه يتفقه لغير الدين، ويتعلم لغير العمل ، ويطلب الدنيا بعمل الآخرة ، وهذا الصنف جاء وصفه في الحديث الذي رواه أبو الدرداء مرفوعاً : « أنزل الله في بعض الكتب أو أوحى الله إلى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الله، ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، يلبسون للناس مسوك الكباش(١) ، وقلوبهم كقلوب الذئاب ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، إياي يخادعون وبي يستهزءون ؛ بي حلفت لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران »(٢).

هذه التقوى وتلك الأخلاق التي جعلت الإمام الشافعي يقول :

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديب ... وفيضي آبار تبريز تبراً
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً ... وإذا مت لست أعدم قبراً
همتي همة الملوك و نفسي ... نفس حر ترى المذلة كفراً
وإذا ما قنعت بالقوت عمري ... فلماذا أهاب زيداً وعمراً

ولقد كان الشيخ حريصاً على إسداء النصيحة للعلماء حتى لا يبيعوا دينهم بدنياهم وآجلهم بعاجلهم ، لأنه يرى بأن العلماء : كلمتهم هي العليا؛ لأنها قبس من كلمة الله تعالى، هم الموجهون للحياة والناس ، إلا إذا انقلبت الأوضاع ورضي العلماء أن يسيروا في ركاب الأمراء (٣).

كما يؤكد الشيخ على ضرورة تقوى الله والتحلي بأخلاق العلم لأن العلماء : يحفظون في صدورهم كلمات الله ويحملون في أيديهم مصابيح الهداية ، ويملكون في خزائن قلوبهم أغلى الكنوز ، وأثمن الثروات ، وأشرف المواريث ، وهو تراث النبوة ، التي بغيرها يعيش الخلق في تيه المادية ، وظلام الجاهلية وضلالات الأهواء والأوهام ، فمن أقوم منهم قيلاً وأهدى سبيلاً ؟(٤).

---

(١) جلود الضأن .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر ج١ ص ٢٣١ . وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء : أخرجه ابن عبد البر بإسناد ضعيف (١ / ٦٢).

(٣) انظر : الرسول والعلم ص ٧٥ .

(٤) انظر : المرجع السابق ص ٧٤ .

ويؤكد الشيخ هذا المعنى فيقول : والعلم هنا ليس تحصيل معلومات سطحية من هنا وهناك ، ولكنه نور يقذفه الله في قلب عبده ، فيمنحه اليقين والرسوخ ، ويبعد به عن القلق والاضطراب ، وهذا هو العلم النافع .

العلم النافع حقاً هو الذي يرى الناس أثره على صاحبه : نوراً في الوجه ، وخشية في القلب ، واستقامة في السلوك ، وصدقاً مع الله ، ومع الناس ، ومع النفس [١].

٢ - الاهتمام بواقع المسلمين [٢]:

من العلماء من يكتفي بالانكفاء على الكتب يعلم دقيقها وجليلها ؛ وهذا أمر محمود، وجهد مشكور؛ لكنه لا يكفي وحده ، بل لا بد للعالم والداعية والمصلح أن ينزل إلى واقع الناس، لا ينبغي عليه أن يعيش في برج عاجي ، أو في معزل عن واقع الأمة ، وحاضر الخلق، وهذا ما أطلق عليه قديماً الشهيد سيد قطب رحمه الله « فقه الأوراق »، وهو مقابل لفقه الحركة، أو كما يسميه الشيخ القرضاوي فقه المعركة أو فقه الواقع أو فقه الحياة أو فقه الدين أو الفقه القرآني [٣].

ولهذا فإن الشيخ يرى أن مجرد الاهتمام بالعلم مجرداً عن الواقع ليس فقهاً وليس اجتهاداً لأن الفقه الحق والاجتهاد الحق هو: الذي ينطلق من معايشة الناس ومعرفة ما هم فيه، والفقيه الحق هو الذي يزاوج بين الواجب والواقع « كما يقول الإمام ابن القيم ، فلا يعيش في دائرة ما ينبغي أن يكون ، غافلاً عما هو كائن وواقع بالفعل »[٤].

---

(١) انظر : الرسول والعلم ص ٧٧ .

(٢) للمزيد في هذا الموضوع راجع الفصل الخاص بمرتكزات الدعوة عند القرضاوي مبحث «فقه الواقع».

(٣، ٤) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ١٠٩ .

ويؤكد الشيخ هذا المعنى فيقول : فالفقه هنا أعمق وأوسع من مجرد معرفة الأحكام الشرعية الجزئية من أدلتها التفصيلية ، إنما هو إدراك بصير يربط أحكام الله في شرعه بعضها ببعض ، ويربط قوانين الله في أرضه بعضها ببعض ، ولا يكتفي بالنظر إلى السطوح دون الأعماق .

ويزداد هذا الإدراك عمقاً بالخوض في معترك الحياة ، والصراع مع الفراعنة والطغاة ، والدخول في أتون الابتلاء والمحن ، الذي ينفي الخبث ، ويصقل المعادن، ويميز الخبيث من الطيب [١].

٣ - سد الفجوة التي بينهم وبين الشباب :

لقد لاحظ الشيخ القرضاي كما لاحظ غيره من الناصحين للأمة ، أن الشباب الذي وقع في حفرة التكفير والتفسيق والتبديع ، والتي جرته إلى التطرف طوراً أو الإرهاب طوراً آخر ، إنما كان سببه الرئيس هو إعراضه عن العلماء، وعزوفه عن مجالسهم ، ونتج عن ذلك أن غاص هؤلاء الشباب في بطون الكتب مباشرة ، دون أن يتعلموا فن السباحة في عالم يحتاج إلى سباح ماهر ، وغطاس بارع ، فخرج هؤلاء الشباب باللؤلؤ والمرجان من أمهات الكتب مشوباً ومخلوطاً بغيره أو كما يقول الشيخ القرضاوي : دون أن يضعوه على مشرحة التحليل وطرحها على بساط البحث ، ولكنه قرأ شيئاً وفهمه واستنبط منه ، وربما أساء القراءة ، أو أساء الفهم ، أو أساء الاستنباط وهو لا يدري [٢].

لقد نشأت فجوة واسعة بين العلماء والشباب ، وكان السبب الرئيس في عزوف الشباب عن العلماء وحدوث هذه الفجوة أن عدداً من العلماء في كل قطر من أقطارنا العربية والإسلامية ساروا في ركاب السلاطين فسبحوا بحمدهم ، وهتفوا بأسمائهم ، وصفقوا لأهوائهم ، وضحكوا في وجوههم ، ونفخوا البخور بين أيديهم ، فباركوا مظالمهم، وشاركوهم طغيانهم ومفاسدهم .

---

(١) انظر : المرجع السابق ج١ ص ١٠٩ ، ١١٠ .
(٢) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٨٩ .

ولقد كان الشيخ محقاً حين وصف هؤلاء بقوله : علماء الدنيا ، الذين يزينون للناس سوء أعمالهم فيرونه حسناً .

رضوا أن يجعلوا العلم خادماً للسياسة ، وأن يبيعوا الدين بالطين ، وأن يكون العلماء أبواقاً للسلاطين ، وإخواناً للشياطين .

وهؤلاء لا يستحون أن يغيروا جلودهم في كل حين كالثعابين ، وأن يلبسوا لكل حالة لبوسها غير متورعين ، ولا خجلين ، فهم مستعدون لأن يحللوا ما حرموه من قبل، وأن يحرموا ما حللوه ، لا تبعاً للدليل والبرهان ، ولكن تبعاً لتغيير السلطان .. فلكل مقام مقال ، ولكل زمان دولة ورجال، ومقالهم جاهز لكل مقام ، وهم دائماً رجال كل دولة ، وكل زمان!

هذا الصنف الخبيث يحاط عادة بهالة من الدعاية تستر جهله ، وتغطي انحرافه ، وتنفخ فيه ليكون شيئاً مذكوراً ، وتحدث حوله ضجيجاً يلفت إليه الأسماع ، ويلوي إليه الأعناق ، وإن كان هذا لا يجعل من جهله علماً ، ولا من فجوره تقوى ، ولكن :

كمثل الطبل يسمع من بعيد وباطنه من الخيرات خال [1]

وحين قال الشيخ القرضاوي لأحد هؤلاء الشباب : يجب أن تأخذوا العلم من أهله ، وتسألوا أهل الذكر من العلماء فيما لا تعلمون .

قال : وأين نجد هؤلاء العلماء الذين نطمئن إلى دينهم وعلمهم ؟ إننا لا نجد إلا هؤلاء الذين يدورون في فلك الحكام ، إن أرادوا الحل حللوا ، وإن أرادوا الحرمة حرموا، إذا كان الحاكم اشتراكياً باركوا الاشتراكية ووصلوا نسبها إلى الإسلام ، وإذا كان رأسمالياً أيدوا الرأسمالية باسم الإسلام !

العلماء الذين إذا أراد حاكمهم الحرب فالسلم حرام ومنكر ، وإذا تغيرت سياسته فأراد السلم ، صدرت الفتاوى بالتبرير والتأييد « يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً » .

---

(١) انظر : الفتوى بين الانضباط والتسيب ص ٧١ ، ٧٢ .

العلماء الذين سووا بين الكنيسة والمسجد ، وبين الهند الوثنية وباكستان الإسلامية[1] .

ولقد عذر الشيخ الشباب في عزوفهم هذا عن هؤلاء العلماء ، لأن هؤلاء العلماء في نظر الشيخ منهم : من يحتج بالأحاديث الموضوعة ، ويرد الأحاديث الصحيحة المتفق عليها ، رأوا منهم من يستشهد بالإسرائيليات ، ويستدل بالمنامات ، وليس في رأسه إلا القصص والحكايات ! رأوا منهم من يؤيد البدع الرائجة ، ويرفض السنن الثابتة ، ويتملق أهواء العوام، وشهوات الخواص، ولا يلجأ في العلم إلى ركن وثيق ، فلهذا نفضوا أيديهم منهم ، ولم يعد لهم ثقة بما يصدر عنهم[2] .

ولهذا وجه الشيخ دعوته إلى هؤلاء العلماء قائلاً : فالعلماء عليهم أن يصححوا موقفهم أيضاً ، فلقد أعرض الشباب عن كثير منهم لما رأى فيهم عدم الاهتمام بالإسلام ، ورأى فيهم التقرب من سلاطين الجور ، والوقوف مع السلطة في الحق والباطل ، ورآهم سراعاً إلى موائد الظلمة ، رآهم يعرضون عن الشباب ولا يقولون كلمة حق ، رأى هؤلاء انشغلوا عن الدين بالدنيا ، بل عن العلم نفسه ، حتى إن كثيراً منهم لم يكون نفسه التكوين العلمي الصحيح بحيث يستطيع أن يفهم الدين والحياة ، ويعرف قضايا العصر وما تستحقه، فعلى هؤلاء أن يصححوا موقفهم ، وعلى العلماء الذين رزقهم الله الفقه والإخلاص أن يتقربوا من الشباب وألا يبتعدوا بأنفسهم ، فهناك الكثير من العلماء الطيبين، ولكنهم يؤثرون الهرب من المجتمع وما فيه ، ويرون العزلة أسلم طريق .. في البعد عن الحكام والبعد عن الشعب نفسه، لكن الحل ليس في الفرار ، وإنما أن يبحث أولئك الشباب للأخذ بيده وتسديد طريقه[3] .

٤ - تجميع كلمتهم :

لقد حرص الشيخ دائماً على التجميع[4]، وفي دعوة الشيخ للعلماء

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٩١ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٩٣ .

(٣) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ١٣٦ .

(٤) انظر : المبحث الخاص بـ « التجميع لا التفريق » من خصائص القرضاوي الدعوية .

حرص دائماً على توحيد كلمتهم، وتقريب وجهات النظر؛ حتى لا تذهب جهودهم سدى ، أو تذهب أعمالهم أدراج الرياح .

كما أن الشيخ كان حريصاً على أن ينتقل في هذا الجانب إلى حيز العمل والتطبيق، وكان حلم الشيخ أن يكون هناك تجمع عالمي لعلماء الأمة، يضم نخبة من صفوة العلماء العاملين ، والفقهاء المخلصين ، والدعاة النابهين ، وقام الشيخ بمراسلة عدد منهم وقد كلل الله جهود الشيخ بالنجاح بعد أن وافقه عدد كبير من هؤلاء العلماء وقاموا بمراسلته ، وكانت العقبة هي اختيار الدولة التي تسمح بقيام هذه الهيئة ونظراً لأن الهيئة كان قيامها بعيداً عن كل حكومة أو هيئة سياسية ، فلم يكن لدولة عربية أو إسلامية أي ترحيب بإنشاء هذه الهيئة بها ، ولكن تم اختيار إحدى الدول الأوربية وهي « انجلترا » لهذا الغرض واختير الشيخ رئيساً لهذه الهيئة .

وقد ذكر الشيخ في كلمته التي ألقاها في افتتاح هذا الاتحاد : أن هذا الاتحاد يسعى إلى : تحقيق هدف كلي، تنبثق منه أهداف جزئية شتى . أما الهدف الكلي الأكبر، فهو الحفاظ على الهوية الإسلامية للأمة، لتبقى كما أراد الله أمة وسطاً، شهيدة على الناس، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، مؤمنة بالله . والوقوف في وجه التيارات الهدامة التي تريد أن تقتلع الأمة من جذورها، داخلية كانت أم خارجية، وموالاة الأمة بالتفقيه والتثقيف والتوعية حتى تعرف حقيقة دورها ورسالتها، وتندفع إلى أداء مهمتها بإيمان وإخلاص، موحدة الغاية، موحدة المرجعية، موحدة الدار، مستقيمة للمنهج والطريق[١].

رابعاً : شمول دعوته للحكام :

كان للحكام نصيب وافر من دعوة القرضاوي ، فلم يغفل الشيخ عن هذا الصنف من الناس ، لأنه يدرك خطورته للناس ، فإن صلاحه يعني صلاح الأمة ورحم الله سلفنا الصالح فقد كان من كلامهم « لو كانت لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان » [٢]وقد أخبر النبي ﷺ عن طغيان ذوي السلطان وأمر بالنصح

---

(١) انظر : كلمة الشيخ التي ألقاها في تأسيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين على موقع الشيخ، وعلى موقع الاتحاد .

(٢) جاء هذا الكلام من الفضيل بن عياض ، وأحمد بن حنبل انظر : مجموع الفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٢٨ ص ٣٩٠ .

لهم، ودعوتهم إلى كتاب الله، ومقاومة طغيانهم؛ وقد جاء ذلك في قوله ﷺ: «ألا إن رحى الإسلام دائرة فدوروا مع الإسلام حيث دار، ألا إن القرآن والسلطان سيفترقان، فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم فإن عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم، قالوا: وماذا نصنع يا رسول الله؟ قال: كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم: نشروا بالمناشير، وحملوا على الخشب، موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله»[1].

ولهذا كان الشيخ حريصاً على توجيه الدعوة إلى الحكام والسلاطين من خلال كتبه وخطبه ومحاضراته، وقد سألت الشيخ عن دعوته للحكام هل مارسها مراسلة بمعنى هل وجه إليهم رسائل خاصة؟ فأجاب: لا ولكنه كثيراً ما وجه إليهم النصح مشافهة إن سمحت الفرصة للقائهم[2].

خامساً: شمول دعوته لأهل الكتب[3]:

لأهل الكتاب - يهوداً أو نصارى - نصيب وافر في دعوة الشيخ، ولكن الذي ينبغي التأكيد عليه هنا هو دعوة الشيخ لهؤلاء القوم، وقد سألت الشيخ في لقاء معه هل مارست الدعوة مع غير المسلمين؟ فقال: للأسف لا لأنه ينقصني اللغة وهي تقف عائقاً في هذا الأمر، ثم استدرك الشيخ قائلاً: ولكن أحد الأخوة أخبرني بأن رجلاً من الغرب أسلم وكان سبب إسلامه هو: كتاب «الحلال والحرام» قلت للشيخ «الحلال والحرام»؟ قال: نعم حيث طالع الكتاب ورأى فيه روعة الإسلام في التشريعات والأحكام، فساقه ذلك لقراءة متأنية عن الإسلام فأسلم.

---

(١) رواه الطبراني في الصغير (٢ / ٤٢)، والكبير (٩٠٢)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني. ويزيد بن مرثد لم يسمع من معاذ، والوضين بن عطاء وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه جماعة، وبقيه رجاله ثقات (٢٣٨٥).

(٢) للمزيد من دعوة الشيخ للحكام راجع الفصل الخاص بجبهات الشيخ الدعوية مبحث «مع الحكام» (سيصدر في رسالة منفردة إن شاء الله).

(٣) للمزيد من دعوة الشيخ لأهل الكتاب راجع الفصل الخاص بجبهات الشيخ الدعوية مبحث مع «أهل الكتاب» (سيصدر في رسالة منفردة إن شاء الله).

سادساً : شمول دعوته للأقليات المسلمة[١] والمغتربين في بلاد الغرب :

مصطلح الأقليات المسلمة يطلق على المسلمين الذين يعيشون خارج « ديار الإسلام " بعيداً عن المجتمعات الإسلامية أو عن العالم الإسلامي[٢] .

وإذا كان المسلم قدر الله له أن يحيا بعيداً عن ديار الإسلام ، فإنه مطالب بصفة أو بأخرى بإقامة دينه وشعائره، وإلا وجبت عليه الهجرة إلى مكان يأمن فيه إقامة دينه وشعائره، وهذا ما أفتى به شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال : فالمقيم في بلاد غير بلاد الإسلام إن كان عاجزاً عن إقامة دينه وجبت الهجرة عليه[٣] .

وهذه الإقامة في « ديار الكفر » تتطلب من المسلم إقامة شرع الله على نفسه ومن هم تحت مسئوليته ، وليست إقامته في غير دار الإسلام عذراً يعتذر به لأنه مطالب بتقوى الله حيثما كان .

ويلحق بهذه الأقليات ، المغتربون والمهاجرون إلى ديار الغرب ، ممن تعد غربتهم غربة طارئة بحكم الدراسة والعمل ، كما يلحق بهم المهجرون قصراً ممن ضاقت بهم ديارهم على سعتها ، وأقطارهم على رحابتها ، فاختاروا وطناً غير وطنهم ، ودياراً غير ديارهم، باحثين عن الرزق ، أو آملين حرية وأمناً بعد أن تقطعت بهم السبل ، واستطال عليهم الباطل ، عاملين بقول الشاعر :

بلاد الله واسعة فضاها   ورزق الله في الدنيا فسيح

فقل للقاعدين على هوان :   إذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

وقد اهتم الشيخ القرضاوي في دعوته بالأقليات المسلمة والمغتربين من أبناء الإسلام، وكثيراً ما وجه الشيخ كلماته وفتاويه إلى هذه الأقليات ، وكم كانت

---

(١) من الأمور التي ينبغي معرفتها أن :

- الأقليات المسلمة نحو ربع المسلمين أو أكثر .
- أن بعض هذه الأقليات يمثل من الناحية العددية التجمع الثاني للمسلمين في العالم ، وتلك هي الأقلية الهندية التي تفوق المائة مليون .
- أن بعض الإحصاءات العالمية تظهر أقلية مسلمة في بلد ما وهو كذب على الواقع ، والأرقام الحقيقية تقول بأنهم أكثرية كما هو الحال في الحبشة . انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ١٣٩ - ١٤١ باختصار .

(٢) انظر : في فقه الأقليات المسلمة ص ١٧ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ج٢٨ ص ٢٤٠ .

فرحة الشيخ وسعادته بانطلاق برنامج « الشريعة والحياة » [1] عبر قناة الجزيرة القطرية ، وكذلك برنامج « المنتدى » عبر قناة أبي ظبي الإماراتية ، حيث استطاع الشيخ أن يصل بصوته إلى هذه الأقليات المسلمة أينما كانت .

ولم يكتف الشيخ القرضاوي في عنايته بفقه الأقليات إلى مجرد التنظير ، بل انطلق الشيخ إلى حيز العمل ، فأصدر الشيخ عدداً من الكتب تؤصل فقه الأقليات وتحل مشاكلهم، وتتناول قضاياهم ، وأجاب على فتاويهم .

وهذا ما دعا الشيخ إلى العمل على إنشاء هيئة الإفتاء الأوربية التي يترأسها الشيخ والتي مقرها دبلن بأيرلندا ، هذا فضلاً عن الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية التي ساعد الشيخ على إنشائها والتي مقرها فرنسا .

ومن الكتب التي تناول بها الشيخ قضايا الأقليات المسلمة :

١ - في فقه الأقليات .

٢ - فتاوى معاصرة / الجزء الثالث خصوصاً .

وفي هذا المجلد خص الشيخ الأقليات المسلمة بجزء كبير من هذا المجلد ، تجاوز المائة والأربعين صفحة بثلاث صفحات ، أجاب فيها الشيخ عن واحد وخمسين سؤالاً ، تعددت جنسيات سائليها فمن دول أوربا إلى روسيا إلى اليابان إلى جمهورية التشيك إلى غير هذه الدول المختلفة اللهجات والألوان والأجناس والأوطان .

والشيخ حريص كل الحرص على متابعة أخبار الأقليات المسلمة والمغتربين عن ديارهم والمهجرين عن أوطانهم ، بل حريص كل الحرص على دعوة هؤلاء لغيرهم ، وكم امتلأ قلب الشيخ حزناً حين علم بأن عدداً من اليابانيين رفضوا الدخول في الإسلام لأن الداعين لهم اشترطوا عليهم أن يختتنوا جميعاً على كبر

---

(١) كانت قناة الجزيرة قد أعدت خطة جديدة تبدأ من ١٥ ٦ ٢٠٠٥م، وقامت بتغيير مواعيد برامجها، وبالتالي قامت بتغيير موعد برنامج «الشريعة والحياة» من يوم الأحد إلى يوم الجمعة، وإلى الساعة الثامنة بدلا من الساعة العاشرة، فكان الرفض الجازم من فضيلة الشيخ، وكان من أسباب هذا الرفض : أن وقت البرنامج مبكر، كما أن يوم الجمعة غير مناسب لمسلمي أوربا .

سنهم وتفاوت أعمارهم ، ما حدا بهؤلاء القوم أن يرفضوا الإسلام شكلاً وموضوعاً[1].

ولهذا فإن الشيخ حاول أن يؤصل لهذا الفقه الجديد مبيناً خصائصه وأهدافه ، وتتمحور اهتمامات الشيخ بالأقليات والمغتربين في النقاط الآتية :

١ - أهمية الوجود الإسلامي في الغرب .

٢ - أهداف الفقه المنشود للأقليات المسلمة .

٣ - ركائز هذا الفقه .

٤ - تحذيرات للأقليات والمغتربين .

٥ - نماذج تطبيقية من فتاوى الشيخ .

النقطة الأولى : أهمية الوجود الإسلامي في الغرب :

كثيراً ما يؤكد الشيخ على ضرورة الوجود الإسلامي في ديار الغرب، ويرى أهمية هذا الوجود ضرورة لعدة أسباب أهمها :

* ضرورة لتبليغ الإسلام وإسماع صوته .
* ضرورة لحضانة من يدخل في الإسلام ومتابعته وتنمية إيمانه .
* ضرورة لاستقبال « المهاجرين » حتى يجدوا لهم أنصاراً .
* ضرورة للدفاع عن قضايا الأمة الإسلامية .

ويؤكد الشيخ على ضرورة الوجود وفق فقه الأولويات ، وهذا يعني المكان الأفضل، والعمل الأفضل، والأسلوب الأفضل، على أن يكون للمسلمين تجمعاتهم ومؤسساتهم وشيوخهم وعلمائهم[2] .

ولذلك فإن الشيخ يرفض السؤال عن جواز الإقامة في ديار الغرب أو ما يسمى « ديار الكفر »، ويرفض الشيخ ذهاب بعض العلماء لعدم الجواز، ووجهة نظر الشيخ أن هذا يضيع فرصة كبيرة للدعوة الإسلامية في أحضان الغرب، مما يؤدي إلى تقوقع الإسلام وعودته إلى الجزيرة العربية كما بدأ، وقراءة

---

(١) انظر : الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد ص ١٥٧ .

(٢) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ١٤٦ ، ١٤٧ بتصرف .

التاريخ تؤكد أن الإسلام ما خرج من دياره وانتشر في غير دياره إلا عن طريق أفراد هاجروا إلى آسيا وأفريقيا[١] .

وهذا ما جعل الشيخ يؤول [٢] الأحاديث التي توجب على المسلم الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام مثل حديث « أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » وحديث « من جامع مشركاً وسكن معه فهو مثله »[٣].

فذكر في الحديث الأول : أن لحديث « أنا بريء . . . » تأويلاً غير ما يتبادر منه، ومعناه : أنه بريء من ديته إذا قتله المسلمون خطأ ، لأنه أقام بين المشركين المحاربين للإسلام فحكمه حكمهم ، فإذا قتل خطأ فلا يتحمل الرسول ولا المسلمون ديته [٤].

وفي الحديث الثاني قال الشيخ : بأن كلمة المشرك ليس المقصود منها الكتابي ، ولكن كلمة المشرك في المصطلح القرآني تعني الوثني ولا يدخل فيها الكتابي ، وكيف يحرم الإسلام مساكنة الكتابي في بيت واحد ، وهو يجيز للمسلم أن يتزوج كتابية تكون ربة بيته ؟[٥]

النقطة الثانية : أهداف الفقه المنشود للأقليات المسلمة :

والشيخ القرضاوي يرى أن أهم أهداف هذا الفقه هي :

١ ـ إعانة هذه الأقليات على أن تحيا بإسلامها حياة ميسرة بلا حرج في الدين ولا إرهاق في الدنيا .

٢ ـ المحافظة على جوهر الشخصية الإسلامية المتميزة .

٣ ـ تمكين المجموعة المسلمة من أداء واجب تبليغ رسالة الإسلام العالمية لمن يعيشون بين ظهرانيهم .

---

(١) انظر : من فقه الأقليات المسلمة ص ٣٣ بتصرف.

(٢) وقبل أن يذهب الشيخ إلى تأويل مثل هذين الحديثين فإنه لا يرى صحة الحديثين سنداً . انظر : في فقه الأقليات المسلمة ص ٣٨ هامش رقم ١ .

(٣) انظر : من فقه الأقليات المسلمة ص ٣٨ هامش رقم ١ .

(٤) انظر : المرجع السابق ص ٣٨ هامش ٣ .

(٥) انظر : المرجع السابق ص ٣٨ .

٤ ـ المعـاونة على المحـافظة بلا انغـلاق ، والاندمـــاج بلا ذوبان في هذه المجتمعات الغربية .

٥ ـ المساهمة في تثقيف هذه الأقليات وتوعيتها حتى تحافظ على حقوقها.

٦ ـ الإعانة على أداء الواجبات المختلفة دون إعاقـة من تنطـع في الـدين أو تكالب على الدنيا .

٧ ـ الإجابة على الأسئلة المطروحة والمشاكل المتجددة [١].

النقطة الثالثة: ركائز هذا الفقه :

وهذا الفقه المتعلق بالأقليات المسلمة والمغتربين يرى الشيخ أنه يعتمد على عدة ركائز أهمها :

١ ـ ضرورة فتح الباب لاجتهاد معاصر قويم تماشياً مع الواقع، وإبرازاً لخصوبة الشريعة وصلاحيتها للتطبيق في كل زمان ومكان .

٢ ـ مراعاة القواعد الفقهية الكلية، مثل: الأمور بمقاصد، العادة محكمة، لا ضرر ولا ضرار .

٣ ـ العناية بفقه الواقع المعيش .

٤ ـ التركيز على فقه الجماعة لا مجرد الأفراد ، لأن هذه الأقلية جماعة لها هويتها وأهدافها لا يمكن التغافل عنها .

٥ ـ تبني منهج التيسير ما وجد إلى ذلك سبيل .

٦ ـ مراعاة قاعدة « تغير الفتوى بتغير موجباتها » .

٧ ـ مراعاة سنة التدرج .

٨ ـ الاعتراف بالضرورات والحاجات البشرية .

٩ ـ التحرر من الالتزام المذهبي والخروج إلى ساحة الشريعة الواسعة ، بما فيها المذاهب المنقرضة [٢].

---

(١) انظر: المرجع السابق ص ٣٤ ، ٣٥ بتصرف .

(٢) للتوسع في هذه الركائز انظر : المرجع السابق ص ٤٠ ـ ٦٠ .

النقطة الرابعة : تحذيرات مهمة للأقليات والمغتربين :

وأهم ما حذر منه الشيخ الأقليات المسلمة والمغتربين :

١ ـ النزعة العنصرية والإقليمية لأنها ظاهرة بادية عند الفئات الإسلامية المختلفة حتى في المساجد ، فهذا مسجد الأتراك وذاك مسجد المغاربة ، وهكذا ، والإسلام ما جاء إلا ليذيب هذه الفوارق ويحقق الأخوة (١).

٢ ـ التشدد وإثارة الخلاف ، فهذه وإن ظهرت في ديار الإسلام فينبغي أن تغيب عن الأقليات المسلمة لأنهم في حاجة إلى ما يوحدهم (٢).

النقطة الخامسة : نماذج تطبيقية من فتاوى الشيخ للأقليات المسلمة(٣) :

نظراً للعالمية التي انطلق بها الشيخ من خلال دينه ، فقد تعرض الشيخ لرسائل عديدة وأسئلة كثيرة من المسلمين في غير بلاد الإسلام ، وقد حرص الشيخ على أن يطبق الأهداف والركائز التي وضعها لفقه الأقليات على هذه الفتاوى ومن ذلك :

صلاة الجمعة قبل الزوال وبعد العصر :

وكان الشيخ قد سئل عن حكم صلاة الجمعة قبل الزوال أو بعد دخول وقت العصر، وذلك لضيق الوقت لاستيعاب الخطبة والصلاة في وقت الظهر في بعض البلاد في فترة الشتاء ، أو لعدم وجود فرصة لأداء الجمعة بسبب الدراسة أو العمل .

وكانت إجابة الشيخ على النحو التالي :

١ ـ أن جمهور الفقهاء على أن وقت الجمعة هو وقت الظهر فلا يجوز تقديمها عن هذا الوقت أو تأخيرها عنه .

٢ ـ توسع الحنابلة في أول الوقت فجعلوا أول وقتها وقت صلاة العيد .

---

(١) انظر : أولويات الحركة الإسلامية ص ١٤٩ ، ١٥٠ بتصرف .

(٢) انظر : المرجع السابق ص١٥١ ، ١٥٢ بتصرف .

(٣) تحدثنا في مبحث «رجوعه إلى الحق» عن مسألتين تتعلقان بالأقليات المسلمة وهما شراء بيوت السكن بقرض ربوي، وحكم المرأة التي أسلمت وزوجها على دينه ، فليرجع إليهما .

٣ - توسع المالكية في آخر الوقت فجعلوا آخر الوقت إلى ما قبل الغروب بقليل .

وعلى ضوء ما سبق فقد أفتى الشيخ السائلين بأنهم إن استطاعوا أن يصلوا الجمعة في الوقت المتفق عليه فهو الأولى والأحوط ، أما إذا تعارض ذلك مع ظروف المسلمين في بعض البلدان أو في بعض الأوقات فلا حرج في الأخذ بالمذهب الحنبلي في التبكير بالصلاة قبل الزوال ولو في وقت صلاة العيد ، ولا حرج كذلك في الأخذ بالمذهب المالكي بجواز التأخير إلى ما بعد العصر ، على أن يعلن ذلك على المسلمين ويعرفوه ، ويتفقوا عليه ، حتى يجتمعوا عليه(١).

سابعاً : شمول دعوته لقضايا الأمة الكبرى :

ابتليت الأمة الإسلامية في قرنها الماضي وما قبله ، بمصائب لم يسجل التاريخ مصائب مثلها في مجموعها ، فمن غياب الحكم بما أنزل الله وتنحية الشريعة الإسلامية ، إلى رضوخ العالم الإسلامي جله لوطاة الاحتلال الأجنبي الغاشم والكافر ، إلى ضياع فلسطين ناهيك عن مصائب المسلمين في كشمير والفلبين وأفغانستان وإرتريا والسودان والبوسنة وأخيراً العراق .

ومثل هذه الأحداث لا تغمض للمؤمن جفناً ، ولا ترقأ له عيناً ، ولا تقر له بالاً ، ناهيك عن الداعية ، والداعية المجاهد .

إن مراقبة أحداث الأمة من برج عاجي بعيداً عن واقع الأمة الأمر ليس من سيم أهل الإيمان فضلاً عن الدعاة العاملين ، وإن من يحاول أن ينأى بنفسه عن مصائب أمته لا يستحق أن يكون في عداد المسلمين ، ولله در الباقوري حين قال :

إن نفساً ترضى الإسلام ديناً
ثم ترضى بعده أن تستكينا

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٧٢-٧٦ باختصار ، وانظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٥٤٩-٥٥٣ باختصار ، وللمزيد من مطالعة رأي الشيخ في مسائل الأقليات المسلمة راجع المرجعين المذكورين .

أو ترى الإسلام في أرض مهيناً
ثم تهوى العيش نفس لن تكونا
في عداد المسلمين العظماء

إن الداعية الصادق لا يمكنه أن يقف صامتاً أو متفرجاً أمام قضايا أمته الكبرى ، بل يتحتم عليه أن يعد نفسه جندياً مجنداً لكل قضية إسلامية ، إذا سمع هيعة طار إليها بقلبه ووجدانه ، قبل أن يكتب فيها بقلمه ، أو يتكلم فيها بلسانه .

والشيخ القرضاوي لم يكن في يوم من الأيام بعيداً عن قضايا أمته الكبرى، وأعني بالأمة هنا الأمة الإسلامية ، فترى الشيخ في كل قضية من القضايا ثائراً متحمساً داعياً ، إنه لا ينفك أن يكون دافعاً للهمم، مقوياً للعزائم ، باعثاً للعمل، وكيف لا وقد عد الشيخ من ثقافة الداعية « الثقافة الواقعية » ومن هذه الثقافة الواقعية ، ثقافة الواقع الإسلامي [1].

إن هذه الحرقة التي تملأ قلب الشيخ كمداً على أمته ، وتلك الغصة التي تؤلم حلق الشيخ ألماً لمصائب الأمة؛ جعلته مع المسلمين في أفغانستان ، وإخوانهم في الفلبين ، وأشقائهم في إرتريا ، وأمثالهم في كشمير والبوسنة والعراق والجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي المنحل ، نعم لقد كان الشيخ مع إخوانه الذين يعانون حكم العسكر في تركيا ، والعلمانية في تونس ، وكأنه كان يعني نفسه في أرجوزته التي سمها «الأصوليون» والتي يتحدث فيها على لسان العلمانيين ورجال الأمن وفيها يقول الشيخ :

تاريخهم أسود كالقطران	حسبهم الجهاد في الأفغان
كم قاتلوا السوفيت في الجبال	ليظهروا في صورة الأبطال
وقبلهم إخوان سوء جاهدوا	فوق فلسطين، وفيها استشهدوا
وشاركوا بالدم في القناة	تغطية منهم لفصل آت
فكل فعل منهمو مردود	مهما يكن ظاهره محمود

(١) انظر : ثقافة الداعية ص ١١٩ ، وانظر : الفصل الخاص بـ «مرتكزات الدعوة عند القرضاوي » من هذا الكتاب ، مبحث « فقه الواقع » .

واليوم للبوسنة قد تحمسوا	كأنهم للمسلمين حرس
وذاك شأنهم على الإطلاق	إن شيك مسلم بواق البواق
وذاك - والله - هو الجنون	وللجنون عندهم فنون
فهم مع الجهاد في كشمير	وفي الفلبين بلا نكير
أما فلسطين فهم رجالها	وإن تنادي بالسلام إلها
قد أيدوا الفتية من حماس	دون مبالاة ولا احتراس [1]

والمتتبع لكتابات الشيخ وكلماته في خطبه ومحاضراته يرى هذا الاهتمام البالغ بقضايا الأمة الإسلامية، وسوف أوضح اهتمام الشيخ بقضايا الأمة من خلال قضية أساسية ألا وهي قضية فلسطين.

القرضاوي وقضية فلسطين:

تعد قضية فلسطين من القضايا الرئيسية في قضايا الأمة الإسلامية، وتأتي هذه القضية في مقدمة كل القضايا، وينبع هذا الاهتمام أو ذاك التقديم من مكانة فلسطين الدينية، وما بها من المقدسات الإسلامية، ولهذا فإن من الضرورة الدينية والفريضة الشرعية أن تلفت الأنظار تجاه هذه القضية، وتثار حولها الهمم، وتحرك لها الجماهير، وتجمع حولها الأمة، وتوحد من أجلها الكلمة.

وقد بدا اهتمام الشيخ القرضاوي بقضية فلسطين منذ أكثر من نصف قرن[2]، من يوم أن عرف جماعة « الإخوان المسلمون » وعرف من خلالها أن دولة الإسلام من المحيط إلى الخليج، ومن الرباط إلى جاكرتا، ولما شارك الأزهر بكتيبة من شبابه في معارك القتال؛ كان الطالب يوسف وقتها هو ملقي كلمة المعسكر وشباب الأزهر في حفلة التوديع التي أقيمت في قاعة الإمام محمد عبده، وقد ارتجل الطالب فيها كلمة ختمها بقصيدة جاء فيها:

دع المداد وسطر بالدم القاني	وأسكت الفم واخطب بالفم الثاني
فم المدافع في صدر العداة له	من الفصاحة ما يزري بسحبان
يا أزهر الخير قدها اليوم عاصفة	فإنما أنت من نور ونيران

(١) انظر: المسلمون قادمون ص ١١٩، ١٢٠.

(٢) عقد في الدوحة في الفترة من ١٠ - ١١/٥/٢٠٠٦م، مؤتمر بعنوان «ملتقى علماء المسلمين» =

هذا شبابك في الميدان منطلق فهل نرى في الشيوخ اليوم كاشاني[1]

وأصبح الشيخ القرضاوي بحق فارساً من فرسان هذه القضية ، وداعية من دعاتها، وعلماً من أعلامها ، بل لا أكون مبالغاً إذا قلت : إن الشيخ القرضاوي هو «**شيخ الانتفاضة**»، ومحرك لشبابها ، وعنصر فعال في هذه القضية التي ينبغي ألا تموت .

وحين نقول بأن الشيخ هو « شيخ الانتفاضة » فليس ذلك من باب التهويل لكنه من باب إقرار الواقع ، وليس الإسلاميون في داخل فلسطين أو في خارجها هم الذين يقرون وحدهم هذا الأمر ، بل هذا ما أكدته صحف إسرائيل وحاخامتها ، وقد أذاع التلفزيون الإسرائيلي حلقة عن أكثر الشخصيات المؤثرة في الانتفاضة الفلسطينية وكان من أبرز هذه الشخصيات الشيخ القرضاوي ، بل هدد الموساد الإسرائيلي بتصفية الشيخ ، وأخيراً أشاع الموساد أنهم يريدون اعتقال الشيخ حفظه الله .

وقد ذكرت صحيفة الراية القطرية في عدد ٣١ / ١٠ / ٢٠٠٠ م ، أن الحاخام الأكبر « يسرائيل لاو » شن هجوماً شديد اللهجة على الشيخ القرضاوي وعدد آخر من علماء المسلمين وقال « لاو » : إن قسم « رصد تفوهات رجال الدين المسلمين » أظهر دوراً للقرضاوي وعددا آخر من العلماء المسلمين لم يسهم في إشعال نار الكراهية على إسرائيل، وقال لاو : إنه بالاستناد إلى التقرير الذي تسلمه فإن القرضاوي يقف على رأس أكثر رجال الدين المسلمين تحريضاً على إسرائيل ، وأضاف لاو : إن الحديث يدور على رجل دين يحظى باحترام كبير في العالمين الإسلامي و العربي وهذا في حد ذاته يجعل لأقواله المتطرفة وزناً وتأثيراً كبيرين .

ومن ناحية أخرى فإن ضابط الاستخبارات الإسرائيلية « زامير » شدد على أن خطورة الدور الذي يقوم به القرضاوي تتمحور في التأثير الكبير الذي يحظى به في أرجاء العالم الإسلامي ، لا سيما في أوساط الشباب المسلم في أنحاء

=لنصرة شعب فلسطين، وفي مائدة العشاء جلس مع فضيلة الشيخ عدد من الحضور، وكان منهم الشيخ سلمان العودة، وأثناء الحديث قال العودة للقرضاوي: منذ أكثر من خمسين سنة وأنت تتحدث عن فلسطين، من أين تأتي بهذا الكلام وهذه الحماسة؟!

(١) انظر : ابن القرية والكتاب ج١ ص ٤٥١ .

العالم، كما أشار «زامير» أن اللقاءات الأسبوعية التي تعرضها اثنتان من أوسع الفضائيات العربية بالإضافة إلى مواقع الإنترنت التي يجيب من خلالها على أسئلة المسلمين يزيد من خطورة القرضاوي وتجعل له تأثيراً خارقاً للحدود[1] .

هذا وقد ضغطت إسرائيل على الدول التي يظهر الشيخ على تلفزيوناتها وقنواتها الفضائية لتمنع الشيخ من الظهور وقد رفضت بعض هذه الدول هذا الطلب كما يقول الشيخ[2].

ولكن يبدو أن البعض قد استجاب وقد منع برنامج «المنتدى» والذي كان يبث من قناة «أبو ظبي» .

هذا الاهتمام البالغ بشخصية الشيخ من بني صهيون إنما كان نابعاً من اهتمام الشيخ بالقضية في كتاباته ومحاضراته وخطبه ومقالاته وبرامجه وفتاويه .

وقد حركت جراحات فلسطين مشاعر الشيخ مراراً وتكراراً وأثارت القريض بخاطره، فبكى الشيخ فلسطين شعراً كما بكاها نثراً .

وللشيخ قصائد رائعة في فلسطين منها :

١ ـ ثورة لاجئ :

وفيها يقول الشيخ :

بني جرحك في قلبي يسيل دماً فارحم صباك فما أشجاك أشجاني
جرح العروبة والإسلام في بلد الإسراء لم يختلف في شأنه اثنان
فلا تظنك غصناً لا أصول له فقد شددت إلى أصل وأغصان
لا تأس إن عشت بعد الأهل منفرداً فكلنا لك ذاك الوالد الحاني
وكل أزواجنا أم بها شغف لتفتديك بروح قبل جثمان
ودارنا لك دار لو رضيت بنا أهلا بأهل، وإخواناً بإخوان[3]

٢ ـ «يا أمتي وجب الكفاح».

وفيها يقول الشيخ :

يا أمتي وجب الكفاح فدعي التشدق والصياح

---

(١) انظر : صحيفة الراية القطرية ٣١ ١٠ ٢٠٠٠م .
(٢) انظر : لقاءات ومحاورات ج٢ ص ٦٦ .
(٣) انظر : نفحات ولفحات ص٨٢ ، ٨٣ .

ودعي التقاعس ليس ينصر ... من تقاعس واستراح
ودعي الرياء فقد تكلـ ... ـمت المذابح والجراح
كذب الدعاة إلى السلا ... م ، فلا سلام ولا سماح[1]

٣ - سراب السلام :

سلام من بني صهيون؟ ... عفواً يا بني جنسي
أيرجى السلم من ذئب ... أيرجى الدر من تيس؟
لقاءات على دخن ... لشرب الشاي والبيبسي!

إلى أن يقول :

فما معنى فلسطين ... بلا أقصى ولا قدس؟
فلسطين بلا قدس ... كجثمان بلا رأس[2]

٤ - نشيد «العودة»: والتي تغنى بها الشباب في فلسطين وفي كل مكان وفيه يقول الشيخ :

يا ثالث الحرمين[3] يا أرض الفدا ... أليت أجعل منك مقبرة العدا
ذقت الردى إن لم أعد لك سيدا ... طعم الردى دون الحياة مشرداً[4]

وكتب الشيخ جلها تكاد لا تخلو من الحديث من قريب أو بعيد ، إما بالتصريح أو بالتلميح ، إما بالإشارة أو بالعبارة ، وكذلك خطب الشيخ فقد يخصص الشيخ خطبة كاملة عن فلسطين ورجالاتها وما يدور فيها من بطولات رائعة وتضحيات نادرة؛ وإلا كانت الخطبة الثانية للتذكير بشأن القضية الفلسطينية وحال المسجد الأقصى .

---

(١) انظر : نفحات ولفحات ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) انظر : المسلمون قادمون ص ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ .

(٣) المسجد الأقصى ليس حرماً؛ قال ابن تيمية : وليس في الدنيا حرم، لا بيت المقدس، ولا غيره ، إلا هذان الحرمان، ولا يسمى غيرهما «حرماً» كما يسمي الجهالة فيقولون : حرم المقدس، وحرم الخليل ، فإن هذين، وغيرهما ليسا بحرم ، باتفاق المسلمين . والحرم المجمع عليه : حرم مكة . وأما المدينة فلها حرم أيضاً عند الجمهور كما استفاضت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ . ولم يتنازع المسلمون في حرم ثالث ، إلا وجُاء، وهو واد بالطائف. وهو عند بعضهم حرم ، وعند الجمهور ليس بحرم . نقلاً عن فقه السنة السيد سابق ط دار الفكر ١٩٩٢م ج ١ ص ٥٨٣ .

(٤) انظر : نفحات ولفحات ص ١١٥ .

وخطب الشيخ التي نشرت يكاد لا يخلو منها جزء من قضية فلسطين .

ولعل من أبرز كتب الشيخ عن فلسطين هو :

١ ـ القدس قضية كل مسلم .

٢ ـ فتاوى معاصرة / ج٣ / وفيه اثنتا عشرة فتوى تتعلق بفلسطين أخذت قرابة اثنتين وستين صفحة .

فلسطين في فكر القرضاوي:

أما عن فلسطين في فكر القرضاوي فنستطيع إجمالها في هذه النقاط السريعة :

١ ـ لفلسطين مكانة عقدية في نفوس المسلمين فهي :

ـ القبلة الأولى : قال تعالى : ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا** ﴾ [البقرة: ١٤٢] .

ـ أرض الإسراء والمعراج : قال تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى** ﴾ [الإسراء: ١] .

ـ ثالث المساجد المعظمة : قال ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا »(١).

ـ أرض النبوات والبركات : قال تعالى : ﴿ **الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٧١]

ـ أرض الرباط قال ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من حاربهم ، إلا ما أصابهم من لأواء(٢) حتى يأتي أمر الله » وهم كذلك . قالوا : وأين هم يا رسول الله ؟ قال : « ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس »(٣)، (٤).

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري في الصوم رقم (١٩٩٥) عن أبي سعيد .

(٢) أي أذى .

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في المسند ٥ ٢٦٩ ، وقال وجدت بخط أبي وقال الهيثمي : رواه عبد الله ابن أحمد «وجادة عن أبيه» والطبراني، ورجاله ثقات ٧ ٢٨٨ ، انظر : القدس قضية كل مسلم ص ١٧ .

(٤) انظر : القدس قضية كل مسلم ص ٧ـ١٧ باختصار .

٢ - أن القدس تهودت جهاراً وذلك تحت عوامل خمسة :
* استسلام فلسطيني .
* عجز عربي .
* وهن إسلامي .
* تفرد أمريكي .
* غياب عالمي [١].

٣ - أن المعركة بيننا وبين اليهود ليست حرباً دينية؛ بمعنى أنها ليست لأنهم يهود، ولكن لكونهم غصبوا أرضنا، ودنسوا مقدساتنا، وهتكوا أعراضنا، ولو قدر أنهم لم يفعلوا ذلك لم تكن هذه الحرب، ولعاشوا كما كانوا من قبل في دولة الخلافة على مر السنين [٢].

٤ - أن فلسطين ليست ملكاً لرئيس، ولا لأمير، ولا لوزير، ولا لجماعة من الناس، ولا للفلسطينيين وحدهم؛ إنها ملك المسلمين جميعاً عربهم وعجمهم ، وأن التنازل عن القدس أو أي شبر فيها خيانة لله ورسوله وللأمة كلها[٣] .

٥ - أن قبول التعويض بالنسبة للاجئين الفلسطينيين ، والتراضي عن ذلك بجزء من المال قل أو كثر هو كبيرة من الكبائر ، قد تصل بصاحبها إلى الكفر الأكبر إن استحلها ، يتساوى في ذلك الأفراد والجماعات وكذلك الدولة ، وذلك لأن الأوطان لا تباع بملء الأرض ذهباً ، وفلسطين ليست ملكاً لأحد بعينه بل ملك الأمة كلها [٤].

٦ - أن السلام مع إسرائيل مرفوض شكلاً وموضوعاً ، لأنه وإن سمى سلاماً فهو سلام هزيل نحيل ، لأن إسرائيل فيه تأخذ ولا تعطي ، وأن الجنوح للسلم ليس مع هؤلاء ، لأنهم اغتصبوا الأرض وسفكوا الدماء ، وشردوا الأهل ،

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ١٨ - ٣٨ باختصار .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ٤٢ ، ٥١ .
(٣) انظر : فتاوى معاصرة ج٣ ص ٤٥١ وما بعدها .
(٤) انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٤٩٥ وما بعدها .

وأخرجوا الناس من ديارهم بغير حق ، مع العلم أن هذا السلام إنما الجرم الأكبر فيه أنه اعتراف لليهود بأن الأرض التي اغتصبوها ، وشردوا أهلها ، أصبحت ملكاً لهم وأصبحت لهم السيادة الشرعية عليها[١] .

٧ - أن العلاقة بيننا وبين اليهود اليوم ليست هي المودة ولا البر والقسط ، الوارد في قوله تعالى : ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ** ﴾ [الممتحنة : ٨] ، وإنما هؤلاء قاتلونا وأخرجونا من ديارنا فالعلاقة بينهم ليست هي البر ولا القسط أبداً لأنهم سفاحون قتلة[٢] .

٨ - أن العمليات الفدائية التي يقوم بها شباب فلسطين ليست عمليات انتحارية بل هي عمليات استشهادية من خلال قنابل بشرية ، باع فيها الشهيد نفسه لله ، ووضع رأسه على كفنه ، اضطر الشهداء إلى هذه الوسيلة لإرهاب العدو ، والأمر كما قال الشاعر :

إذا لم يكن إلا الأسنة مركباً فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وهذه العمليات استشهادية ولو قتلت المدنيين؛ لأن المجتمع الإسرائيلي كله هو مجتمع عسكري غاصب [٣].

٩ - أن شراء البضائع الإسرائيلية والأمريكية وما له بديل في دول أخرى يحرم تحريماً باتاً على كل مسلم؛ باستثناء المسلمين الذين يعيشون في إسرائيل وأمريكا لأنهم مضطرون للتعامل معهم، فليس من المعقول أن يجاهد أهل فلسطين بدمائهم وأرواحهم وأولادهم ويعجز غيرهم عن هذه المقاومة السلبية التي يمتنع فيها عن شراء البضائع فقط[٤].

*　*　*

---

(١) انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٤٦٥ وما بعدها .
(٢) انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٤٨٢ وما بعدها .
(٣) انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٥٠٣ وما بعدها .
(٤) انظر : المرجع السابق ج٣ ص ٤٩٨ وما بعدها .

المبحث الرابع عشر
العالمية

كثيرون هم الدعاة ، وأرض الله لا تخلو من داعية إلى الله بحق وصدق ، يرفع عن الناس جهلهم؛ فيعلم جاهلهم ، ويرد شاردهم ، ويهدي حائرهم ، يجمع قلوبهم على الهدى، وأعمالهم على التقى ، ونياتهم على خير العمل، وعمل الخير .

ولكن القلة القليلة هي التي تكتب لها العالمية ، فلا تقف أمام دعوتهم حدود مصطنعة ، أو حواجز طبيعية ، ولا تقتصر دعوتهم على إقليم معين ، أو جنس خاص ، أو طائفة محددة، أو طبقة معينة ، أو قوم محدودين .

والشيخ القرضاوي من هذا الطراز العالمي ، الذي لم يقبل لنفسه أن يتقوقع في بلده الأم مصر ، ولم يرض أن يحبس نفسه في قفص الإقليمية ، أو يترهب في دولة بعينها؛ تاركاً آفاق العالم الرحبة بجواره تبحث عن قارورة الدواء، ومضخة الإطفاء ، ومن هنا فقد انطلق الشيخ القرضاوي إلى العالمية بدعوته منذ أمد بعيد .

ولهذا لم يكن غريباً أن ترصد الصحافة العالمية بل والجهات الأجنبية خطوات الشيخ وأخباره وعلى سبيل المثال :

١ ـ قام السكرتير الأول بالسفارة الأمريكية بقطر وهي « مارغاتيا دايان » بزيارة لفضيلة الشيخ وأجرت معه حواراً طويلاً .

٢ ـ قامت المذيعة والمحررة الأمريكية « جويس ديفيز » وهي محررة للإذاعة الوطنية العامة في واشنطن والتي تبث إلى أكثر من ١٤ مليون مستمع بإجراء حوار مع الشيخ .

٣ ـ أجرت صحيفة « أساهي » اليابانية اليومية حواراً مع الشيخ وهي صحيفة توزع على أكثر من ٩ مليون نسمة يومياً، وقد قام بالحوار مدير مكتب الجريدة

بالشرق الأوسط « دابجي ساداموري »، وقد زار الشيخ في بيته بالدوحة كما زار مسقط رأسه « صفط تراب » بمصر، وقد اختير الشيخ ضمن سبع شخصيات عالمية قدمتهم الجريدة على أنهم رموز القرن الجديد ، وقد نشر الحوار في الصفحة الأولى للجريدة بتاريخ ٢٩ / ٤ / ٢٠٠٠ م .

٤ ـ أجرى الصحفي الأمريكي توماس فريدمان ـ وهو أشهر صحفي مدافع عن إسرائيل مؤيد لمسيرة السلام ـ حوارا مع فضيلة الشيخ القرضاوي يوم الثلاثاء (٢٢ / ١٠ / ٢٠٠٢م) في بيت د. القرضاوي بالدوحة[١].

عوامل ساعدت على عالمية الشيخ :

انطلق الشيخ القرضاوي إلى العالمية مبكراً وكانت هناك عوامل وأسباب دفعت بالشيخ إلى العالمية أهمها :

١ ـ طبيعة الدين : حيث إن هذه الرسالة المحمدية بطبيعتها رسالة عالمية ليست لطبقة، ولا لجنس، ولا لون، ولا دولة؛ ولكنها للعالم كله ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

٢ ـ انتماء الشيخ مبكراً لجماعة «الإخوان المسلمون» : حيث غرزت الجماعة في نفس شبلها وداعيها روح العالمية لهذا الدين ، لقد قامت الجماعة يوم أن قامت لتؤكد عالمية الإسلام ، ووحدة بلاده الإسلامية ، ولتعلن أن التخوم الأرضية والحدود الجغرافية حدود مصطنعة ، صنعت في غير ديارنا ، وأريد لها أن تمزق وحدتنا .

ولقد نشأ الإخوان على اعتبار أن كل شبر فيه مسلم يوحد ربه هو وطن لهم ، وقد عبر عن ذلك شاعرهم بقوله :

ولست أدري سوى الإسلام لي وطناً   الشام فيه ووادي النيل سيان
وكلما ذكـر اسـم الله في بلـد   عددت أرجائه من لب أوطاني

ولقد عد المرشد الأول الإمام الشهيد « حسن البنا » مراحل سبعة توضح

---

(١) تم جمع هذه الحوارات وغيرها ، وقام فضيلة الشيخ بالتعليق عليها تحت عنوان « نحن والغرب أسئلة شائكة وإجابات حاسمة» وتقوم بطبعه دار التوزيع والنشر الإسلامية.

عالمية الدعوة تبدأ بتكوين الرجل المسلم وتنتهي بعودة راية الله خفاقة عالية على بقاع ديار الإسلام بل وتبليغ دعوة الله إلى الناس(١) .

وقد عبر الشيخ القرضاوي عن هذا أيضاً في نشيده الذي تغنى به شباب الإسلام فقال :

يا أخي في الهند أو في المغرب   أنا منك أنت مني أنت بي
لا تسل عن عنصري عن نسبي   إنه الإسلام أمي وأبي
إخوة نحن به مؤتلفون (٢)

٣ - أزهرية الشيخ : حيث إن الأزهر لا يعد جامعة محلية؛ بل هو جامعة عالمية تضم بين أحشائها من كل أجناس الأرض ، فقد خالط الشيخ في الأزهر أجناساً شتى جعلته يمعن النظر في هذه الأجناس وقضاياها .

٤ - استقرار الشيخ في قطر : وفيها وجد الشيخ الجو الملائم للدعوة إلى الله تعالى، وقد أحسن الشيخ استغلال هذه الفرصة ، وكما قيل إن الفرصة لا تأتي إلا لمن يستحقها ، فلم يلبث الشيخ بعد سنوات معدودة أن انطلق إلى العالمية .

٥ - استخدام الشيخ الوسائل العصرية الحديثة : فبينما رأينا بعضاً من الدعاة يقاطع أجهزة الإعلام قائلاً بحرمة دخول جهاز التلفاز داخل البيوت؛ وجدنا على العكس تماماً الشيخ القرضاوي لا يرى سبباً لحرمة التلفاز ، أو يرى سبباً مقنعاً يدعو إلى مقاطعة هذا الجهاز الفعال ، وكم رأينا برامج الشيخ التلفزيونية وخصوصاً برنامج « الشريعة والحياة » وكذلك « المنتدى » وجدنا لها أثراً فعالاً (٣) .

كما استخدم الشيخ الشبكة العالمية « الإنترنت » وذلك من خلال موقع « إسلام أون لاين » وكذلك « موقع القرضاوي » .

---

(١) انظر : مجموع الرسائل رسالة إلى الشباب ص ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٢) نفحات ولفحات ص ١٢٢ .
(٣) انظر : الفصل الخاص بـ «الوسائل والأساليب في منهج القرضاوي الدعوي» من هذا الكتاب .

٦ - **اهتمام الشيخ بقضايا الأمة المصيرية** : كقضية فلسطين وأفغانستان وكشمير والعراق[١] .

٧ - **تبني الشيخ منهج التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة** [٢].

● **في أي شيء كانت عالمية الشيخ ؟**

والحق أن الشيخ كان عالمياً من جهات متعددة وأهمها :

١ - عالمي الجوائز .
٢ - عالمي الطموح .
٣ - عالمي الهم .
٤ - عالمي الأثر .
٥ - عالمي العداوة .

١ - **عالمي الجوائز** : حيث إن جوائز الشيخ لم تقتصر على بلد بعينه بل بلاد عدة :

* فمرة يفوز بجائزة الملك فيصل العالمية وهي جائزة سعودية التمويل لكنها عالمية.
* وثانية يفوز بجائزة العطاء المتميز من الجامعة الإسلامية بماليزيا .
* وثالثة بجائزة سلطان بروناي .
* ورابعة بجائزة سلطان العويس بالإمارات .

وهكذا فإن جوائز الشيخ جوائز عالمية [٣].

٢ - **عالمي الطموح** :

فالشيخ القرضاوي حفظه الله لا يشغله الطموح الشخصي ، فحين جمع المنصرون مبلغ ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار لتنصير العالم الإسلامي، دعا الشيخ لجمع ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار لإنقاذ العالم الإسلامي .

---

(١) انظر : سمة « الشمول » من هذا الكتاب.
(٢) انظر : سمة « التيسير والتبشير ».
(٣) الغريب أن الشيخ كُرِّم خارج بلده مصر ، ولم يكرم بها .

وحين رأى علماء الأمة لا جامع لهم دعا إلى إنشاء هيئة عالمية للعلماء .

وحين رأى الشيخ أثر «الإنترنت» عمل على إنشاء موقع عالمي يوضح صورة الإسلام الحسنة .

وحتى طموح الشيخ الشخصي كان طموحاً عالمياً ، ويؤكد هذا أن الشيخ القرضاوي حين سأله أحد مدرسيه وهو صغير عن أمنيته قال : أتمنى أن أكون شيخاً للأزهر .

٣ - عالمي الهَمّ : إن هم الشيخ ليس هم نفسه، ولا هم شخصه ؛ ولكنه هم أمته التي أصابها الهم من كل جهة؛ إن همه أنواع فمنه :

١- هم التخلف المزري .

٢ - هم الاستغلال أو النظام الاجتماعي .

٣ - هم الاستبداد الداخلي .

٤ - هم التغريب والتبعية الفكرية .

٥ - هم التخاذل أمام العدو الصهيوني .

٦ - هم التفتت المخزي في الوطن الواحد .

٧ - هم التحلل والتسيب الخلقي [١].

وفي قصيدته التي بعنوان «أصولي .... أصولي» يعبر الشيخ عن هَمِّه الذي هو هَمُّ أمته أينما كان فيقول :

أصولي ... أصولي	فدعني يا وصولي
أصولي ، عميق الجذر	لا كسواي سطحي
لأصلي أنا مشدود	بأصلي أنا محمي
هواي وعشقي الإسلام	لا لُبْنَى ولا مَي
وأهلي أمة الإسلام	لا قيس ولا طَي
أئنُّ لهم إذا مرضوا	وأحيا إن همو حيوا
وأشْدُو إن هُمُو فرحوا	وأبلغ إن هُمُو عيوا

(١) انظر : الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ص ١٠٢ .

وينزف مني الدم حين … يجرح ثَمَّ بُسني

وأصرخ : آه حين يشا … ك جامي وكردي

ويغلي مرجلي إن مس … حول القدس قدسي

أليسوا إخوتي في الله … بل هم جسدي الحي !

أصولي .... أصولي … برغمك يا ضلالي [١]

٤ - عالمي الأثر :

وهذا واضح في كتبه التي شرقت وغربت وترجم منها ما ترجم إلى اللغات الأجنبية الحية وغير الحية.

٥ - عالمي العداوة :

لقد جرت عالمية الشيخ في دعوته كثيراً من العداوات ، فلم تكن عداوة الشيخ عداوة محلية قاصرة على بني جنسيته ، أو بني العروبة ، بل تجاوزت هذه العداوة كل الحدود ؛ والمتابع لأخبار الشيخ يرى المتطاولين على الشيخ من كل جهة[٢]، فتارة من صغار العلم وأنصاف المتعلمين ، كما رأينا ذلك ممن يسمون بالأحباش[٣]، وتارة من علماء السلطة وفقهاء السلطان ، وثالثة من أعداء الإسلام ودعاة العلمانية ، ورابعة من أصحاب الكراسي وذوي السلطان ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه بكثير ليصل إلى دول تصف نفسها بحرية الرأي وتنادي بالديمقراطية ومن هذه الدول :

١ - أمريكا : حين منعت الشيخ من الدخول إلى ديارها وكانت حجة القوم أن الشيخ في آخر زيارة له إلى أمريكا خطب خطبة في ولاية « شيكاغو » أشاد الشيخ فيها بحركة حماس .

وقد أصدر معهد يهودي لشؤون الأمن القومي في أمريكا دراسة جعل أحد

---

(١) انظر : المسلمون قادمون ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) للشيخ في أنبياء الله على مر الدهور أسوة وقدوة ، وهل أرسل نبي إلا عذب وأذي وعودي؟ وكذلك له في علماء الأمة الربانيين قدوة حسنة ، ومن من الناس لا يذكر ما حدث لابن تيمية وابن حنبل ، وحسن البنا وسيد قطب وغيرهم كثير .

(٣) سبق التعريف بهم .

أبرز اهتماماته البحثية «موضوع الحركات الإسلامية»[1] وقد تحدث صاحب الدراسة عن الجماعات الإسلامية وخص بالذكر جماعة الإخوان وعدداً من قادتها ومفكريها وكان من بينهم الشيخ القرضاوي وأنقل خلاصة ما ذكره الكاتب كما جاء في الموقع الإلكتروني : «الشبكة الإسلامية» islam web.com:

القرضاوي.. المعلم الجديد :

لم يسلم الشيخ القرضاوي من همز ولمز الباحث، بحيث تعرّض له الباحث بالتفصيل في معرض حديثه عن الإخوان، وترجم عدة اقتباسات من كتبه، ويشير الباحث في البداية إلى الخلفية الفكرية والاجتماعية للقرضاوي، وإلى تميزه عن قادة الإخوان السابقين: البنا وقطب بحصوله على تعليم ديني، ويرى الباحث أن القرضاوي الذي يدرّس في دول الخليج يقوم الإخوان بتسويقه على أنه رمز الاعتدال والوسطية، ويستشهد الإخوان دوما بكتابه الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ، والذي يهاجم فيه التطرف والتشدد الديني، كما يشير الباحث إلى كتاب القرضاوي «الحلال والحرام في الإسلام»، ويرى الباحث أن الكتاب لا يقدم جديداً في الفقه ولا في المجال الذي كتب فيه، لكنه انتشر بشكل كبير في الغرب وبالتحديد في الولايات المتحدة الأمريكية؛ ليس فقط بين أتباع الجماعة ولكن حتى بين الجالية المسلمة، والتي لا تهتم بالدور الخطير الذي يقوم به القرضاوي كمرشد وموجه لجماعات «توتاليتارية» متطرفة! وإنما لحاجتها الشديدة للفتوى والعلم الشرعي[2].

٢ ـ فرنسا : حيث فوجئ العالم في يوم ٥ / ٥ / ١٩٩٥ م بقرار من وزير الداخلية الفرنسي وقتها « شارل باسكوا» بمصادرة كتاب «الحلال والحرام»، ونشر

---

(١) وتأتي خطورة هذه الدراسة أنها صادرة من معهد له تأثيره القوي في أوساط النخب الأمريكية السياسية والمثقفة «المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي» في الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو من المراكز المعروفة بانحيازها الأيدلوجي السافر ضد كل الحركات الإسلامية ، الأمر الذي يظهر في أغلب دراسات ومشاريع المركز البحثية حول الإسلام السياسي، وتأتي هذه الدراسة في سياق مجهودات إدارة المركز في بناء تصورات مغلوطة متحيزة أيدلوجيا بغطاء معرفي حول الحركات الإسلامية لدى النخب السياسية والثقافية في الولايات المتحدة .

(٢) نقلاً عن موقع « islam web.com».

القرار في الجريدة الرسمية الفرنسية، واعتبر القرار أن تداول الكتاب في فرنسا شأنه أن يتسبب في أخطار للأمن العام ، نظراً لنبرته المعادية للغرب .

وقد أثار هذا القرار حفيظة المسلمين في فرنسا ، وقاد اتحاد المنظمات الإسلامية حملة قوية ضد هذا القرار ، وتجاوب الإعلام الفرنسي مع القضية ، حتى إن أحد الكتاب الفرنسيين كتب في جريدة « ليموند » يدافع عن الكتاب وينوه بما فيه من سماحة ، كما أن اتحاد الناشرين الفرنسيين قال : إننا سنطبع الكتاب بالفرنسية ونوزعه رغم أنف وزارة الداخلية .

ولم يلبث وزير الداخلية أن تراجع عن قراره وبعث مستشاره إلى عميد مسجد « باريس » يطلب منه أن يلتمس الإفراج عن الكتاب ، حفظاً لماء الوجه ، وذهب الوزير إلى مسجد « باريس » وأعلن أنه سيلغي هذا القرار ووصفه بأنه قرار إداري سخيف .

وكذلك قامت فرنسا بمنع الشيخ من دخولها عند افتتاح الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية[1] .

٣ -إسرائيل : وقد كتب رجالها عن دور الشيخ في الانتفاضة كما أجرى حوارات تلفزيونية عن دور الشيخ ، ومنهم من دعا إلى اعتقال الشيخ وآخرون دعوا إلى اغتيال الشيخ[2].

٤ – لندن : حيث ألب اللوبى الصهيونى الصحف على الشيخ فى زيارته الماضية والتى كانت فى صيف ٢٠٠٤م، وهاجت الصحف وماجت، وأرعدت وأزبدت، وطالب البعض بإخراج الشيخ من إنجلترا، وعدم السماح له بالدخول كما فعلت أمريكا، ونوقش الأمر فى مجلس الشيوخ البريطانى، ووقف عمدة لندن موقفاً شجاعاً تاريخياً مع الشيخ. وقضى الشيخ أيامه فى لندن ثم غادرها بعد ذلك وكان فى وداعه عمدة لندن وستة من حاخامات اليهود الذين لا يؤمنون بقيام إسرائيل.

* * *

(١) للشيخ خطبة كاملة عن قصة الكتاب ومنعه انظر : خطب الشيخ ج٢ ص ٢١١ وما بعدها، ولقاءات ومحاورات ج٢ ص ٢٦ وما بعدها .

(٢) انظر : ما ذكرناه عن الشيخ وقضية فلسطين وفيه إشارة إلى هذا بالتفصيل .

المبحث الخامس عشر
الجمع بين النقل[١] والعقل

من أعظم النعم التي من الله بها على خلقه نعمة العقل ، وقد لا تساويها نعمة في جسد الإنسان .

والعقل في اللغة يدور حول الإمساك والاستمساك والمنع [٢].

والمتأمل لمادة (ع ق ل) في القرآن يرى أنها جاءت ٤٩ مرة .

تعقلون : ٢٤ .

يعقلون : ٢٢ .

عقل : مرة واحدة.

يعقل : مرة واحدة .

نعقل : مرة واحدة .

هذا فضلاً عن الإشارة إلى العقل بأوصاف منها : أولو الألباب ، أولو النهى، الفؤاد[٣].

وأما ما ورد في السنة في شأن العقل فإن أهل الحديث وصيارفته لا يعولون عليه، بل يحكمون عليه بالضعف أو الوضع كما قال الإمام ابن القيم في المنار المنيف[٤] .

---

(١) يقصد بالنقل القرآن والسنة ، والشيخ يعترض على جعل النص القرآني والسنة مجرد نصوص نقلية مقابلة للعقل ، بل أكد الشيخ في إحدى محاضراته بأن القرآن ذاته بجانب أنه دليل نقلي فهو دليل عقلي ؛ لأنه يخاطب العقل ويستدل على ذلك بقوله سبحانه: ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون .... ﴾ [الطور ٣٥-٣٩] . أليست هذه كلها أدلة عقلية .

(٢) انظر : القاموس المحيط الفيروزأبادي .ص ١٣٣٦ .

(٣) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن أ: محمد فؤاد عبد الباقي ص ٤٦٨ وما بعدها ط. دار إحياء التراث العربي.

(٤) انظر : المنار المنيف ابن القيم ط مكتبة المطبوعات الإسلامية حلب ص ٦٦.

ومع هذا فإن القرآن اهتم بالعقل اهتماماً بالغاً ، وكما يقول الأستاذ العقاد : لم يذكر القرآن العقل إلا في مقام التنبيه والتعظيم والإشادة بمكانته [1].

وكم كان الإسلام واضحاً وهو يولي العقل اهتماماً واضحاً، ولسنا في حاجة للتأكيد على أن الإسلام أمر بالتفكر، وإعمال العقل، وعدم تلقي النصوص ببلاهة وغباء وإعراض وتجاهل؛ بل أن نستقبلها بحواسنا كلها ، متدبرين معتبرين، ولقد وصف الله عز وجل عباده بأنهم ﴿ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ [الفرقان : ٧٣]، بل يكبون عليها سامعين مبصرين بآذان واعية وعيون واعية [2].

ولكن الأمة في فترات الدعة والراحة ، وفترات التخلف والخمول ، ابتليت بمن يقدس العقل ويعلي من منزلته، حتى غدا هناك من يؤله العقل، ويجعل النص أو النقل تابعاً له .

وغني عن البيان أن من سلك هذا الطريق من بني جلدتنا كان مقلداً لغيره، ففي القديم قلدوا العقل اليوناني والفارسي ، وفي الحديث قلدوا سادتهم من أساطين الفكر الغربي من أمثال: فرويد، ونيتشه، وسارتر وماركس، وغيرهم.

ولما كان العقل البشري عقلاً قاصراً محدوداً ، فإن عقول هؤلاء القوم وصلت بهم في النهاية إلى طريق مسدود ، شهد بضحالة عقولهم وزيف أفكارهم ، يقول عبد السلام البسيوني نقلاً عن الدكتور رشدي فكار : وبدهي أن الآدمي إذا حمل نفسه ما لا يحتمل فإنه ينوء بحمله ، وقد يقتل نفسه أو يدمر من حوله كما فعل عديد من العباقرة المهاويس الذين اعتدّوا بعقولهم ، وجعلوها فوق وحي السماء وتشريعات الحكيم الخبير سبحانه وتعالى .

والواقع خير شاهد وأنصع برهان .

فأما الألماني كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) الذي كان شديد الذكاء إلى حد جعله يثق كثيراً في عقله الذي أدى به إلى الإلحاد وإنكار الله عز وجل ،

---

(١) انظر : التفكير فريضة إسلامية الأستاذ عباس العقاد ط دار الهلال ص ١٥ .

(٢) انظر : العقلانية هداية أم غواية عبد السلام البسيوني المؤسسة العالمية للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٩٩٢م ص ١٤ .

فقد مات ميتة غامضة ، وبعده انتحرت زوجته وبناته الثلاث ، وكانت إحداهن تمارس الدعارة في الشوارع .

وأما الفرنسي لويس إلتوسير - شارح الماركسية ومفسر نظرياتها - فقد أحضر سكيناً ، وبهدوء شديد ذبح زوجته الراقدة بجواره ، ثم ذهب - في غموضه واضطراب عقله - إلى الشرطة ، ليقول بكل برود : لقد قتلت امرأتي وهذا السكين يقطر من دمها . وانتهى به الحال إلى المصح العقلي الذي بقي به حتى توفي عام ١٩٩٠م .

وأما الألماني فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) الذي كان يقول بنظرية الإنســـان الكامل « superman » والذي كان شديد الاعتداد بعقله وأحكامه وتصوراته ، فقد آل به اضطرابه العقلي إلى أنه كان يدخل إلى المدرجات الخالية في الجامعة - وكان طلابه ينسحبون من المحاضرات أمام ما يرون من اضطرابه - ويقول : أيتها الكراسي : تحية ويبدأ بإلقاء محاضراته على الكراسي والجدران . وظل هكذا حتى أمسكوا به وساقوه إلى مصح عقلي .

وأما النمساوي اليهودي فرويد(١٨٥٦ - ١٩٣٩) الذي كان - كشأن اليهود أجمعين - سباباً للأنبياء ، قليل الحياء معهم ، يتهمهم جميعاً بأنهم مصابون بنوع من العصاب يدفعهم إلى ادعاء تلقي الوحي والاتصال بالله تعالى، فقد مات هو نفسه بالعصاب (neuurosis) الذي اتهم به الأنبياء ، كما مات مدمناً للمخدرات[١] .

والشيخ القرضاوي في منهجه الدعوي وقف من العقل موقفاً وسطاً ، لم يعل به عن مكانته ، ولم ينزل به عن منزلته ، بل جعل العقل مقيداً بالنص إن صح سنده ، وصحت دلالته ، وهذا ما سنوضحه في هذا المبحث على هذا النحو :

أولاً : كيف يتعامل القرضاوي مع النقل .

ثانياً : عدم تعارض النقل مع العقل .

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢١ ، ٢٢ .

أولاً : كيف يتعامل القرضاوي مع النقل .

١ - التأكد من صحة النقل :

صحة النقل المقصود بها هنا صحة الحديث ، أما القرآن فليس هناك مجال لإدخاله في هذا الباب ، فقد تكفل الله بحفظه حين قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

والشيخ القرضاوي يؤكد على ضرورة التأكد من صحة النص الحديثي الذي يستدل به في قضية من القضايا ، خصوصاً بعد أن قيض الله لسنة نبيه ﷺ جهابذة أعلاماً، حفظوا هذه السنة ووثقوها؛ يقول الشيخ : «لقد عرف المسلمون منذ عهد الصحابة ﷺ قيمة السنة ومنزلتها التشريعية والتوجيهية في حياتهم ، فحرصوا على حفظها وتبليغها»[(١)].

ويقول : وأولى هذه القواعد التي لا يختلف عليها اثنان : وجوب التثبت من صحة الحديث الذي يحتج به على حكم من الأحكام الشرعية الخمسة [(٢)].

ويؤكد الشيخ على من يتعامل مع السنة النبوية لينفي عنها انتحال المبطلين وتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين أن يستوثق من ثبوت السنة وصحتها؛ حسب الموازين العلمية الدقيقة التي وضعها الأئمة الأثبات ، والتي تشمل السند والمتن جميعاً، سواء أكانت السنة قولاً أو فعلاً أو تقريراً[(٣)] .

كما يؤكد الشيخ عدم استغناء أي باحث عن الرجوع إلى أهل الذكر والخبرة في هذا الشأن ، وهم صيارفة الحديث الذين أفنوا أعمارهم في طلبه ودراسته ، وتمييز صحيحه من سقيمه ومقبوله من مردوده[(٤)] .

ويتحدث الشيخ باستفاضة في موضع آخر فيقول : والواجب على كل قارئ للأحاديث النبوية - خصوصاً إذا كان من أهل العلم - أن يتحرى غاية

---

(١) انظر : المدخل لدراسة السنة ص٧٧ .

(٢) انظر : تيسير الفقه للمسلم المعاصر ص ٥١ .

(٣، ٤) انظر : المدخل لدراسة السنة ص ٩٩ ، وكيف نتعامل مع السنة ص ٣٣ ، والمرجعية العليا في الإسلام ص ٥-١٢ .

التحري ، ويتثبت كل التثبت ، قبل أن يحكم على حديث بالصحة والقبول ، أو بالضعف والرد ، ناهيك بالحكم عليه بالوضع والكذب .

وهنا لا بد أن يرجع إلى أئمة هذا الشأن ، ولا سيما المحققين منهم ، الذين أتاهم الله علم الرواية ، وعلم الدراية ، وهؤلاء هم فقهاء الحديث وصيارفته ، الناقدون لأسانيده ، العارفون بمتونه ومضامينه ، المميزون لصحيحه من سقيمه .

فلا ينبغي لمسلم أن يحتج بأحاديث لا يعرف لها خطاماً ولا زماماً ، إنما سمعها من خطيب لعله مخرف ، أو قرأها في مجلة تنشر ما يعجب الجمهور لا ما يعجب العلماء ، وهو أكثر ، أو قرأه في كتاب لا يعتمد عليه في تصحيح أو تضعيف[1] .

ولهذا كان الشيخ في رده على المخالفين يطالبهم بصحة ما يستدلون به ، قبل أن يبنوا على دليلهم بناء فيكونون كمن أسس بنيانه على شفا جرف هار .

ولذلك فالقرضاوي يؤكد أن كثيراً من انحراف الأمة في العقيدة أو العبادة والأخلاق؛ إنما هو ناتج من اعتماد أصحاب هذه الأفكار المنحرفة على نصوص واهية لا تثبت لها قدم عند أهل الحديث .

ومن الجدير بالذكر هنا أن نؤكد بأن الشيخ حين يتعامل مع النص الحديثي الثابت قد يتوقف عنده وقفة بل وقفات وخصوصاً إن كان هذا النص ، يتعارض مع حكم القرآن ، بل يرى الشيخ ذلك حقاً ثابتاً فيقول : ومن حق المسلم أن يتوقف في أي حديث يرى معارضته لحكم القرآن [2] .

ولكن الشيخ يشترط لهذا التوقف فيقول : إذا لم يجد تأويلاً مستساغاً[3] .

ولذلك توقف الشيخ في حديث « الوائدة والموءودة في النار »[4] بل كما

---

(١) انظر : المرجعية العليا ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢ ، ٣) المدخل لدراسة السنة ص ١٢٠ ، وكيف نتعامل مع السنة ص ٩٦ .

(٤) الحديث رواه أبو داود برقم (١٤٧١٧) عن ابن مسعود ، ورواه ابن حبان والطبراني عن الهيثم بن كليب وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح (٦ ٣٧١) .

يقول الشيخ : حين قرأت الحديث انقبض صدري[1] وتساءل الشيخ كما تساءل الصحابة : هذه الوائدة في النار فما بال الموءودة ؟ ومع هذا فقد توقف الشيخ ولم ير في كلام شراح الحديث ما ينقع الغلة[2] .

وهذا ما جعل الشيخ يتوقف كذلك في قبول حديث مسلم «إن أبي وأباك في النار»[3].

لقد توقف الشيخ في قبول الحديث الذي صح سنده ؛ فهو وإن كان في صحيح مسلم إلا أن ظاهره يتعارض مع القرآن ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء :١٥] .

وقد حاول الشيخ أن يجد تأويلاً مستساغاً لهذا الحديث ، فقال : لعله أبوه أبو طالب فيقال للعم أب ، ولكنه وجده رأياً بعيداً ، وموقف الشيخ في مثل هذه الأحاديث هو التوقف فيها دون ردها بإطلاق؛ خشية أن يكون لها معنى لم يفتح عليه بعد [4].

وليس الشيخ وحده الذي ذهب إلى التوقف في قبول ظاهر الحديث بل سبقه إلى ذلك علمان من أعلام الأمة ؛ وعالمان من أبرز علمائها، ولم يقبلا ظاهر الحديث وهما: الأبي والسنوسي وذلك في شرحهما لصحيح مسلم [5].

٢ ـ تقديم النص على كل ما سواه :

تقديم النص على ما سواه هو هدي سلفنا الصالح وقد أبرز معاذ ﷺ هذا النهج الطيب حين قال له النبي ﷺ : يا معاذ بما تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال: بسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو[6] .

ولذا فإن الشيخ القرضاوي حين اعتمد هذا المنهج فهو لا يقدم قول قائل

(١ ، ٢) المدخل لدراسة السنة ص ١٢١ ، وكيف نتعامل مع السنة ص ٩٧ .

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم (٢٠٣) عن أنس.

(٤ ، ٥) انظر : المدخل لدراسة السنة ص ١٢١ ، وكيف نتعامل مع السنة ص ٩٧، وشرح الأبي والسنوسي لصحيح مسلم ج١ ص ٣٦٣ ، ٣٧٣ .

(٦) رواه أحمد في مسنده رقم (٢٢١٠٠) وقال محققوه: إسناده ضعيف، ورواه أبو داود في الأقضية (٣٥٩٣)، والترمذي في الأحكام (١٣٢٧) وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بمتصل وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٧٧٠).

على نص ثابت مهما كان قائل هذا القول ، وعند حديث الشيخ عن القرآن قال : هذا الكتاب عمدة الملة، وأساس العقيدة وينبوع الشريعة ، وروح الوجود الإسلامي ، اتفق المسلمون جميعاً على الاحتجاج به ، والاستناد إليه ، والتعويل عليه ، فالقرآن بلا ريب هو أصل الأصول ، ومصدر المصادر ، ودليل الأدلة ، فكل الأدلة لابد أن ترجع إليه وتعتمد عليه(١) .

وقد عد الشيخ من مزالق الاجتهاد المعاصر الغفلة عن النصوص فيقول : أول ما يجب على المجتهد أن يرجع إليه هو النص من القرآن إن وجده ، ثم من السنة المبينة للقرآن ، فإن لم يجد فيهما طلبته اجتهد رأيه لا يالو ، وهذا الترتيب هو الذي جاء في حديث معاذ المشهور ، وهو ما جرت عليه سنة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، أما الاجتهاد بالرأي قبل البحث عن النص فهو خطأ ، والخطأ الأكبر منه أن تدع النص المعصوم ، وتجري وراء الرأي الذي لا عصمة له(٢) .

كما عد الشيخ أيضاً من مزالق الاجتهاد المعاصر الغلو في اعتبار المصلحة ولو على حساب النص ، ولذلك استغرب الشيخ ما كتبه أحد المشاركين في « ملتقى الفكر الإسلامي » السابع عشر بالجزائر ، حيث اقترح نقل صلاة الجمعة للمقيمين في أمريكا إلى يوم الأحد ليجتمع على الصلاة عدد أكبر ، وكان من رد الشيخ على هذا الرجل : ماذا تسمى هذه الصلاة المقترحة ؟ صلاة الجمعة أم صلاة الأحد ؟ وماذا نصنع بالسورة التي سماها القرآن « سورة الجمعة » أتغير اسمها وتجعلها « سورة الأحد »؟ وماذا نصنع مع الآية الكريمة في تلك السورة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ..... ﴾ أتضع بدل الجمعة الأحد أم ماذا ترى؟ (٣) .

٣ ـ تجميع النصوص المتفرقة التي تتعلق بالموضوع الواحد :

من الأمور التي تؤدي بصاحبها إلى الخطأ عند التعامل مع النصوص، أن يأخذ نصاً واحداً ويكتفي به دون غيره من سائر النصوص ، ويبني على هذا النص حكماً ربما أدى به إلى ضرب آيات القرآن بعضها ببعض، وكذلك أحاديث

(١) انظر : تيسير الفقه للمسلم المعاصر ص ٤٤ بتصرف .
(٢) انظر : الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط ص ٤٦ بتصرف .
(٣) انظر : المرجع السابق ص ٧٣ ، ٧٤ بتصرف .

المصطفى بعضها ببعض . وهذا قد يؤدي إلى رمي الدين بالتناقض وهذا محال ، وليس العيب أو التناقض في الدين ولكن في الاستدلال ، ورحم الله أبا الطيب حين قال :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والفهوم

وكان من منهج الشيخ الدعوي الجمع بين النصوص المتفرقة في الموضوع الواحد؛ ليخرج الشيخ بعدها بنظرة شمولية عند الاستدلال على موضوع ما .

ولذا يقول الشيخ في كيفية فهم السنة : ومن اللازم لفهم السنة فهماً صحيحاً : أن تجمع الأحاديث الصحيحة في الموضوع الواحد ، بحيث يرد متشابهها إلى محكمها ، ويحمل مطلقها على مقيدها ، ويفسر عامها بخاصها ، وبذلك يتضح المعنى المراد منها ولا يضرب بعضها بعضاً[1] .

ويقول : إن الاكتفاء بظاهر حديث واحد ، دون النظر في سائر الأحاديث وسائر النصوص ، كثيراً ما يوقع في الخطأ ، ويبعد عن جادة الصواب ، وعن المقصود الذي سيق له الحديث[2] .

ويضرب الشيخ مثلاً لذلك بالأحاديث الواردة في إسبال الإزار ، ويلوم المتحمسين في النكير على المسبل مطلقاً؛ ولو كان عالماً؛ حتى يرمى أحياناً المسبل بقلة الدين ، يقول الشيخ : ولو رجعوا إلى مجموع الأحاديث المتصلة بهذه القضية وردوا بعضها إلى بعض في ضوء نظرة شاملة لمقاصد الإسلام لعرفوا المقصود من الأحاديث في هذا المقام وخففوا من غلوائهم ، ولم يركبوا متن الشطط[3] .

وهنا يطالب الشيخ بجمع الأحاديث الواردة في الموضوع والمتعلقة به؛ ليتضح هل المراد بالمسبل كل من طال إزاره ولو كان على سبيل العادة ؟ أم يشترط مع الإسبال الخيلاء؟

(١ ، ٣) انظر : المدخل لدراسة السنة ص ١٢٨ ، وكيف نتعامل مع السنة ص ١٠٣ .
(٢) انظر : المرجعين السابقين ص ١٣٤ ، ص ١٠٨ .

والحق أن هذا المنهج في هذه القضية هو منهج النووي وابن حجر وغيرهما؛ وهذا ما استدل به القرضاوي حيث يقول: لنقرأ هنا ما ورد في الصحيح من هذه الأحاديث .

روى البخاري في (باب من جر إزاره من غير خيلاء) من حديث عبد الله ابن عمر عن النبي ﷺ ، قال : « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة . قال أبو بكر : يا رسول الله ، إن أحد شقي إزاري يسترخي ، إلا أن أتعاهد ذلك منه ! فقال النبي ﷺ : لست ممن يصنعه خيلاء »[١].

وروى في الباب نفسه من حديث أبي بكر قال : « خسفت الشمس ، ونحن عند النبي ﷺ ، فقام يجر ثوبه مستعجلاً ، حتى أتى المسجد . . . . »[٢].

وروى في (باب من جر ثوبه من الخيلاء) عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: « لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطراً »[٣].

وعن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « بينما رجل يمشي في حلة ، تعجبه نفسه ، مرجل جمته ، إذ خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة »[٤].

وعن ابن عمر - ونحوه عن أبي هريرة أيضاً : « بينما رجل يجر إزاره ، إذ خسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة »[٥].

وقد روى مسلم حديث أبي هريرة والذي قبله ، وروى حديث ابن عمر من جملة طرق . منها : سمعت رسول الله ﷺ بأذني هاتين يقول : « من جر إزاره لا يريد بذلك إلا المخيلة ، فإن الله لا ينظر إليه يوم القيامة »[٦] ، ففي هذه الرواية ذكر قيد « الخيلاء » بطريق التصريح « لا يريد بذلك إلا المخيلة » فلم يدع مجالاً لمتأول .

---

(١) رواه البخاري في اللباس رقم (٥٧٨٤) عن ابن عمر .

(٢) رواه البخاري في اللباس رقم (٥٧٨٥) عن أبي بكرة .

(٣) رواه البخاري في اللباس رقم (٥٧٨٨) عن أبي هريرة ، والبطر : التكبر والطغيان .

(٤) رواه البخاري في اللباس رقم (٥٧٨٩) عن أبي هريرة ، ومعني يتجلجل : يسوخ في الأرض من اضطراب شديد ، ويندفع من شق إلى شق .

(٥) رواه البخاري في اللباس رقم (٥٧٩٠) عن ابن عمر .

(٦) رواه مسلم في اللباس والزينة رقم (٢٠٨٥) عن ابن عمر وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ط . الشعب ج٤ص٧٩٥ . باب تحريم جر الثوب خيلاء .

والإمام النووي ، في شرح حديث (المسبل إزاره) وهو رجل لا يتهم بالتساهل ، بل هو أميل إلى الأخذ بالعزائم والأحوط كما يعرف الدارسون يقول[1]: وأما قوله ﷺ : « المسبل إزاره » فمعناه المرخي له الجار طرفه خيلاء ، كما جاء مفسراً في الحديث الآخر (لا ينظر الله إلى من يجر ثوبه خيلاء) والخيلاء: الكبر ، وهذا التقييد بالجر خيلاء يخصص عموم المسبل إزاره، ويدل على أن المراد بالوعيد من جره خيلاء ، وقد رخص النبي ﷺ في ذلك لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وقال : لست منهم إذ كان جره لغير الخيلاء.

وقال الحافظ ابن حجر في شرحه للأحاديث التي رواها البخاري في الوعيد على إسبال الإزار وجر الثوب :

في هذه الأحاديث : أن إسبال الإزار للخيلاء كبيرة ، وأما الإسبال لغير الخيلاء فظاهر الأحاديث تحريمه أيضاً ، لكن استدل بالتقييد في هذه الأحاديث بالخيلاء على أن الإطلاق في الزجر الوارد في ذم الإسبال محمول على المقيد هنا فلا يحرم الجر والإسبال إذا سلم من الخيلاء .

قال الحافظ الفقيه ابن عبد البر : مفهومه أن الجر لغير الخيلاء لا يلحقه الوعيد ، إلا أن جر القميص وغيره من الثياب مذموم على كل حال [2]،[3].

٤ ـ دفع التعارض المتوهم بين النصوص بعضها وبعض :

كثيراً ما يحاول البعض التطاول على الشريعة الغراء ، فيظهرون تعارضاً حسب ما فهمته عقولهم ، وليس الأمر كما توهموا ، ولكنهم أتوا من سوء قصدهم وفساد نياتهم .

والحق أن الأدلة الشرعية الصحيحة لا يمكن أن تتعارض أبداً ، لأنها خرجت من مشكاة واحدة ، فلن يعارض حديث صحيح آية قرآنية ، كما أنه لا يعارض دليل صحيح دليلاً عقلياً ، وهذا ما أكده الشيخ حين قال : الأصل في النصوص الشرعية ألا تتعارض ، لأن الحق لا يعارض الحق ، فإذا افترض وجود تعارض فإنما

---

(١) المصدر نفسه ج١ ص ٣٠٥ .

(٢) انظر : فتح الباري ج١٠ ص ٢٦٣ .

(٣) انظر : كيف نتعامل مع السنة ص ١٠٤ ـ ١٠٦ ، والمدخل لدراسة السنة ص ١٢٨ .

هو في ظاهر الأمر لا في الحقيقة والواقع ، وكان علينا أن نزيل هذا التعارض المدعى[١] .

ويؤكد الشيخ بأن سمو الشريعة وكمالها إنما يكون في تعاضدها لا تعارضها، وتكاملها لا تناقصها، وأن الإيمان لا يتم إلا بذلك ، يقول الشيخ : ويلزم من إيماننا بكمال الشريعة وسموها ، أن نؤمن بأن أحكامها تتكامل ولا تتناقض ، وأنها تتعاضد ولا تتعارض، لأن مصدرها واحد ، وهو الوحي . وهذا في الواقع مبدأ من المبادئ الهامة هنا لمن يريد أن يفقه عن الله ورسوله ، ويفهم منهما مرادهما، مبدأ يتمم المبدأ السابق الخاص بترابط النصوص ، وهو الاعتقاد بأن النصوص الثابتة من مصدريها المعصومين : القرآن والسنة، لا تتناقض، ولا تتعارض تعارضاً حقيقياً .

وما يُظن من تعارض بين بعضها وبعض ، إنما هو في فهم الباحث أو طالب العلم، أو في ظاهر الأمر ، قبل البحث والتمحيص والتحقيق ، فإذا بحث ومحص وحقق - وهو مؤمن بكمال الشريعة وسموها وسلامتها من كل نقص - زال عنه كل إشكال ، ولم يجد بينهما إلا التوافق والتكامل والاتساق[٢] .

ويرى الشيخ أن دفع التعارض يكون بأمرين :

١ - الجمع بين الأحاديث الموهم ظاهرها التعارض بدون تمحل واعتساف .

٢ - الترجيح بين هذه الأحاديث بأحد المرجحات التي ذكرها العلماء .

على أن الشيخ أكد على ضرورة التثبت والتأمل والتدقيق قبل الحكم بالتعارض فيقول: لا ينبغي أن يُحكم بتعارض النصوص بمجرد تعارض ظواهرها وألفاظها بعضها ببعض ، بل لا بد من التأمل والتدقيق قبل الحكم بتعارضها .

فقد يكون المراد من النص غير ما يفهمه قارئه لأول وهلة ، ويظنه مخالفاً لغيره من النصوص .

فقد يجد في النص وضعاً أو قيداً ملفوظاً أو ملحوظاً يخرجه من دائرة ما فهمه ويدخله في دائرة أخرى .

---

(١) انظر : المدخل لدراسة السنة ص ١٢٨ ، وكيف نتعامل مع السنة ص ١١٣ .
(٢) انظر : المرجعية العليا في الإسلام ١٨٦ .

وهذا ينطبق على كثير مما أطلق عليه اسم «متشابه القرآن» وألفت فيه بعض الكتب قديماً وحديثاً .

كما ينطبق على كثير مما يطلق عليه «مختلف الحديث» وفيه ألف أبو محمد بن قتيبة كتابه «تأويل مختلف الحديث» والإمام أبو جعفر الطحاوي كتابه «مشكل الآثار»[١].

ويضرب الشيخ لذلك مثلاً بأحاديث التحذير من فتنة المال فيقول : خذ مثلاً أحاديث التحذير من فتنة الغنى وحب المال ، مثل قوله ﷺ فيما رواه الشيخان : «قمت على باب الجنة ، فكان عامة من دخلها المساكين ، وأصحاب الجد محبوسون»[٢].

وقوله ﷺ فيما رواه الشيخان عن أبي ذر ﵁ : «هم الأخسرون ورب الكعبة، هم الأخسرون ورب الكعبة»! .... فقلت : من هم ؟ بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؟! قال: «الأكثرون أموالاً ، إلا من قال: هكذا وهكذا»[٣].

وقوله ﷺ : «ما ذئبان ضاريان أرسلا في غنم ، بأفسد لهما من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[٤].

فهذه الأحاديث وما ماثلها لا تعارض الأحاديث الأخرى التي جاءت في مدح المال والغنى والاستعاذة من الفقر .

مثل قوله ﷺ في دعائه لربه : «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»[٥].

وقوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص : «إن الله يحب العبد الغني التقي الخفي»[٦].

---

(١) انظر : المرجعية العليا ص ٢٠٠ .

(٢) رواه البخاري في النكاح (٥١٩٦) ومسلم في الرقاق (٢٧٣٦) عن أسامة بن زيد.

(٣) رواه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٣٨)، ومسلم في الزكاة (٩٩٠) عن أبي ذر.

(٤) رواه الترمذي في الزهد (٢٤٨٢) عن كعب بن مالك، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وذكره الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٧٦).

(٥) رواه مسلم في الذكر والدعاء رقم (٢٧٢١) عن ابن مسعود.

(٦) رواه مسلم في الزهد (٢٩٦٥) عن سعد.

فهذه لا تنافي الأحاديث الأولى : لأن تلك الأحاديث لم تذم المال لذاته ، بل حذرت من شر فتنته ، وتتمثل في أن يُجمع من غير حله ، أو ينفق في غير محله ، أو يشغل مالكه عن ذكر ربه ، أو يطغيه على عباده .

ولهذا جاء في الحديث الذي استعاذ فيه النبي ﷺ من شر فتنة الغنى : الاستعاذة من شر فتنة الفقر . ولفظ الحديث كما روته عائشة : كان النبي ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار ، وعذاب النار ، وفتنة القبر ، وعذاب القبر ، وشر فتنة الغنى ، وشر فتنة الفقر »[1]،[2] .

٥ ـ وضع النص في موضعه الصحيح :

من أعظم المفاسد أن يستدل المرء على قضية بغير دليلها ، فيأتي بدليل صحيح في غير موضوعه، ويُقَوِّل النص ما لم يقله ، ويلوي أعناق النصوص حسب هواه الشخصي أو فساد نيته .

وهذا ما جعل الخليفة الرابع علياً رضي الله عنه يقول للخوارج حين رفضوا التحكيم وقالوا : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ [يوسف : ٤٠] ، فقال علي : كلمة حق يراد بها باطل[3] .

ولذا فإن الشيخ القرضاوي يؤكد على ضرورة الربط بين الدليل وموضع الاستدلال فيقول : ومن أهم المحاذير التي ينبغي الالتفات إليها ، والتنبيه عليها ، في فهم القرآن والسنة، وما يحتويان من عقائد وشرائع وأحكام وآداب : وضع النص في غير موضعه الصحيح .

فكثيراً ما يكون النص صحيحاً لا مطعن فيه ، ولا خلاف على ثبوته ، فهو آية من كتاب الله ، أو سنة قولية، أو عملية، أو تقريرية ثابتة عن النبي ﷺ ؛

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات (٦٣٦٧) ، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، (٥٨٩) عن عائشة.

(٢) انظر : المرجعية العليا في الإسلام ٢٠٠ - ٢٠٢ بتصرف .

(٣) انظر : أحكام القرآن الجصاص ج ٢ .

ولكن العيب في الاحتجاج بهذا النص على أمر معين ، وهو لا يدل عليه ، لأنه سيق مساقاً آخر(١) .

ويرى الشيخ بأن هذا الخلل : نتيجة للعجلة، والخطف الذي نراه ونلمسه لمساً عند السطحيين من الناس، الذين يتخرصون على النصوص بغير بينة ، ويتطاولون بغير سلطان أتاهم ، ويقولون على الله ما لا يعلمون .

وقد يكون ذلك من الخلل في الضمير ، وفساد النية ، حيث نرى بعض الناس يريد أن يثني أعناق النصوص قهراً لتوافق هواه ، وتنصر رأيه (٢) .

ويضرب الشيخ مثلاً لذلك باستدلال بعض المتطاولين بآيات القرآن على منع التعدد، والعجب أن يكون دليل المنع عندهم هو دليل الإباحة نفسه، يقول الشيخ : رأينا من يستدل على منع تعدد الزوجات الذي إباحة القرآن نفسه ، بشرط العدل بآية من السورة نفسها تهدم - في نظرهم - آية الإباحة ، وتبطل أثرها، وتنسخ حكمها ، وهي آية ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء : ١٢٩] .

ومعنى هذا : أنهم يتهمون الرسول الكريم والصحابة وسلف الأمة ، بل الأمة كلها خلال أربعة عشر قرناً : أنها لم تفهم كتاب ربها المنزل إليها بلسانها ، أو فهمته وأعرضت عنه عمداً ، واجتمعت على ذلك ، حتى جاء هؤلاء في آخر الزمان يستدركون عليها .

ثم مقتضى كلام هؤلاء : أن القرآن يناقض بعضه بعضا ، فهو يبيح الشيء في آية، ثم لا يلبث أن يحرمه في آية أخرى ، وكذبوا ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً ﴾ [النساء : ٨٢] . ولو أن هؤلاء أكملوا الآية التي زعموا أنها تبطل إباحة تعدد الزوجات ، لوجدوها ترد عليهم ، لأن تمامها ﴿ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء: ١٢٩] . ومفهوم الآية : أن بعض الميل مغتفر ، وهو الميل العاطفي الذي

(١ ، ٢) انظر : المرجعية العليا في الإسلام ص ٢٧٧ ، وكيف نتعامل مع القرآن ص ٣١٦ .

لا يتحكم فيه البشر . وهو الذي ورد أن النبي ﷺ كان يقول في شأنه ، بعد أن يقسم فيعدل بين نسائه في الأمور الظاهرة من النفقة والكسوة والمبيت : « اللهم هذه قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك » يعني : أمر القلب[(١)]، [(٢)].

ثانياً : عدم تعارض النقل مع العقل عند القرضاوي .

بعد أن أوضحنا كيفية تعامل الشيخ مع الأدلة النقلية نوضح الآن نظرة الشيخ إلى العقل في ضوء النقل وهذه النظرة تتضح في الآتي :

١ ـ نظرة القرضاوي إلى العقل :

ينظر الشيخ القرضاوي إلى العقل نظرة معتدلة ، والحق أن هذه النظرة المعتدلة نابعة من النظرة الإسلامية المتزنة ، لذا فإن العقل عند القرضاوي : نعمة عظيمة ولا ريب[(٣)] .

والعقل الذي يعنيه القرضاوي هو: العقل الحر الباحث عن الحقيقة، الطليق من إسار التقليد، واتباع الظنون والأهواء، أما العقل المكبل بأغلال الانبهار بفلسفة معينة، أو ثقافة بشرية، أو بتقليد الماضين، فهذا عقل غير مأمون على تحصيل المعرفة، والوقوف على الحقيقة الصريحة[(٤)] .

ولهذا جعل الشيخ من خصائص الخطاب الإسلامي في عصر العولمة ـ وقبل عصر العولمة ـ أنه يؤمن بالوحي ولا يغيب العقل[(٥)] .

ويؤكد الشيخ بأنه لا يوجد دين غير دين الإسلام كرَّم العقل والفكر، وأشاد بأولي الألباب والنهى، ودعا إلى التفكر والنظر ، وحرص على التعقل والتدبر[(٦)] .

---

(١) رواه أبو داود في النكاح (٢١٣٤)، والترمذي في النكاح (١١٤٠)، والنسائي في الكبرى (١٥٠٨) وابن ماجه في النكاح (١٩٧١)، والحاكم (٢ / ١٨٧) عن عائشة وصححه ووافقه الذهبي، ورجح الترمذي وغيره إرساله، وذكره الألباني في إرواء الغليل رقم (٢ / ١٨٧) .

(٢) انظر : كيف نتعامل مع القرآن ص ٣١٨ ، ٣١٩ ، والمرجعية العليا في الإسلام ص ٢٧٩ .

(٣) انظر : المرجعية العليا في الإسلام ص ٣٣١ .

(٤) انظر : خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ص ٦٩ .

(٥) انظر : المرجع السابق ص ٦٥ وما بعدها .

(٦) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ٧١ .

ويقول: لا يوجد كتاب في الدنيا أشاد بالعقل ونوه به مثل القرآن الكريم، لا يوجد كتاب ديني فيه تمجيد لأولي الألباب - ست عشرة آية في القرآن الكريم تتكلم عن أولي الألباب - وهناك أحاديث عن أولي النهى، ومادة (عقل - يعقل - يعقلون) موجودة في القرآن بكثرة (١).

ويقول : وأحب أن أؤكد أن الإسلام يغالي بالعقل، ويعلي من قيمته، ويعتبره مناط كل تكلف شرعي، فلا يخاطب بأحكام الشرع إلا العقلاء، ومن فقد العقل - لصغر أو جنون - فقد عدم أهلية التكليف (٢).

ويرى الشيخ بأن من أروع ما جاء به القرآن في شأن العقل هو قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبأ: ٤٦]، ويقول الشيخ : ومعناه أنه لا يطلب منهم إلا خصلة واحدة، وهي أن يتوجهوا بعقولهم وقلوبهم إلى الله الذي يؤمنون به، وبخالقيته للكون، وتدبيره لأمره، مخلصين في طلب الهداية إلى الحقيقة بعيداً عن تأثير «العقل الجمعي»(٣).

ويؤكد الشيخ بأن الوحي الإلهي لا يلغي دور العقل الإنساني وإيجابيته في فهم الوحي والاستنباط منه، والقياس عليه، وملء ما سكت عنه من فراغات تشريعية.

كما يرى الشيخ أن وجود النص الإلهي المقدس ليس عائقاً للعقل عن التحليق والإبداع إذ أن الوحي ترك للعقل أموراً كثيرة في مجالات متعددة منها :

(١) مجال العقيدة : فقد ترك الوحي للعقل أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين:

الحقيقة الأولى : وجود الله ووحدانيته، فكما تهدي الفطرة السليمة إلى وجود الله كذلك النظر الصحيح والعقل الصريح ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥].

الحقيقة الثانية : ثبوت الوحي والنبوة والرسالة : فالعقل هو الذي يثبت

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ١٢٤ .
(٢) انظر : المرجعية العليا ص ٣٤ .
(٣) انظر : الحياة الربانية والعلم ص ٧١ .

إمكان ذلك ووقوعه بالفعل ، العقل هو الحكم الأول والأخير في هذه القضية ، ولا مدخل للاستدلال هنا بالنقل ونصوص الوحي ، إذا كيف يستدل بما لم يثبت بعد ؟

(٢) مجال التشريع : ترك الوحي للعقل في مجال التشريع أن يجول ويصول في فهم النصوص، فيفرع على الأصول، ويقيس على الفروع ، ويستنبط الأحكام، ويكيف الوقائع، ويرعى القواعد في جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، ورفع الحرج، وتحقيق اليسر .

(٣) مجال الأخلاق : ترك الوحي للعقل في ميدان الأخلاق أن يصدر حكمه وفتواه في كثير من الأعمال التي يلتبس فيها الخير بالشر، ويشتبه الحلال بالحرام ، ولم يغفل شأنه بجانب الوحي .

(٤) مجال التفكر في الكون : ترك الوحي للعقل بعد ذلك أن يجول في آفاق هذا الكون العريض ما شاء ، صاعداً إلى الأفلاك وهابطاً إلى الأرض ، ومتأملاً في النفس ﴿ **قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [يونس : ١٠١]، و﴿ **وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ** ﴾ [الذاريات : ٢٠] .

(٥) مجال الاختراع ووسائل الدنيا : ترك الوحي للعقل أن يبتكر ويخترع في وسائل الحياة الدنيا ما شاء ﴿ **وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾

[القصص : ٧٧]

(٦) مجال الاستفادة من تجارب الآخرين : ترك الوحي للعقل أن يستفيد من تجارب الآخرين، وينتفع بتراث السابقين، ومعارف اللاحقين .

بذلك يتبين أن الوحي الإلهي لم يشل الفكر الإنساني ولم يجمده بل كان هادياً ومعيناً في بعض المجالات ، وترك الحرية الكاملة والاستقلال المطلق في مجالات أخرى ، وإنها لكثيرة ورحيبة [١].

---

(١) انظر : الخصائص العامة للإسلام ص ٥٥ - ٥٨ بتصرف، والعقل والعلم في القرآن الكريم ص ٢٧٤ وما بعدها .

ويزيد الشيخ القرضاوي الأمر وضوحاً فيؤكد أن الإسلام عمل على تكوين «العقلية العلمية» محارباً بها «العقلية العامية» أو «العقلية الخرافية»، كما حرص القرآن على تكوين هذه العقلية العلمية من خلال سبع نقاط :

النقطة الأولى : رفض الظن في موضع اليقين : ﴿ **إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً** ﴾ [يونس : ٣٦] .

النقطة الثانية : عدم اتباع الأهواء والعواطف في مجال العلم : لأن الهوى يعمي ويصم، واتباع الهوى قد يضل الإنسان عن الحق وخصوصاً العواطف الهوج ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى** ﴾ [النجم : ٢٣] .

النقطة الثالثة : رفض التقليد الأعمى للآباء والأسلاف : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ** ﴾ [المائدة : ١٠٤] .

النقطة الرابعة : رفض التبعية للسادة والكبراء : لقد ذم القرآن هذه التبعية وحمل الشعوب أوزارها ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ** ﴾ [الزخرف : ٥٤]

النقطة الخامسة : التعبد بالنظر العقلي ﴿ **أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** ﴾ [الغاشية : ١٧ - ٢٠].

النقطة السادسة : لا تقبل دعوى بغير برهان : إذ أن كل دعوى بغير برهان مرفوضة ساقطة ﴿ **قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة : ١١١] .

النقطة السابعة : رعاية سنن الله في الكون والمجتمع : لأن هذه السنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٧] [١].

ومن هنا فإن القارئ لكتابات الشيخ القرضاوي ، يرى أنه لم يبتعد يوماً عن

---

(١) انظر : العقل والعلم في القرآن الكريم ص ٢٥٠ وما بعدها باختصار .

العقل ، ولم ينظر إليه نظرة « تقديس » ؛ لكن هذا العقل هو العقل الذي يعرف قيمته ولا يتعدى حدوده ، العقل الذي لا يحرم نفسه من نور الله ، ولا يتجاوز حدود ما أباح له الله ، إنه العقل العامل الذي يصول ويجول فيما لا نص فيه ولا دليل ، أما إذا ثبت النص أو وضح الدليل أو قام البرهان فإن العقل يقف خاضعاً لهذا النص ، مستسلماً لهذا الدليل ، ذليلاً لهذا البرهان .

إن هذه النظرة القرضاوية للعقل لا تجعله عقلاً مسيطراً ، لكنها تجعل له حدوداً يقف عندها؛ لأنه العقل مهما كان ينبغي ألا يترك وحده مخافة الزيغ والضلال ، ويوضح هذا قول الشيخ : إن العقل الإنساني وحده لا يؤمن أن يترك وحده ، وإنما ينبغي أن يؤيد وأن يصان بوحي الله تبارك وتعالى ليسدد خطاه ويعصمه من الزلل؛ حتى يستمر في الطريق المستقيم ، فالعقل بدون وحي معرض للخطأ والخطل والخطر ، كما رأينا الذين مشوا وراء عقولهم وحدها بعيداً عن هدى الله تعالى [١].

ومن المعلوم أن الغلو في تقديس العقل أو تقديمه على الوحي هو سبب الانحراف والزيغ ، وهذا واضح على مر التاريخ ؛ بل إن الشيخ يرى تقديس العقل من أخطر أسباب الانحراف والضلالة فيقول: ومن أخطر أسباب الانحراف والضلالة : تقديس العقل البشري ، واعتباره الدليل الذي لا يخطئ ، والهادي الذي لا يضل ، وإعطاؤه حق الحكم في كل قضية، وفي كل مجال ، وإن يكن من اختصاصه ، ولا في حدود سلطانه .

ولهذا نجد عامة المبتدعين والمنحرفين قديماً وحديثاً ، يشركون في هذه الفكرة السائدة لديهم ، وهي : تقديم العقل البشري على نص الوحي الإلهي ، فهذا هو عمدتهم الأولى، وقاعدتهم التي عليها يرتكزون ، وإليها يستندون ، وهو المقدم عندهم ، والمفضل لديهم، بحيث يتهمون الأدلة الشرعية إذا لم توافقهم ، ولا يتهمون عقولهم يوماً[٢].

لهذا فإن من الضروري أن يكون للعقل خطوط حمراء يقف عندها، وأمور

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ج٢ ص ١٣١ .
(٢) انظر : المرجعية العليا في الإسلام ص ٣٣١ .

لا يتعداها، وحقائق يسلم لها وينصاع فيها للوحي، لأنه سلم بداية للوحي واستدل به على حقيقة النبوة والرسالة ، ومن ثم فينبغي أن لا يكذب نفسه باعتراضه على الوحي بل ينبغي عليه التسليم المطلق للنقل إن صح نقله ؛ يقول الشيخ : الدين قد يأتي بما يستبعده العقل ، ولكنه لا يأتي بما يحيله ، فما يأتي به الدين من غيبيات تتعلق بالعالم غير المنظور ، بالملائكة، والجن، والشياطين ، بالعرش ، بالكرسي ، باللوح ، بالقلم ، ما يأتي به من أحوال الحياة البرزخية : القبر وما فيه من نعيم وعذاب ، أو أحوال الآخرة وما فيها من بعث وحشر وحساب وسؤال وميزان وصحف وصراط وجنة ونار .. هذه الأشياء على العقل أن يسلم بها ما دام الوحي قد جاء بها ..

فالعقل هنا عليه أن يسلم بهذه الأشياء إذا كان يحترم نفسه ، وإلا كذب نفسه في تصديقه للوحي أولاً .. ثم هناك أشياء ينبغي للعقل أن يسلم بها وهي ما كان مقطوعاً به من ناحية الثبوت ومن ناحية الدلالة : .

ما كان قطعي الثبوت والدلالة فعلى العقل أن يسلم له .. لا يقول العقل : لماذا نصلي في اليوم خمس مرات ؟ لماذا لم تكن ثلاثاً أو أربعاً .. ؟ ولماذا كان بعض الصلوات ركعتين وبعضها ثلاثاً وبعضها أربعاً ؟ ولماذا كان الركوع مرة واحدة والسجود مرتين ؟ هذه الأشياء لا يستطيع العقل أن يفصل فيها[١] .

٢ ـ هل يتعارض النقل مع العقل ؟

يحاول دعاة العقلانية في القديم وفي الحديث إعمال عقلهم في كل شيء ، مما يصل بهم عن قصد وبغير قصد إلى معارضة النقل بالعقل ، والعقل بالنقل ، وهذا من فعل أهل الزيغ والبدع ، إن هؤلاء يتعاملون على أن العقل هو الحكم الفصل في كل قضايا الدين ، وأنه إذا تعارض النقل مع العقل ، وجب إخضاع النص للعقل ، لا يفرقون بين نص قطعي الثبوت والدلالة ، وآخر ظني الثبوت والدلالة .

ولقد وقف العلماء في وجه دعاة العقلانية منذ زمن بعيد ، ورفضوا أن يتعارض النقل الصحيح مع العقل الصريح ، يقول الإمام ابن الجوزي في مقدمة

---

(١) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

كتابه «الموضوعات»: ما أحسن قول القائل : كل حديث رأيته تخالفه العقول ، وتناقضه الأصول ، وتباينه النقول ، فاعلم أنه موضوع [١].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه القيم «درء تعارض العقل والنقل»: السمع الذي يقال إنه يخالفه - أي العقل - إما حديث موضوع أو أدلة ضعيفة ، فلا يصح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضته العقل الصريح فكيف إذا خالفه صحيح المعقول ؟ ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول ، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته [٢].

ويقول أيضاً : فلا يعلم حديث واحد يخالف العقل أو السمع الصحيح إلا وهو عند أهل العلم ضعيف بل موضوع، ولا يعلم عن النبي ﷺ حديث صحيح أجمع المسلمون على نقيضه؛ فضلاً عن أن يكون نقيضه معلوماً بالعقل الصريح البين لعامة العقلاء [٣].

ويقول الغزالي في إحيائه : «وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن؛ هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة ونعوذ بالله منه»[٤].

وهذا هو موقف الشيخ القرضاوي أيضاً فهو لا يرى أي تناقض بين النقل والعقل يقول الشيخ : فلا يجوز إذن نصب العقل عدواً للشرع ، ولا نصب الشرع عدواً للعقل، ولا يتصور أن يثبت الشرع ما ينفيه العقل «أي ما يقطع باستحالته» ولا أن ينفي ما يثبته العقل، ما لم يقيم البراهين اليقينية على وجوده.

والعكس ثابت أيضاً بمعنى أن العقل لا يتصور أن يثبت ما يقطع الشرع بنفيه، ولا أن ينفي ما يقطع الشرع بثبوته[٥] .

---

(١) انظر : الموضوعات ابن الجوزي ص ٥ .

(٢) انظر : درء تعارض العقل والنقل ابن تيميه تحقيق د : محمد رشاد سالم ط جامعة الإمام محمد بن سعود الأولى ١٤٠٠هـ ج١ ص ١٤٧ .

(٣) انظر : درء تعارض العقل والنقل ابن تيميه ج١ ص ١٥٠ .

(٤) انظر : إحياء علوم الدين الغزالي ط دار المعرفة ج٣ ص ١٧ .

(٥) انظر : الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ص ٤٧ .

وهنا يظهر رأي الشيخ القرضاوي فيقول : نحن دعاة العقلانية ، نحن المسلمين دعاة العقلانية ، نحن نرفض الخرافات والأباطيل ، ومن خلال هذه العقلية ، قامت حضارة إسلامية شامخة جمعت بين العلم والإيمان . . . بين العقل والنقل[١] .

ويؤكد الشيخ هذا فيقول : لم ير علماؤنا إطلاقاً أي تعارض أو تناقض بين صحيح المنقول وصريح المعقول ، وقد ألف في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية كتاباً ظهر في عشرة أجزاء اسمه « درء تعارض العقل والنقل » فلا يمكن أن يتعارض عقل صريح مع نص صحيح ، وإذا رأيت تعارضاً فلا بد أن ما ظننته نقلاً ليس صحيحا ، أو ما ظننته عقلاً ليس صريحاً [٢] .

ويقول في موضع آخر: ولا توجد عندنا ـ نحن المسلمين ـ مشكلة الصراع بين العقل والوحي، أو بين الحكمة والشريعة، أو بين الفكر والعقيدة، أو بين العلم والدين، فالدين عندنا علم، والعلم عندنا دين.

ومن القواعد المعلومة المقررة عندنا: أنه يستحيل التناقض بين قواطع العقل وقواطع الشرع، لأن الحق لا يعارض الحق أبدا. وإذا وجد شيء من هذا في الظاهر، فلا بد أن يكون لأحدهما تفسير أو تأويل يخرج به عن التناقض[٣] .

ولهذا فإن الشيخ يرى ضرورة النظر في سند الحديث لمعرفة صحته من عدمها ، كما يؤكد الشيخ على ضرورة النظر في متن الحديث ليرى قبول العقل له أم لا ؟ ولكن الأمر ليس متروكاً لكل الناس وإنما لأهله وذويه يقول الشيخ : إن البحث في متن الحديث مقبول بل مطلوب وأن الحديث الذي يرفضه العقل مردود بلا شك .

بيد أن الأمر المهم هنا : هو من الذي ينظر في متن الحديث ليعرف مدى قبوله من عدمه؟ ومن الذي يقول: إن هذا الحديث يرفضه العقل، فهو ضعيف؟

إن إعطاء هذا الحق لكل من هب ودب من الناس غير مقبول شرعاً ولا عقلاً، وإنما يجب أن يعطى للثقات من أهل الاختصاص [٤] .

(١ ، ٢) انظر : لقاءات ومحاورات ج١ ص ١٢٧ .
(٣) انظر : خطابنا الديني في عصر العولمة ص ٧٢ .
(٤) انظر : فتاوى معاصرة ج٢ ص٤٢ .

الفصل الخامس
آثار منهج القرضاوي في الدعوة إلى الله عز وجل

الدعوة إلى الله تعالى عقد أبرمه الدعاة بينهم وبين صاحب الدعوة ، وقد وعدهم الله تعالى إحدى الحسنيين ، إما أن تقر أعينهم في الدنيا فيروا ثمرة دعوتهم ، وإما أن يدخر الله لهم أجرهم ليوفوا أجورهم كاملة يوم القيامة .

وينبغي أن نقرر هنا أمرين :

أولاً : أن الدعاة إلى الله عز وجل أجراء عند خالقهم ، والأجير ليس من حقه أن يُوجِه ، ولكن شأنه أن يُوجَه ، يقول الشهيد سيد قطب : «إنهم - أي الدعاة - أجراء عند الله ، أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا عملوا وقبضوا الأجر المعلوم ، وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير ، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير»[1] .

الثاني : أن الداعية إلى الله يبذل جهده؛ غير أنه إن لم ير ثمرة جهده، فهذا لا يدعوه إلى اليأس وترك العمل ، ولا أن يستمع إلى المثبطين ، وللشيخ القرضاوي أبيات يرد فيها على هؤلاء فيقول :

عجبت لهم قالوا: تماديت في المنى ... وفي المثل العليا في المرتقى الصعب
فأقصر ولا تجهد يراعك إنما ... ستبذر حباً في ثرى ليس بالخصب
فقلت لهم مهلاً فما اليأس شيمتي ... سأبذر حبي والثمار من الرب
إذا أنا بلغت الرسالة جاهداً ... ولم أجد السمع المجيب فما ذنبي؟![2]

---

(١) انظر : معالم في الطريق الشهيد سيد قطب ط دار الشروق الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩١ م ص ١٩٧ .

(٢) انظر : نفحات ولفحات ص ١١٢

وهذا ما أشار إليه حديث مسلم عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : «عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد ...»[1].

أسباب انتشار القرضاوي وأفكاره :

وجهود القرضاوي لا يستطيع إنكارها إلا حاقد أو حاسد ، ذلك أن الشيخ قد شرق بعلمه وغرب ، وطاف كثيراً من دول العالم ناشراً فكره ، باثاً علمه .

وقد ساعد الشيخ على انتشار أفكاره في كثير من دول العالم عدة أمور من أهمها :

١ - تداول الكتاب الإسلامي، حتى غدا الأكثر مبيعاً في معظم المعارض الدولية المعروفة .

٢ - انتشار وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة؛ حتى غدا العالم كما قيل قرية صغيرة .

٣ - دخول القنوات التلفزيونية إلى ما يعرف بالقنوات الفضائية .

٤ - كثرة أسفار الشيخ إلى عدد كبير من دول العالم محاضراً ومعلماً .

٥ - اشتراك الشيخ في عدد كبير من المجامع الفقهية والعلمية .

٦ - اشتراك الشيخ في عدد كبير من مجالس الكليات والجامعات الإسلامية.

٧ - تعرض الشيخ لكثير من القضايا المعاصرة التي تمس الواقع ، ومعالجتها بالدليل الجزئي في ضوء المقاصد الكلية للشريعة .

٨ - تبني الشيخ للتيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة .

٩ - انتماء الشيخ منذ نعومة أظفاره لجماعة «الإخوان المسلمون» والتي

---

(١) رواه البخاري في الطب (٦-٥٧) ومسلم في الإيمان (٢٢٠) عن ابن عباس.

انتشرت في أكثر من سبعين دولة، وأصبحت كتب الشيخ مرجعاً أساسياً من مراجعهم .

١٠ ـ انفتاح الشيخ على عدد كبير من الجماعات الإسلامية، وحسن العلاقة بهم كما هو الحال مع الجماعة الإسلامية في الهند، وشيخها العلامة أبو حسن الندوي رحمه الله .

١١ ـ استخدام الشيخ لما جد من الوسائل الدعوية الحديثة وآخرها «الإنترنت» .

١٢ ـ تعدد عطاء الشيخ، فلم يكن داعية أو خطيباً أو فقيهاً فحسب؛ بل هو مع هذا كله:

- شاعر فحل .
- وأديب أصيل .
- وكاتب مبدع .
- واقتصادي بارع .
- ومفكر نابه .
- ومجادل يقظ .

١٣ ـ توطيد الشيخ لعلاقته بالمؤسسات الدعوية الرسمية ورجالها ، ودعوته إلى مد الجسور بين دعاة الصحوة ورجال هذه المؤسسات، فإن منهم مخلصون كثر .

١٤ ـ اكتساب الشيخ ثقة كثير من الدعاة في دول الإسلام المختلفة .

١٥ ـ ثقل الشيخ العلمي بين أقرانه، حتى فاق الكثير منهم .

١٦ ـ حسن استنباط الشيخ للمعنى المقصود من الدليل .

هذا وسيكون الحديث عن آثار الشيخ على النحو التالي :

- آثاره على المكتبة الإسلامية .
- آثاره على الجامعة الإسلامية .
- آثاره على البلاد الإسلامية .
- آثاره على الحركة الإسلامية .
- آثاره على تلاميذه .

١ - آثاره على المكتبة الإسلامية .

حفلت المكتبة الإسلامية في القرن المنصرم بأعداد هائلة من الكتب الإسلامية، وكان من هذه الأعداد الهائلة، والكميات الضخمة عدد لا بأس به من الكتب القيمة، والتي كانت المكتبة في حاجة ماسة إليها .

وقد برز على الساحة الإسلامية عدد من الكتاب البارعين ، والمؤلفين المرموقين ، من أمثال محمد رشيد رضا، وعبد الرحمن السعدي، وعبد الوهاب خلاف، وعلي الطنطاوي ، ومحمد البهي، ومحمد الغزالي، وسيد قطب، وناصر الدين الألباني، ومحمد بن عثيمين ، ومصطفى السباعي ، وأبو الحسن الندوي ، وابن باز .

كما استطاع بعض الكتاب أن يحفروا أسماءهم في سجل الإسلاميين ليس بمجرد الكتابة فحسب ، ولكن بحسن الكتابة ، وروعة التأليف ، وجودة العطاء ، ولا يستطيع إنسان منصف أن ينكر هذه الكتب مثل :

- في ظلال القرآن - سيد قطب .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة والضعيفة – الألباني .
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – أبو الحسن الندوى.
- خلق المسلم – محمد الغزالي .

وقد كان للشيخ القرضاوي عطاء بارز في الكتابة[١] والتأليف حيث أثرى المكتبة الإسلامية ، بتراث ضخم ، يشهد له بذلك كل منصف، ولا ينكره عاقل إلا عن جهل فاضح أو قصد سيئ .

كتاب «فقه الزكاة» :

ولعل من أروع كتب الشيخ وأكثرها نفعاً كتابه ذائع الصيت فقه الزكاة وفي هذه الأسطر سألقي الضوء على هذا الكتاب من حيث :

---

(١) انظر : ما سبق في فصل «الوسائل والأساليب الدعوية في منهج القرضاوي» مبحث «الكتب».

١ – حاجة المكتبة الإسلامية إلى هذا الكتاب .

٢ – مهمة الكتاب .

٣ – تقبل الأوساط العلمية وأهل العلم لهذا الكتاب .

أولاً : حاجة المكتبة الإسلامية إلى هذا الكتاب :

تعد الزكاة ركناً أساسياً من أركان هذا الدين ، وأحكام هذه الفريضة أحكام كثيرة ومتشعبة ، وقد تناول هذه الشعيرة علماء الإسلام كل في دائرة اختصاصه ، فالمفسرون يتناولونها عند تفسير الآيات التي تتعلق بالزكاة والصدقات ، والمحدثون يتعرضون لها عند شرح أحاديثها ، والفقهاء يتناولونها باعتبار أنها ركن من أركان الإسلام وباب أصيل من أبواب الفقه ، هذا فضلاً عن أصحاب الفقه المالي والإداري في الإسلام [١] .

وعلى الرغم من كثرة الكتابة في الزكاة وما يتعلق بها؛ إلا أن المكتبة الإسلامية كانت في حاجة إلى كتاب جامع يجمع هذه المتفرقات التي حوتها أمهات الكتب، ومختلف التصانيف ، والذي دعا الشيخ إلى تأليف هذا السفر المبارك انه رأى أن المكتبة بحاجة إلى مثل هذا العمل من عدة نواح :

١ ـ حاجة المكتبة إلى كتابة جديدة عن الزكاة بأسلوب عصري؛ ووضعه في قالب عصري .

٢ ـ كثرة المسائل الخلافية في الزكاة وكثرة آراء الفقهاء فيها ، دون الترجيح بين هذه الأقوال جعل المفتين يتخبطون في الفتوى .

٣ ـ ظهور أمور جديدة لم تكن قبل عصرنا لم يعرفها فقهاؤنا القدامى، ولا المتأخرون ، وهذه الأمور تحتاج إلى إصدار حكم في شأنها ، وذلك مثل الزكاة في العمارات الشاهقة، والمصانع الكبيرة .

---

(١) انظر : فقه الزكاة ج١ ص ٢٣ ، ٢٤ باختصار .

٤ ـ وجود أفهام خاطئة لدى كثير من المثقفين؛ كمن يتصور بأن الزكاة بضعة قروش أو ريالات، يأخذها الفقير من ولي نعمته الغني ، ومن يتصور بأن الزكاة لا تصح لعصرنا الحديث[١] .

ونظرا لعدم وجود كتاب بهذه المواصفات فقد تنادى المصلحون بوجوب ما يسد هذه الثغرة ، ومن ثم فقد أعلن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية قبل صدور هذا الكتاب عن مسابقة كبرى في عدة بحوث إسلامية ، دعا فيها رجال الفكر والقلم من أنحاء العالم الإسلامي إلى كتابة ما فيها ، وكان منها « الزكاة في الإسلام ».

وفي عام ١٩٦٣م انعقد اجتماع لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة وحضره ممثلون لأكثر من أربعين دولة وكان من أهم قراراته : تخصيص الدورة القادمة لعدة موضوعات، كان على رأسها موضوع الزكاة والموارد المالية في الإسلام وطرق الاستثمار وعلاقتها بالأفراد والمجتمعات[٢] .

ثانياً : مهمة الكتاب :

ونظراً لحاجة المكتبة لمثل هذا الكتاب ، فقد كانت مهمة الشيخ القرضاوي من وراء هذا الكتاب محاولة الوفاء بالمقاصد الآتية :

١ ـ تجميع ما تبعثر عن الموضوع في المصادر الأصلية من مصادر الثقافة الإسلامية، وعرضه عرضاً جديداً يعين على تصور حكم الإسلام فيه .

٢ ـ محاولة تمحيص ما ورد في الموضوع من خلافات كثيرة؛ بغية الوصول إلى أرجح الأمور .

٣ ـ محاولة إبداء الرأي فيما جد من مسائل وأحداث لم يعرفها السابقون .

٤ ـ تجلية حقيقة الزكاة ، والموازنة بينها وبين الضرائب الحديثة .

---

(١) انظر : فقه الزكاة ج١ ص ٢٥ ـ ٢٩ بتصرف.
(٢) انظر : فقه الزكاة ج١ ص ٣٠ .

٥ ـ بيان أهداف الزكاة وآثارها في حياة المجتمع المسلم .

٦ ـ تصحيح ما شاع من أفكار خاطئة حول الزكاة[١] .

ثالثاً : تقبل الأوساط العلمية وأهل العلم لهذا الكتاب :

لم يكد «فقه الزكاة» يرى النور ويخرج جنيناً من رحم المطبعة حتى تلقفه الناس شراء ، وقلبته أعينهم قراءة ، وقرظته قلوبهم شكراً ، وأضفت ألسنتهم الكتاب وصاحبه شكراً وثناءً .

ولم يكن المادحون للشيخ هم المشتغلون بالعلوم الشرعية فحسب ، بل كان المدح والثناء للكتاب وصاحبه ، من المشتغلين بالعلوم الشرعية والمعنيين بالعلوم الاقتصادية والمالية والقانونية والاجتماعية ، وكم وصل إلى الشيخ من الرسائل من كبار الشخصيات الإسلامية والعالمية تنوه بالكتاب وصاحبه ، وما بذل فيه من جهد جهيد ، وكان من هؤلاء على سبيل المثال :

١ ــ الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ .

٢ ــ الشيخ أبو الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ .

٣ ــ الأستاذ مصطفى الزرقا ـ رحمه الله ـ .

٤ ــ الشيخ عبد الله بن زيد المحمود ـ رحمه الله ـ .

٥ ــ الشيخ علي الطنطاوي ـ رحمه الله ـ .

٦ ــ الأستاذ البهي الخولي ـ رحمه الله ـ .

٧ ــ الدكتور محمد البهي ـ رحمه الله ـ .

٨ ــ الدكتور محمود أبو السعود ـ رحمه الله ـ[٢].

---

(١) انظر : فقه الزكاة ج١ ص ٣١ .

(٢) انظر : فقه الزكاة ج١ ص ١٨ ، وانظر نفحات ولفحات ص ٢٧ .

ومما قيل في الكتاب :

قال الشيخ أبو الأعلى المودودي - رحمه الله -: إنه كتاب القرن - الرابع عشر الهجري - في الفقه الإسلامي .

قال الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - لم يؤلف في الإسلام مثله في موضوعه .

وقال عنه الأستاذ محمد المبارك رحمه الله في مقدمة كتابه « نظام الإسلام الاقتصاد »: ومن الكتب الحديثة ما هو خاص بموضوع معين ، ومن هذا النوع كتاب « فقه الزكاة » للأستاذ يوسف القرضاوي ، وهو موسوعة فقهية في الزكاة استوعبت مسائلها القديمة والحديثة ، وأحكامها النصية والاجتهادية على جميع المذاهب المعروفة المدونة ، لم يقتصر فيها على المذاهب الأربعة ، مع ذكر الأدلة ومناقشتها ، وعرض لما حدث من قضايا ومسائل ، مع نظريات تحليلية عميقة .. وهو بالجملة عمل تنوء بمثله المجامع الفقهية ، ويعتبر حدثاً هاماً في التأليف الفقهي ... جزا الله مؤلفه خيراً »(1).

هذا وقد اعتنى به المسلمون في أقطار الأرض، فنقلوه إلى لغاتهم؛ بعضها بإذن الشيخ، وبعضها بغير إذن منه، ولم يمانع الشيخ بعد أن علم بذلك وسأل الله النفع .

ومن اللغات التي ترجم إليها الكتاب :

١ – اللغة الأوردية في الهند وقد ترجم مختصراً .

٢ – اللغة الأوردية في باكستان وقد ترجم الكتاب كاملاً .

٣ – اللغة التركية .

٤ – اللغة البنغالية .

---

(١) انظر: فقه الزكاة ج١ ص ١٩ ، ونفحات ولفحات ص ٢٢ .

٥ – اللغة الأندونيسية .

٦ – اللغة الماليزية وقد كلفت جامعة ملايو لجنة بترجمة الكتاب .

٧ – اللغة الإنجليزية وقد تبنى ذلك المركز العالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي التابع لجامعة الملك عبد العزيز بجدة .

كما أن كثيراً من الدول الإسلامية جعلت الكتاب مصدراً أساسياً لكل القوانين التي تتعلق بالزكاة [١].

٢ – آثار القرضاوي على الجامعات الإسلامية .

نظراً للأثر الذي تركته كتب الشيخ على المكتبة الإسلامية ، فقد أصبح له شهرة واسماً بين طلاب العلم صغارهم وكبارهم ، حتى غدا أساتذة الجامعات العربية والإسلامية يوصون تلاميذهم على اقتناء كتب القرضاوي، ومنهم من قام بتدريس كتب الشيخ لما فيها من علم نافع وفكر ثاقب ودعوة صادقة .

كتب للشيخ درست في الجامعات الإسلامية :

ومن الكتب التي تم تدريسها للطلاب في الجامعات الإسلامية :

١ ـ ديوان نفحات ولفحات ـ كلية الدعوة جامعة الأزهر .

٢ ـ في فقه الأولويات ـ كلية الدعوة جامعة الأزهر.

٣ ـ الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ـ كلية الدعوة جامعة الأزهر .

٤ ـ المسلمون والعولمة ـ كلية الدعوة الإسلامية جامعة الأزهر ـ قسم الدراسات العليا.

٥ ـ ثقافتنا بين الانغلاق والانفتاح ـ كلية الدعوة الإسلامية جامعة الأزهر ـ قسم الدراسات العليا.

---

(١) انظر : فقه الزكاة ج١ ص ١٩ ، ٢٠ باختصار .

٦ ـ المدخل لدراسة السنة النبوية ـ كلية الشريعة جامعة قطر .

٧ ـ مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ـ كلية الشريعة جامعة قطر ، كلية الشريعة جامعة الأردن .

٨ ـ الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ـ كلية الشريعة جامعة قطر ، والجزائر .

٩ ـ الخصائص العامة للإسلام ـ كلية الشريعة جامعة قطر .

١٠ ـ المدخل لمعرفة الإسلام ـ كلية الشريعة جامعة قطر .

١١ ـ الحلال والحرام ـ كلية التربية بمكة المكرمة .

كما أن هناك رسائل جامعية تناولت بعض كتبه ومنهم الباحثة الباكستانية جميلة شوكت والتي نالت بها درجة «الماجستير» ، ولم تكن جامعتي «البنجاب» و «كراتشي» بأقل اهتماماً من غيرهما من الجامعات .

وقد شرع شبان من الجامعات الإسلامية في نيل عدد من الرسائل متناولين الشيخ القرضاوي من جهات متعددة ، فمنهم من تناول الشيخ من الناحية الدعوية ، ومنهم من تناوله من الناحية الفقهية ، ومنهم من تناول الشيخ في كتاباته السياسية ، وكتاباته التربوية .

٣ – آثاره على البلاد الإسلامية .

تعد كتب الشيخ القرضاوي سفراء إلى الدول الإسلامية تنوب عن الشيخ في المحافل العلمية ، والمجامع الفقهية ، ودور العبادة ، ولما كان لكتب الشيخ ثقلها العلمي ـ كما بينا سابقاً ـ فقد كانت دور النشر والترجمة تتهافت على ترجمة كتب الشيخ ونشرها .

وعل سبيل المثال فإن كتاباً ككتاب « الحلال والحرام » والذي تجاوزت طبعاته الخمسين طبعة ، قد ترجم هذا الكتاب إلى لغات عديدة منها الإنجليزية والفرنسية ، والأردية والفارسية والماليزية والأندونيسية ، والمليبارية ، والأسبانية ،

والسواحلية والرومانية والصينية ، وقد ترجم الكتاب بالتركية مرتين كل مرة طبعة عشرة آلاف .

وآثار الشيخ على البلاد الإسلامية ظاهرة رأي العين ، بادية بدو الشمس رابعة النهار في يوم لا غيم فيه ، وهذا ما لا ينكره حتى خصوم الشيخ [١] .

ولقد بدت آثار الشيخ علىّ البلاد الإسلامية في العمل بكثير من فتاويه ، لا سيما ما اتفق مع روح الشريعة ، ووافق تطورات العصر ، واتسم بالواقعية .

ولعل من أكثر البلاد تأثراً بفكر الشيخ مصر والسودان والجزائر وتونس والأردن وفلسطين وباكستان إلى غيرها من العديد من دول الإسلام .

ولقد شهد بهذا التأثير العالم الرباني أبو الحسن الندوي حين زار الشيخ القرضاوي «لكنهو» وحاضر في «ندوة العلماء» وقدمه العلامة أبو الحسن الندوي، فلما انتهى الشيخ القرضاوي من كلمته قال له الشيخ الندوي: إن الناس قد تأثروا بكلامك ، وإن لم يفهموه ؛ لأن للكلام روحاً ، قد يصل إلى المستمع مباشرة وإن عجز المترجم عن توصيله .

وقال له ذات مرة : إن في كلامك روحاً وحرارة خاصة، وهذه قلما تترجم؛ لأن المترجم يترجم المعاني والأفكار، ولا يترجم الحرارة والروح إلا مترجم يملك ما تملك[٢] .

٤ - آثاره على الحركة الإسلامية .

الحركة الإسلامية كانت ولا تزال الشغل الشاغل للشيخ القرضاوي حتى أصبحت أول همومه وأولاها اهتماماً ، لذا فقد شغلت الصحوة قلب الشيخ وفكره وقلمه ولسانه ، وحركت عواطفه وعقله .

---

(١) قرأت لأحدهم مقالاً على الشبكة العالمية «الإنترنت» تطاول فيه على الشيخ القرضاوي ، لكنه مع هذا لم يستطع أن ينكر آثار الشيخ على ذوي التوجه الإسلامي ، بل إنه افتتح مقاله قائلاً : و د : القرضاوي أحد أعمدة التوجيه الإسلامي في هذا العصر ولا ريب ، ومن ذوي التأثير الفعال .

(٢) انظر : الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته ص ٢٤ .

وهذا ما جعل شباب الحركة الإسلامية على مختلف فصائلها ، يتأثرون بالشيخ وكتاباته ، وقد غدا ذلك واضحاً حتى رأينا شباب الحركة يتغنون بكلماته في معسكراتهم ومنتدياتهم ، وفي أفراحهم وجهادهم ، ومن من شباب الحركة لا يحفظ نشيد « مسلمون » أو لم يسمع به ، ويتغنى به ؟

مسلمون مسلمون مسلمون حيث كان الحق والعدل نكون

نرتضي الموت ونأبى أن نهون في سبيل الله ما أحلى المنون

لقد كانت كلمات هذا النشيد وغيره من أناشيد الشيخ محركة لنفوس شباب الصحوة في كل مكان ، وموقظة للإيمان في قلوبهم ، ومشعلة لجذوة الجهاد في صدورهم ، ومحفزة للعمل في عزائمهم .

ولقد أخذ الدعاة من مختلف فصائل الحركة الإسلامية يقتبسون من كلمات الشيخ ، ويتبنون أفكاره ، وينهلون من علمه ، فمنهم من أسدى الشكر للشيخ، ومنهم من أخذ ما أخذ ، واقتبس ما اقتبس دون أن يشير للشيخ أدنى إشارة ، ومنهم من أخذ ما أخذ و أشار إلى اسم كتاب الشيخ دون أن يذكر اسم الشيخ ، ربما لأن ذكر اسم الشيخ يقلق البعض، ويخيف آخرين .

وهناك صنف آخر ربما أخذ من كلام الشيخ وأفكاره فقدم وأخر ، وحذف وأضاف ، ثم جعل كأن الفكرة من عنده ، أو كأن الكلام من بنات أفكاره .

وفي الإسكندرية قام أحد دعاتها وهو الشيخ محمد إسماعيل المقدم بعرض كتاب « فقه الزكاة » للشيخ القرضاوي وأثنى على الكتاب ثناء طيباً ، والشيخ محمد إسماعيل سلفي التوجه ، لكن الرجل لم يمنعه اختلافه مع الشيخ القرضاوي من أن يأخذ من علمه ، ولما اعترض على ذلك بعض تلامذته متحججاً بأن في ذلك دعاية للشيخ القرضاوي لم يلتفت الشيخ محمد إسماعيل لهذا القول [1].

---

(١) حدثني بذلك أحد محبي الشيخ محمد إسماعيل.

وهناك أيضاً أحد الدعاة [1] اقتبس من كتاب الشيخ «أين الخلل» دون أن يذكر اسم الشيخ وكل ما قاله هو : قال صاحب كتاب «أين الخلل» .

وآخر في حديثه عن أحداث البوسنة والهرسك ، ساق قصيدة الشيخ القرضاوي «يا أمتي وجب الكفاح» دون أن يشير إلى صاحب القصيدة ولا مصدرها .

وثالث ذكر في مقدمة كتاب له أبياتاً للشيخ من قصيدته الرائعة «في ذكرى المولد » في وصف شباب الصحوة :

الله يعرفهم أنصار دعوته والناس تعرفهم للخير أعواناً
والليل يعرفهم عباد هجعته والحرب تعرفهم في الروع فرساناً

ومع هذا لم يذكر القائل ، ولا مصدر القول ، وقد أثر عن السلف « إن من بركة العلم أن يسند إلى قائله» .

الجماعة الإسلامية في مصر وأثر القرضاوي عليها :

تعد الجماعة الإسلامية فى مصر أحد فصائل العمل الإسلامى، وقد ظهرت الجماعة الإسلامية فى سبعينيات القرن الماضى، وكان من أبرز دعاتها الشيخ عمر عبد الرحمن فك الله أسره.

وقد عرفت الجماعة الإسلامية باستخدام القوة والعنف فى دعوتها، وجعل تغيير المنكر باليد من أكبر اهتماماتها، وكان الجهاد فى معتقد أبنائها غاية لا وسيلة، وشهدت فترة الثمانينيات معارك طاحنة بين أبناء الجماعة ورجال الأمن فى مصر، أسفرت هذه المعارك عن قتل عدد كبير من أبناء الجماعة، واعتقال عدد أكبر منهم، وفى الخامس من يوليو عام ١٩٩٧م؛ أدهشدت الجماعة الإسلامية

---

(١) عمدت إلى عدم ذكر أسماء الدعاة لتكون المعاملة بالمثل، وإن كنت لا أحمل لأحدهم ضغينة أو حسداً، بل هو كل الحب والتقدير والثناء.

المهتمين بالعمل السياسى والحركة الإسلامية، فى مصر والعالم كله؛ ببيان ألقاه أحد أفراد الجماعة إلى إيقاف العمليات القتالية، وحقن الدماء.

ثم أصدر القادة التاريخيون للجماعة مجموعة من الإصدارات تحت عنوان: سلسلة المفاهيم فى يناير ٢٠٠٠م وهى كالتالى:

١ – مبادرة إنهاء العنف ... رؤية شرعية ونظرة واقعية.

٢ – تسليط الأضواء على ما وقع فى الجهاد من أخطاء.

٣ – حرمة الغلو فى الدين وتكفير المسلمين.

٤ – النصح والتبيين فى تصحيح مفاهيم المحتسبين.

ثم تابع المؤلفون كتاباتهم، فأصدروا ثلاثة كتب أخرى وهى:

١ – تفجيرات الرياض الأحكام والآثار.

٢ – استراتيجية وتفجيرات الرياض الأحكام والآثار.

٣ – نهر الذكريات المراجعات الفقهية [١].

وتعد هذه الإصدارات وما يتبعها كذلك بمثابة مراجعات فقهية وحركية للجماعة الإسلامية، والذى يهمنى أن أشير إليه هنا: أن هذه الكتب السبعة؛ لم يخل كتاب منها من اقتباس من كتب الشيخ القرضاوى، سوى الكتاب الرابع «النصح والتبيين»؛ قد يطول فى بعض الكتب، وقد يقصر فى بعضها.

هذا على الرغم من أن كتب الشيخ القرضاوى كانت فى فترة من الفترات من الممنوعات؛ بل من المحرمات؛ بل كان الشيخ القرضاوى فى نظر بعض أفراد الجماعة مبتدعا، وغالى بعضهم فعدّ الشيخ من علماء السلطة، ثم رماه بالكفر.

---

(١) ثم أصدروا بعد ذلك إصدارات أخرى قاربت العشرين كتابا.

لكن جاءت هذه الكتب لتنصف الشيخ أيما إنصاف، حتى رأينا المؤلفين يصفون الشيخ بقولهم: **العلامة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى** (١).

بل إن أصحاب هذه المراجعات الفقهية للجماعة الإسلامية يوجهون النصيحة للحركة الإسلامية للأخذ بنصيحة الشيخ القرضاوى فيقولون: وعلى الحركة الإسلامية ان تقدم المصالح الضرورية على الحاجية والتحسنية، **وعليها أن تأخذ بنصيحة العلامة الكبير الدكتور يوسف القرضاوى**(٢).

وكانت أهم الكتب التى اقتبس منها قادة الجماعة الإسلامية؛ من كتب الشيخ القرضاوى هى:

١ - الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف.

٢ - أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة.

٣ - فى فقه الأولويات (٣).

بل لقد كان كتاب الشيخ القرضاوى «**الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**» مرجعا أساسيا للكتاب الثانى من سلسلة تصحيح المفاهيم، وهو «حرمة الغلو فى الدين وتكفير المسلمين». وبنظرة متفحصة لهذا الكتاب، نرى أنه يتكون من بابين ينقسم الباب الأول منهما إلى أربعة فصول، وينقسم الباب الثانى إلى ثلاثة فصول، ويكاد يكون الباب الأول بفصوله الأربعة؛ بمثابة اختيار للفصل الأول والثانى من كتاب الشيخ القرضاوى «**الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**».

وقد أشار المؤلفون إلى ذلك فى كتابهم، ففى الفصل الأول قالوا: حكمة

---

(١) انظر: حرمة الغلو فى الدين ناجح إبراهيم وإخوانه ص ١٩ مكتبة التراث الإسلامى ط. الأولى ٢٠٠٢م.

(٢) تفجيرات الرياض كرم زهدى وإخوانه مكتبة التراث الإسلامى ط الأولى ٢٠٠٣م.

(٣) أخطأ المؤلفون فى اسم هذا الكتاب، فكانوا يشيرون إليه باسم «فقه الموازنات».

التحريم الغلو فى الدين: نستعرضها كما ذكرها **العلامة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى** باختصار [1].

وفى الفصل الثانى قالوا: للغلو مظاهر يعرف بها، ذكرها **الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى**، ونحن نسوقها مختصرة مع بعض الإضافات[2].

وفى الفصل الثالث قالوا: أسباب الغلو فيه: ذكرها **الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى**، ونحن نسوق بعضها باختصار مع بعض الإضافات[3].

أما الباب الثانى؛ فقد تعددت النقول كذلك من كتاب **الشيخ القرضاوى «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف»** فى مواضع متعددة، أشار المؤلفون فيها إلى كلام الشيخ وإن لم يشيروا إلى اسم الكتاب، ولا أرقام الصفحات.

وبهذا يمكن القول أن هذا الكتاب الذى بلغ (٢٠٠) صفحة كاملة؛ منه أكثر من ٥٠ صفحة هى: أفكار وكلمات الشيخ نصا واختصارا، وهذا يعنى أن أثر الشيخ على فكر هؤلاء القادة فى مراجعاتهم الفقهية والحركة ظاهر فى هذا الكتاب ظهورا واضحا، كما أنه ظاهر كذلك فى بقية الكتب السبعة؛ سوى كتاب واحد كما بيّنا سابقا.

من كلام الدكتور: ناجح إبراهيم (أبرز مناظرى الجماعة الإسلامية بمصر):

وقبيل طبع هذا الكتاب وصل إلى فضيلة الشيخ القرضاوى من الدكتور ناجح إبراهيم كتابان؛ الأول: تطبيق الأحكام من اختصاص الحكام، والثانى: الحاكمية نظرية شرعية .. ونظرية واقعية. وقد كتب الدكتور ناجح إبراهيم إهداء لفضيلة الشيخ على كل كتاب من الكتابين، وقد استأذنت شيخنا فى نقل هذا الكلام فاذن، وهذا كلام الدكتور ناجح إبراهيم:

---

(١) انظر: حرمة الغلو فى الدين ص ٩.
(٢) المرجع السابق ص ٢٧.
(٣) المرجع السابق ص ٥٥.

الإهـــداء الأول : أهدى كتابى « تطبيق الأحكام من اختصاص الحكام » لمولانا وعالمنا وشيخنا وأستاذ الأجيال المسلمة، فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى، رمزا لمحبتنا الكبيرة لك، ودليلا على مودتنا لفضيلتك، فقد نبت حبك فى قلوبنا منذ ريعان شبابنا، ومنذ قرأنا « النونية » ونحن نحبك حبا جما وهذا الحب لم يخفت لحظة منذ السبعينيات وحتى اليوم، وكل من قال لكم غير ذلك فهو لم يعرفنا ففضيلتك صاحب فضل علينا، وعلى الجماعة الإسلامية، وعلى كل الحركات الإسلامية ... ولكن الظروف هى التى حالت دون التعبير عن مشاعرنا..

واليوم نجدد لك الحب والإكبار والإجلال والتقدير من قلوبنا..

وأرجو أن يعجبك هذا الكتاب وينال رضاك.

الإهداء الثـانى : فضيلة الشيخ العلامة الدكتور يوسف القرضاوى ... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وتحية من عند الله مباركة طيبة، وسلاما عاطرا أرق من نسيم الصباح..

وبعد ... فيشرفنى ويسعدنى أن أهدى فضيلتكم نسخة من كتاب « الحاكمية نظرية شرعية .. ونظرية واقعية » إجلالا لعلمك، وتقديرا لفضلك، ورمزا لمحبتى الكبيرة، ومحبة الجماعة الإسلامية كلها لك، وعنوانا لمودتنا لك، واعترافا بفضلك علينا وعلى الحركات الإسلامية، وعلى المسلمين جميعا ... فسيادتكم من كبار علماء أهل السنة قاطبة؛ بل أنت رأس رءوسهم ... وأرجو أن يعجبك هذا الكتاب، وينال رضاك..

من كلمات المنصفين للشيخ [١] :

ومع هذا فقد يختلف الكثير من الشيخ القرضاوى؛ ولا عيب فى ذلك

---

(١) راسلت هؤلاء الدعاة، والتقيت بهم، وطلبت منهم الكتابة فلم يتأخروا عن الكتابة فجزاهم الله خيرا.

فالاختلاف أمر ضرورى ووارد، والمنصف من يعرف لمن يخالفه قدرَه، وهذا عدد من الدعاة اختلفوا مع القرضاوى لكنهم لم يجحفوا الشيخ، ولم ينقصوه قدره، ومن هؤلاء:

١ - الشيخ سلمان العودة:

القرضاوى ... كما عرفته

عرفت الدكتور يوسف القرضاوى عندما كنت طالبا فى المرحلة المتوسطة، أرتاد (مكتبة النهضة ببريدة)؛ لأجد على رفوفها:

حتمية الحل الإسلامى، بينات الحل الإسلامى، ومشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، والحلال والحرام .. وعناوين أخرى، وكنت أغبط ذلك المؤلف الذى سطّر هذه الكتب الكبيرة، والتى تدل عنواناتها على الشمولية، والتنوع فى المعرفة.

ثم اتصلت بسلسلة طويلة من المؤلفات القيمة التى أنجزها الشيخ العلامة يوسف بن عبد الله القرضاوى، عبر سبعين عامًا، أو نحوها من عمر مديد .. وقد يسر الله لى قراءة كل ما وصلنى من كتب الشيخ.

كنت أحفظ فى صباى قصيدة فى السعادة:

قل للذى يبغى السعادة	هل علمت من السعيد؟
إن السعادة: أن تعيش	لفكرة الحق التليد
لعقيدة كبرى تحل	قضية الكون العتيد
وتجيب عما يسأل الحيـ	ـران فى وعى رشيد

وأخرى فى التغنى بأمجاد الأمة:

مسلمون مسلمون مسلمون	حيث كان الحق والعدل نكونْ
نرفض الذلَ ونأبى أن نهون	فى سبيلِ الله ما أحلى المنونِ

سـائلوا التـاريخ عنا مـا وعى	من حـمى حق فـقـيـر ضُـيّـعـا
من بنى للعلم صـرحًـا أرفـعـا	من أقـام الدينَ والدنيـا مَـعَـا
سائلوه ... سيجيبُ المسلمون !

ويقع فى يدى ديوان الشيخ؛ فاعرف أنها من شعره، بل وأعرف أن النونية التى طالما تغنيت بها فى الظهيرة، وكنت صبيا يافعًا، كانت له، وكانتَ وليدة معاناة قاسية فى السجن:

ثار القريضُ بخاطرى فدعونى	أفضى لكم بفجائعى وشجونى
فالشعر دمعى حين يعصرنى الأسى	والشعر عودى حين عزف لحونى

وكنت وجدتها فى كتاب (نافذة على الجحيم) الذى كان يوزع مجانًا آنذاك !

وأول مرة كُتب لى أن ألقاه فيها كانت جلسة فى بيت الدكتور: محمد ناصر، رئيس وزراء أندونسيا الأسبق، وزعيم حزب (ماشومى) – رحمه الله – وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ١٤٠٩ هـ فيما أذكر.

وقد لقيته قبل أيام من كتابة هذه الكلمة؛ فإذا به يذكر ذلك اللقاء، فتعجبت من ذاكرته التى لم تبلها الليالى، زاده الله فهما وعلما وحكمًا...

ويتفضل الله على هذا الحبر بالعمر المديد؛ فيملأ الدنيا كتبًا، وأشرطة، وبرامج تلفزيونية، ومواقع إلكترونية، ومناشط إسلامية، وندوات ومؤتمرات، حتى ليصدق عليه أنه (الحالُّ المرُتَحِلُ).

ويستوعب الكثير من المتغيرات والطوارئ، ويبحث عن الحلول فينتج فقه الزكاة، وقد قرأته مرتين، ولعله أهم ما صنف مستقلاً فى بابه، وفتاوى معاصرة، وغيره كثير.

ويظل الشيخ محتفظا بطاقته وحيويته وحماسه، فما إن يتناول موضوعا – وإن كان تقليديًّا مطروقًا – إلا وتنفجر العلوم بين يديه، ويفيض فى الحديث،

نصوصا شرعية، وإدلاءات فقهية، وتقعيدات أصولية، وأشعارًا، وأمثالاً، وحكمًا، وأفكارًا، ومسائل..

ويهتز للحديث وهو فى الثمانين؛ فكأنه في الثلاثين، توقداً واندفاعًا وحيوية، وربما غضب وهو على المنبر حتى قلنا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ، كما قاله بعض الصحابة رضى الله عنهم.

قضايا الأمة تعيش فى وجدانه، وتطلعاتها تفيض من لسانه، وتفاؤلها قبس فى بيانه؛ فهو من القلائل الذين جمعوا الموسوعية، والمعرفة، والتوقد والحركة، والديمومة والدأب، واتساع الناحية، فله فى كل غنيمة سهم، وفى كل ميدان نصيب.

ولست أبالغ إذا قلت: إن الموافق والمخالف يقرّون له بالتقدم والتفوق، ولا أحد يدعى له ولا غيره العصمة – خلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام – ولكن حفظ مقامات الرجال من المروءة والدين، وهو عمل الأبرار والمقتدين، وفى ذلك تربية للأجيال على المعالى، وتعويد على الإيجابية والنظر المنصف، وإبقاء على رجالات الأمة وعلمائها وقادة فكرها.

والفقيه المجتهد هو بين أجر وأجرين، ولا يُجزم له بالصواب فى كل مسألة، كما لا يُجزم لمن خالفه، ولا يسع كلاً إلا ما انتهى إليه اجتهاده، وفهمه من دلالة النص.

ولو أن منتحلاً لقول هو عند الله خطأ، ولكنه كان يعتقده صوابًا، لو أنه ترك هذا الذى يعتقده، وقال بخلافه تقليداً أو تطييبًا لخاطر، وكان ذلك صوابًا عند الله لما ظفر بأجر المجتهد، فضلاً عن الأجرين، فيما أحسب؛ لأنه لم يجتهد أصلاً، ونطق بخلاف معتقده وضميره، وصوابه كان اتفاقًا غير مقصود، ولو قيل بتأثيمه لم يبعد.

فيبقى لنا السماحة فى دائرة المختلف فيه، وحسن الظن بالمخالف، وسعة

الصدر عليه، وتركه واجتهاده، مع إعمال نظام النصيحة بين المؤمنين فى الخطأ الصريح، ونظام الحوار والمناظرة فى المحتمل.

ولو أن طلبة العلم والفقه ورجال الشريعة اعتنوا بهذا وجاهدوا أنفسهم عليه؛ لانكف كثير من الشر بينهم، واستقامت علاقة بعضهم ببعض، ولحفظوا أنفسهم وإخوانهم من زراية الشامتين، وجراءة المجترئين، ولوجدوا وقتًا للنظر فى القضايا الكبيرة والمهمة، ومتابعة الجديد، والمشاركة الفاعلة فى صناعة الحياة، وبناء نهضة الأمة والخوض العميق فى المعضلات بدلاً من إعادة إنتاج المعارك والحماس المفرط لها.

وفق الله الشيخ الدكتور الداعية الفقيه يوسف بن عبد الله القرضاوى لكل خير، وأوفى عمره فى طاعته، وتقبل منه صالح عمله، وتجاوز عنه فى أصحاب الجنة، وعد الصدق الذى كانوا يوعدون.

٢ - الشيخ عائض القرنى:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد: فالشيخ الدكتور العلامة الداعية الفقيه يوسف القرضاوى علم من أعلام المسلمين فى العصر الحاضر، عرفته قبل ثلاثين سنة بواسطة كتبه النافعة المفيدة؛ خاصة كتابه «الإيمان والحياة»، وكتاب «فقه الزكاة» وغيرها من الكتب، وقرأت له عشرات الرسائل، وشاهدت له كثيرًا من البرامج عبر القنوات الفضائية، وزرته ببيته بقطر مرتين، والتقيت به فى بعض المؤتمرات.

والدكتور يوسف القرضاوى عَلَم لا يحتاج إلى تعريف، فهو من أشهر العلماء فى وقتنا الحاضر إن لم يكن أشهرهم، وهو صاحب فقه واسع، وثقافة عالية، وفهم دقيق لمقاصد الشريعة، ومتطلبات العصر، وهو ممن يشار إليه فى مسائل الاجتهاد، وقد أفتى وألف، وحاضر وصنف، ووعظ وعلم، وقد رزقه الله همة عالية، ونشاطًا منقطع النظير، فأثرى الساحة الإسلامية بالكتب والرسائل والمقالات والبرامج، وموقعه فى الإنترنت من أشهر المواقع على الإطلاق، وبرنامجه

فى قناة الجزيرة: «الشريعة والحياة» من أنجح وأنفع البرامج، وله جهود مشكورة وأعمال مأثورة فى الدفاع عن الملة، والجهاد بالقلم واللسان؛ لخدمة قضايا الأمة.

ومحاسن الشيخ حفظه الله كثيرة، وخصال النبل فى شخصيته مجتمعة، وله مواقف قال فيها كلمة الحق صريحة صادقة، وهذا الذى قلته فيه قليل من كثير، وهو إن شاء الله قول أهل العدل والإنصاف، خلافا لما ذهب إليه من غلا فى شخصه، وبرأه من الأخطاء، ورفعه فوق منزلته؛ تعصبًا وتكلفًا.

وهناك قوم آخرون أخطأوا فى الحكم عليه، وبدّعوه وضللوه – صانه الله من ذلك – وإلا فهو من العلماء العاملين الذين ليسوا معصومين:

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفًا من البحر أو رشفًا من الديم

وكلنا راد ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ.

وأُخـــذ [1] على الشيخ الداعية: أنه شديد اللهجة على بعض الأنظمة الحاكمة، وفى المقابل فُهم منه المداراة والموادعة لبعض الأنظمة الأخرى وهذا الذى أقوله يتحدث عنه طلبة العلم، حتى من محبى الشيخ.

والدكتور أديب وشاعر، ولكن عتبى عليه أنه فى برامجه القضائية إذا استرسل أهمل العربية، وأحيانًا يتكلم باللغة الدارجة [2]، وليس فى حاجة لهذا فهو عالم موهوب، وخطيب مصقع، وليت الدكتور يوسف راجع موقفه من حوار الديانات، والاجتماع بالباباوات والحاخامات، فليس بحاجة إلى هذه التنازلات،، فقد أعزه الله بالآيات البينات، والعظات البالغات:

خذ ما رأيت ودع شيئًا سمعت به فى طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

---

(١) صدّر الشيخ عائض كلامه هنا بالفعل المبنى للمجهول، ويفهم منه أنه غير موافق لأصحاب هذا القول، وكلامه السابق عن الشيخ يؤيد هذا الفهم.

(٢) الشيخ لا يستخدم اللهجة الدارجة إلا بقدر الملح فى الطعام، كما أنه لا يستخدمها إلا فى تقريب معنى يريد تقريبه، وأستطيع القول بأن كل الدعاة يفعلون ذلك بما فيهم الشيخ عائض.

وهذه الملاحظات نزرة يسيرة، تنغمر فى بحر محاسن الشيخ (وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث) فكيف وهو كالنيل عطاءً وخيراً :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

من شعر الشيخ عائض فى الشيخ القرضاوى :

وفى اجتماع الجمعية الثانية للاتحاد العالمى لعلماء المسلمين، تحدث الشيخ عائض القرنى عن الاتحاد، وأثنى على رئيسه (الشيخ القرضاوى) فقال :

قالوا : اتحاد فقلنا وحدة الدار والمجد والنصر والتأريخ والثار

دعوت ربى لقرضاوينا فغدا مُسلّم العرض من عيب ومن عار

شهم أريب فقيه سيد فطن فى نصر ملته كالأغطف الضارى

سبعون عاما وآثار الجهاد به ما أجمل الوجه من بشر وأنوار

يا يوسف المجد جدد يوسفا فلكم من يوسف الملك بعد الحبس والغار

٥ - آثاره على تلاميذه .

امتاز الشيخ القرضاوي بكثرة مشايخه ومعلميه ، مما ألزم الشيخ القرضاوي أن يكون قرضاوياً ، ولم يكن ليقبل منه أن يكون أقل مما أصبح عليه ؛ ولكن الشيخ في إنتاجه من ناحية التلاميذ لم يكن بالقدر الكافي ، ولعل هذه إحدى سلبيات الشيخ وواحدة من بعض المآخذ التي تؤخذ عليه .

تلاميذ الشيخ :

وتلاميذ الشيخ نوعان :

الأول : تلامذة كتاب وهذا النوع ما أكثره ، فلا تكاد تخلو بلدة أو قرية إلا و للشيخ فيها تلاميذ ومحبون .

الثاني : من جثو ركبهم بين يديه، وتلقوا العلم مشافهة منه، وهؤلاء قلة،

ولقد وجهت الانتقادات إلى الشيخ في هذا الموضوع وقد كانت إجابة الشيخ في إحدى المقابلات التلفزيونية بأمور أهمها :

١ – الحيلولة بين الشيخ وبين لقاء الجماهير في مصر في فترة الخمسينيات والستينيات.

٢ – انتقال الشيخ من مصر إلى قطر، حيث أن الجو في قطر غير مناسب لانتقاء التلاميذ، خصوصاً وأن أهلها لم يتعودوا على أن يجثوا ركبهم بين يدي العلماء .

٣ – تعدد أسفار الشيخ .

لكن هذا لا يعني أن الشيخ قد فرط في هذا الجانب، لا، فهو وإن كان مقلا فليس معدماً ، ومن هؤلاء: الدكتور: علي القرة داغي، والدكتور: عصام البشير، والدكتور: أحمد الحمادى، والدكتور: خالد السعد، والشيخ: مجد مكى، والعبد الفقير كاتب هذه الكلمات، وغيرهم كثير.

* * *

الفهـــرس

الفصل الأول

القرضاوي : السيرة الشخصية والحياة الدعوية

(٢٣ - ١٠٦)

الفصل الثاني
مواهب وأدوات القرضاوي الدعوية
(١٠٧ - ١٧٢)

الفصل الثالث
الوسائل والأساليب في منهج القرضاوي الدعوي
(١٧٣ - ٢٣٦)

الفصل الرابع
السمات العامة لمنهج القرضاوي الدعوي
(٢٣٧ - ٤٨٣)

الفصل الخامس
آثار منهج القرضاوى فى الدعوة إلى الله عز وجل
(٤٨٥ - ٥٠٨)

صدر للمؤلف

١- الصهيونية وخطرها على البشرية (طبع ٢٠٠١م) طبعة دار الصفوة القاهرة.
٢- مع المصطفى ﷺ في حجه . (طبع ٢٠٠٢م) طبعة أولى مطابع دار الشرق قطر، ط٢ مكتبة وهبة القاهرة ٢٠٠٥م.
٣- تيسير أحكام الزكاة.(طبع ٢٠٠٥م) طبعة مطابع دار الشرق قطر .
٤- خطب القرضاوي / ج٧ (إعداد) طبعة مكتبة وهبة القاهرة ٢٠٠٥م .
٥- المنهج الدعوي عند القرضاوي . طبعة مكتبة وهبة القاهرة ٢٠٠٧م . ونشرته جريدة الوطن القطرية رمضان ١٤٢٦هـ.
٦- التنصير : مفهومه ـ جذوره ـ أهدافه ـ أنواعه ـ وسائله ـ صولاته طبعة مركز التنوير الإسلامي ٢٠٠٧م .
٧- علاقة الإسلام بالنصرانية في القرآن والسنة وعبر التاريخ طبعة مركز التنوير الإسلامي ٢٠٠٧م .

تحت الطبع :

١- مع المصطفى ﷺ في ضحكه. نشرت منه مقالات في جريدة الشرق القطرية في رمضان ١٤٢٤هـ .
٢- ظاهرة الكبت وكيف عالجها الإسلام. نشرت منه مقالات في جريدة الوطن القطرية في رمضان ١٤٢٥هـ .
٣- سيد قطب بين مادحيه وناقديه .
٤- الإعجاز العلمي في آيتي الليل والنهار من خلال آية الإسراء .
٥- مع المصطفى ﷺ في بكائه .
٦- مع الصحابة الكرام .
٧- اعرف حبيبك ﷺ .
٨- مكفرات الذنوب .
٩- الوسطية ودور القرضاوي في إبرازها .